مكتبة
t.me/soramnqraa

أنطوني ماكغاوان

كيف تلقِّن كلبك الفلسفة؟

مدخل إلى الأسئلة الكبرى في الفلسفة

ترجمة: متيم الضايع

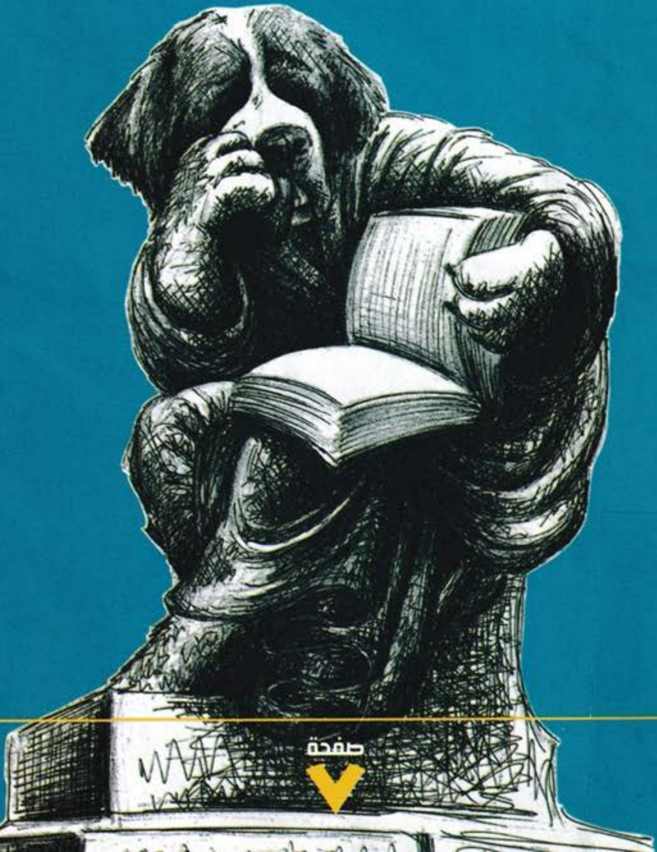

صفحة 7

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

تمت ترجمة هذا الكتاب ضمن

مبادرة ترجم

Tarjim Initiative

كيف تلقّنُ كلبَك الفلسفة

صفحة 7

الكتاب
كيف تلقّنُ كلبَك الفلسفة
المؤلف
أنطوني ماكغاوان

الطبعة الأولى: 2022
الترقيم الدولي:
978-6038387-14-9
رقم الإيداع:
1444/2995

@**Anthony McGowan 2019** together with the following acknowledgment: this translation of **How to teach Philosophy To your dog**: A Quirky introduction to the Big Questions in Philosophy is published by **Page Seven publishing and distribution by arrangement with oneworld publication**.

حقوق الترجمة العربية محفوظة
© صفحة سبعة للنشر والتوزيع

E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان: الجبيل، شارع مشهور،
المملكة العربية السعودية

مكتبة
t.me/soramnqraa
19 6 2024

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة
www.page-7.com

How to Teach Philosophy to Your Dog

Anthony McGowan

مكتبة
t.me/soramnqraa

كيف تلقّنُ كلبَك الفلسفة

أنطوني ماكغاوان

ترجمة: متيم الضّايع

صفحة 7

إلى مونتي الّذي جلب

الكثير من الحبّ لعائلتنا....

المحتويات

ملاحظة المؤلّف.. 11

تمهيد 15

المشوار 1: كلب جيّد، كلب سيّئ.......................... 29

المشوار 2: أفلاطون وأرسطو والحياة الرّائعة 55

المشوار 3: تجرّأْ على أن تعرف: كانط والنّفعيّين 81

المشوار 4: عقول أخرى والإرادة الحرّة 113

المشوار 5: مشوار عقلانيّ قصير للغاية 149

المشوار 6: الميتافيزيقا 101 (الأشياء البيضاء في براز الطّيور) 155

المشوار 7: ملء الصّور ومشكلة الكلّيّات 173

المشوار 8 : ما الّذي أعرفه؟ 201

المشوار 9: التّجريبيّة/ الحسّيّة: الإحساس هو الإيمان 239

المشوار 10 : كانط والمنطق الغامض.......................... 257

المشوار 11 : فلسفة العلم.................................. 283

المشوار الأخير: فقاعة شوبنهاور ومعنى الحياة 315

شكر وتقدير 331

وفي النّهاية، فإنّ البهائم على حدٍّ سواء ليست مهيَّأة للغاية والمنافَقَة؛ ولا تُضمر شيئاً. في هذا الخصوص، يواجه الكلبُ الإنسانَ على نحو ما في العلاقة نفسها بين كأس زجاجيّة وأخرى معدنيّة، وهذا يزيد إلى حدّ كبير من التّودّد البالغ الّذي يُبديه الكلب نحونا، لأنّه يمدُّنا بكثير السّعادة حين نلمس أنّ كلّ تلك الأهواء والعواطف المكتومة لدينا في الغالب معروضةٌ لديه ببساطة وعلى الملأ.

آرثر شوبنهاور، *العالم إرادة وتمثّلاً*، المجلّد 2، الفصل 5

ملاحظة المؤلّف

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان الهدف من «**كيف تلقّن كلبَك الفلسفة**» أن يكون مقدّمةً للاِحتفاء بعالم الفلسفة. وكما هو الحال في تمشية الكلب[1]، هناك دائماً سبُل مختلفة يمكنك اِتّباعها في هذا النّوع من الأعمال، وهي متنوّعة في الاِتّجاه والمسافة وحتّى الغرض. هل هو تدريب أو متعة أو محض حركة سريعة يُراد بها تأدية عملك وإنجازه بأكبر قدر ممكن من الكفاءة؟ ببساطة، تبدأ بعض المداخل إلى الفلسفة في البداية، مع تأمّلات المفكّرين اليونانيّين الأوائل في القرن السّادس قبل الميلاد، ثمّ تشقّ طريقها بالتّدريج عبر العصور، حتّى نصل إلى ما يمثّله «الآن» لذلك المؤلّف. ويتجاوز بعضها الآخر كونه سيرة ذاتيّة، فيجمِّل الأمر بطرائف عن عجائب الفلاسفة وغرائبهم. وفي الفترة الأخيرة، أصبح شائعاً اِتباع مقاربة موضوعيّة بكلّ معنى الكلمة، وتقسيم الموضوع إلى أسئلة أو مواضيع، مع التّركيز على الموادّ الّتي لا تزال «ساخنة».

تعكس هذه المقاربات المتنوّعة واقِعَ أنّ للفلسفة طبيعة هجينة بشكل غير مألوف - فهي أقلّ من الكلب الأفغانيّ غير المهجَّن، وأكثر من الكلب اللّابرادودليّ. في الأدب الإنكليزيّ الذي يتركّب أساساً من تاريخه، لا يُقرأ تشوسر وشكسبير وأوستن وجورج إليوت لأهمّيتهم التّاريخيّة، بل لأنّ مؤلّفاتهم لا تزال أعمالاً فنّيّة نابضة بالحياة. أضف إلى أنّ عظمتها لا تكمن في بعض الأفكار الّتي يمكن تلخيصها واِختصارها، بل في اللّغة: المفردات والعبارات

(1) Walking the dog إخراج الكلب لقضاء حاجته. وسنستخدم (تمشية الكلب) في الآتي من الكتاب. (م)

والفقرات والحركات الموسيقيّة الأكثر اِمتداداً وعمقاً في النّصوص.

وفي المقابل، رغم تمتّع الرّياضيّات والفيزياء بتاريخ ساحر، فإنّهما موضوعان يمكن تدريسهما دون ذكر الخلفيّة التّاريخيّة. فلحساب مساحة الدّائرة، لا تحتاج إلى معرفة أنّ "pi"(2) قد تمّ تقديره حسابيّاً لأوّل مرّة بواسطة الفراعنة والبابليّين، ثمّ أوصله علماء الرّياضيّات الصّينيّون إلى سبع مراتب عشريّة في الألفيّة الأولى بعد الميلاد: تحتاج فقط إلى آلة حاسبة صغيرة. كما أنّ لقوانين نيوتن للحركة معنى وأهمّيّة مستقلّة عن الكلمات الّتي عبّر بواسطتها عنها. والفيزياء الأرسطيّة، مع نفورها من الفراغ، ومفهومها واضحِ الخطأ للحركة، وكوزمولوجيّتها الرّاسخة، القائلة إنّ الأرض في مركز كون ثابت تجمّد إلى سلسلة من الأفلاك الدّائريّة البلّوريّة أحاديّة المركز، لا تنفع أبداً أيَّ عالم حديث، سوى أنّها تبث الشّعور بالرّفعة والأهمّيّة.

تُجسِّر الفلسفةُ الهوّة بين هذين العالَمين. ويمكن بالتّأكيد مناقشة أفكار أفلاطون وأرسطو وفتغنشتاين دون حاجة للاِقتباس منها. وبهذا المعنى يكونون مثل نيوتن. ومع ذلك، فإنّ مشاكل الفلسفة تنحو إلى أنْ تكون عصيّةً على الحلّ. إنّها الأخبار الّتي تبقى أخباراً. لا يزال الفلاسفة المحترفون حتّى يومنا هذا منهمكين في فهم أرسطو وديكارت، ولا يزالون يناقشون مقولات لوك وبنثام، بطريقة لا يحسَب عالِم مّا أنّها تتعارض مع أرخميدس أو كوبرنيكوس. وبذلك فإنّ تاريخ الفلسفة لن يُمحى أبداً، ولن يكون أبداً خارج العلاقة.

إنّها قصّة رائعة في حدّ ذاتها. ولذلك حاولتُ في هذا الكتاب اِلتقاط تلك *الطّبيعة المهجّنة* للفلسفة. والشّكل الّذي تبنّيتُه يحفظ الإجلال لتاريخ الموضوع. وقد رتّبته في سلسلة (مشاوير تمشية الكلب)، الّتي ترتبط بممارسة أرسطو للتّعليم أثناء المشي – وهي العادة الّتي أعطتْ مدرستَه تسمية «المدرسة المشّائيّة»

(2) باي، أو «ثابت الدّائرة» أو «ثابت أرخميدس»: نسبة محيط الدّائرة إلى قطرها، والّذي يساوي 3.14159. (م)

المشتقّة من كلمة التّطواف أو «التّمشّي» اليونانيّة. وخلال هذه الجولات، سنخوض أنا وكلبي مونتي نقاشاً في المنهج الجدليّ لسقراط، والمشكلات المركزيّة في الفلسفة، مع مراعاة تفرّعات الأطر الرّئيسيّة لموضوع البحث.

بعد المقدّمة، تدور المسيرات الثّلاث الأولى والثّانية والثّالثة حول قواعد السّلوك وفلسفة الأخلاق. ولدينا بعد ذلك بعض الجولات الجانبيّة الصّغيرة، إحداها حول مفهوم الإرادة الحرّة، والأخرى عن المنطق. وبعد ذلك، هناك ثلاثة (مشاوير) نناقش فيها الميتافيزيقا، تلك الأسئلة المعقّدة حول طبيعة الحقيقة والوجود. بعد ذلك، نبدأ طريقنا من خلال ثلاثة مشاوير عن الأبستمولوجيا أو نظريّة المعرفة. والحقيقة أنّها أربعة مشاوير، فهناك أيضاً مناقشة لفلسفة العلم. أخيراً، هناك فصل عن مغزى الحياة، والّذي يمحّص أيضاً بإيجاز بعض البراهين على وجود الله.

ومع أنّ هذا الهيكل العامّ مرتبط بفكرة رئيسيّة، إلّا أنّنا في كلّ موضوع نتطرق إلى رأي الفلاسفة الكبار فيه. مع أملي بأنّ ذلك سوف يساعد القارئ على فهم المسألة، ومنحه أيضاً المعنى الحقيقيّ لتاريخ وتطوّر الفكر.

تمهيد[3]

لديَّ كلب صيد مالطيّ بائس اِسمه مونتي. ولا أقول «لديَّ» لأوحيَ بالمِلْكيّة بشكل خاصّ، وإنّما بشكل أكثر قرباً إلى الطّريقة الّتي تقول بها إنَّ لديَّ قشرةً في الرّأس أو لديَّ زكام. يبدو مونتي كأنّه سحابة مهمَلة سقطت على الأرض وتقلّبت في القذارة لفترة من الوقت. لديه عينان سوداوان مبهمتان وأنف أسود وشوارب مبقَّعة بلون النّيكوتين اِكتسبها من دسِّ أنفه في الزّوايا والشّقوق المغْرِية بعطرها، البيولوجيّة منها والجيولوجيّة.

وفي ما يتعلّق بالذّكاء، توصف كلاب الصّيد المالطيّة عموماً بأنّها «معتدلة» الذّكاء: أذهانها أبطأ بكثير من كلاب البودل بالغة الحساسيّة، والكولي لاعبة الشّطرنج، ولكن أيضاً أعلى بدرجة أو اِثنتيْن من البوكسر المرتبك وهو يحدّق محتاراً في كرة التّنس على أمل أن تعود إلى الحياة، أو الكلاب الأفغانيّة «المحشَّشة» خائرة القوى لما تبذله كي لا تبتلع ألسنتها. لا ألاعيبَ لدى مونتي، كما أنّه لا ينهض ويأتي، أو يجلس بشكل موثوق؛ على الرّغم من أنّه سينتظرك على نحو سلبيّ حتّى تدنو منه إذا لم يكن لدى العالم شيءٌ يقدّمه ممّا يثير الِاهتمام. وقد حقّق أعظم اِنتصار له عندما فاز بجائزة «أفضل كلب» في عرض للكلاب في Cricklewood، أو بالأحرى، "Cricklewoof[4]". ونال أرنبٌ الجائزة الثّانية. وكانت الثّالثة من نصيب دبدوب.

---

(3) هنا يتلاعب الكاتب بكلمة "Prologue" التي تعني تمهيد، ويضعها "Prodogue"، لأنّه تمهيد عن "dog – كلب"، وسيفعل ذلك بكلمات أخرى ضمن الكتاب. (م)

(4) أيضاً تلاعب بالأسماء بين Cricklewood و Cricklewoof. (م)

ومع أنّني كنت حادّاً بعض الشّيء تجاه إنجازاته الثّقافيّة، كان لدى مونتي ما يشبه النّظرة الجادّة والغريبة تجاه نفسه، كأنّه يدأبُ بشكل منتظم كي يفهم شيئاً مّا مثل الشّيفرة السّرّيّة، أو يتأمّل بجدّيّة في المعنى الخبيء للكون. أرى فيه نوعاً من "Dogter Watson"[5] – لا، لا تقلقوا، لن يكون هذا واحداً من تلك الكتب الحافلة بالتّلاعب اللّفظيّ الشّنيع، ولن يكون هناك المزيد. إذا كان هو واطسون، فهل يجعلني ذلك «الشّرلوك»؟ للأسف، أخشى أنّني ومونتي نشبه أحد تلك الأدوار المزدوجة الّتي تقوم على رجلين منتصبَين- وكلانا واطسون، ونلهث ونحن نجدُّ في طلب الحقيقة الّتي قد تبْلغها العقول الأكثر خفّةً بسرعة ودقّة أكبر.

لذلك أجد في مونتي المرافِق المعين أثناء تجوالي هنا وهناك، محاوِلاً أن أفهم العالم وأجدَ، حيث اِستطعتُ، تطبيقاً للفلسفة الّتي اِلتقطتها على مدى سنوات الدّراسة الأكاديميّة والقراءة الخاصّة. نتحادث في أمور شتّى. وتتقافز الأفكار في ما بينها. وقد جئت لأتمكّن من تخمين أفكاره، بل لكي أقول هذه الأفكار بوضوح.

تقدّم الفصول التّالية شيئاً من حواراتنا الفلسفيّة الّتي أجريناها خلال مشاويرنا في الشّوارع والحدائق والمقابر في شمال لندن (وأحياناً أبعد من ذلك). وكان هدفها تشكيل مقدّمة سهلة المنال للأسئلة الكبرى في الفلسفة- تعرفون تلك الأسئلة المعتادة الّتي يحيط بها الشّكّ. ما هو الشّيء الصّحيح الّذي ينبغي عمله؟ هل الإرادة الحرّة موجودة؟ ما هي الطّبيعة النّهائيّة للحقيقة؟ كيف ندرك جوهر شيءٍ مّا؟ هل يوجد إله؟ لماذا أحاول دائماً دسَّ رأس «اليو إس بي» في المأخذ المخصّص له بالاِتجاه الخطأ في المرّة الأولى؟

أُعِدَّ هذا الكتاب للنّاس بدلاً من الكلاب، وهو يتعامل مع المشكلات

---

(5) تلاعب آخر على اِسم الدّكتور واطسون في قصص شرلوك هولمز. (م)

البشريّة، بدلاً من مواعيد معالجة الدّيدان وخطط التّخلص من البراز الّتي تستهلك قدراً كبيراً من طاقتنا المخصّصة للكلاب. ولكن مع ذلك هناك نكهة كلبيّة... فقد ترقّبتُ إطلالة أفضل صديق للإنسانيّة في كلاسيكيّات الفلسفة. وتبيَّن لي أنّ هناك عدداً منها يفوق ما كنتُ أتوقّعه. شيء يشبه الشَّعر المستعار. ربّما يتوجّب عليَّ الشّرح.

في مطلع التّسعينيّات، كنت صديقا لفتاة تعاني من وسواس غريب تجاه الرّجال الذين يضعون شَّعرا مستعارا. أنا لا أعني المجعَّد والملتفّ- لم تكن تريدني أن أعتمرَ شَعر القاضي وأتجوّل وأنا ألوِّح بالمطرقة، وأتلو حُكميَ بأنّها مذنبة لِارتدائها ثيابَ البيت دون عناية واِهتمام مناسبيْن. لا، كان الأمر ببساطة أنّها تحبّ أن تكتشفهم، مثل مراقب طيور يضع علامةً عند اِسمِ طائرِ الصّعْو، أو طائرِ الشّفشاف[6]. كانت تلكزني في الحانة أو في عربة القطار، وتهمس، "Syrup"، وسيكون عليَّ البحثَ عمّن يرتدي الشَّعر المستعار. (بالمناسبة، "Syrup"، الّتي تعني شراب، هي لهجة السّجْع العاميّة في شرق لندن، وهنا يحدث اِختلاف في المعنى بين "شراب التّين" و"شعر مستعار"). في تلك الأيّام، كانت تقنيّات اِستبدال الشَّعر لا تزال في بداياتها- لم تكن الأنسجة وزرع وتجديد البُصيلات قد بلغت من التّطور ما بلغتْه الآن؛ وحتّى في ذلك الحين، كان التّمشيط الكلاسيكيّ ثلاثيّ الخيوط قد فقد أهمّيّته، لذلك توفّرَ المزيد من الشَّعر المستعار لكي يرصده المرء.

بعد أن نبّهتني صديقتي، صرْتُ أتفحّص الغرفة أو عربة القطار. وفي الأيّام الأولى لعلاقتنا، وبخلاف اِكتشافنا للباروكات الواضحة والشّنيعة- تلك الّتي تبدو كأنّها قندس نائم، أو تلك المتصلّبة مثل الألياف الزّجاجيّة أو القشدة المخفوقة أو البلاستيك الذّائب- عادةً ما أفشل كلّيّاً في تحديد الهدف. لكنّني تعلّمتُ بالتّدريج اِلتقاط القرائن: السّواد غير الطّبيعيّ المتباين مع الحاجبين

---

(6) صعو أصفر العرف goldcrest. شفشاف chiffchaff (م)

الضّاربَين إلى الشّيب؛ والكثافة الجرابيّة الّتي أبلتْها القسمات المتجعّدة؛ والتّقزّح اللّونيّ اللّامع الّذي يعكس أضواء النّيون في الشّوارع.

قبل علاقتنا، لم أنتبه إلى الشَّعر المستعار، لم أره من قبل. لقد كان تفصيلاً دقيقاً لا يحتوي عليه عالمي. كتب لودفيغ فيتغنشتاين- الفيلسوف الّذي سيرد ذكره مرّة أخرى في هذه الصّفحات- بإسهاب في بحوث فلسفيّة عن العمليّة الّتي نتعلّم من خلالها معنى الكلمة. بدلاً من وجود علاقة خطّيّة بسيطة بين الشّيء واِسمه، نكتسب معنى الكلمة من خلال رؤية كيفيّة اِستخدامها، ومن خلال تعلّم القواعد الّتي تحكم نطقها، وشكل الحياة- الأرومة الغنيّة للعمليّات والتّقاليد الثّقافيّة- الّتي ترسّختْ فيها. المعرفة سلوك، شيء نقوم به، وليس شيئاً نمتلكه. ولذلك كان عليَّ أن أتعلّم تمييز الشَّعر المستعار، اِقتفاء خطى معلِّمتي، وسرعان ما أصبح جانبٌ جديدٌ تماماً من العالم واضحاً بالنّسبة إليّ. بدأت أراه في كلّ مكان، وقد اِبتهجنا معاً بهذا العنصر المشترك، كخنزيري بحر يخترقان رذاذ الموج. وحتّى بعد رحيلها، ومع أنّ فرحة الاِكتشاف المشترك قد اِنقضت، إلّا أنّني ما زلت أجدني وقد ميّزتُ شَعراً مستعاراً وسط حشد، تلك الكتلة الغنيّة الكثيفة كالشّوكولا تعلو وجهاً كئيباً، فكنت أتمتم بـ"syrup" في نفسي، وبِتَوْق...

وكما كان الأمر مع الشَّعر المستعار، فإنّي لم أر أبداً الكلاب تتراكض على صفحات الفلسفة الغربيّة إلى أن بدأتُ البحث عنها بشكل حثيث. وفجأة ها هي في كلّ مكان، أحياناً تتسلّل إلى الهوامش النّصّيّة، كأنّها تعي وقوعها في المتاعب بسبب مشكلة مَعِديّة أو اِرتكاب سرقة خزانة حفظ الأطعمة، وأحياناً تختبئ على مرأى من الجميع.

وبسبب العلاقة الحميميّة المديدة بين البشريّة بالكلاب، ليس من المستغرب أن تسلّح أنفسها بالعديد من جوانب ثقافتنا الفكريّة وأساطيرنا وقصصنا، بالإضافة إلى اِستقصاءاتنا الفلسفيّة. وقد وجد علماء الآثار أنّه من الصّعب تحديد الفترة

الدّقيقة الّتي دُجِّنتْ فيها الكلاب لأوّل مرّة، على الرّغم من أنّ أفضل التّخمينات تميل إلى الإجماع على أنّ ذلك يعود إلى ما يقارب ثلاثين إلى أربعين ألف سنة. كما يمكن أن تكون الذّئاب قد بدأت بالتّجوّل حول مخيّمات أسلافنا، وأنّه على مدى عشرات الآلاف من السّنين بدأ شيء مّا يشبه الكلبَ الحديثَ بالِانسلاخ عن الذّئب، وهي عمليّة منسوبة إلى تركيبة من الِاصطفاء الطّبيعيّ والتّكاثر الِانتقائيّ.

منذ خمسة عشر ألف سنة، قبل أن نكتشف الزّراعة بفترة طويلة، كان البشر والكلاب جنباً إلى جنب في الحياة والموت. وأوّل دليل قاطع على عيش البشر والكلاب معاً يأتي من ثلاثة هياكل عظميّة من العصر الحجريّ القديم عُثِرَ عليها وسطَ مقلع في ألمانيا: رجل واِمرأة وكلب صغير دُفنوا جميعاً معاً. كان الكلب يعاني من حمى الكلاب، ولم يكن بإمكانه البقاء على قيد الحياة إلّا إذا تمّ الِاعتناء به من قبل النّاس. إنّه ضعيف جدّاً وواهن القوى إذ لا فائدة تُرجى منه في الصّيد، ولا بدّ أنّ وظيفة أخرى قد أوكلتْ إليه في حياة المجموعة الّتي عاش ومات بينها. لقد كان حيواناً مدلّلاً...

ومع سيرنا قُدُماً في الزّمن، نلمس أنّ الكلاب على العموم نالت الوقار والِاحترام في معظم الثّقافات البشريّة. ففي أمريكا ما قبل الكولومبيّة، رأى شعب المايا والأزتيك أنّ الكلاب خيرُ مرشدٍ ووصيٍّ أنيسِ المعشر، فهي تقود الموتى وتوصلهم إلى عالم الأرواح. ربّما اِشتهر المصريّون بولعهم بالقطط، غير أنّ الكلاب غالباً ما كانت تُحنَّط وتُدفن مع أصحابها. وكان من أوائل الحيوانات الّتي وصلَ اِسمها إلينا كلب صيد رشيق اِسمه أبوتيوو (لا، لا أعرف كيفيّة نطقه أيضاً)، والّذي عاش في وقت مّا في زمن السّلالة السّادسة (2345- 2181 قبل الميلاد).

وفي فترة أقرب قليلاً زماناً ومكاناً إلى جذور التّقاليد الفلسفيّة الغربيّة، كان الزّرادشتيّون الفرس مفتونين للغاية بالفطنة والِاستقامة الخلقيّة للكلاب. وفي

محاكاة غريبة للمايا، تكفّلتْ الكلاب الفارسيّة بحراسة الجسر الّذي كان الموتى يسيرون فوقه إلى الجنّة. لكنّها كانت أيضاً محارِبةً لا يشقّ لها غبار في حرب النّور طويلةِ الأمد في مواجهة الظّلمة، فقاتلت لصالح الحكيم أهورا مزدا ضدّ الحشرات والرّخويّات والجرذان والسّحالي والضّفادع، وأخشى القول ضدّ القطط الّتي عملتْ لصالح إله الشّرّ أنغرو مينوش. وقد فُسِّرتْ تلك الطّريقة الغريبة الّتي تتمتّع بها الكلاب في الوقوف ساكنةً والتّحديق بصمت في منتصف المدى بحقيقة أنّ بإمكانها رؤية الأرواح الشّريرة غير المرئيّة لنا. لذلك فإنّ إساءة معاملة مثل هذا الحليف القويّ في الحرب المظفّرة لا بدّ أن تؤدّيَ إلى عقوبات رهيبة، في هذه الحياة وفي الحياة الّتي تليها. ولا يمكن التّكفير عن قتل كلب إلّا من خلال قائمة ملزِمة من صنوف التّوبة، بما في ذلك قتل عشرة آلاف من القطط. وهكذا، بالتّأكيد، كان الزّرادشتيون دون أدنى شكّ شعباً محبّاً للكلاب...

ونحن نقترب من أصول الفلسفة، يقدِّم لنا عصر الأبطال اليونانيّ أرغوسَ، الكلبَ المخلص لِأوديسيوس، الّذي اِنتظر عشرين عاماً حتّى يعود سيّده من أسفاره. كان في ما مضى متألّقاً في ملاحقة الطّرائد، لكنّه يستلقي الآن على كومة روث، يتضوّر جوعاً وهزيمة، كان الوحيد من بين كلِّ أولئك الّذين تُركوا في إيثاكا الّذي تعرَّفَ على أوديسيوس. وقد كوفئ على وفائه بدمْع من البطل، وسعيداً في آخر المطاف، يسْلِم الرّوح. وفي المقابل، كان العار الأقصى بعد الوفاة بالنّسبة إلى أيّ بطل هوميريّ أن يُجرَّد من درعه في ساحة المعركة ويُترك عارياً كي تأكله الكلاب.

إلى هذا الحدّ، لدينا تاريخ وأساطير وخرافات، لكن كان على كلبنا الفلسفيّ المكتمل أن ينتظر حتّى مجيء *الجمهوريّة*؛ ففي *الجمهوريّة* يحاول أفلاطون، من بين أشياء أخرى كثيرة، تعريف العدالة وتحديد معايير المجتمع المثاليّ. إنّ المكوِّن الرّئيسيّ للحكومة المثاليّة هو طبقة السّادة، الجنود- الفلاسفة الّذين يقودون

الدّولة ويصونونها. ما هي المواصفات الّتي سنبحث عنها في هؤلاء الأوصياء؟ يجب أن يكونوا ودودين وخيِّرين تجاه مواطني المدينة، لكنّهم قساة وشرسون تجاه أعدائهم. وهذه المواصفات الّتي تؤلّف الحكمة الحقيقيّة، أين يمكن العثور عليها؟ لماذا، في الكلب المنزليّ، الّذي يميّز غريزياً الخير من الشّر، الصّديق من العدوّ، والّذي يلعق أيدي رفقاء سيده في الشّرب، حتّى عندما لا يعرف شيئاً آخر عنهم، ويهاجم الدّخيل غير المرغوب فيه بضراوة؟

وبالتّأكيد فإنّ غريزة الكلب ساحرة للغاية؛ كلبك فيلسوف حقيقيّ.

لماذا؟

السّبب أنّه يميّز بمعيار المعرفة واللّامعرفة، فقط، وجهَ الصّديق ووجه العدوّ. ألا يجب أن يكون حيواناً محبّاً للتّعلّم ذلك الّذي يحدّد ما يحبّ وما يكره بِامتحان المعرفة والجهل؟

دون أدنى ريب.

وأيضاً، أليس حبُّ التّعلّم هو حبُّ الحكمة الّتي هي الفلسفة؟

ليست طريقة سيّئة لأن يكون كلبنا الفلسفيّ محاطاً بالبهرجة bow-wow(7). لم تكن نظرة أفلاطون للكلاب تحمل التّمجيد الكامل، وكان قادراً على إلقاء الإهانة «يا كلب!» على من اِختلف معهم. يقودنا هذا بالضّبط إلى أشهر الكلاب

(7) تعني هنا: دخول أحدهم بشكل يلفت الأنظار. لكنّ المؤلّف يلمّح إلى نظريّة محاكاة الأصوات الطّبيعيّة (Bow-wow theory)، الّتي تلمّح بدورها إلى نظريّات أسّسها العديد من العلماء مثل جان جاك روسّو ويوهان غوتفريد هيردر عن أصل اللّغة البشريّة. وتشير النّظريّة إلى أنّ أوّل اللّغات البشريّة تطوّرت عن طريق المحاكاة الصّوتيّة وتقليد الأصوات الطّبيعيّة. وقد فقدت هذه النّظريّة مصداقيّتها إلى حدّ كبير بإعتبارها أصلاً للّغة، على الرّغم من أنّ بعض النّظريّات المعاصرة تشير إلى أنّ قدرات التّقليد العامّة قد تلعب دوراً هامّاً في تطوّر اللّغة. (م)

في الفلسفة. وفي هذه الأيّام، أصبحت كلمة «cynic – المتهكّم أو الكلبيّ»[8] – كلمة مشتقّة من المصطلح اليونانيّ «شبيه الكلب» – تعني (حسب قاموس أوكسفورد الإنكليزيّ): «مَنْ يُبدي ميلاً لعدم الإيمان بصدق وصلاح الدّوافع والأفعال البشريّة، ومعتاد على التّعبير عن عدم إيمانه بالهزء والسّخرية؛ صيّاد الخطايا الهازئ».

إنّها ليست صورة جذّابة: الكاره المبغِض، يزدري النّوايا الحسنة، يزيح إلى الأبد قناع الفضيلة ليكشف عن المنافق وراءه. يمكننا بالتّأكيد أن نجد مقوّمات من هذا المعنى الحديث لدى «الكلبيّين» الأصليّين، وهي مجموعة متسكّعة من المفكّرين الّذين ظهروا بالضّبط بينما كان أفلاطون يباشر مشروعه الفلسفيّ بالغَ الِاختلاف. عاش الكلبيّون ببساطة، يزدرون كلّ مظاهر الثّروة والنّجاح الدّنيويّ، يرتدون الأسمال، وينامون في العراء، يُدينون الجشع والنّزعة المادّيّة للموسرين. لم يُقدَّسْ لديهم ميثاق؛ ولم ينجُ تقليد أخلاقيّ أو دينيّ من سخريتهم. لكنّ الكلبيّة كانت قبل كلّ شيء، أساساً عقيدة مكرّسة لتحقيق حياة فاضلة، وكانت مقولات الكلبيّين خطوة أولى ضروريّة، ولو أنّها هدّامة، نحو التّنوير.

أين ظهرت الكلاب في المشهد؟ هناك قصّتان مختلفتان تشرحان أصول الِاسم. ربّما كان الأمر ببساطة هو أنّ الكلبيّ الأوّل، أنتيثنيس، كان معلّماً في صالة ألعاب رياضيّة تسمّى «مركز الكلب الأبيض». ومع ذلك أميل إلى حكاية أفلاطون عندما أزعجه الِاستفزاز والِاحتيال الدّائمان تجاهه من أعظم الكلبيّين، تلميذ أنتيثنيس، ديوجينوس الكلبيّ، حين ردَّ قائلاً، «أنت كلب!» فسُرَّ ديوجينوس لوضعه في هذه المرتبة. وعندما رماه عضو آخر من الصّفوة ببعض العظام وكرّر الإهانة، رفع ديوجينوس ساقه[9] وتبوّل عليه. وفي الحقيقة، يبدو أنّ ديوجينوس كان رقيعاً بعض الشّيء، وسمعته سيّئة لأنّه كان يأكل مُصدراً صوتاً عالياً أثناء

---

(8) تعني الهازئ أو المتهكّم.. لكنّنا سنستخدمها هنا بمعنى (الكلبيّ)، وكلمة Cynicism تعني "مذهب الكلبيّين". (م)

(9) كما يرفع الكلب ساقه عند التبوّل. (م)

الدّروس، ويُخْرج ريحاً بتفاخُرٍ خلال الحديث، وغالباً ما كان ينظّف أسنانه بطريقة مقزّزة أو يستثير الآخرين للقتال. أسوأ كابوس للجميع حيث يُطلَب الهدوء... وربّما يكون سعيداً للغاية بنفسه. وكانت المرّة الوحيدة الّتي نال فيها أفلاطون منه عندما مسح ديوجينوس قدميه القذرتين على بساط أفلاطون المفضّل. قال: «**أنا أدوس على كبرياء أفلاطون**». وكان رد أفلاطون، «**كم من الكبرياء تُبْديه يا ديوجينوس في الظّهور بمظهر عدم الكبرياء**».

يبدو أنّ السّبب الرّئيس الّذي يجعل الوَسْم «شبيه الكلب» لصيقاً هو أنّ الكلبيّين، كما الكلاب، كانوا مشهورين بِافتقارهم للخجل في التّعبير عن وظائفهم الجسديّة. كان ديوجينوس يتبوّل ويتغوّط في الشّوارع. أمّا تلميذه أقراطس الطّيبيّ، فقد بالَغ بهذه الممارسات وصعّدها، حيث كان يجامع زوجته هيبارشيا أمام النّاس. وأظنّ أنّ السّبب الّذي يجعل هذه الممارسة لا تزال معروفةً هو أنّها مصدر مضايقة وإزعاج.

عاش **أقراطس وهيبارشيا** حتّى بلغا شيخوخة وقورة، وخيَّما في مداخل وأروقة أثينا، لكنّ معلّمَهما ديوجينوس اِمتدّ به العمر حتّى التّسعينات بحسب بعض الرّوايات. وفي النّهاية تؤوب الكلاب. هناك روايات مختلفة لوفاته- تفيد إحداها إنّه حبس أنفاسه لأيّام عديدة (وعادة ما يفي ذلك بالغرض). الموت الأكثر اِبتذالاً دفعه لأكل قدم ثور نيئة، فهلك بسبب التّسمم الغذائيّ. ولكن هناك نسخة أخرى تناسب الكلبيَّ أكثر من سواها. كان ديوجينوس يقطِّع أخطبوطاً لكلابه عندما عضّه أحدها، فتفاقمت العضّة وقضى نحبه. هناك تباينٌ في الرّأي يُلْمح إلى أنّ الكلبَ قد سبّب له داءَ الكلَب.

وفي الحقيقة لم يكن ديوجينوس أوّل فيلسوف يعاني من الموت بسبب كلب؛ فهناك مَن سبقه في ذلك، إنّه هيرقليطس الّذي وصل إلى نهاية غير سارّة بوجه خاصّ. كان هرقليطس أرستقراطيّاً يشمئزّ من النّاس العاديّين، ويؤمن بأنّ الحقائق الّتي قالها لا يمكن فهمها إلّا من قِبل فئة قليلة مختارة. وقال إنّ صفوة

النّاس مستعدّون للتّخلّي عن كلّ شيء من أجل المجد الخالد، بينما تلتهم الحشود نفسها بلا وعي، مثل الماشية. وهكذا يبدو مصيره، إذا لم يكن مستحقّاً تماماً، فهو مناسب بطريقة مّا. في معاناته من الإِستسقاء، عالج نفسه بتلطيخ جسده برَوث البقر، والّذي كان يعتقد أنّه سيسحب الرّطوبة الزّائدة. ثمّ وهو في هذه الحالة، اِكتشفتْه زمرة من الكلاب الّتي لم تستطع التّعرف عليه فاِلتهمتْه.

كانت الألفا عام اللّاحقتان من الفلسفة أقلّ فاعليّةً نسبيّاً، في وقت كانت فيه الفلسفة- ويا للمفارقة- دوغمائيّة إلى حدّ ما تحت سيطرة تلميذ أفلاطون العظيم أرسطو. ولكن عندما تستيقظ الفلسفة من هجوعها بعد عصر النّهضة، تعود الكلاب.

يحضر الكلب منعزلاً في واحد من أعظم- وأصعب- أعمال الميتافيزيقا الغربيّة، كتاب إيمانويل كانط بعنوان «*نقد العقل المحض*». سنقابل كانط عدّة مرّات في الجولات التّالية، لكن يكفي في الوقت الحالي أن نعرف أنّه حاول في كتابه نقد أحد الاِنقسامات الرّاسخة في تاريخ الفلسفة وعلاجها: إمّا أنّ تلك المعرفة يجب أن تأتيَ من الفكر المحض، أو أنّنا لا نعرف إلّا ما يصل إلى العقل عبْر الحواسّ. وفي شرح ما يقصده، يستخدم مثال الكلب.

يشير مفهوم الكلب إلى قاعدة يمكن بموجبها لخيالي أن يتتبّع أو يخطّط أو يرسم فكرةً أو شكلاً أو تكويناً عامّاً لحيوان ذي أربعة أقدام دون التّقيّد بأيّ شكل إفراديّ معيَّن توفره التّجربة.

يقول كانط إنّه دون مفهوم *الكلب*، فإنّ المُدرِكات الحسّيّة المختلفة كالأذنين، والفراء، واللّسان المتدلّي، والسّاق المرفوعة بقصد التّبوّل- ستضيع في ضجيج الخلفيّة. إنّ فكرة *الكلب* قويّة بما يكفي لفرض الوحدة على تلك الأجزاء المختلفة من العالم الماثلة أمامنا، ثمّ تشكيلها في صديقنا ورفيقنا المألوف. لكنّ المصطلح

يظلّ غامضاً بدرجة كافية بالنّسبة إلينا لأن نُدرجَ فيه كلب الشّيواوا الصّغير المزعج، والدّنماركيّ العظيم المتعجرف.

أشرنا سابقاً إلى فيتغنشتاين، والطّريقة الّتي يعيِّن بها معنى كلمةٍ مّا في شبكة من الممارسات اللّغويّة والاِجتماعيّة. يتضمّن التّواصل المشاركة في سلسلة متشابكة من «الألعاب اللّغويّة»، ومعرفتنا بهذه الألعاب اللّغويّة المختلفة هي ما يجعل التّواصل ممكناً. وفي بحثه عن حدود ما يعنيه ذلك، يعود فيتغنشتاين المرّة تلو الأخرى إلى كلب مرتبك آخر يبدو أنّه يحاول جاهداً أن يكون إنساناً. لكن بسبب اِفتقاده للقدرات اللّازمة لفهم الألعاب اللّغويّة المناسبة، لا يستطيع كلبنا الشّعور بالأمل في المستقبل، ولا الخوف مما قد يجلبه. والكلب لا يستطيع أن يكذب.

الكذب لغةٌ- لعبة ينبغي تعلُّمها مثل أيّ لعبة أخرى... لماذا لا يستطيع الكلب التّظاهر بالألم؟ هل هو صادق جدّاً؟ هل يمكن للمرء أن يُعلّم كلباً التّظاهرَ بالألم؟ ربّما يمكن تعليمه العواء في مناسبات خاصّة كأنّه يتألّم، ولو لم يكن كذلك. إلّا أنّ البيئة الضّروريّة لأن يكون هذا السّلوك تظاهراً حقيقيّاً، مفقودةٌ.

أعتقد أنّ فيتغنشتاين محقّ تماماً في قوله إنّه سيكون من المستحيل على الكلب التّظاهر بالألم. لكن من المؤكّد أنّه لن يدّعيَ حتّى الفيلسوفُ أنّ الكلب لا يشعر بالألم؟ آخر مثال لي عن كلب فلسفيّ هو مثالٌ مزعج، لكنّه توجيهيّ أيضاً.

سنعود إلى القرن السّابع عشر، وإلى أعمال **رينيه ديكارت**. أصبح ديكارت سيّء السّمعة بين محبّي الحيوانات بسبب رأيه القائل إنّ جميع الحيوانات غير البشريّة كانت مجرّد «كائنات آليّة طبيعيّة»: أجهزة ميكانيكيّة بلا روح وعاجزة عن التّفكير أو الشّعور بالعاطفة أو، في الحقيقة، بالألم.

غالباً ما تتردّد حكايتان عن **ديكارت** تشيران إلى عواقب نظريّةٍ مثل هذه. في

أحد الأيّام بينما كان الفيلسوف يمشي مع أصدقائه، رأى كلبة حبلى. أوّلاً، دغدغ أذنيها وبالغ في إرباك الحيوان. ثمّ، أمام أنظار رفاقه المذعورين، ركلها في بطنها. ثمّ خفّف من حزن المراقبين المروّعين موضّحاً أنّ هذا لم يكن إلّا لإزعاجكم، وطمأنهم أنّ الحيوانات لا يمكن أن تشعر بالألم، وأنّ عليهم أن يحفظوا شفقتهم للإنسانيّة المتألّمة.

الحكاية الأخرى الأكثر رعباً تتعلّق بكلب زوجته الصّغير. مدفوعاً بالحماس بدأ فيلسوفنا قراءته عن اِكتشاف ويليام هارفي للدّورة الدّمويّة، وعاقداً العزم على معاينة الأمر بنفسه، ينتظر حتّى تخرج زوجته وإبنته في جولة مّا. يمسك كلب البابيلون الصّغير بأذنيه الكبيرتين الشّبيهتين بجناحي الفراشة. يحمل الكلب إلى قبْوِه، وهناك يقوم بعمليّة تشريح شنيعة.

كيف سيكون ردّ فعل السّيّدة ديكارت والفتاة الصّغيرة عندما يعثران على الجثّة؟ التّاريخ لا يدوِّن.

لم يدوِّن التّاريخ لأنّه لا وجود للسّيدة ديكارت. ولم تكن هناك اِبنة. إذ بقي الفيلسوف دون زواج. والقصّة عبارة عن أسطورة ترفعها درجات الحرارة الّتي يولّدها جحيم شبكة الإنترنت الغبيّ. في الحقيقة، حدث شيء يشبه الرّعب الّذي وردَ وصفُه هنا بعد حوالي مائتي عام. كان الجاني هو عالم التّشريح الشّهير في القرن التّاسع عشر كلود برنارد (1813-1878)، وهو مشرِّحُ عديم الرّحمة للكلاب (والأرانب) الحيّة الواعية غير المخدرة. لم يبالِ كثيراً بزوجته، وقام بالفعل بتشريح كلبها الصّغير. وقد تركته بحالة غضب يمكن تفهّمها لتؤسّس جمعيّةً تديرُ فيها حملة ضدّ القسوة على الحيوانات. يبدو أنّ القصّة أصبحت مرتبطة بديكارت بسبب آرائه حول الحيوانات ككائناتٍ آليّة طبيعيّة.

وما الواقعة الّتي تتعلّق بالكلبة الحبلى؟ إذا كان ذلك قد حدث، فإنّ المذنب كان فيلسوفاً فرنسيّاً عاش بعد ذلك، وهو نيكولا مالبرانش (1638-1715).

ومرّة أخرى، فإنّ سمعة ديكارت كانت مهيّأة لأن تنجذب مثل هذه القصص إليه.

لكن يكفي الآن ما ذكرناه عن الكلاب في الفلسفة، واسمحوا لنا أن ندخل بعض الفلسفة في كلبنا!

المشوار (1)

كلب جيّد، كلب سيّئ

في هذا المشوار الأوّل، بدأتُ **أنا ومونتي** في مناقشة علم الأخلاق، أو ذلك الفرع من الفلسفة الّذي يخصّ أسئلةَ الصّواب والخطأ من النّاحية الأخلاقيّة. **لماذا يُعتبَر حلُّ المسائل الأخلاقيّة عسيراً؟ هل يتلخّص الأمر في أنّ الأخلاق محضُ هوىً أو قوّة؟** في هذا القسم نلقي نظرة على بعض النّظريّات الأخلاقيّة غير المُقْنعة الّتي تساعد، على الرّغم من ذلك، في اِستنباط ما ينبغي على النّظريّة الأخلاقيّة الصائبة أن تُنْجزه.

ربّما لا تكون الفلسفة ممتعة دائماً؛ ولكن يجب على الأقلّ أن تجدَّ لأنْ تكون مفيدة. وهذا سيساعدك على الاِختيار بين النّقاشات الجيّدة والسّيّئة حيثما واجهتها، سواء أكان على وسائل التّواصل الاِجتماعيّ أم في الحانة. كما سيساعد على توضيح رأيك في ما يخصّ القضايا الكبرى الرّاهنة. قد يخوّل لك ذلك أن تصبح شخصاً أفضل، شخصاً يفكّر في اِتّجاه الممارسة الصّائبة، والمرامي الأنسب للحياة. ويقودك إلى قضاء ساعات هادئة تمضيها وأنت تتمعّن في الأسئلة الكبيرة: لماذا نحن هنا؟ ما هي الطّبيعة النّهائيّة للحقيقة؟ كيف أعرف أن الضّوء ينطفئ حقّاً عندما أغلق باب الثّلاجة؟

ومع ذلك، فإنّ أحد الأسباب المجدية العديدة لدراسة الفلسفة لا يتمثّل في أنّها ستمكّنك من الاِنتصار في أيّ حوار ودّيّ. في الواقع، سأذهب إلى حدّ القول

بأنّه لا يجب عليك اِستخدام خفّة اليد الفلسفيّة أبداً عندما يكون شريكك مغتاظاً منك. لا تستخدم أبداً *شوكة هيوم*[10]، أو *نصل أوكام*[11]، إلّا إذا كنت تريد أن تواجه مقلاة هذا الشّريك. لا، غالباً ما تكون النّقاشات الودّيّة الّتي يربح فيها المرء بمساعدة الفلسفة مُكْلفةً من حيث أنّ تكلفة النّصر تفوق بكثير أيّ جدوى تُرتجى من حشو غسّالة صحون بطريقة منطقيّة وفعّالة مثلاً، أو عدم الِاضطرار إلى حضور فيلم *السّهر في سياتل* حتّى نهايته للمرّة الخامسة عشرة.

هناك أيضاً العديد من الأسباب الوجيهة لِامتلاك كلب، وأحد هذه الأسباب هو أنّه يوفّر لك العذرَ حين تحتاج إلى الهروب من شقتك بعد هذا النّصر المكْلِف. ففي النّهاية تحتاج الكلاب إلى أن تُخرجها لقضاء حاجتها، بما فيها الكلاب المالطيّة ذات النّزوع الفلسفيّ بقوائمها الصّغيرة الّتي لا تهوى الخروج إلى الخلاء.

"في أيّ مزاج أنت يا مونتي؟" سألته بينما كان المصعد القديم يقعقع في هبوطه من شقّتنا. "المقبرة أم البراح[12]؟"

هزّ مونتي كتفيه، كما لو أن مسارنا لا يشكّل فرقاً لديه. يمكنه إنجاز الكثير من العمل بهزِّ كتفيه. يمكن أن تعبِّر هزّة كتفي مونتي عن العديد من الأمزجة والأحكام والأفكار وحتّى النّقاشات المختلفة. ويمكن أن تشي هزّة كتفي مونتي الموافقة أو عدم الموافقة؛ يمكن أن ينقل تسلية ظريفة أو اِستنكاراً غاضباً؛ يمكن أن تجد خطأً في منطقك أو تتّفق مع اِستدلالك. هذه المرّة قال، *تبوّل على قبر، أو تبوّل على شجرة؟ أنا محايد. أنت مَن يقرّر.*

«المقبرة أقرب، لكن براحَ هامستيد أقلّ...»

---

(10) ديفيد هيوم. فيلسوف إنكليزيّ (1711- 1776). و(شوكة هيوم) روايةٌ من تأليف رون كوبر. صدرت في 2007 (م)

(11) أوكام: فيلسوف إنكليزيّ اِشتهر بمبدأ لحلّ المشكلات ينصّ على (التّقتير) في الحلول المتاحة أمام الإنسان واختيار الأبسط بينها. (م)

(12) Heath. البراح: هو موطن أراضي الأشجار الّتي تنمو في الأرض البور الحمضيّة. ويتميّز البراح بنباتات قصيرة ومرتفعة، وبمناخ بارد ورطب، خاصّة في الجزر البريطانيّة. (م)

مَرَضِيَّة؟

أومأت. «البراح كذلك».

يقع البراح على بعد عشرين دقيقة سيراً على الأقدام، عبر الشّوارع حيث تقيم الأقلّيّة الحاكمة ومديرو المحافظات الِإستثماريّة. على عكس معظم المساحات المفتوحة في لندن، يوحي البراح بأنّه غير مخطّط وغير معتنى به وغير... قابل للتّوقّع. لحظة واحدة تكون في الضّواحي، وبعدها، في البرّيّة. حسناً، ليست برّيّة بالضّبط، ولكن يمكنك قضاء دقائق كاملة دون رؤية أو سماع إنسان آخر. وربّما لم يكن هذا الِانتقال مثيراً تماماً كما صوّرتُه. يتداخل البراح والشّوارع أحدها في الآخر ضمن مساحة ليست مدينة وليست ريفاً. هذا يعيد إلى الأذهان مفارقة أو لغزاً كانا يمرّنان عقل أحد أوائل الفلاسفة الرّواقيّين، خريسيبوس (حوالي 279 – 206 ق.م).

شكّل **الرّواقيّون** إحدى المدارس الفلسفيّة الّتي اِزدهرت في أثينا خلال القرن الثّالث قبل الميلاد. مضوا للاِستحواذ على روما، لدرجة أنّ أحد أعظم الفلاسفة الرّواقيّين كان الإمبراطور ماركوس أوريليوس. وسنتحدّث أكثر عن الرّواقيّين في ما بعد، لكن الآن، كان جزءاً رئيساً من رؤيتهم هو أنّ كلّ فيلسوف يجب أن يطمح إلى أن يكون الحكيمَ المعصومَ، والشّخصيّة الّتي تعي بشكل كلّيّ مدى ترابط العالم المادّيّ، وترى الضّرورةَ في الأشياء كلّها، ويمكنها الإجابة على أيّ سؤال قابل للتّصوّر.

مثلاً، كم حبّة رمل تشكّل كومة؟ (يُعرف هذا بمفارقة **الِإستدلال التّراكميّ**– الِإستدلال التّراكميّ هو الكلمة اليونانيّة الّتي تعني "كومة".)

بكلّ جلاء، نحن جميعاً نعرف كومة الرّمل عندما نراها، ونعلم أيضاً أنّ ثلاث حبّات لا تعادل الكومة. لذلك يجب أن تكون هناك نقطة عندها تكون إضافة حبّة زائدة تحوُّلاً لـ اللّاكومة إلى كومة. ولكن كيف يمكن لحبّة واحدة أن تحدث

فرقاً كبيراً؟ المشكلة ذاتها تنطبق على الرّجال الصّلعان. يخفّ رأس الشَّعر الكامل تدريجياً، حتّى يصبح الرّجل أصلع بشكل لا يقبل الإنكار. لكن متى أصبح أصلع؟ مرّة أخرى، يجب أن تكون شعرة واحدة علامة على الاِنتقال، ولكن كيف يمكن التّمييز بين الأصلع وغير الأصلع من خلال الشَّعر... بالغ النّعومة؟

وفي المدرسة، شكّلت نسخة من مفارقة الاِستدلال التّراكميّ مقدّمة لي لعالم الحدس. سيأتي إليك طفل فظّ كبير في الملعب، يمسك بك ويطالب بإجابة على السّؤال: «هل ستقبّل هيلدا مقابل جنيه؟»

كانت هيلدا المسؤولةَ السّابقة عن تقديم العشاء، سريعة الغضب، ذات الأسنان الناتئة، الّتي كانت تغرف الهريس المجفّف المُعاد خلطه وملاط اللّحم البنّيّ في صينيّة مدرستك.

«لا!» هلّا أجبتَ.

«إذن، ما الّذي تقبّل هيلدا من أجله إذن؟»

«لا شيء!»

«هاه، كنت ستقبّل هيلدا مقابل لا شيء!» ثمّ سرعان ما ستغنّي باحة المدرسة بأكملها بحقيقة أنّني لن أقبّل هيلدا مقابل لا شيء فقط، بل أنّني أحببتها ونويتُ أن أتزوّجها.

حسناً، ليست هذه هي المفارقة تماماً. ستأتي المفارقة لاحقاً عندما تقلِّب السّؤال في ذهنك. هل أقبِّل هيلدا، فلنقلْ، مقابل عشرة ملايين جنيه إسترليني؟ ربّما سأفعل، نعم. لذلك، في ما يتعلّق برقمٍ مّا يتراوح بين جنيه واحد وعشرة ملايين، أوافق على تقبيل هيلدا. وهذا يعني البداية، إذ أنّ جنيهاً واحداً قد يُحدث فرقاً بين تقبيل وعدم تقبيل هيلدا. لذلك كنتَ في الواقع دائماً تقبّل هيلدا مقابل جنيه واحد.

سنعود إلى هيلدا، أو بالأحرى **خريسيبوس** وكومته في الوقت المناسب.

لكن، بأيّة حال، قد عبرنا النّطاقَ البينيّ، وكنّا بلا شكّ نقبّل ونداعب هيلدا، وهذا يعني أنّنا وصلنا إلى البراح. إنّه مكان بديع وخصوصاً في هذا الوقت من العام، والأوراق تُسفع خشب البلّوط المعمّر والرّماد، وأنت تسحق البلّوط ورؤوس الزّان وقشور الكستناء الحلوة.

أنا جاهز لفكّ رباط مونتي. ثمّ تذمّرتُ بصوت مسموع عندما رأيت ما كان يقترب. لقد كان كلبَ «البَغْ»، أو ربّما كلب بولدوغ فرنسياً- لا يمكنني التّمييز بين عدد كبير من الكلاب الّتي تبدو كأنّها قد دخلت من باب الباحة، بأعينها الجاحظة وأفواهها الّتي تشبه أفواه سمكة «غوبي». مونتي يكره البَغْ. لم أتحقّق أبداً ما إذا كان هذا رفضاً جماليّاً أو أخلاقيّاً أو سياسيّاً، ولكن بمجرّد أن يرى أحدها، يتقدّم حتّى نهاية الحبل، يشدّ على اللّجام، مثل كلب «هاسكي» يسحب زلّاجة مثقلة بالأحمال. اِعتدتُ أحياناً التّظاهر في لحظات كهذه أنّ مونتي، ذا الكتلة العضليّة النّاتجة عن العطس الحادّ، كان يسحبني كمغلوبٍ على أمره في الشّوارع.

لذلك فإنّ طبْعَ الذّئب الضّاري عاوَدَ مونتي، فرجعَ البَغْ إلى الوراء، والكلبان يعلمان أنّه من غير الممكن أن يدخلا في شجار فعليّ، إذ أنّ كلّاً منهما لا يزال مشدودا برباطه. إنّه نوع من مواجهة لفظيّة بين رجلين تسمّى أحياناً باِسم «حقائب اليد»، ما يشبه الرّسوم الظّلّيّة، بدل أن تكون ضغينةً حقيقيّة.

«كلب سيّئ»، زجرتُ مونتي، وشددتُ حبْلَ طوقه بشكل طفيف. وبعد ذلك، مُحرَجاً أمام المالك، «أنا آسف جدّاً». كان رجلاً يرتدي لباساً أنيقاً، مشى خطوات صغيرة تتناسب مع سرعة الكلب تماماً. «في الحقيقة، هو لا يستثير أحداً أو يفعل شيئاً من هذا القبيل- كان ذلك على سبيل الاِستعراض لا أكثر».

لم يقل الرّجل شيئاً، وسارَ بشيء من التّفاخر.

«آمل ألّا تفعل ذلك»، هسهستُ لمونتي.

نظر إليّ ببراءة، وكأنّني قاطعته وهو مستغرق في جمال فراشة أو وردة.

إنّه شأن من شؤون الكلب. هذا شغلنا.

«*ليس كل الكلاب*».

بالتّأكيد، ربّما بيننا البعض ممّن يخافون أو يرتشون. لكن في العمق، نحن جميعاً نريد ذلك. على أيّ حال، كلاب البَغْ...

عندما أصبح هذا البَغْ خارج مدانا بمسافة آمنة، فككتُ الحبل عن طوق مونتي. هرولَ على الدّرب الّذي كان يتعرّج بين الأشجار، يتشمّم ويتبوّل. ثمّ جمدَ في مكانه، مثل طفل يلعب لعبةَ خُطى الجدّات[13]. وخلال ثانية أو ثانيتين عرفتُ السّبب. لقد كان كلبَ «الرّوتويلر» الأسود الضّخم الّذي صادفناه مرّة أو مرّتين قبلَ ذلك على البراح. كان بحجم حصان صغير. على الرّغم من أنّه لم يُبْدِ أبداً علامة عداءٍ واضحة، إلّا أنّه بثَّ الخوف في نفس مونتي الجبانة. ولكي أكون صادقاً، في نفسي أنا أيضاً. أجرى مونتي بعض الخدع في اِتّجاهه، هَرَّ ونبح. تغاضى الرّوتويلر عنها لمدّة دقيقة أو نحو ذلك، وأصدر نبحةً مدويّة واحدة دفعتْ مونتي للعودة إليّ راكضاً بين الشّجيرات. قفز، مخربشاً على ركبتيّ بقدميه الأماميّتين.

«لكنّك ملطّخ بالوحل بشكل كامل!»

إلّا أنّ يأسه كان كبيراً لدرجة أنّني حملته رغم ذلك.

مشى الرّوتويلر بعيداً دون أذى، مثل بعض آكلات العشب غير الخطرة من العصر الحجريّ القديم. ربّما لو رأى مونتي أنّه أكثر تهديداً لكان قد أنهض نفسه من سباته الحربيّ وأكله. أسكتُّ مونتي فراح يزمجر وينبح على عدوّه المنسحب.

كان بإمكاني النَّيل منه. كان هذا المتأنق في ورطة حقيقيّة.

---

(13) لعبة أطفال يقف خلالها أحد اللّاعبين وظهره للّاعبين الآخرين، الّذين يحاولون السّير بإتّجاههم دون أن يُسمعوا أو يُشاهَدوا وليتحرّكوا لحظةَ يستدير اللّاعب. (م)

«نعم، ربّما كان سيختنق بك».

هزّ مونتي كتفيه.

«نحن بحاجة إلى التّحدث عن هذا».

عمَّ؟

«سلوك هزليّ. ما يجعلك كلباً جيّداً أو كلباً سيّئاً، في الواقع، ليس الكثير من الكلاب، بل المزيد من النّاس». مكتبة سُر مَن قرأ

عظيم، ها قد تَخَرَّبَ مشوار آخر.

«أعطني شيئاً من المسرّة».

حسناً إذن، لكنّني قبل كلّ شيء سأركض قليلاً في المكان. اُنظر كم من الأشياء يمكنني القيام بها في دقيقتين، وأستنشق كلّ ما يسعني اِستنشاقه، وأبحث عن بعض بقايا دجاج كنتاكي المقليّ الّتي لك أن تحاول إخراجها من فمي، وهذا النّوع من الأشياء، اِتّفقنا؟

تجوّلت في بقعة أكثر اِرتفاعاً في البراح. كان هناك مقعد، حيث يمكنك من جانب واحد التّحديق إلى ما وراء الأبراج الزّجاجيّة للمدينة، المتلألئة ببرود مشؤوم في ضوء شمس الصّباح، وعلى الجانب الآخر اِمتدتْ الأشجار كأنّنا في أواسط غابة أبديّة وقديمة، اِخضرار دائم يبدو على شكل برك من الظّلام في قلب الذّهبيّ والأصفر. لهذه البقعة ميزة تتمثّل في البعد عن الدّروب المطروقة. يمكن أن يُعتبَر التّحدث إلى كلبك عن الفلسفة أمراً فيه بعض الغرابة، لذلك وجدت أنّه من الأفضل القيام بذلك حيث لن يسترق السّمع أحد مّا.

عاد مونتي وأرتمى عند قدمي. كان لديه مجرّد ساقين صغيرتين وكان هذا المشوار في حدود إمكانه.

«حسناً، دعنا نتناقش في الصّواب والخطأ».

تقصد لماذا تقول لي أحياناً «كلب جيّد» وأحياناً تقول «كلب سيّء؟» حسناً، لديّ نظريّة. أنت تقول «كلب جيّد» عندما يعجبك ما أفعله، وتقول «كلب سيّء» عندما لا يعجبك، هذا كلّ ما في الأمر.

اِبتسمت، ومسّدتُ وبرَ مونتي.

«يا لك من كلب جيّد. لقد وضعت مخلبك في لبِّ المشكلة. حتّى أنّ هناك اِسماً للنّظريّة الّتي اِستعرضتَها لتوّك. إنّها تسمّى النّظريّة الاِنفعاليّة[14]. يزعم أتباع الاِنفعاليّة أنّه كلّما أصدرنا حكماً أخلاقيّاً، قلنا إنّ سلوكاً مّا صحيحٌ أو خاطئ، أخلاقيٌّ أو غير أخلاقيّ. وكلّ ما نقوله حقّاً، في الواقع كلّ ما يمكننا قوله في المطلق، هو أنّنا نوافق عليه. ذلك أنّه يسرّب إلى دواخلنا الغموض والدّفء. إنّه نوع الحكم نفسه الّذي سنتبنّاه عندما نأكل فطيرة طيّبة المذاق، ونقول، «إنّها لذيذة!» أو أنّه مثل الكلب الّذي يلوّح بذيله عندما يقول سيّده "مشوار"».

بشكل اِنعكاسيّ لوّح مونتي بذيله، عندما سمع «مشوار».

«وإذا كانت *الاِنفعاليّة* صائبة، إذا كانت الأحكام الأخلاقيّة في النّهاية تصبُّ في *هذا* يعجبني و*هذا* لا يعجبني، فهناك عواقب مؤكّدة. فجأة يصبح من الصّعب جدّاً أن يكون لأحكامنا الأخلاقيّة أيَّ نوع من القوّة، أو أدنى تأثير على العالم».

رمقني مونتي بنظرة ساخرة.

«إذا قال شخص مّا إنّه يحبّ السّبانخ، وأنت لا تحب السّبانخ، فليس هناك الكثير ممّا يمكن أن يقوله أو يفعله أيّ منكما. لا توجد طريقة عقلانيّة للنّقاش في محاسن ومساوئ السّبانخ. لن تساعد القائمة الكاملة للعناصر الغذائيّة الموجودة في الأوراق. أنا أقول «بوو» مستهجِناً، وأنت تقول «هوراااه» فرِحاً. يمكنك أن تهزّ كتفيك وتبتسم وتبتعد، أو يمكنك المجابهة. لكن لا متّسع للأدلّة والعقل والمنطق. ولذلك يتلاشى أيّ أمل في إصدار أحكام أخلاقيّة حقيقيّة قد تحمل

(14) Emotivism: الاِنفعاليّة أو اللّاإدراكيّة. (م)

وزناً كافياً لتغيير ما نقوم به».

أولاني مونتي إحدى هزّات كتفيه المعبِّرة. كانت هذه تعني «*وماذا في ذلك*».

«وإذا أبعدْنا مقدرتنا على الحوار بعقلانيّة حول القضايا الأخلاقيّة، فسوف يسارع حينها شيء آخر لملء الفراغ».

مثل ماذا؟

«حسناً، أيّ شخص يفكّر الآن في الأخلاق يفعل ذلك في ظلّ فريدريك نيتشه (1844-1900). لقد جادل نيتشه بشدّة ومهارة عظيمتين في أنّ الأخلاق هي دائماً مسألة قوّة، وطريقة لتأكيد إرادتك. ما هو صحيح هو ما يقوله الممسكون بزمام السّلطة، أو أولئك الّذين يريدون أن يمسكوا بزمام السّلطة، فلنقلْ كي يحافظوا أو يحسّنوا مراكزهم في المجتمع. كانت المسيحيّة هدف نيتشه الرّئيس. لم يكره المسيحيّة، كما لم يفعل سواه من النّقاد، بسبب أبّهتها وريائها، بل لما نعتبره أفضل ميزاتها: دعوتها إلى الرّحمة والتّواضع، وعلى أن ندير الخدّ الآخر، ومباركة صانعي السّلام، وكلّ تلك الأمور. لقد اِعتبر المسيحيّة دِيناً للعبيد، باِعتبارها محاولة من قِبل المستضعفين والعاجزين لِانتزاع السّلطة من الأقوياء، كأولئك الّذين يجب أن يكونوا بطبيعة الحال في السّلطة. ولتحقيق ذلك، يستخدم العبيد الأسلحة الوحيدة الّتي في متناولهم: التّذمّر من المعاناة والشّكوى. ويستدعي تاريخاً، أو على حدّ تعبيره، جينا*لوجيا* الأخلاق. في العصر البطوليّ لهوميروس، كانت الأخلاق مسألة *جيّد وسيّئ*. وكان *الجيّد* هو ما ميّز حياة البطل الأرستقراطيّ: السّعادة المكتسبة بالِانتصار في المعركة، من خلال الإخضاع الجنسيّ والولائم والثّروة. أمّا السّيّئ فهو العبد بمصيره البائس: الضّعف والفقر والعجز. وقد اِستبدلت المسيحيّة تفرُّعَ «الجيّد والسيّئ» اللّطيف النّبيل بالتّمييز البائس بين الخير والشّرّ، حيث يمثّل الخير التّقوى، ويمثّل الشرّ تلك الفضائل الأرستقراطيّة الّتي أُطيح بها الآن ذاتها، وترسيم صاحب الأملاك للخطيئة المميتة.

لذا فإنّ الأخلاق- كلّ من يتحدّث عن اللّطف وإدارة الخدّ الآخر- كانت سلاحاً صنعه الجبناء والضّعفاء لمحاربة الأرستقراطيّة الطّبيعيّة الجريئة والقويّة. يأخذنا هذا إلى مكان مّا وراءَ الموقف الِانفعاليّ حيث الأخلاق هي كلّ ما يحدث ليجعلنا ننعم بالدّفء والغموض في دواخلنا؛ إنّها الآن قوّة خبيثة، وطريقة للتّدخّل في النّظام المرتَّب للكون، التّسلسل الهرميّ ذي الـ «سوبرمانات» الخارقين المتألّقين في القمّة، والعبيد الخانعين في الحضيض».

إذن، لستَ من المتحمّسين الكبار لـ نيتشه؟

«نيتشه هو أعظم فيلسوف خلال المائتي عام الماضية. إنّه عظيم لأنّه يجبرك على التّفكير، ويتحدّى كلّ شيء كنت تعتقد أنّه حقيقيّ. وهو يكتب مثل الملاك، وهذا يفوق كلّ ما يمكن قوله عن معظم الفلاسفة. لم ينجح أيّ شخص آخر في الجمع بين عظمته وقوّته بمثل هذا الوضوح. هو لا يريدنا أن نعيش على قواعد أخلاقيّة، أي وفقاً للقوانين الّتي تنشغل بالأمور التّافهة والنّهي والصّيام والمحظورات المسيحيّة، بل بشجاعة وجمال وخلْق. بمعنى آخر، الطّريقة الّتي عاش وفقها الرّجال العظماء (ونعم، إنّه يقصد *الرّجال*) دائماً. إغراءاته تكاد لا تُقاوم. لكن علينا أن نقاومها، ما لم نرغب حقّاً في العيش في عالم يستطيع فيه الأقوياء أن يفعلوا ما يشاؤون، وحيث القوّة تعادل الخير، وليس فقط أن يكون الأقوياء قادرين على سحق الضّعيف، بل من *واجبهم* القيام بذلك. وهناك مبرّر في أن القتلة المتسلسلين إذا قرؤوا أيّ شيء، فهو دائماً نيتشه... إنّه فيلسوف أولئك الّذين يشعرون أنّ عظمتهم الحقيقيّة لم يعترف بها المجتمع، أولئك الّذين يعتقدون أنّ عليهم أن يبتدعوا أخلاقيّتهم الخاصّة، وأنّ النّاس الآخرين إنّما وُجدوا فقط لإشباع رغبتهم في السّلطة».

لقد بات من غير المألوف ربط نيتشه بأهوال النّازيّة، لكن الحقيقة أنّ الكثير من أيديولوجيّة النّازيّة حاضرة في فكر نيتشه: حقّ القويّ في سحق الضّعيف، وفكرة أنّ بعض النّاس يتفوّقون بشكل طبيعيّ مقارنةً بالآخرين - العرق المتفوِّق في

واقع الأمر؛ كما أنّ الحربَ أمر جيّد وطبيعيّ. وأنّ الأجناس غير البيضاء هي أقلّ شأناً. صحيح أنّ نيتشه لم يكن قومياً ألمانيّاً ضيّقاً، ولم يكن معادياً للسّاميّة بشكل خاصّ وفقاً لمعايير عصره، لكنّ البقيّة هناك، خبيئة في متناول الجميع.

لكن حقيقة أنّه قد تمّ اِستخدامه، بعد وفاته، لدعم الشّرّ لا يمكن أن تساعدنا على الإفلات من الأسئلة العويصة والعسيرة الّتي يطرحها نيتشه. أين هو القانون الأخلاقيّ الّذي يمنع السّوبرمان من فعل ما يطيب له؟ أيّ قانون، سواء أكان من المنطق أم الطّبيعة، يمنعني من تحقيق ما أريد، من الوصول إلى العظَمة الّتي في داخلي، عن طريق الدَّوس عليك؟

ممم، هل تعلم أنّك تنمِّق كلامك قليلاً؟

«ماذا؟ أوه. هذا هو نيتشه كما أقدّمه لك».

لا تنظر الآن، لكن هناك أناس...

كان مونتي على حقّ. اِقترب رجل واِمرأة وبعض الأطفال الرّاكضين، وكان الأطفال يضربون رؤوس الشّوك بالعصي، ويبدو الآباء المتضايقون بحاجة لأخذ اِستراحة من اِستجمامهم.

عندما يُقبض عليك متلبِّساً وأنت تتحدّث إلى كلبك، كلّ ما يمكنك فعله هو مواصلة ما تفعل، ولكن بأسلوب أكثر تقليديّة، لذلك «أثنيتُ» على مونتي قليلاً، ودغدغتُ فكّيه، مثل أيّ مالكِ كلبٍ عاديّ عاقل. لاحظت أثناء قيامي بذلك أنّ مونتي كان يرتعش قليلاً.

«حسناً يا رفيقي، فلنعُد إلى البيت».

عدت وسط الأشجار، وتابعتُ الحديث.

«لذلك هذا هو التّحدّي الّذي نواجهه. هل يمكننا إيجاد أساس عقلانيّ للأخلاق، لإبراز أنّنا لسنا مجرّد كلاب تهزّ أذيالها، أو مستضعفين يحاولون تكبيل

الأقوياء كي نتمكّن من اِنتزاع مكانهم الصّحيح في الجزء العلويّ من الكومة؟»

وهل يمكننا ذلك؟

«سيستغرق الأمر أكثر من مشوار واحد. ولكن دعنا نقضِي ما تبقّى من هذا المشوار في إعادة صياغة المشكلات بأكثر ما نستطيع من الوضوح. ثمّ يمكننا أن ننظر في الحلول الّتي قدّمها الفلاسفة على مدى الألفي سنة الماضية. ثمّ سنرى ما إذا كان من بينهم مَن يستطيع الصّمود أمام الرّكل الفلسفيّ الشّديد».

أولا المشكلة. وهي حقاً مشكلة. إذا أردنا نبذَ نيتشه وهزّازيّ الأذيال، ومناقشة أن هناك حقائق كونيّة حول الصّواب والخطأ، أو على الأقلّ أنّ الأخلاق لها أساس عقلانيّ قويّ، فهناك مسائل جادّة نحتاج إلى معالجتها.

الأولى هي حقيقة أنّه من الواضح إلى حدٍّ مّا وجود اِتفاق محدود قيِّم يتعلّق بالقضايا الأخلاقيّة. لن يختلف أيّ شخص عاقل على أنّ الزّوايا الدّاخليّة للمثلّث تبلغ 180 درجة، أو أنّ البشر تطوّروا من قِرَدَة أكثر بدائيّة، أو أنّ الأرض تدور حول الشّمس. ذلك لأنّ هذه الأشياء هي حقائق معقولة وراسخة. ولكن في ما يتعلّق بالقضايا الأخلاقيّة، نجد أنّ مجتمعنا مليء بالنّزاعات الّتي تدور حول المسائل الأخلاقيّة. بعضها شخصيّ، وبعضها له نكهة سياسيّة أوسع. هل يمكنني الكذب إذا كان قول الحقيقة سيؤذي مشاعر شخص مّا؟ هل يجب أن أعطيَ نسبة من الدّخل للجمعيّات الخيريّة؟ هل الرّجل الّذي يعتبر النّساء والجماعات العرقيّة غير البيضاء أدنى منزلة هو شخص لائق لتولّي منصب سياسيّ رفيع؟ هل يمكننا أن نأخذ المال من الأشخاص الخاضعين للضّرائب لدفع ثمن أشياء لا يهتمّون بها؟ هل الحرّيّة الشّخصيّة أهمّ من الرّفاهيّة الجسديّة؟ هل من الصّحيح بناء خطّ سكّة حديد يمرّ بحديقة شخص مّا رغماً عنه إذا كان يخدم الصّالح العامّ؟ هل يجب أن نغزوَ البلدان الّتي تسيء حكوماتها إلى «قيم حضاريّة» معيّنة؟ ما هي تلك القيم الحضاريّة؟ هل يجب أن نشعر بضرورة التّرحيب باللّاجئين من دول

أخرى؟ إذا كان الأمر كذلك، على أيّ أساس؟ هل يجوز قتل الحيوانات وأكلها؟ إذا كان من الجيّد أكلها، فما الِإلتزامات الأخلاقيّة الّتي ندين بها للحيوانات؟ هل للمرأة حقّ مطلق في اِختيار الإجهاض؟ هل هناك جرائم عقوبتها الإعدام؟ إذا قرّرنا نسفَ أحد الإرهابيّين بِاستخدام طائرة مسيَّرة، فكم من الأطفال الأبرياء الّذين يُسمح بقتلهم في الوقت نفسه؟ أو لنفترض أن لديك... حيواناً أليفاً قد يحتاج إلى علاج طبّي باهظ التّكلفة. هل يمكنك تبرير إنفاق هذه الأموال، متى يمكنك اِستخدامها لإنقاذ أو تحسين حياة البشر؟

مممم، إذا سُمح لي بالتّعبير عن رأيي بشأن ذلك الأخير، فسأتلفّظ بنبحة حاسمة.

مسّدتُ ذقنَ مونتي مع دغدغة سريعة على البطن.

«ما هو مثير للاِهتمام، ومحبط أيضاً، حول هذه النّقاشات هو أنّها تبدو بلا نهاية. لا يمكننا البحث في غوغل عن الإجابة، لأنّ الخلافات الأخلاقيّة في نهاية المطاف قلّما تبْلغ الحقائق. إذا كانت الأخلاق عقلانيّة وموضوعيّة، فلماذا لا نستطيع الاِتّفاق؟»

مممم، موضوعيّ...؟

«أه آسف. فلنُنَحِّ بعض المصطلحات شبه التّقنيّة جانباً. سيستنكر *الذّاتيّون والموضوعيّون* كثيراً في هذه المشاوير. إذا قلت إنّ شيئاً مّا هو ذاتيّ، أو صحيح ذاتيّاً، فهذا يعني أنّه صحيح من وجهة نظر شخص معيّن، الذّات. أنت ذات، وأنا ذات. أنا أشعر بالبرد. يُصدر طعام الكلاب رائحة كريهة. أنا أحبّ شطيرة الجبن. أنت تقدّم عرضاً عن مشاعرك أو تصوّراتك. من جهة أخرى، إذا اِدّعيتَ أن شيئاً مّا صحيح موضوعيّاً، فهذا يعني أنّ له حقيقة مستقلّة عن آراء أيّ شخص أو حتّى مجموعة من النّاس. درجة حرارة الهواء إحدى عشرة درجة مئويّة. نحن على بعد أربع كيلومترات من المنزل. تدور الأرض حول الشّمس.

مربّع وتر المثلّث قائم الزّاوية يساوي مجموع مربّعي الضّلعين القائمين. هذه حقائق موضوعيّة. لا يتمّ تحديد حقيقتها أو باطلها بموجب ما أشعر به تجاهها. أتفهمني؟»

أظنّ ذلك. الذّاتي هو فقط ما أعتقده، الموضوعيّ هو صحيح أو زائف بغض النّظر عمّا أعتقد...؟

«هذا يعبّر عن الأمر بما فيه الكفاية. وما دمنا بصدد ذلك، سنذكر مصطلحاً آخر: *النّسبيّة*. فكرة النّسبيّة أنّه لا توجد حقيقة ***كونيّة*** بسيطة، وأنّ أيّ مقولة يجب أن تُسبق بالمؤهّلات بالنّسبة إليّ. قد تقتصر النّسبيّة على مناحي معيّنة، مثلاً فكرة أنّ كلّ حركة نسبيّة، أو أنّ الجمال في عين النّاظر، لكن غالباً ما يتّخذ النّسبيّون وجهة نظر أكثر تعميماً، فيرون أنّ كلّ الحقائق نسبيّة، ولا تعتمد على القوانين أو المبادئ الكونيّة، ولكن على المشاعر والتّصوّرات الذّاتيّة للأفراد الّذين يعيشون في أزمنة وأمكنة معيّنة».

إذن، هل الذّاتيّة والنّسبيّة هما الشّيء ذاته؟

ليس تماماً، على الرّغم من وجود تداخل واضح. أعتقد أنّ معظمنا سيقبل أنّ العديد من الأحكام ذاتيّة، وعادة ما تكون واضحة بما فيه الكفاية. قد يكون لديّ وجهة نظر ذاتيّة عن الخمرة مثلاً، الّتي أجدها منعشة ومبهجة، وتساعد على تخدير ألم الوجود، ولكن بعد ذلك قد أقبل أيضاً أشياء معيّنة موضوعيّة وغير نسبيّة حول هذا الأمر، مثلاً إذا أفرطتُ ففي تناولها، فسوف تتلف دماغي وكبدي. لكن، على العموم، لديك جانب منقسم، الذّاتيّ والنّسبيّ والمحلّيّ من جانب، والموضوعيّ والكونيّ من جانب آخر. والأخلاق في وسط ساحة المعركة هذه.

بالعودة إلى تلك النّقاشات الأخلاقيّة الّتي لا نهاية لها، فإنّ حقيقة عجزنا عن التّوصّل إلى اِتّفاق ترجع غالباً إلى أنّ جانبي النّقاش المختلفَين يعارضان مفاهيم

الأخلاق من الأساس. ليس معارضة وحسب، بل تنافرٌ. الكلمة الّتي يستخدمها الفلاسفة لهذا الكلام عصيّة على القياس.

ممم، هلّا أوليتَ جمهورك شيئاً من المراعاة...؟

«إنّه مثل اِستعراض الكلاب، والفئات قد اِختلطت، لذا فأنت تحاول الحكم على كلب البكّينيّ والكلب الدّانماركيّ الكبير والدّلماسيّ.»

شكراً لك.

«أو كما لو أنّ شخصين يحاولان اِتّخاذ قرار عن أفضل نوع من البسكويت، ولنقل إنّ أحدهما يعتمدُ على مدى مقاومة البسكويت للغمس في السّائل كمعيار للحكم، والآخر يعتمد كمّيّة الشّوكولاتة الّتي تغطّيه. لذلك بالطّبع لن يتّفقا أبداً. قد تقول اِمرأة مّا (أو على الأقل تفكّر)، يمكنني أن أكذب على زوجي بشأن تقبيل كين في حفلة عيد الميلاد، لأنّ إخباره بذلك قد يسبّب عذاباً لا داعي له، سيقول صديقها، لا، ليس من المقبول أن تكذبي أبداً، مهما كانت العواقب. سيقول شخص مّا إنّ الضّرائب يجب أن ترتفع لتمويل الرّعاية الصّحّيّة، ويقول آخر، بأيّ حقّ تأخذ أموالي الّتي كسبتها بشقّ الأنفس؟

لذلك، ضمْن مجتمعنا، لا يوجد اِتّفاق عامّ على ما يمكن اِعتباره صواباً أو خطأً. وحيث توجد خلافات، لا يبدو أنّ هناك أيّ طريقة قاطعة لحلّها.

قد يكون من المفيد الإشارة هنا إلى أنّ المجتمع الغربيّ الحديث ليس نموذجيّاً في هذا الشّأن. لم يكن معظم النّاس في روما القديمة أو أوروبّا في العصور الوسطى يواجهون مثل هذا الصّراع لتأسيس أرضيّة أخلاقيّة مشتركة. كانت معظم الحضارات السّابقة تتمتع بنظام أخلاقيّ فعّال قائم على منظور دينيّ مشترك، أو إيمان لا جدال فيه لقوانين الدّولة، أو نظام مشترك للسّنن الثّقافيّة والمحظورات والأوامر».

لكنّنا لسنا هؤلاء؟

«لا. لقد فقد العالم الحديث نظرته الأخلاقيّة المتناغمة. قد لا يكون الأمر كذلك، أنّنا أحرارٌ، حرفيّاً، في اِختيار ما نحبّه من أخلاق- ستتدخّل الدّولة بالتّأكيد إذا قرّرنا، مثل الزّرادشتيّين القدماء، أنّ النّار يجب أن تُعبد بكلّ هيئاتها، وبذلك يُعتبَر حرق مخزن أدوات جارك القريب واجباً دينيّاً- وبالتّأكيد لا يزال التّفكير الأخلاقيّ التّقليديّ يتمتّع بشدٍّ جاذب، لكن لدينا على الرّغم من ذلك مجموعة متفرّدة الاِتّساع من وجهات النّظر الأخلاقيّة الّتي نختار من بينها.

وهذا كلّه ماذا يعني بالضّبط؟»

«يمكنك أن تحاجّ بأنّ هذا التّنوّع، وهذه الفوضى بالتّأكيد، توحي إلى حدّ كبير بأنّ الأخلاق لا يمكن أن ترتكز على شيء يتجاوز عادات النّاس وأعرافهم المتغيّرة. وقد عبّر عن ذلك بإيجاز أحد الفلاسفة الأوائل، أرخيلاوس، الّذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، عندما قال، "الأشياء عادلة أو خسيسة ليس بطبيعتها، بل بالعرف"».

كان مونتي قد دنا قليلاً، لكنّه الآن اِستدار واِنتظرني، إمّا متوتّراً بشأن الرّوتويلر المندسّ في مكان مّا، أو متشوّقاً ليعرف إن كان هناك طريقة للخروج من المتاهة الّتي وضعها النيتشويّون وهزّازو الذّيل والنّسبيّون.

لكن هناك إجابة لهذا، أليس كذلك؟

«إجابة؟ من الأفضل عدم الحكم مسبقاً على هذه الأشياء. الفلسفة بأكملها تتمحور حول البحث والاِستقصاء. وهذا يشبه إلى حدّ مّا ذهابك إلى السّقيفة للبحث عن ذلك الإطار القديم الّذي كان يؤطّر الصّورة، أو للبحث عن حذاء التّدريب الّذي تعرف أنّه قد يحتاج إلى إصلاح. قد لا تجد الإطار أو الحذاء أبداً، لكنّك ستكتشف شتّى أنواع الأشياء الرّائعة الأخرى الموجودة هناك، مثل مضرب تنس مكسور، أطقم أسنان الجدّة، طابعة نقطيّة، لوحة رسم...»

أنت لا تحدّد وجهة نظرك بشكل واضح حقّاً، أنت تعلم أنّ...

«لا بأس. لنبدأ بالتّأكد من أنّنا نعرف ما هي المشكلة. فلنقلْ إنّ الكلاب تتقاتل من أجل عظْم. والعظم يعود لأحد الكلاب، وكلب آخر يريد الحصول عليه.

ذلك يحدث...»

«والأقوى يفوز».

عادة.

«وقد حصل هو على العظم».

أو هي. قد يكون لهذه الكلبة الألمانيّة ذات الرّقم سبعة وأربعين عينان مغريتان، لكنّها لا تتورّع عن اِستخدام أيّ وسيلة قذرة في القتال.

«بالنّسبة إلى الأقوى، لا بأس أن يحصل على العظم، أليس كذلك؟»

هكذا هي الكلاب...

ينطبق الأمر علينا أيضاً في بعض الأحيان. حسناً، ولديها نَسَبٌ أيضاً. نلمس الجدال حوله بقوّة لدى أفلاطون في كتابه «***الجمهوريّة***». ثمّة شيء من الخلفيّة. عرض أفلاطون (428 / 427-348 / 347 قبل الميلاد) فلسفته في سلسلة من المحاورات الدراميّة، ثمانية وثلاثون منها، أثبتت على أكمل وجه ما نعنيه عندما نستخدم كلمة «فلسفة». يكاد يستحيل عدم العودة إلى أفلاطون عندما تناقش الفلسفة. لقد قيل إنّ كلَّ الفلسفة ما هي إلّا مجموعة من الهوامش لأفلاطون، ومن المؤكّد أنّ كلَّ الأسئلة الفلسفيّة الرّئيسة الّتي تحيّرنا حتّى يومنا هذا، والّتي «سنلوكها» في مشاويرنا، كانت أوّلاً مؤطّرة بوضوح في محاوراته. لكن حقيقة أنّنا بعد مرور ألفين وخمسمئة عام، ونحن ما زلنا في حيرة وما زلنا نلوك، تشير بقوّة إلى أنّ إجاباته نادراً ما تكون مثمرة كما أسئلته. المحاورات ليست مجرّد أعمال فلسفيّة أساسيّة، ولكنّها أيضاً أعمال أدبيّة عظيمة. معظمها يُبْرِز سقراط، معلّم

أفلاطون، كشخصيّة رئيسة. (في هذه المشاوير كلّها، عندما أقول «سقراط»، فعادة ما أعني أفلاطون. لم يكتب سقراط نفسه أيّ شيء، لذلك ليس لدينا فكرة حقيقيّة عن ماهية فلسفته، بخلاف الطّريقة الّتي قدّمها أفلاطون).

في الحوارات المبكّرة، عادة ما يصادف سقراط شخصاً يعتقد أنّه يعرف معنى مفهومٍ مّا- غالباً فضيلة، مثل الشّجاعة أو التّقوى أو الجمال. منذ ذلك الحين، تميل المناقشات إلى اِتّباع نمط مشابه. وسقراط، الّذي يدّعي دائماً أنّ حكمته تتضمّن فقط معرفة لمدى ضآلة معرفته، سوف يُسائل الشّخصيّات الأخرى، ويظهر أنّ ما يؤمنون به حول الموضوع قيد البحث هو أمر سخيف أو متناقض مع الذّات. وتنتهي الحوارات بعلامات حيرة وإحباط لخّصها بالكلمة اليونانيّة «أبوريا»، الّتي تعني «مأزق». وتترك الشّخصيّات المشهد بعد أن امّحتْ يقينيّاتهم، لكن دون أن يحلَّ شيء محلَّها.

عادة ما يُنظَر إلى هذه الحوارات المبكّرة على أنّها تصوير دقيق بعض الشّيء لسقراط التّاريخيّ، الّذي أغضبَ في نهاية الأمر الدّولة الأثينيّة لدرجة أنّهم عمدوا إلى قتله.

أمرٌ قاسٍ!

«نعم، حسناً، غالباً ما يُعتقد أنّها إحدى أكبر الجرائم الّتي اِرتكبتها دولة ضدّ فرد، لكن كانت أوقاتاً عصيبة. كانت أثينا قد هُزمت للتّوّ في حرب مروّعة. وأعقبت الحربَ ثورةٌ نصّبتْ دكتاتوريّة وحشيّة- ما يسمّى بالطّغاة الثّلاثين. كان سقراط نفسه محايداً في السّياسة، غير أنّ العديد من أصدقائه اِنحازوا إلى الطّغاة، وكان أحد تلامذته القدماء، كريتياس، قائدهم. لذلك عندما تمّت الإطاحة بالِاستبداد، وتثبيت الدّيمقراطيّة مرّة أخرى، كان من المحتمل أن يكون سقراط في مأزق، كشخص ملطّخ بصداقاته. لكنّ طريقته بقيتْ في متابعة المساءلة والتّحريض والمضايقة، وفي النّهاية قرّر النّظام إسكاته. قاموا بمحاكمته بتهمة

إفساد شباب المدينة، والمعصية، وبعد فترة وجيزة وُجِد مُذْنباً. وحتّى ذلك الحين، كان يمكن لسقراط الإفلات بعقوبة بسيطة. كان للنّظام القانونيّ في أثينا القديمة ميزة غريبة مثيرة للاِهتمام، فبعد صدور حكم الإدانة، يمكن للاِدعاء والدّفاع اِقتراح عقوبة، مع تقرير هيئة المحلّفين أيّهما أكثر عدلاً. ولو كان سقراط قد اِقترح أيّ شيء معقول- النّفي، أو الغرامة الباهظة- لكان بإمكانه النّأي والنّجاة بنفسه».

ولكن...

«لكنّه اِقترح أن يحظى بوجبات مجانيّة على نفقة النّاس مكافأة لمساعدته في تثقيف المواطنين».

آه، يا عزيزي.

«وهكذا تمّ اِختيار حكم القضاء، الموت بالسُّمّ. لكنّي كنت أتحدّث عن المحاورات. فالأوائل منها تقتفي خطى سقراط وهو ينهك بالمساءلة أيّ شخص يدّعي اِمتلاكه المعرفة، كما لا تعرف أبداً ما يفكّر فيه سقراط- أو أفلاطون- في ما يتعلّق بأيّ شيء، سوى أنّ كلَّ شخص آخر مخطئ في كلِّ شيء. ولكنّنا نصل في ما بعد إلى المحاورات اللّاحقة، حيث يعتقد معظم الباحثين أنّ أفلاطون يتفوّق على سقراط التّاريخيّ، ويقدّم لنا وجهات نظره الخاصّة. وكانت أعظم هذه الحوارات هي "***الجمهوريّة***"».

أهذا هو الموضع الّذي يقول فيه إنّ الكلب القويّ يجب أن يحصل دائماً على العظم؟ لا يبدو ذلك عادلاً جداً.

تذكّر أنّ أفلاطون كان يكتب حوارات دراميّة. يقولُ آراءً على لسان الشّخصيّات في الحوارات، ثمّ يكشف ضعفها. تبدأ *الجمهوريّة* بمناقشة معنى العدالة، أو «فعل الشّيء الصّائب». لقد تعامل سقراط بالفعل مع بعض الأفكار المختلفة حول ماهية العدالة. هل يقول ذلك الحقيقة؟ أيدفع ديونك؟ أيساعد

أصدقاءك ويؤذي أعداءك؟ يجد سقراط ثغرات في كلّ منها. كان هناك شخصيّة لرجل يُدعى ثراسيماخوس يصغي إلى سقراط بنفاد صبر متزايد، ولم يستطع في النّهاية من أن يمنع نفسه من الإدلاء بدلوه في الموضوع. فغمم قائلاً، *إنّ العدالة ليست سوى ما يفيد الأقوى. وأولئك الّذين في السّلطة يسنّون القوانين* لصالحهم. وفي دولة يحكمها الأغنياء، تكون القوانين لصالح الأغنياء. وإذا أحكم الفقراء السّيطرة، فإنّ القوانين تخدم *الفقراء. العدل قوّة. وآمتلاك القوّة يعني أن يتحكّم أحدهم في العدالة. هذا كلّ ما يمكن أن يؤول إليه الأمر– وكلّ ما عدا ذلك ذريعة وآدّعاء.*

«هل يبدو هذا مألوفاً؟»

نيتشه؟

«بالضّبط».

لكنّك قلت إنّ رجُلك، أفلاطون، كان الأفضل... كان لديه إجابة لهذا الرّجل الثراسي الـ..؟

«كلّ شيء في حينه. أوّلاً دعنا نصبّ المزيد من الزّيت فوق النّار. في محاورات أخرى، محاورة جورج*ياس*، كانت المسألة المطروحة هي العلاقة بين السّلطة والعدالة والسّعادة. تؤكّد شخصيّة واحدة هي بولوس، أنّ القوّة تجلب السّعادة دائماً. ويعارض سقراط بقوله إنّ الشّخص لا يمكن أن يكون سعيداً إلّا إذا كان فاضلاً، وأنّ الطّاغية الّذي يستخدم قوّته للحصول على ما يريد يجب أن يكون بائساً. ويتفاقم البؤس إذا لم يقدَّم الطّاغية إلى العدالة. يقول سقراط إنّ العقاب على جرائمك أمر محبَّذ، إذ أنّ إثبات خطأ حجّتك أمر جيّد، لأنّه يعني أنّك اِقتربت أكثر من الحقيقة. يجب أن تجلب العقوبة الرّضا نفسه الّذي تناله من القدرة على سداد الدّيون. وهكذا فإنّ الطّاغية الّذي يرمي عدوّه في الزّنزانة هو أقلّ حظاً من السّجين».

اِنتظر، ألذلك يجب أن أستمتع عندما تصرخ في وجهي لأنّي أتناول السّجق ببراءة إذ لم يكن لديّ أيّ فكرة أنّك كنتَ تريده، ولأنّي أصوغ عن طريق الصُدفة أشكالاً جميلة على بساطك عندما أدخل من تحت المطر؟ هذا حديث مجنون بمعنى الكلمة.

«أقول بداية بصوت مرتفع قليلاً، مرحباً مونتي، *ماذا حدث لعشائي؟* هذا لا يجعل منّي طاغية...»

أنا كلب حسّاس للغاية، وأحياناً تكون حادّاً للغاية...

«وثانياً، إنّك تشترك في وجهة نظرك إلى حدّ كبير مع شخصيّة أخرى هي كاليكليس، وأنت تقوم بمداخلة مثله الآن. يشعر كاليكليس بالغضب من فكرة أنّ السّجين، الّذي يتعرّض للتّعذيب والأذيّة، أسعد من الطّاغية. على العكس من ذلك، فهو يغضب، والحرّيّة هي السّعادة، والطّاغية الّذي يفعل ما يريد، مهما كان عنيفاً أو فاسداً، هو تعريفاً أكثر الرّجال حرّيّة وسعادة. يفرض قانون الطّبيعة، على العكس من القوانين والأعراف المُصطنعة، أن يحكم الأقوياء، وأنّ كلَّ ما يفعلونه هو العدالة الحقيقيّة. يمكن لأيّ شخص لديه ما يكفي من الطّاقة والشّجاعة أن يُسقِطَ عنه هذه الأغلال، ويدوس على قوانيننا المزيّفة - الّتي يدعوها "الوصفات والتّعاويذ والرّقى"- في الوحل».

ثمّ يجيب سقراط...؟

«جوابه مرّة أخرى في هذا الحوار هو أنّ طاغية كهذا لا يمكن أن يكون سعيداً. ستكون رغباته بلا حدود، وبالتّالي من المستحيل إشباعها. إنّه جرّة مثقوبة لا يمكن ملؤها أبداً. وربّما هذا صحيح. كم من الطّغاة ماتوا سعداء في أسرّتهم، وابتسامة الرّضا والقبول تطفو على شفاههم؟ تخيّل هتلر مهتاجاً في مخبئه الحصين، وموسولّيني الّذي أطلقَ عليه الرّصاص وعُلِّق على عود المشنقة، ثمّ موت ستالين خنقاً من قبل أتباعه المذعورين بينما يرقد عاجزاً إثرَ سكتة دماغيّة.

لكنّ محاولة دحض فكرة أنّ الشرّ يجلب التّعاسة دوماً تبدو ضعيفة هي الأخرى. وكبداية، سيكون المجال مفتوحاً دائماً للأمثلة المضادّة، تلك الحالات الّتي أفلت فيها الآثمون بإثمهم، وعاشوا بعد ذلك سعداء ينعمون بمغانمهم الّتي كسبوها بالحرام. ولكن أيضاً، تبدو السّعادة الفرديّة غير مُرْضية بشكل غريب كمعيار مطلق للفضيلة. وإنّه ممّا يسرّ الخاطر الإِعتقاد بأنّ كون المرء صالحاً سيجعل منه سعيداً، لكن هل نريد دمج الِاثنين- لنقول إنَّ الخير هو السّعادة؟ أو حتّى لو أبقيناهما منفصلَين، هل يجب أن تكون الحقيقة الّتي تجعلنا سعداء هي السّبب الوحيد لفعل الخير؟ ماذا لو كنت عاجزاً عن السّعادة بسبب تكويني - هل هذا يعني أنّه ليس عليَّ التّصرف على نحو أخلاقيّ أبداً؟ ماذا لو جعلتني فِعالُ الشّرّ الصّغيرة سعيداً بمعنى الكلمة- هل يجب أن أنغمس في الملذّات؟ وهو جواب يشعر إزاءه أفلاطون نفسه بعدم الرّضا، فلديه فكرة أعمق عن الخير، فكرة سنعرضها بعد قليل».

كنّا ندنو من طرف البراح، وقد حان الوقت لإعادة رسن مونتي مرّة أخرى.

«حسناً»، قلت، «لقد أهدرنا المشوار كلّه في تحليل المشكلة، ولم نصل إلى حلّ لائق بعد. رأينا أنّ العاطفيّين يريدون دحض جميع الأحكام الأخلاقيّة بِاعتبارها مثل تلويح الكلب بذيله. ورأينا كيف يعيد نيتشه التّأكيد بإيجابيّة على الحالة الّتي كانت ممثّلة بشكل سلبيّ لدى أفلاطون، وهي أنّ جميع المحاكمات الأخلاقيّة هي إمّا اِتّفاقيّات بلا معنى أو اِستيلاء على سلطة من قِبَلِ أولئك غير المُعدّين بطبيعتهم لخوض معركة بالأسلحة النّبيلة، أسلحة الأسنان والمخالب.

تحتاج أيّ نظريّة أخلاقيّة إلى معالجة هذه النّقاط. لكن أريد أن أقدّم مثالاً واحداً آخر عن نوع الشّيء الّذي تحتاج النّظريّة الأخلاقيّة الرّاسخة مقاومته. علينا العودة ثلاثين عاماً تقريباً إلى الخلف، قبل أن يؤلّف أفلاطون كتابه «*الجمهوريّة*».

كان الأثينيّون في خضمّ حربهم مع إسبارطة، تلك الحرب الّتي اِستمرّت أكثر من خمسين عاماً، مع بضع فترات من السّلام النّسبيّ المضطرب. وكان على معظم الدّول الأخرى القريبة أن تقف إلى أحد جانبي الصّراع. كانت من أنواع الحروب الّتي يصعب معها الوقوف على الحياد.

إحدى الجزر – ميلوس – حاولت أن تكون محايدة. كان لديها رابط قديم مع إسبارطة، لكن كان لأثينا أقوى أسطول بحريّ، وعرف سكّان ميلوس بأنّهم كانوا معرّضين للخطر في جزيرتهم. وهكذا، اِلتزموا الهدوء، في محاولة ألّا يتمّ الاِنتباه إليهم. لكنّ الأثينيّين لا يثقون بهم. كانت الجزيرة مهمّة اِستراتيجيّاً، وآعتقدوا أنّ علاقات قرابة سكّان ميلوس القديمة مع الإسبارطيّين ستتمّ ملاحظتها في النّهاية. وكانت الحرب قد بدأت تنقلب ضدّ الأثينيّين، لذلك ربّما كانوا محبطين قليلاً. أخيراً، قرّروا أن يرسلوا بعثة إلى الجزيرة، وطلبوا أن ينخرط سكّان ميلوس في تحالف معهم ضدّ الإسبارطيّين، والمساهمة في صندوق الحرب الأثينيّ.

كان الإسبارطيّون المحاربين الأقوى في العالم القديم، لكن لم يكونوا لطفاء جدّاً. كانوا جميعاً من الطّبقة ذاتها – الهيلوتس – الّذين تمّ الاِحتفاظ بهم كعبيد. إذا أظهر أيّ شخص من الهيلوتس أيّة إشارة تدلّ على الذّكاء أو روح المبادرة أو الشّجاعة، يقتلونه أو يقتلونها. ولم يكن لديهم الكثير بما يتعلّق بالفنّ أو الأدب. كانت حضارتهم كلّها قائمة على تحويل الشّبّان في إسبارطة إلى آلات قتل فعّالة. ولم يكونوا قُساةً فقط بل ماكرين أيضاً. وآعتقدوا أنّ أيّ شيء في الحرب عادل – تستطيع أن تكذب أو تخدع إذا كان ذلك يساعدك في الوصول إلى المجد.

على النّقيض من ذلك، كان لدى الأثينيّين كلّ ذلك: الفنّ والعمارة والأدب والسّياسة الدّيمقراطيّة، والفلسفة طبعاً. معظم النّاس الّذين سمعوا قصّة الحرب بين الأثينيّين والإسبارطيّين يعتبرون الأثينيّين أشخاصاً جيّدين. لكن ها هم

يحاصرون المدينة الرّئيسة في ميلوس. ويجرون مفاوضات من موقع قوّة كما يُقال. ولم يحاولوا تزيينها بلغة فاخرة. وقالوا، ليس لأنّكم اِرتكبتم خطأً معيّناً، أو لأنّنا كسبنا هذه الجولة، بل لأنّنا أقوى منكم، وبالتّالي فإنّ الإجراء العقلانيّ الوحيد بالنّسبة لكم هو أن تفعلوا ما نريد: الِاستسلام، والتّحالف معنا، وأداء التّحيّة. إذا قاومتم، فسيكون التّدمير مصيركم. لماذا؟ لأنّنا نستطيع ذلك.

لم يخضع سكّان ميلوس المعروفون بالغرور والعناد إلى هذا الضّغط، بل ناقشوا الأمر مع الأثينيّين. وطرحوا عدّة نقاط منطقيّة مثاليّة. نحن لا نشكّل تهديداً لكم. فإذا دمّرتمونا، ستدرك الدّول الحياديّة الأخرى أنّكم عصابة ممسوسين خطرين، وستقف إلى جانب إسبارطة ضدّكم. وبالتّأكيد، أنتم تتفوّقون علينا عدديّاً، لكنّنا أشدّاء وشجعان، والحرب بطبيعتها لا يمكن التّنبّؤ بنتائجها، ربّما نهزمكم. وربّما يأتي أقرباؤنا الإسبارطيّون لمساعدتنا، وتشعرون بالأسف عندئذٍ. كما أنّنا ربّما نجرّب حظّنا بدل الِاستسلام والعيش بالعار.

لكن كان لدى الأثينيّين ما يدحض كلّ حجّة من هذه الحجج. إذا كان هناك شيء قد يجعل الدّول الحياديّة تقف إلى جانب إسبارطة فهو إشارة ضعف من الأثينيّين. ربّما يكون الإسبارطيّون أقرباء سكّان ميلوس، لكنّهم شعب عمليّ قبل كلّ شيء، ولن يعرّضوا أنفسهم للخطر مع أيّ شعب آخر. وحتّى إذا كانت تقلّبات الحرب تعني وجود اِحتمال ضئيل بأن تنقلب الأمور لصالحكم، فالنّتيجة الأكثر رجحاناً هي كارثة بالنّسبة لكم. لذلك فالخيار واضح: اِركعوا وعيشوا، أو اِتّخذوا طريق المقاومة المتفائل بشكل يدعو إلى الضّحك، وواجهوا فناءكم شبه المؤكّد. هل لاحظت أيّ شيء في حجج الإثينيّين؟

لا شيء في ما يتعلّق بالخطأ والّصواب، أليس كذلك. فقط في ما يخصّ القوّة.

«وبالنّسبة للقسم الأعظم، أجاب شعب ميلوس باللّغة ذاتها. باِستثناء أمر واحد، عندما قالوا إنّ الآلهة ستعاقب الأثينيّين لتصرّفهم *بدون وجه حقّ*. لا يزال

الأمر متعلّقاً بالعواقب السّيئة للأثينيّين، لكنّها بالحدّ الأدنى تلميح إلى فكر أوسع عن العدالة. وكان ردّ الأثينيّين –»

دعني أخمّن – أن تعود العدالة إلى من لديه العصا الأكبر؟

«كلب جيّد! نعم، قالوا إنّ الآلهة لا تتدخّل في المسار الطّبيعيّ للأشياء، والمسار الطّبيعيّ هو أن يهيمن القويّ على الضّعيف. يبدو الآن أنّنا وصلنا إلى هذه النّقطة الّتي يبدو فيها أنّ العدالة تساوي القدرة على تطبيق ما تريد تطبيقه. وقد يكون هذا صحيحاً.

وهكذا لدينا هذه الحالة هناك. إنّ تحدّينا هو إقناع الأثينيّين بعدم الهجوم، لصدّ من يلوّحون بذيولهم و"النّيتشويّين"».

نظر إليّ مونتي وملامح الِاكفهرار على وجهه الصّغير. الكلاب المالطيّة عرضة للبقع الدّاكنة المتدفّقة من قنوات الدّمع الّتي غالباً ما تعطي مونتي جوّاً ينمّ عن عمق التّفكير، كما لو أنّ الِاكفهرار أسلوبه في التّفكير العميق.

وإذا لم نستطع؟

«عندئذٍ نكون قد تعلّمنا شيئاً، أحياناً نتقدّم من خلال تعلّم حدودنا. وأحياناً لنكتشف من نحن، وماذا لدينا، عليك الِاحتماء وليس الظّهور».

في منتصف الطّريق أثناء العودة إلى بيت الهضبة، لاحظتُ أن مونتي يعرج.

«أتريد أن أحملك؟» قلت له. لاحظت لفترة طويلة أنّه أقلّ حيويّة من عادته. اِعتاد أن يقفز إلى سريرنا في الصّباح، لكنّه بدأ في هذه الأيّام برفع ساقيه الأماميّتين، وينتظر أن يتمّ رفعه.

حسناً، لكن أنزلني قبل أن نصل إلى طريقنا. لا أريد لهذا الكلب الألمانيّ أن يراني.....

وهكذا اِلتقطته، ملوّثاً بالوحل كما يكون عادة، وحملته حتّى وصلنا إلى

النّاصية، هكذا يستطيع أن يتبختر بقيّة الطّريق. وبعد ذلك، عندما أوشكنا أن نصل إلى البيت، توقّف تماماً ونظر إليّ.

لقد نسيتُ تقريباً. أولئك الرّجال من شعب ميلوس.... ماذا حدث بعد ذلك؟

«أوه، نعم. لم يوافقوا على شروط الأثينيّين. وحاصرهم الأثينيّون، وٱستولوا على المدينة في النّهاية».

وبعد ذلك؟

«قتلوا جميع الرّجال في المدينة، وباعوا النّساء والأطفال كعبيد».

أوه.

«أنت سألتني».

نعم سألتك.

المشوار (2)

أفلاطون وأرسطو والحياة الرّائعة

في هذا المشوار، ناقشت مع مونتي نظريّات أفلاطون وأرسطو الأخلاقيّة، والفلسفات القديمة الّتي تركّز على فكرة السّعادة وطبيعة الحياة الرّائعة. كما الفكرة الّتي تقول إنّ الأخلاق هي إحساس خاصّ أو شعور يسيطر على البشر.

«بُراحٌ أو مقبرة؟»

مقبرة. لكن تعدني بألّا تكون كئيباً، وتباشر بتأليف مرثيّاتك من جديد؟

«هذا نوع من المرح وحسب. هواية، يحتاج المرء إلى هواية».

مقبرتنا المحلّيّة جميلة جدّاً بالفعل. بعض الأجزاء مشذّبة جدّاً ومرتّبة ومنظّمة مثل شطرين للشّاعر الإنكليزيّ «الكسندر بوب». ثمّة مناطق أخرى أصبحت جامحة، وإذا تراجع وضعي مع عائلتي بشكل كبير، لديّ أخيولات غريبة تتضمّن كوخاً مصنوعاً من أغصان الصّفصاف، وفراش من نبات السّرخس برفقة مونتي بهدف الدّفء، وزجاجة شراب كحوليّ سيّئ المذاق من أجل الشّراكة. لا يوجد هناك كثير من المشاهير، لكن لدينا مُبتكرُ لغسل الفم، «جوزيف ليستر»، مدفون تحت لوح من الغرانيت العاديّ. وصحيح ما قاله مونتي بأنّني أمضيت هناك وقتاً طويلاً في تأليف مرثيّاتي الخاصّة، وتخيّلتها منقوشة بعناية على شاهدة قبري.

تحت هذا اللّوح

يستلقي طوني المسكين؛

كان يوماً من لحم ودم، وأصبح الآن عظاماً،

مات وحيداً.

لا، ليست كئيبة على الإطلاق.

ثمّة مقعد طويل في نهاية المقبرة، يقبع بين شجرة زعرور وشجيرات هرمة. غرّدت طيور الشّحرور وعصافير «الصّعنج»[15] في الدّغل، وإذا كنتُ محظوظاً، فسيغطّ نقار خشب أخضر بقوّة (غالبا ما تبدو هذه الطّيور كأنّها اِلتهمت فطيرة، وثملت من الخمرة) ويبدأ البحث عن النّمل بين العشب. يا له من مكان مناسب «للتّفلسف». وحدث يوماً أن أصاب مونتي هياج هائل، فهرول بين القبور متعقّباً أيّ شيء ترك رائحة: ثعلباً أو أحد المشرّدين. وأخيراً، عاد وتعرّش على ركبتيّ وهو مبلّل.

«هل تشعر بتحسّن في وركك؟»

مجرّد وخز غريب. *لا يهمّ، إلى أين كنّا؟* قال ذلك وهو يكتم تثاؤبه.

«في وقت متأخّر من اللّيل؟»

كان ذلك تثاؤباً من الإثارة. إنّه شيء يخصّ الكلاب. ربّما يمكن أن تقدّم لي البنود الرّئيسة للموضوع.

«بالتّأكيد.

1- ليس هناك اِتّفاق على القيم الأخلاقيّة، فهي تختلف للغاية بين الشّعوب، وتختلف باِختلاف الزّمان والمكان.

(15) عصفور أوراسي، عادة ما يكون برأس أزرق وأجنحة وذيل داكنين (م).

2- يقول بعضهم إنّ هذا دليل على أنّ الأخلاق تعتمد على السّلطة أو العرف أو النّزوة، وهذه كلّها أشياء تتغيّر.

3- لذلك فإنّ التّحدّي هنا هو رؤية ما إذا كنّا نستطيع إيجاد أساس موضوعيّ للحكم على ما هو صحيح وخاطئ، وإيجاد طريقة للحكم على أنّك كلب جيّد أو سيّئ بالطّريقة ذاتها الّتي أقول فيها إنّ هذا مثلّث أو مربّع.

4- وسنكون قادرين، بوجود القليل من الحظّ، على إقناع الأثينيّين ألّا يقتلوا سكّان جزيرة ميليوس ويستعبدوهم.....

فهمت، شكراً.

«حدثت محاولات كثيرة لوضع أساس موضوعيّ للأخلاق، لكنّك تستطيع تقسيمها بدقّة إلى حدّ مّا، دعني أتأكّد، نعم، إلى خمسة مسارات مختلفة من التّفكير الأخلاقيّ».

هلّا ذكرتها لي؟

«سأذكرها لك، لكنّها لن تصبح مفهومة إلّا إذا تعمّقنا في التّفاصيل. ***أوّلاً***، لدينا واقعيّة أفلاطون الأخلاقيّة المتطرّفة – وتعني الواقعيّة من هذا المنطلق أنّه يؤمن بأنّ الخير، على سبيل المثال، هو شيء موجود فعلاً باعتباره كيانا موضوعيّا ومنفصلا. ***ثانياً***، لدينا فكرة أنّ للبشر حاسّة أخلاقيّة قريبة من الحواسّ الأخرى كالبصر أو الشّمّ. ***ثالثاً***، لدينا القوانين الأخلاقيّة الأرسطيّة الخاصّة بالفضيلة، وأنظمة قوانين أخلاقيّة أخرى قامت على فكرة عيش حياة رائعة. ***رابعاً***، لدينا قوانين الأخلاق الواجبة[16] أو القوانين الأخلاقيّة الخاصّة باِتّباع القواعد، ولا سيما التّركيز على إيمانويل كانط. ***خامساً*** وأخيراً، لدينا النّفعيّة، أو قوانين أخلاقيّة قامت على تعظيم السّعادة. هل فهمت؟»

(16) "الأخلاق الواجبة – deontological ethics": وهي الأخلاق المعياريّة الّتي تحكم على مدى أخلاقيّات أيّ سلوك على أساس مدى ملاءمة هذه السّلوك للقواعد أو المعايير (م).

أعتقد ذلك. نوعاً مّا. كما قلت، هي في هذه اللّحظة مجرّد كلمات. لكن لديّ سؤال سريع حول هذه الكلمات. أنت تقول أحياناً «أخلاقيّ» (moral)، وأحياناً «أخلاقيّ» (ethical). هل لهما المعنى ذاته؟

«كلب مميّز – أنت تفكّر الآن مثل الفيلسوف. من المهمّ جدّاً أن نتيقّن من اِستخدام الكلمات بطريقة مناسبة، ومن وضوح معانيها. وحتّى هذه اللّحظة، لا أزال أستخدم المصطلحات بشكل عشوائيّ قليلاً، وأعني بها بشكل عامّ ***الإهتمام بكيفيّة التّمييز بين الخطأ والصّواب***. وعلى أيّة حال، تعني كلمة «ethics» قاعدة سلوك موجودة في بيئة أو مؤسّسة معيّنة – إذا تحدّثت عن ***قوانين أخلاقيّة للعمل***، يعني ذلك أنواع السّلوك الّتي تُعتبر مقبولة في هذا السّياق. لكنّها ستتضمّن أيضاً القاعدة الموجودة في المجتمع ككلّ. أمّا كلمة «morals» فتعني مجموعة المبادئ الّتي يعيش وفقها شخص معيّن. لكن هناك القليل من الضّبابيّة في هذا التّمييز، لذلك دعنا نفترض أنّه عندما أستخدم أيّاً منهما فأنا أستخدمهما بالمعنى ***الّذي له علاقة بِاتّخاذ قرار حول الخطأ والصّواب***».

فهمت، تابع.

«هذه هي المسارات الخمسة... وسأبدأ بما أعتبره مجموعة من الأشياء الفاشلة – طرق التّفكير بالأخلاق الّتي لا تساعدنا بشكل فعليّ على الإطلاق. ومن ثمّ سنبحث الجيّدة منها، ونكتشف تلك القدم الّتي تتوافق مع النّعل الذّهبيّ».

إنّه مشروع!

«سأبدأ مرّة أخرى مع أفلاطون. على الرّغم من أنّه الأكثر توقيراً واحتراماً بين الفلاسفة، كما أوضحت سابقاً، وقد اِبتكر هذا الموضوع بأسلوب جيّد، أعتقد أنّه فهم كلّ شيء تقريباً بطريقة خاطئة».

ماذا؟

«رأينا أنّ أفلاطون قد ربط الفضيلة بالسّعادة في بعض حواراته. لكنّه كان يعني أنّ الفضيلة تؤدّي إلى السّعادة، والرّذيلة إلى البؤس. ولا يقول إنّ الفضيلة تكافئ السّعادة. إذن، ما هي الفضيلة بالنّسبة إلى أفلاطون؟ سنحتاج للإجابة الكاملة على هذا السّؤال إلى البحث في ميتافيزيقيّات أفلاطون-»

إلى ماذا؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

«.... ولا سيما الأنطولوجيا الخاصّة به –»

ماذا قلت؟

«حسناً، سأتحدّث عن هذه الأشياء لاحقاً بالتّفصيل، أمّا الآن، الميتافيزيقا والأنطولوجيا هي أجزاء من الفلسفة الّتي تتعامل مع الطّبيعة المطلقة للواقع».

حسننننناً....

«أفلاطون هو الشّخصيّة الموضوعيّة الأسمى في الأخلاق. وهو يؤمن بأنّ الفضيلة أو الخير ***أشياء حقيقيّة***، ونماذج لكيانات يسمّيها ***صوراً***، موجودة في عالم الكمال مع مبادئ أخرى مثل الجمال والعدالة والمساواة والشّجاعة.

نظريّة أفلاطون عن الصّور هي إحدى أكثر النّظريّات الفلسفيّة شهرة، وصعوبة أيضاً، لكن فكّر الآن بالصّور بِاعتبارها المثل، القالب الأبديّ المثاليّ لأشياء تمّ نسخها بشكل غير ناضج في العالم المحيط بنا».

أكافح لكي أفهم، بكلّ صدق.

«سوف تفهم، الأمر صعب قليلاً، لكنّه سيتّضح. اِبقَ معي وحسب. إنّ سبب بقاء المواطنين المساكين، في حوارات أفلاطون الأولى، مخدوعين للغاية وغير قادرين على الإجابة على سؤال سقراط «ما هي X؟»، هو أنّهم لا يعرفون الطّبيعة الخيّرة، وما إلى ذلك، لكنّهم رأوا الأمثلة المربكة أمامهم، وآنعكاسات سيّئة للخير الحقيقيّ. وقد آمن أفلاطون أنّه إذا عرف المرء ما هو الخير، فسوف يفعله

دوماً. يأتي الشّرّ دوماً من الجهل. ويكون الطّريق إلى الفضيلة من خلال المعرفة. وهذه المعرفة هي معرفة الصّور.

يكون الفعل خيّراً إذا شابه صور الخير، أو *اِشترك فيها*. سنقوم في مشوار آخر بتفحّص المشكلات المرتبطة بنظريّة الصّور بإسهاب، لكن يكفي الآن الإشارة إلى أنّه من الصّعب جدّاً أن نبيّن بشكل معقول كيف يمكننا أن نعرف صور الخير، نظراً لأنّه ليس لدينا مدخل مباشر إلى عالم الكمال الّذي تقيم فيه الصّور. وحتّى إذا اِستطعنا بطريقة مّا اِكتشاف هذا الخير الموضوعيّ، فلدينا قضيّة العلاقة بين صورة الخير، وأيّ عمل فرديّ يتعلّق بالخير. كيف يمكن لقطرة هائلة من الخير المثاليّ في مكان مّا في هذا العالم الكامل، المكان الّذي يتجاوز الإدراك، أن تساعدني في اِتّخاذ قرار ما إذا كان عليّ أن أضع نقوداً في قبّعة فنّان على الرّصيف، أو أن ألتقط القبّعة وأركض إلى أقرب حانة وأنا أضحك؟»

لا تنظر إليّ، أنا مجرّد كلب صغير ساذج غير مثاليّ.

«يجيب أفلاطون بأنّ كلّ شيء يتّضحُ حالما نعرف صور الخير. حيث يُثبت النّظام الأفلاطونيّ بُنيةً ثلاثيّة الأبعاد لأيّ حكم أخلاقيّ. هناك صورة الخير، وهناك الفعل في العالم، وهناك الحكم الأخلاقيّ. علينا أن ننظر إلى الفعل، ونقارنه بالصّور، ونصدر الحكم. أمر بسيط».

يبدو منطقيّاً.

«لكن لدينا هنا مشكلة خطيرة بالنّسبة إلى أفلاطون. كان لدى الفيلسوف الأسكتلنديّ العظيم من القرن الثّامن عشر، ديفد هيوم، بصيرة مقلقة للغاية بما يخصّ لغة الأخلاق. رأى أنّ هناك نموذجين مختلفين للغاية من العبارات المتضمّنة في الاِدعاءات الأخلاقيّة. هناك عبارات بصيغة «**يوجد**»، وعبارات بصيغة «**يجب**». تخبرك عبارات «**يوجد**» عن الواقع والأشياء الموجودة في العالم. بينما تقوم عبارات «**يجب**» بمحاكمات أخلاقيّة، أو تخبرك بما يجب أن يكون عليه

الحال. ويشير هيوم إلى عدم وجود طريقة منطقيّة للاِنتقال من إحداهما إلى الأخرى».

ماذا؟

«يقول هيوم إنّه عندما يقرأ لفلاسفة آخرين أو مفكّرين أخلاقيّين، يرى أنّهم يستخدمون لغة «**يوجد**» و«**لا يوجد**»، ثمّ ينتقلون فجأة إلى لغة «**يجب**» و«**لا يجب**»، دون أيّ تفسير أو تبرير لذلك الاِنتقال.

دعنا نفترض الآن أنّ صورة الخير موجودة كتصريح لواقع؛ لكن كيف يمكننا أن نذهب من هذا التّصريح ***الوصفيّ*** إلى تصريح إلزاميّ عليك أن تتصرّف وفقه بطريقة معيّنة؟ يبدو ببساطة أنّه لا يوجد سبب مفروض لإجراء قفزة بينهما. هل تتابعني؟»

أعتقد ذلك. لديك هذه الصّورة من ذلك الشّيء الخيّر الّذي تحدّثت عنه، ولديك بعض النّاس الّذين يفعلون أشياء. وتريد اِستخدام هذه الصّورة لتُظهِرَ أنّ ما يفعله النّاس صحيح أو خاطئ. لكن لماذا يجب أن تكون هذه الصّورة، في حال وجودها، مبرّراً لك لتقول إنّ ما يفعله النّاس صحيح أو خاطئ؟ هل هذا صحيح؟

«تقريباً. أو (تقريباً بالطّريقة الكلبيّة)»[17]

«لكن عندئذٍ، أليست مشكلة كبيرة لجميع هذه النّظريات عن الخطأ والصّواب؟ ألم يكن لديك دوماً تلك الفجوة بين "يوجد" و"يجب"؟».

«ملاحظة رائعة. وأنت محقّ. إنّ كشف هيوم للفجوة بين "**يوجد**" و"**يجب**"، بين تصريحات عن الواقع وتأكيدات على القيمة، يشكّل مشكلة بالنّسبة إلى أيّ نظريّة موضوعيّة عن الحكم الأخلاقيّ، وهي تلقي بظلالها على هذا النّقاش كلّه.

(17) تلاعب بالكلمات: أضاف اللّاحقة "ly" إلى كلمة "woof" الّتي تعني "نباح" ليصبح المعنى "أنت تفهم بأسلوب الكلب" (م).

تمّ وضع معظم النّظريّات الأخلاقيّة الّتي سندرسها لرأب هذه الفجوة. وكان الحلّ بالنّسبة إلى "هيوم" أنّ فجوة "يوجد/ يجب" لا يمكن رأبها بالمنطق أو العقلانيّة. ما يحدث هو أنّ العادات والأعراف تقودنا ببساطة إلى إيجاد رابط بين حقائق معيّنة (سرقة قبّعة الفنّان على الرّصيف) والحكم الأخلاقيّ (توقّف، لا تسرق!). لكنّ أفلاطون يريد ما هو أكثر من ذلك. إنّه يريد تثبيت ***رابط ضروريّ*** بين وجود صورة الخير، والمطلب الأخلاقيّ المتوافق معه.

المشكلة الجوهريّة هي أنّ وجود الصّور الكاملة تحديداً أمر مثير للجدل للغاية - وسوف نناقش هذه الفكرة بمزيد من الحيويّة في مشوار لاحق!

قبل المضيّ قدماً إلى أنظمة أخلاقيّة أخرى، يجب أن أشير إلى أنّ عمل أفلاطون المفصّل حول كيف يجب أن نعيش لا يتطلّب في الواقع نظريّة الصّور بشكل واضح. ففي كتابه ***الجمهوريّة***، يوضّح أفلاطون مجتمعه المثاليّ الّذي يكرّر في تنظيمه بنية "طاقة حياة"[18] الإنسان. تتكوّن "طاقة الحياة" بالنّسبة إليه من ثلاثة أجزاء، ***الرّوح والنّزعة الغريزيّة والعقل***. ***الرّوح*** ينبوع الشّجاعة، وينبوع الغضب. ولن يدهشنا أن تكون ***النّزعة الغريزيّة*** منبع الشّهوة والجوع. وهناك ***العقل*** القائد، سائق العربة الّذي يسرج قوى الرّوح والنّزعة الغريزيّة ويوجّههما.

ويوجد في الدّولة ثلاث طبقات أيضاً: طبقة الحكّام - أولئك الأوصياء الّذين نراهم في المقدّمة مباشرة، وهم يشبهون الكلاب المخلصين إذ يقومون برعاية سكّان المنزل ويرافقون الدّخلاء -»

يبدون رفاقاً رائعين!

(18) يوجد في اللّغة الإنكليزيّة كلمتين يمكن ترجمتهما إلى "روح". الأولى هي "soul" وتعني ذلك الشّيء المجهول الّذي يُبقي الإنسان على قيد الحياة، وتختفي عندما يموت الإنسان، وأسميتها هنا "طاقة الحياة"، والثّانية هي "spirit" وهي الّتي تمنح الإنسان صفاته كأن يكون شجاعاً أو جباناً، جيّداً أو سيّئاً، مادّيّاً أو مؤمناً بالماورائيّات، كما تستخدم إِسماً للأشباح أو الأرواح الشّرّيرة عندما يشعر الإنسان بوجودهما (م).

«ربّما عليك إعادة النّظر في ذلك... ثمّ لدينا الجنود (أو المساعدون) وأخيراً، العمال. الأوصياء الّذين تتوافق «طاقة حياتهم» مع المنطق، يخضعون منذ نعومة أظفارهم إلى تدريبات على الحكمة، وتمكّنهم الحكمة من معرفة الصّور وفهمها، وقيادة الدّولة وفقاً لها، وتحقيق اِنسجام حياة الإنسان مع الجمال الكامن وكمال الكون».

ما هو الأفضل من ذلك؟

«في الدّولة، كما في «طاقة الحياة»، تأتي العدالة من كلّ جزء أو طبقة تؤدّي وظيفتها المناسبة، دون أن تتداخل مع الأجزاء الأخرى. يعمل الأوصياء بالقيادة، والمساعدون بالقتال، والعمال بالعمل. إنّه نظام صارم يجسّد عدم ثقة أفلاطون بالدّيمقراطيّة وما تجلبه من اِضطراب من وجهة نظره.»

أحد الجوانب الّتي تبدو حديثة وجذّابة في دولة أفلاطون هي المساواة النّسبيّة الّتي تقدّمها للنّساء. حيث يمكن للنّساء اِتّخاذ مواقع الأوصياء، ويجادل أفلاطون صراحة بأنّهنّ قادرات على تحقيق الحكمة والمعرفة المطلوبتين. ويجب أن ينشأ أولاد الأوصياء بشكل جماعيّ، ممّا يمنع التّحيّز والمحاباة أو الرّوابط العائليّة من التّدخّل في القيادة السّليمة للدّولة. وللسّبب ذاته، يُمنعُ الأوصياء من الحصول على أيّ ملكيّة شخصيّة. ويشتهر أفلاطون بأنّه حظر معظم الفنّ والموسيقى والأدب في دولته. فالفنّ يُبعدنا عن الواقع باِعتباره نسخة عن نسخة؛ والموسيقى فاسدة، باِستثناء تلك المارشات العسكريّة. والأدب يكذب....

بالحديث عن الكذب، ربما كان من أكثر جوانب النّظام شيطنة هو مفهوم الكذبة النّبيلة، أو الأعمال الخياليّة الّتي توصف بالدّينيّة[19]، اِعتماداً على التّرجمة الّتي تقرؤها. لكي تُثني العمال عن التّفكير بأنّهم ربّما يستحقّون شيئاً أفضل من

(19) "pious fiction": الرّوايات الخياليّة، وغالباً ما تكون دينيّة، يهدف المؤلّف من خلالها إلى تحقيق بعض الدّفع والتّحفيز للآخرين (م).

الكدح طول اليوم لتحسين حالتهم، اِقترح أفلاطون أن يتمّ إخبارهم بشيء يعترف هو نفسه بأنّه غير صحيح – أنّ كلّ طبقة تمّ تشكيلها من نموذج معدن مختلف، العمّال من الحديد والنّحاس، والمساعدون من الفضّة، والأوصياء من الذّهب (طبعاً!). والدّفاع الوحيد عن هذا الكذب هو أنّه يعزّز التّماسك الاِجتماعيّ والمواطنة.

أنت لا تقتنع بذلك طبعاً.

طبعاً. نحن في دولة تقود جماهيرها نخبة حاكمة بالقوّة والأكاذيب؛ مكان يفتقر إلى الفنّ، وليس فيه الكثير من متع الحياة. وأقرب تجسيد لهذه الدّولة في العالم الحقيقيّ هو إسبارطة، العدوّ القديم لأثينا الدّيمقراطيّة. ولا يدهشنا أنّ دولة أفلاطون المثاليّة ليس لديها الكثير من المؤيّدين اليوم. لقد أدرجهُ كارل بوبر – الّذي سنناقشه في المشوار القادم، عندما ناقش فلسفة العلم – بين أعداء ما أسماه ***المجتمع المفتوح***. لكن هناك طرق لتقديم دفاع جزئيّ على الأقلّ. يوافق معظمنا على أنّ الخبراء مهمون في أيّ مجال من المجالات. وأفلاطون نفسه اِستخدم مثال قبطان السّفينة. إذا كان لك حرّيّة الاِختيار بين الإبحار مع قبطان تدرّب على مدى سنوات، واكتسب جميع المهارات اللّازمة للإبحار بأمان، وشخص يقول، «نعم، أعتقد أنّني سأجرّب ذلك» دون الحصول على أيّ مهارات ضروريّة، فستبحر بسفينة ذلك الّذي اِستحقّ قبّعة القبطان، أليس كذلك؟ ينطبق الأمر نفسه على جرّاحي الدّماغ أو بنّائي الجسور. فهل تستغرب فعلاً أن يكون العمل الأكثر أهمّيّة على الإطلاق - قيادة الدّولة – بأيدي خبراء؟

كان أفلاطون يتوق إلى الاِستقرار والنّظام – ولا يثير الاِستغراب أن مردّ ذلك إلى الفوضى الّتي عانى منها وطنه معظم حياته. كانت الدّيمقراطيّة بالنّسبة إليه تمثّل الفوضى. وأنظمة الحكم الأخرى، الّتي قامت على الحاكم الفرد (الملكيّة، أو القمعيّة) أو على أساس مجموعة تتميّز فقط بالثّروة (الأوليغارشيّة) أو الاِمتيازات الموروثة (الأرستقراطيّة)، كانت تبدو أكثر سوءاً في حال وجودها.

لكن صور أفلاطون ليست جيّدة. وتُعتبر فاشلة تماماً عندما يتعلّق الأمر بإيجاد نظريّة أخلاقيّة فعّالة، ومع أن جمهوريّته قامت على مبادئ أخلاقيّة، يبدو بحثه عن الفضيلة والحقيقة توقّعًا لأنظمة القرن العشرين الشّموليّة.

هكذا ينتهي نقاش أفلاطون. ماذا بعد؟

لا تقلق، سيعود أفلاطون! محاولتنا الثّانية لإيجاد أساس متين للأخلاق تتداخل مع موضوعيّة أفلاطون. يبدأ هذا بالحدس الموجود لدى كثرة منّا بأنّهم يعرفون ما هو الصّواب، وما هو الخطأ. ربما قُلتَ يوماً، ***اشعر في اعماقي***، عن أداء معيّن أنّك تعرفُ أنّه خاطئ. وإذا تمّ الضّغط عليك لإثبات مصدر ذلك الشّعور، تجد نفسك تكرّر عبارة، ***أعرف ذلك وحسب***، وقد يترافق تصريحك بعبوس في الوجه، أو بوضع يدك على صدرك.

القناعة بأنّ كلّ إنسان لديه شعور أخلاقيّ لا ينضب، مشابه لَمَلكاتنا الطّبيعيّة الأخرى، ظهر للمرّة الأولى على يد فلاسفة القرن السّابع عشر والثّامن عشر من أمثال «أنطوني أشلي كوبر»، أيرل شافتسبري الثّالث (1671 – 1713) و«فرانس هاتشسون» (1694 – 1746). ربّما تمّ التّركيز دينيّاً - تلك المعرفة بالخير والشّرّ الّتي غرسها في أعماقنا إله خيّر وصالح، أو ربّما أُعطِيت نسيجاً إنسانيّاً – على أنّنا بطبيعتنا مخلوقات خيّرة صالحة ولطيفة. وإذا خبا ذلك الوميض الخيّر أحياناً، فذلك بسبب ما يُسمّى الحضارة.

تروق لي هذه الفكرة حتّى الآن. أمر رائع أن تعتقد بأنك تعرف الكثير عمّا هو خير.

أحد إصدارات مفهوم الأخلاق (والإنسانيّة) وضعه الفيلسوف الفرنسيّ جان جاك روسّو (1712- 1778). وهو يرى أنّ لدى البشر بشكل طبيعيّ شعورين أخلاقيّين فقط. الأوّل شعور عقلانيّ كامل يتمثّل في الحفاظ على الذّات أطلق عليه اِسم «amour de soi». والثّاني هو خوف من المعاناة الّتي يختبرها آخرون،

وأطلق عليها اِسم «pitié» (التّعاطف). اِستولت الإجراءات الحضاريّة على حرّيّتنا القديمة وآستبدلت بها كلّ الرّذائل المعروفة في العالم الحديث، وأفسدت «الحفاظ على الذّات» وحوّلته إلى «حبّ الذّات» – حبّ الذّات من نوع مختلف تماماً بالنّسبة إلى الإنسان «الحديث»، حبّ الذّات المدفوع بالحسد والرّغبة في القوّة والثّروة.

الإصدار الأحدث عن أنّ لدينا إحساساً أخلاقيّاً فطريّاً طرحه في القرن العشرين الفيلسوف «جورج إدوارد مور» (1873- 1958). إذ جادل بأنّ الخير هو كيان بسيط، شيء ندركه غريزيّاً دون الحاجة إلى تحديده. وبالتّأكيد، لا يمكننا تحديده سوى بالإشارة إليه. نحن ببساطة *ندرك* الخير عندما نراه (أو نشعر به)، كأنّه حدس. وهو بهذا السّياق يشبه اللّون. فأنت لا تحتاج إلى نظريّة معقّدة لتفسير اللّون *الأحمر* – يمكن لأيّ شخص يرى الألوان بالشّكل العاديّ أن يراه. (يوجد طبعاً تعريف علميّ للّون الأحمر، له علاقة بالأمواج الضّوئيّة عند تردّد معيّن، لكن ليس هذا ما نعنيه عندما نقول «هذه السّيّارة حمراء»). وبالطّريقة ذاتها نرى الخير أو الصّواب. وربّما كانت المقارنة الأفضل هي النّكهة (التّذوّق). فالصّواب كالنّكهة الحلوة؛ والخطأ كنكهة لاذعة كريهة.

ثمّة قبول أوّليّ لوجهة النّظر هذه، وقد حظيت بشعبيّة كبيرة بين الفنّانين والمفكّرين (لكن لم تنل إعجاب كثير من الفلاسفة) في النّصف الأوّل من القرن العشرين. كما أنّ حجّة أتباع المذهب (الاِنفعاليّ) الّتي أشرنا إليها في المشوار السّابق قد تمّ اِبتكارها في الأصل لمواجهتها.

حقّاً؟ لا أفهم ذلك تماماً.

«يرى مور أنّه طالما بقي إحساسك الأخلاقيّ يعمل بشكل سليم فستكون محاكماتك الأخلاقيّة ***صحيحة***. بالطّريقة ذاتها الّتي يكون فيها لشخص مّا رؤية لونيّة طبيعيّة، ويكون على حقّ في الحكم على أنّ التّفاحة خضراء، والسّماء زرقاء.

ويوافق أتباع المذهب (الإنفعاليّ) على أنّه شعور قد يكون لديك، لكنّ التّعبير عنه لا يتوافق مع أيّة حقيقة موضوعيّة. فهو يشبه تماماً أنّك تفضّل الشّاي على القهوة».

حسناً، أتّفق معك.

«لذلك علينا أن نتحرّى بدقّة أكثر عن ماهية الأشياء الجيّدة الّتي يزعم مور أنّنا ندركها بسهولة. ولن يُدهشنا أن يرى هو وأصدقاؤه أنّ الأشياء الّتي صادف اِنتشارها بشكل واسع في مجموعتهم، مجموعة بلومزبيري[20]، كانت أشياء جيّدة. لقد ثمّنوا الصّداقة والحبّ والفنّ والطّبيعة. ورفضوا القوانين أو القواعد الّتي تتداخل مع تمتّعهم بمتعهم الخاصّة».

يبدو ذلك منطقيّاً. أين الخطأ في ذلك؟

«يمكننا أن نتتبّع الخطأ في كلّ خيط من خيوط نسخة مور عن نظريّة الشّعور الأخلاقيّ. الأوّل، أنّه لا يمكن تحديد الخير، فهناك مغالطة منطقيّة في طرح السّؤال. (تذكّر أنّه لوكان تحديد الخير ممكناً، لكان باِستطاعة فكرنا اِلتقاطه دون الحاجة إلى شعور أخلاقيّ). جرت محاولات كثيرة لتعريف الخير. وسنصادف العديد منها مع تقدّمنا في هذا الكتاب. وكانت إجابة مور على أيّ تعريف هي القول، «أوه، ليس هذا ما يعنيه الخير **فعلاً**. تلك أشياء ربّما ***اِرتبطت*** بالخير، لكن الخير شيء آخر، ويبدو أنّ ما أستطيع رؤيته أيّها الصديق العزيز، لا تستطيع أنتَ أن تراه». وبناءً عليه، تستخدم نظريّة مور الإصرار بدلاً من الحجّة: نحن لا نقدّم مبرّرات للتّصريح بأنّ الخير نوعيّة واضحة وبسيطة مثل اللّون. لقد قيل لنا أنّه إذا لم نره، فذلك يرجع إلى نقص في الذّكاء أو الثّقافة، مثل شخص لا يفهم الأوبرات أو الباليه.

---

(20) مجموعة من الفنّانين والكتّاب البريطانيّين المقيمين في لندن، والّذين كانوا يجتمعون في منطقة بلومزبري وسط لندن، وكان لهذه المجموعة أثر بالغ في الأدب والاِقتصاد والنّقد (م).

لكن التّحدّي الأساسيّ لكلا نموذجي حجّة الشّعور الأخلاقيّ (أنا أجمع هنا موضوعيّة مور ووجهات النّظر السّابقة عن كون الأخلاق صفة موجودة فينا) يطرحه ببساطة أولئك الّذين يعارضون المفهوم اللّطيف الّذي تتمثّل به البشريّة والمجتمع».

ماذا، هل توشك أن تقول لي إنّ النّاس ليسوا خيّرين بطبيعتهم؟ اِعذرني إذا لم أفقد الوعي من الصّدمة.

«وجد العديد من الفلاسفة أنّه يمكن وصف البشر بأيّ شيء سوى أنّهم خيّرون. واشتهر "توماس هوبز" (1588 – 1679) بأنّه يرى طبيعة الحياة عبارة عن حرب الجميع ضدّ الجميع، وتصبح بوجود الإنسان بغيضة ووحشيّة وقصيرة، حيث لا وجود للمحة إحساس أخلاقيّ في قلب ذلك الهمجيّ الحقير. وكانت قناعته بأنّنا نحتاج إلى سيادة قويّة غير مقسّمة للحفاظ على السّلام. وفي كتاب "حكاية النّحل"[(21)] (1714) أظهر لنا "بيرنارد ماندفيل" (1670 – 1733) صورة للإنسانيّة مدفوعة بالأنانيّة والجشع. كما قام بقلب "الكليشهات" القديمة عن براءة الأطفال وطبيعتهم رأساً على عقب. حيث يقول، نعم، يمكننا أن نجد الإنسانيّة بأنقى صورها في قلوب الأطفال... إنّها الإنسانيّة الأنانيّة الّتي لا ترحم، إنسانيّة مغرورة وقاسية وشهوانيّة وملتهبة وعنيفة. وما يثير السّخرية أنّ ماندفيل لا يرى تلك الأشياء دماراً للجنس البشريّ بل فيها خلاصه، إذ يحتاج عمل المجتمع إلى أنانيّة النّاس وعنفهم وطموحهم. فـدون اللّصوص لن يكون للمحامين عمل، ومن دون المحامين ستتلاشى عدّة مهن أخرى وتترك آلاف البشر بحالة من العَوز. يوظّف الفاسق العبثيّ التّافه الخيّاطين والطّهاة ومصفّفي الشّعر وآخرين لإشباع اِنحرافاته. ويكون النّجاح التّجاريّ مدفوعاً بجشع الأفراد الّذين يعملون عليه وأنانيّتهم. وتُضاف هذه الرّذائل كلّها إلى المنفعة العامّة.

---

(21) عنوان بعنوان "The Fable of the Bees" (م).

هكذا فشلت مدرسة الأخلاق الحسّيّة لأنّها تشبه إلى حدّ كبير تبريراً بسيطاً لمفاهيم معيّنة، وليست أساساً موضوعيّاً لِاتّخاذ خيارات أخلاقيّة. إنّ وجهة نظرها المرتبطة بالإنسانيّة ساذجة ومبسّطة. والنّقد الآخر هو أنّ الإِعتماد على الإحساس الدّاخلي بشأن الصّواب والخطأ، أو على مفهوم بسيط، لا يمتّ إلى المنطق أبداً. وبالنّسبة إلى العديد من الفلاسفة، لكي تُعتبر الأخلاقُ أخلاقاً، يجب أن تكون عمليّة عقليّة، وشيئاً نصل إليه بِاستخدام أعلى القدرات البشريّة، فهي ليست مسألة شهوات وتصوّرات. وهي نظرة سرعان ما سنرى كيف يناقشها كانط ببراعة.

لكن قبل أن نبدأ بكانط، يجب أن نعود مرّة أخرى إلى العالم الكلاسيكيّ، وإلى أخلاقيّات تلميذ أفلاطون العظيم، أرسطو (384 – 322 ق. م)».

هل أرسطو فيلسوف صديق للكلاب؟

«إذا كنت تقصد ما إذا كان سهل القراءة والفهم، فمع الأسف، قد يكون جافّاً وتقنيّاً. وذلك لأنّ كلّ ما وصلَنا عنه – وهو كثير جدّاً – وصلنا على شكل ملاحظات على محاضراته. وبالتّالي، على النّقيض من أفلاطون، ليس لدينا أعمال فنيّة واضحة بل مجرّد خطوط عريضة كان يفصّلها ويوضّحها في محاضراته. لكنّه يبقى أحد الفلاسفة الّذين لا يزالون أحياء ومثيرين بأفكارهم الحكيمة».

حسناً. كلّي آذان صاغية.

«يمثّل تفكير أرسطو عدداً من الأنظمة الأخلاقيّة الأخرى في العالم القديم، وقد قامت كلّها على فكرة عيش حياة رائعة. ويعني أرسطو ***بالحياة الرّائعة***، حياة ***سعيدة***. والمصطلح الإغريقيّ الّذي اِستخدمه عندما ناقش فكرة الحياة الرّائعة كان «يودامونيا – eudaimonia»، المعروف بصعوبة ترجمته. إنّه يعني السّعادة وفقاً لطريقة اِستخدامنا للمصطلح، لكن معناه أرحب من ذلك في الواقع. لأنّ «اليودامونيا» لا تتضمّن فكرة السّعادة فقط، بل فكرة العيش المميّز وتحقيق

الوعود والاِزدهار. وهو يتضمّن عنصراً مادّياً، بالإضافة إلى المكوّن النّفسيّ. فالمتشرّد السّعيد المكتفي بمقعده في الحديقة لن يستمتع «باليودامونيا» من وجهة نظر أرسطو. كما أنّ «اليودامونيا» لا تقتصرُ على تجربتك الخاصّة المباشرة. ويؤثّر عليها الإضرار بسمعتك بعد وفاتك، وكذلك المصائب الّتي تحدث لعائلتك».

أفكّر أحياناً في المصطلح الإنكليزيّ الأقرب هو «في حالة جيّدة»، بالطّريقة الّتي نردّد بها عبارة «إنّه في حالة جيّدة، أو إنّه يُبلي بلاءً حسناً» عندما نُسأل عن حال أحد أولادنا في الجامعة أو عندما يبدأ وظيفة جديدة. «يبلي بلاءً حسناً» عبارة تعني أنّه سعيد، لكنّها تعني أيضاً أشياء تتطوّر بشكل مقبول من النّاحية المادّيّة، وأنّه لم يتمّ القبضُ عليه حتّى الآن لأنّه كان يرقص عارياً في الشّارع وهو يضع مخروط الحركة المروريّة على رأسه».

جادل أرسطو بأنّ الأخلاق تهدف إلى مساعدتنا للوصول إلى حالة «اليودامونيا»، ذلك النّوع الواسع من السّعادة. يُطلق على نهج أخلاقيّ مثل نهج أرسطو صفة النّهج «الغائيّ» (teleological)، وهو مشتقّ من الكلمة الإغريقيّة «telos» الّتي تأخذ معنى الهدف أو الغاية، وكلمة «logos» الّتي تعني (في هذه الحالة) العقل. لا نفعل ما هو خيّر من أجل الفعل بحدّ ذاته بل بهدف تحقيق شيء آخر».

مثلما يحدث عندما أجلس وآتي إليك وأفعل أشياء أخرى بهدف أن تداعبني؟

«تماماً، هذا سلوك غائيّ. وكما قلت، نظام أرسطو الأخلاقيّ لم يكن النّظام القديم الوحيد الّذي يهدف للوصول إلى «اليودامونيا». فقد وضعت اِثنتان من أكثر الفلسفات عمقاً في العالم القديم هذا الهدف بعين الاِعتبار. إذ اِعتقد الأبيقوريّون، نسبة إلى المؤسّس «**أبيقور**» (341 – 270)، أنّ السّعادة تأتي من اللّذّة، لذلك تمّ تصويرهم بشكل كاريكاتوريّ باِعتبارهم ساعين للّذّة، وباحثين عن مسرّات جسديّة سهلة الإشباع. وقد ظهر فلاسفة من هذا النّوع في اليونان

القديمة بالتّأكيد - إحدى هذه المجموعات كانت «القورينيائيّة – Cyrenaics» (لا يجب الخلط بينها وبين الكلبيّين «Cynics»)، وكانوا يعتقدون فعلاً أنّ الملذّات الجسديّة هي أهمّ ما في الحياة. وقد أسّس المدرسة «القورينيائيّة» الفيلسوف «أريستيبوس» (435 – 356 ق. م)، أحد تلاميذ سقراط المعاصرين لأفلاطون. وآنبثقت قناعتهم هذه من الِاعتقاد «القورينيائيّ» بأنّ الأشياء الوحيدة الموجودة فعلاً هي الأحاسيس الجسديّة. وآستنتجوا أنّ الشّيء المهمّ الوحيد في الحياة هو اللّذّة الجسديّة، والطّريقة الوحيدة لتجربتها هي ***الآن***. اِلتقطْ أيّة تجربة حسّيّة تستطيع الوصول إليها، واِلتهمْ حتّى التّخمة، وآشرب الخمر، وآعشق. لا تتوقّف عن ذلك. فالغد مجرّد وهم. ولا يوجد شيء سوى الآن، وهذا الإحساس. تناول الطّعام، وآشرب، وتزوّج، لأنّك ستموت غداً».

ما الّذي لا يُعجبك؟

«تأثّر الأبيقوريّون بـ «القورينيائيّين»، لكنّهم كانوا مختلفين للغاية. ربّما تأتي السّعادة من اللّذة، لكن اللّذّة بحدّ ذاتها أمر معقّد للغاية، وليس الِانغماس المستهتر في غرائزنا الرّئيسة أفضل طرق الوصول إليها. كانت اللّذّة بالنّسبة إلى أبيقور هي الخير الوحيد، لكنّه لم يعرّف المتعة باعتبارها خاصّيّة إيجابيّة، بل بوصفها غيابا للألم. ولم يكن الهدف من الحياة جمع أكبر عدد ممكن من المسرّات، بل تخفيف الضّغط والإزعاج. وكانت اللّذّات الّتي دعا إليها تتمثّل في التّفكير الهادئ وتأسيس الحوارات وممارسة الفلسفة نفسها – فكرة مختلفة للغاية عن متع العربدة "القورينيائيّة"».

لا تطعن بها حتّى تجرّبها.

«حسناً، أعتقد أنّ الكلاب تتّبع الطّريقة «القورينيائيّة» – كم مرّة كان عليّ إنقاذك من الموت وأنت تلتهم عظم دجاجة؟».

مرّة واحدةً! ربّما مرّتين. ثلاث مرّات كحدّ أقصى.

«هي ليست طريقة جيّدة تستمرّ فيها على أيّ حال. لقد آمن أبيقور في الواقع بأنّ أكبر مصدر للإزعاج بالنّسبة لأيّ شخص هو الرّعب من الموت والعقاب الّذي قد يتبع ذلك. وكان من أوائل المفكّرين الّذين جادلوا بأنّه لا ينبغي الخوف من الموت، لأنّه ما من حياة بعد الموت، ولن يبقى أيّ شيء منّا لكي يتعرّض للعقوبة. الألم وحده هو المخيف، والموت يضع نهاية للألم. (نزعُ أبيقور لِفتيل قنبلة الموت كان أحد هجماته الدّقيقة العديدة على أفلاطون الّذي حذّر الأشرار من عقوبات مرعبة ملائمة تنتظرهم بعد الموت ....)»

هل أستطيع القول إنّني لم أقتنع مئة بالمئة بهذا السّطر الأخير؟

«تابع...»

أنا أحبّ وجبة العشاء. وهي تمنحني الكثير من المتعة. وما أخشاه ليس الإختناق بعظمة ثمّ الذّهاب إلى مكان يكون فيه العشاء مريعاً، أو تكون فيه نسخة كريهة منك تُريني قطع نقانق لذيذة ثمّ يأكلها هو نفسه. ما أريده حقّاً هو الإستمرار بتناول العشاء هنا إلى الأبد. فكرة أنّه ليس هناك المزيد من وجبات العشاء تجعلني حزيناً.

«أشرتَ إلى نقطة هامّة أيّها الكلب الصّغير. إنّ ردّ أبيقور على ذلك كان أنّ النّسخ المستقبليّة منك لا يمكن أن تشعر بالتعاسة أو الألم أو الجوع، لأنّ النّسخة المستقبليّة منك غير موجودة. وبالتّالي ليس من المنطقيّ أن تقلق بشأن ما ستشعر به حينها، لأنّك لن تكون موجوداً لتشعر. لكنّني أرى أن هذه ليست إجابة حقيقيّة على حجّتك. حجّتك أنّ حياتك ممتعة، ومن غير المعقول ألّا ترغب باِستمرار هذه المتعة أطول فترة ممكنة. وأعتقد أنّ أبيقور سيعود ويقول إنّه ربّما تأتي لحظة تداهمك الشّيخوخة والمرض فلا تعود تستمتع بحياتك، وفي تلك الحالة، لا ينبغي الخوف مما سيأتي».

حسناً، هل يمكننا تغيير الموضوع؟

«كان المنافسون الرّئيسيّون للأبيقوريّين في ذلك الحين، الرّواقيّون الّذين طرحوا أيضاً فكرة أنّه لا ينبغي الخوف من الموت.

اِعتقدت أنّنا نغيّر الموضوع.

«إهدأ قليلاً، إنّها البداية وحسب. ربّما كانت أخلاق الرّواقيّين مرتبطة برؤيتهم للطّبيعة والكون أكثر من أيّة فلسفة قديمة أخرى. فالكون، بالنّسبة لهم، عبارة عن كيان منظّم سليم، يحدّدُ كلّ حدث فيه قانون إلهي أو مبدأ عقلانيّ. القانون الإلهي، الّذي يمكننا أن ننظر إليه باِعتباره الله، شكّل الكون المادّي من النّار، واستمرّ في تشكيل تطوّره ومصيره. وبما أنّ الرّوح الّتي تحدّد كلّ حدث يحدث يمكن وصفها بالخيّرة، فيجب أن يكون كلّ ما يحدثُ خيّراً. وكلّ شرّ يظهر عبارة عن وهم يمكن أن يختفي باِزدياد عمق فهمنا للكون».

حقّاً؟ إذاً في كلّ مرّة تخطو فيها فوق قابس كهربائيّ مقلوب أو قطعة «ليغو»، يُعتبر أمراً خيّراً؟ لن تعرف ذلك أبداً من العواء.

«من الواضح أنّه لم يكن لديهم قوابس كهربائيّة أو قطع "ليغو" حينها. جادل "خريسيبوس" (الّذي تركناه يتأمّل في حبّات الرّمل تلك...) بأنّ كلّ شرّ واضح ضروريٌّ لوجود خير مقابل. فلا شجاعة دون جُبن، ولا لذّة دون ألم. إنّ ذات الحواسّ الّتي تجعلني أصرخ من الألم عندما أدوس قابساً مقلوباً، تجعلني أبتهج بلذّة عندما أداعبك. عندما نرى الأمر بهذه الطّريقة، يصبح الشّرّ ضروريّاً، ويمتزج مع الخير الأعظم. إذ تقوم مهمّة الفيلسوف على فهم الطّبيعة، ويجلب هذا الفهم السّلام حتّى في وجه المعاناة الرّهيبة. إنّ هدف الرّواقيّ مواجهة الموت والمرض والمصائب الأخرى بهدوء؛ أصبح الهدوء ممكناً، ليس بالشّجاعة فقط، بل بمعرفة أنّ كلّ شيء سيصبح على ما يُرام في نهاية المطاف. هكذا كانت "اليودامونيا" بالنّسبة للرّواقي».

هل أعجبك الرّواقيّون؟

«سؤال صعب، وأعتقد أنّ فائدتها تعتمد على ظرفك. إذا كان الوضع ميؤوسًا منه فعلاً، وأنت في وضع يتعذّر إصلاحه، تصبح العقليّة الرّواقيّة نموذجيّة على نحو ما أعتقد. يتخيّل المرء دوماً شخصاً نزيهاً متّهماً ظلماً وقابعاً في السّجن. ويقوم حرّاسه بمضايقته وتعذيبه يوميّاً. يقول الرّواقي، *سوف أتحمّل. هكذا يسير العالم. إذا نظرنا إلى ذلك من منظور الأبديّة، فإنّ معاناتي تافهة، وهي بأيّ حال من الأحوال جزءٌ من خطّة، إذا فهمتها، سأرى الأفضل*. وهناك أكثر من رواقيّ حاز على فرصة اِختبار إيمانه. «سينيكا الأصغر»، الّذي تورّط في مؤامرة لقتل «نيرون» مع أنّ لا علاقة له بالأمر، أمروه بالاِنتحار. قام بقطع وريده بهدوء ثمّ أملى آخر رسائله ووصيّته بينما كان مستلقياً في الحمام».

محترم.

«تميل الرّواقيّة، من جهة أخرى، إلى المحافظة على أيّة حالة تجد نفسك فيها، والقبول بها. ثمّة لحظات يكون قبول القَدَر فيها نوعاً من الجبن الأخلاقيّ».

وكيف تفرّق بين هذه وتلك؟

«من واجبنا نحن البشر أن نختار. لكننا ربما نستطيع أن نحصل على أفضل ما في الرواقية، ونقول إذا كان بالإمكان تغييرها، فلنفعل ذلك، وإذا كنا لا نستطيع، فلنتحمّل».

تبدو أشبه بخطّة. ماذا حدث لأرسطو؟

«أووه، خرجت عن الموضوع قليلاً مع الأسف. يبدأ تحليل أرسطو "لليودامونيا" بحقيقة واضحة مفادها أنّ البشر جميعاً يرغبون في كلّ شيء. نريد الطّعام، ونرغب في العمل في شركة مريحة، ونريد التّقدير من الجماعة الّتي ننتمي إليها، ونريد التّمتّع بصحّة جيّدة. ويقول أرسطو أنّ هذه الأشياء الخيّرة كلّها أدوات لغاية معيّنة: القصد منها تحقيق غاية أخرى، خير أسمى أو خير نهائيّ. وهذا الخير النّهائيّ يجب أن يتوافق مع ثلاثة معايير: يجب أن يكون مرغوباً في حدّ

ذاته؛ لا ينبغي أن يكون مرغوباً ليمكّنك من الوصول إلى خير آخر؛ والأشياء الخيّرة الّتي نرغب فيها يجب أن نرغب فيها بهدف الوصول إليها».

هل من مثال ...؟

«خذ الثّروة مثلاً. الثّروة جيّدة، لكنّها جيّدة بشكل هامّ لأنّها تمكّننا من تحقيق أشياء خيّرة أخرى، وليس من أجلها بحدّ ذاتها. مجرّد الجلوس على كومة من النّقود هو أمر جنونيّ، أليس كذلك؟»

أعتقد ذلك.

«لكن ماذا يمكن أن يكون ذلك الخير النّهائيّ، ذلك الشّيء الّذي تتّجه إليه الأشياء الخيّرة الأخرى كلها؟»

شراء سرير أكثر نعومة؟

«يا لها من إجابة مضحكة. يعتقد أرسطو أنّ هناك مرشّحاً واحداً، شيئاً واحداً فقط نرغب به في حدّ ذاته: السّعادة. أنت لا تريد أن تكون سعيداً بهدف الوصول إلى شيء آخر. بل على العكس، كلّ تلك الأشياء الخيّرة هي ببساطة طريقة لمساعدتك على بلوغ السّعادة. ويكاد لا يشعر بوجود ضرورة لتبرير ذلك: يعتقد أنّه من الواضح جدّاً أنّنا نرغب جميعاً أن نكون سعداء، مع الأخذ بعين الِاعتبار طبعاً أنّنا نتحدّث عن شعور طويل الأمد بالسّعادة.

رسّخ أرسطو السّعادة/ "اليودامونيا" بِاعتبارها الخير المطلق. لكنّ هذا لا يخبرنا تماماً ما الّذي تعنيه السّعادة بالنّسبة إلينا كبشر، وسيكون سعينا فاقدا البصيرة دون معرفة ذلك. ولتوضيح هذه النّقطة، يستفسر أرسطو لاحقاً عن الغاية من **شخص** معيّن، أو ما هي وظيفته. ما الّذي نحن خيّرون من أجله؟ ما الّذي نكون الأفضل فيه؟ لقد قارننا مع الكائنات الحيّة الأخرى. إذ لدينا العديد من الإمكانيّات والقدرات الّتي نشترك فيها مع الحيوانات وحتّى مع النّباتات.

جميع الكائنات الحيّة تنمو وتتكاثر وتتحرّك وتدرك. أو، كما صاغها أرسطو، لدى أرواحنا قدراتٌ ***حركيّة وإدراكيّة ومرتبطة بالتّغذية***. ونحن البشر فريدون من نوعنا في حيازة الجزء ***العاقل*** من أرواحنا. إذن، هذه هي وظيفتنا وسمتنا الفريدة من نوعها الّتي تميّزنا: يمكننا اِستخدام العقل لنتحكّم بنشاطاتنا ونوجّهها. وبالتّالي فالحياة الخيّرة بالنّسبة إلينا يجب أن تشمل العقل. إذ يمكن للعقل أن يساعدنا باِختيار الصّفات الّتي تجعلنا نعيش أرقى حياة يمكن للإنسان عيشها. وهذه السّمات هي الفضائل.

نصل هنا إلى أهمّ أفكار أرسطو عن الفلسفة العقلانيّة، وأكثر أجزاء نظريّته تأثيراً. وقف أرسطو على أعتاب تقليد ما يسمّى «***أخلاقيّات الفضيلة***». الفضائل هي تلك المبادئ أو الصّفات الأخلاقيّة الّتي ينبغي على الشّخص الخيّر أن يتّبعها للوصول إلى «اليودامونيا»، التي تمكن تعريفها بأنها عيش الإنسان أرقى حياة، وأكثرها عقلانيّة. والفضائل الأعلى قيمة بالنّسبة للرّواقيّين هي تلك الّتي تساعد الحكيم المثاليّ على مواجهة آلام التّجربة: الشّجاعة والثّبات والعزم. لكنّ فكرة أرسطو عن السّعادة تحتاج إلى سمات أخرى».

وهي...؟

«ما فعله أرسطو كان تفحّص مجالات مختلفة للسّلوك، أو نماذج الإحساس، وإظهار أنّ طريقة تصرّف النّاس قد تصبح خاطئة إمّا بسبب المبالغة بالجودة النّوعيّة أو بسبب عدم الكفاءة. ونجد بين هذين النّقيضين تحديداً ما أسماه ***مذهب الوسطيّة الذّهبيّ*** – البقعة اللّطيفة الجذّابة، أي الفضيلة».

«ربّما تساعد الأمثلة هنا...»

«طبعاً. في معركة معيّنة، ترى هؤلاء يُظهرون إفراطاً في الخوف ونزعة إلى الهرب. وهذه رذيلة الجبن. وهناك أيضاً أولئك المبالغون في ثقتهم، المندفعون إلى مواقف قاتلة دون أيّ اِهتمام بوجود أدنى فرصة لتحقيق نجاح. وهذه رذيلة

التّهوّر. لكنّنا نجد معنى الشّجاعة بين الحالتين. يكون الشّجاع مدركاً للخطر لكنّ ذلك لا يُثبط عزيمته ويبعده عن أداء واجبه. لن يذهب دون خوف، لكنّه سيواجهه بهدوء وتصميم. لدى أرسطو قائمة كاملة بالفضائل، يُظهر فيها المبالغة والنّقص والحالة الوسطيّة. وبما يخصّ الملذّات الجسديّة (الّتي لا يهملها سوى قلّة من الإغريق القدماء)، لدينا أقصى درجات التّطرّف من الفجور من جهة وعدم الإحساس من جهة أخرى. يظهر التّطرّف الأوّل لدى شخص تستعبده شهواته ورغباته، والثّاني لدى شخص أعمى تماماً عن ملذّات الجسد الحقيقيّة. ولدينا في المنطقة الوسطيّة شخص قنوع لا يبالغ، شخص معتدلٌ بِاستمتاعه بالطّعام والشّراب والمباهج الجسديّة الأخرى. (المثير للاِهتمام أنّ أرسطو يقول إنّ الشّخص الّذي يفتقر إلى هذه السّمة نادر جدّاً لدرجة أنّه لا يحمل اِسماً. من الواضح أنّ الإغريق كانوا شعباً عاشقاً للمتعة. ونحن طبعاً لدينا اِسماً كهذا: "الطّهرانيّ")[22]. بالاِنتقال إلى ما أسماه أرسطو "التّعبير عن الذّات"، لدينا من جهة أولى متفاخرون يبالغون بإنجازاتهم دوماً، ومن جهة أخرى أولئك الّذين يقلّلون من قيمة الإنجازات عمداً، وينكرون الذّات. ويعتبر أرسطو هذا الأمر شكلاً آخر من صور الغرور، كما علّق على سقراط الّذي اِدّعى دوماً أنّه لا يعرف شيئاً. ثمّ هناك في الوسط، الشّخص الموثوق الصّادق.

لم يحدث تعظيم خاصّ لجميع الفضائل الّتي بحثها أرسطو. لقد أحبّ الإغريق الكلام كما رأينا سابقاً. فمن جهة أولى لدينا المهرّج، الّذي يمارس الاِبتذال بهدف الضّحك. ولدينا من جهة أخرى ذلك المزعج الكامدُ الوجه الّذي يهاجم كلّ شيء، ويدمّر فرحة أيّ شخص. وبينهما ذلك الظّريف اللامع الّذي يسلّي الجميع دون الاِبتعاد عن الذّوق السّليم. لقد تخيّلَ أرسطو تلك السّمات كلّها موجودة بِاستمرار، ورأى أنّ معظم البشر سيجدون أنفسهم متوافقين معها في لحظة

(22) "puritan": البيوريتانيّ الطّاهر أو المتزمّت، عضو في إحدى جماعات البروتستانت الإنكليز في أواخر القرنين السّادس عشر والسّابع عشر الّذين اِعتبروا إصلاح كنيسة إنكلترا غير مكتمل، وسعوا إلى تبسيط أشكال العبادة وتنظيمها (م).

معيّنة". تمكّنك معرفة الغاية من السّعي نحو المثل الأعلى".

يبدو كلّ ذلك جيّداً للغاية. أحببتُ هذه الصّيغة. لديك كلاب كبيرة بشعة، وكلاب صغيرة لطيفة، وكلاب بالحجم المثاليّ مثلي في الوسط.

«ثمّة الكثير من المزايا في طريقة أرسطو بتعريف ما يُعتبر فضيلة. نستطيع في معظم الحالات أن نرى هناك تطرّفات مبالغاً فيها وطريقاً وسطيّاً معقولاً. ولا يتجلّى الكرم واللّباقة في ردّ الفعل على الدّناءة والوضاعة، بل بالاِبتعاد عن الاِبتذال والتّهوّر المفرط.

من الممكن أن نجد بعض الفضائل الّتي تعمل بهذه الطّريقة على ما يبدو. هل الصّدق فعلاً هو نقطة تتوسّط بين الكذب وقول الكثير من الحقيقة؟ لكنّ مخطّط أرسطو مقنعٌ بالنّسبة إلى الكثير منهم. وتجدر الإشارة إلى أنّ أرسطو نفسه قال إنّ الأخلاق والسّياسة ليست علوماً تقدّم حقائق مضمونة من النّوع ذاته الّذي تقدّمه الهندسة أو الميتافيزيقا (كما يدّعي)، بل هي علوم رخوة يمكننا من خلالها أن نأمل فقط بالوصول إلى شيء قريب من الحقيقة.

وكيف نكتسب هذه الفضيلة؟ التّربية ثمّ التّربية ثمّ التّربية. يقول أرسطو إنّنا نصبح فاضلين عبر ممارسة الفضيلة. وإذا غرسنا في الشّبّان عادات جيّدة، فستكون طبيعتهم الثّانية. يشبه الأمر كثيراً تدريب كلب».

عوووووو.

«طريقة أرسطو في الوصول إلى حياة رائعة – أي أن نهدف جميعاً إلى نوع من "اليودامونيا"، وأن ترتبط عقلانيّتنا بالسّعادة، وأنّنا نصل إلى أفضل حياة عبر ممارسة الفضائل – هي حزمة جذّابة ومؤثّرة بشكل هائل. ركّز الفلاسفة القدماء تدريجيّاً على فضائل الحكمة (أو التّعقّل) والشّجاعة والعدالة، والاِعتدال في تناول المسكّرات، ثمّ تسلّمتها المسيحيّة باِعتبارها فضائل أساسيّة. لكن شعر بعض المسيحيّين الأوائل بأنّ هذه السّمات ما قبل المسيحيّة تحتاج إلى إتمام لكي

تصبح الفضائل سبعاً بدلا من أربع، وكلّ فضيلة تتوازن مع رذيلة مقابلة: العفّة/ الشّهوة؛ الِاعتدال/ الشّراهة؛ الصّدقات وأعمال الخير/ الجشع؛ الِاجتهاد/ الكسل؛ الصّبر/ الغضب والحنق؛ التّعاطف/ الحسد؛ التّواضع/ الغرور. وبدلاً من سعادة أرسطو الدّنيويّة، أصبح الهدف مشاركتنا اللهَ السّعادةَ الأبديّة. ما يفعله نظام أرسطو الأخلاقيّ هو تأسيس الطّريقة الّتي يجب أن نعيش وفقها اِجتماعيّاً وعقلانيّاً من ناحية نوعنا بين المخلوقات، وإيجاد طريقة نستطيع فيها العيش معاً».

ما هو الجانب السّلبيّ؟

«الطّريقة الّتي يمكن أن تتكيّف بها الفضائل وتتغيّر مع حاجات الثّقافة المتطوّرة هي القوّة والضّعف. الحقيقة، تعني أنّ القانون الأخلاقيّ يمكن أن يظلّ ذا صلة بالموضوع، لكن يعني أيضاً أنّ الفضائل تبدو ببساطة مثل قائمة بالأشياء الّتي يقيّمها أيّ مجتمع يصادف أن تكون فيه. وإذا سألنا أرسطو لماذا يعتبر الشّجاعة شيئاً جيّداً في حدّ ذاته، فسيكون جوابه بأنّها هي، والفضائل الأخرى الّتي تحدّث عنها، عبارة عمّا نحتاجه باعتبارنا كائنات اِجتماعيّة وعقلانيّة، لنعيش بشكل جيّد في المجتمع الإغريقيّ النّموذجيّ. لا يوجد أساس أعمق من ذلك. وبالتّالي، إذا تطلّبت النّازيّة الألمانيّة، أو الِاتحاد السّوفياتيّ تحت حكم ستالين، سمات مختلفة للعيش بشكل جيّد، لا يمكن لأرسطو أن يُبديَ أيّ نقد.

تتجلّى المشكلة الأخرى مع القيم في أنّه يمكن التّفكير في وجود ظروف ربّما لا نرى هذه الفضائل فيها فضائلَ. هل الشّجاعة في السّعي إلى هدف شرّير لا تزال فضيلة؟»

أوافقك. لديك كلاب سيّئة شجاعة.

«على أيّة حال، النّقد الرّئيس الّذي يمكنني رؤيته هو أنّ أخلاقيّات أرسطو، من بعض النّواحي، ليست أخلاقيّة أبداً بالمعنى الّذي نفهم فيه المصطلح. إنّ

سعادتك الخاصّة، من وجهة نظر أرسطو وأتباع مبدأ "اليودامونيا" الكلاسيكيّة، هي أساس اِهتماماتك. أمّا سعادة الآخرين فليست من شأنك. والعيش بشكل أخلاقيّ هو النّسخة السّيكولوجيّة من الذّهاب إلى النّادي الرّياضيّ أو تناول الطّعام بشكل جيّد: أنت تعتني بنفسك. ومع أنّ الفضائل اِجتماعيّة بطبيعتها فإنّ التّبرير أنانيّ دوماً: هذا هو أفضل شيء بالنّسبة إليّ. هكذا يجب أن أعيش لأحصل على أقصى ما يمكن من حياتي».

لاحظت أنّ مونتي يرتعش قليلاً.

«بالحديث عن الأخلاق، أعتقد أنّه من غير اللّائق أن أتركك في هذا الجوّ الرّطب. كما أنّني جائع على أيّة حال. ماذا عنك؟»

لن أرفض بعض قطع البسكويت.

وهكذا سرنا عائدين عبر مقابر قديمة لموتى كانوا محبوبين أو كان هناك خشية عليهم، أو كانوا أغنياء بما يكفي لإحياء ذكراهم بالرّخام. ثمّة ملائكة، وأوانٍ ملفوفة بأقمشة، وهناك "زقّورات"[23]، كما لو أنّ حاكماً بابليّاً منفيّاً رسا أخيراً في ويست هامبستد.

---

(23) زقّورات، مفردها زقّورة، وهي معابد هرميّة مدرّجة شاهقة الارتفاع، شيّدها السّومريّون ثمّ الأكاديّون والبابليّون والآشوريّون في سوريا والعراق (م).

المشوار (3)

تجرّأ على أن تعرف: كانط والنّفعيّين

في هذا المشوار، تابعنا أنا ومونتي حوارنا الأخلاقيّ. لقد أخذنا جزءاً كبيراً من هذا القسم من فلسفة كانط الأخلاقيّة الّتي حاولت العثور على قوانين عالميّة للسّلوك إذ يستطيع أيّ شخص عقلانيّ أن يطيعها. ثمّ ناقشنا النّفعيّين الّذين اِعتبروا السّعادة المقياس الحقيقيّ الوحيد للخير. وآختتمنا بمعرفة ما إذا كان أيّ من الأنظمة الأخلاقيّة الّتي بحثناها يمكن أن يحلّ المعضلات الأخلاقيّة الّتي نواجهها جميعاً.

في **اليوم التّالي** شعرت أنّنا بحاجة للذّهاب إلى مكان جديد لإنهاء محادثتنا الأخلاقيّة، لكنّني أحببت فكرة متابعة موضوع المقبرة، إذ غالباً ما يساعدنا الموت على تركيز الذّهن على نوعيّة الحياة الّتي نعيشها. وهكذا تسلّقنا التّلّة إلى قرية هامستيد، وكنيسة القدّيس جون اللّطيفة. فناء الكنيسة أشبه بقطّة صغيرة من البرّيّة في قلب المدينة، بقعة متضخّمة بشكل أنيق، تنتشرُ فيها قبور قديمة أصابَ التّلف الكثير منها لدرجة لم يعد بالإمكان قراءة الشّاهدة. هنا الرّسّام "جون كونستابل"، و"كلوك" هاريسون، المشهور *بعمله على مشكلة تحديد الطّول*[24].

(24) "جون هاريسون" هو الإسم الحقيقيّ لكن المؤلّف وضع كلمة "كلوك" بمعنى ساعة، لأنّه كان صانع ساعات. كان نجاراً وصانع ساعات إنكليزيّ، إخترع جهاز "الكرونومتر" البحريّ الّذي سعى كثيرون لصناعته لحلّ مشكلة معرفة خطوط الطّول أثناء السّفر في البحر. وقد أحدث هاريسون ثورة في الملاحة البحريّة، وزاد من سلامة الرّحلات البحريّة الطّويلة بشكل كبير جدّاً (م).

أم هل تراجعت هذه الشّهرة بالفعل؟ لقد اِبتكر هاريسون ساعة دقيقة بما يكفي لتمكّن البحّارة من تحديد خطوط الطّول الّتي يسيرون عليها، ومتينة بما يكفي لتحمّل قسوة رحلة طويلة. ويعود إليه الفضل في الحفاظ على أرواح آلاف البحّارة. هل جعل ذلك الإنجاز من حياة هاريسون حياة فاضلة؟ من الممكن أنّ الإمبراطوريّة البريطانيّة، المعتمدة على إتقانها لخوض البحّار، ألّا تكون قد نجحت إلى هذا الحدّ لولا هذا الجهاز الّذي اِبتكره. هل نضع مئتي عام من الاِضطهاد الاِستعماريّ عند أقدام صانع السّاعات؟ إلى أيّ مدى تصل مسؤوليّتنا الشّخصيّة؟ هل يتعلّق الأمر بما لديّ من نوايا، أم بأفعالي؟

لا أعرف؛ أخبرني أنت.

«أوه، آسف، لم أعِ أنّنا بدأنا. هل كنت أتحدّث جهارا؟»

لا تقلق، لا يوجد هنا سوى أنا وأنت.

ثمّة مقعد محدّد أجلس عليه دوماً. مقعدٌ مريحٌ مرنٌ اِنحنتِ الشّقوق الرّماديّة الّتي شكّلها الزّمن فيه لتتوافق مع اِنحناءة ظهري. كان يقبع على ضفّة مرتفعة، وهو ما منحني إطلالة فوق جدار المقبرة، وعبر حدائق هامبستيد وأسطحها. رفعتُ مونتي إلى جانبي، وتركته يستكين تحت معطفي. كان معطفي من فائض الجيش البلغاريّ، وجعلني أبدو كأنّني مشرّد من النّوع المثير للاِهتمام، وربّما أحد النّاجين من حرب البلقان المنسيّة، أو عازف غيتار فقير سابق من فرقة "الغوثك روك".

«*هل أنت مستعد؟*»

لنبدأ. ربّما خلاصة سريعة أوّلاً؟

«بالتّأكيد. كما رأينا سابقاً، تطلّع معظم القدماء، باِستثناء أفلاطون، للعثور على الأخلاق في بعض مبادئ عيش الحياة "الخيّرة" الّتي كانت تعني عادة طريقة

العيش بسعادة أو بشكل جيّد في العالم. وحثّنا الكلبيّون على العيش ببساطة، والتّخلّي عن الرّفاهيّة الفارغة للحياة العصريّة؛ ولفت الأبيقوريّون اِنتباهنا إلى حياة الملذّات، لكنّهم نصحونا بتعظيم الملذّات ليس من خلال الإفراط بل من خلال الاِعتدال والهدوء والصّداقة والتّفكير. وكانت حياة أرسطو الرّائعة حياةً نكرّس أنفسنا فيها للتّأمّل الفلسفيّ، إذا اِستطعنا، أو حياة تسترشد بالعقلانيّة، وتتجسّد في ممارسة الفضائل. وكان لِأخلاقيّات أفلاطون أساس أكثر موضوعيّة من ناحية أنّ الخير يتضمّن أداءً يتوافق مع صورة الخير. وأشار إلى ما يعنيه ذلك عمليّاً في كتابه "*الجمهوريّة*": العدالة هي أن يؤدّيَ كلّ شخص دوره، أو دورها، المناسب في دولة يحكمها فلاسفة، وتكون فيها حقوق الفرد مفيدة لخير الجميع. لكن هناك أيضاً اِفتراض قويّ بأنّ هذه الحياة جيّدة أيضاً بالمعنى ذاته لدى الآخرين: إنّها توفّر فرصة أفضل للعيش بسعادة وبشكل جيّد.

لكن لم تكن أيّ طريقة من طرق التّفكير السّابقة بالأخلاق كافية بالنّسبة إلى كانط، وهو أحد الفلاسفة العظماء، وربّما كان الأعظم. ينتمي إيمانويل كانط (1724 – 1804) إلى مجال أخلاقيّات فلسفيّة مختلفة بشكل كامل عن مجال أتباع "اليودامونيا". ورأى أنّ التّصرّف الأخلاقيّ، وأداء الفعل الصّحيح، ولأسباب صحيحة، يعني دوماً التّصرّف وفقاً لقانون معيّن. عادة ما تسمّى الأخلاق الّتي تقوم على اِتّباع القانون "*الأخلاق الواجبة*". والمصطلح مشتقّ من الكلمة الإغريقيّة "deon"، الّتي تعني الاِلتزام أو الواجب، وهو لا يرتبط مباشرة بـ "الأنطولوجيا" أو "أنطولوجيّ"، أي التّحقيق الفلسفيّ عن الوجود. وأنت لا تحتاج إلى تذكّر كلمة "واجب – deontolotical"، إلّا لتجعلك تبدو ذكيّاً.

كانط فيلسوف جافٌّ وصعب. هكذا هي سُمعته: تمثّل أعماله العظيمة تحديثاً مذهلاً بتعبيرها عن أكثر أفكار العالم تعقيداً، بأشدّ لغات العالم صعوبة وتقنية. ومن السّهل رؤية حياته على أنّها جافّة بالمقابل، وإذا لم نصفها بالصّعبة أيضاً، فهي مملّة. عاش حياته بالكامل في بلدة كونيجسبيرغ شرق بروسيا. ليست المياه

الرّاكدة الّتي يتمّ تصويرها أحياناً لكنّها ليست القلب النّابض للكون الفكريّ. كانت بروسيا مجتمعاً منظّماً ومراقباً عن كثب، بوجود كنيسة أصوليّة ودولة عسكريّة للغاية تتعدّى على كلّ جانب من جوانب الحياة تقريباً.

ظاهريّاً، بدا كانط مناسباً جدّاً لدولة كهذه. لقد كان نقيّاً وصحيحاً تماماً بسلوكه (على الأقلّ بعد بلوغه منتصف العمر تقريباً – ثمّة قصص عن تصرّفات عبثيّة معتدلة ومداعبات خفيفة أو كليهما عندما كان شابّاً). لم يتزوّج أبداً، وكان يرتدي ملابس بسيطة لم تتغيّر على مدى حياته الطّويلة إلّا في درجة اللّون فقط، من البنّيّ الفاتح وهو شابّ، إلى البنّيّ الغامق وهو شخص ناضج. وكان مشهوراً بِانتظام عاداته. ثمّة قصّة معروفة عن موعد نزهته بعد ظهر كلّ يوم، إذ كان السّكان المحلّيّون يتوقّعونها لدرجة أنّهم يضبطون ساعاتهم عليها. مع أنّ تلك القصّة جعلتني أتساءل دوماً كيف كان كانط يعرف أنّ ساعته مضبوطة على الوقت الصّحيح. وتخيّلت أنّه كان يرسل خادمه إلى المدينة للاِستفسار عن الوقت – ربّما من المواطنين ذاتهم الّذين كانوا يضبطون ساعاتهم على موعد نزهته...».

اِنتبه! لا زلت أنتظر أن أعرف كيف يمكننا إنقاذ سكّان ميلوس....

«آسف! ومع ذلك، وعلى الرّغم من كلّ هذا التّطابق الظّاهريّ، كان كانط مفكّراً ثوريّاً ومُلهِماً، وراديكاليّاً حقيقيّاً بكلّ ما في الكلمة من معنى. على مدى القرن الثّامن عشر، بدأ كُتّابٌ وفلاسفة ممّا كان يُعرف بعصر التّنوير بتحدّي الوضع الرّاهن السّياسيّ والاِجتماعيّ والفكريّ. إنّ عصر التّنوير، من نواحي كثيرة، مفهوم بَعيد المنال ومتغيّر، وهو مصطلح يضمّ "الرّومانسيّين البدائيّين" مثل "جان جاك روسّو"، والعقلانيّين الباردين مثل "لاميتري"، الّذي آمن بأنّ الإنسان أشبه بآلة. لكنّهم نهضوا في كلّ مكان لتحدّي النّظام القائم وآستفزازه والسّخرية منه. كانت صرختهم "écrasez l"infâme" – اِسحق كلّ ما هو شائن، والشّائن هو الكنائس الرّسميّة والأرستقراطيّة والملوك. كانط هو ذروة تفكير عصر التّنوير بما يخصّ طبيعة الإنسان والعالم. كان يؤمن بأنّ على البشر أن

يتخلّصوا من الأغلال الّتي قيّدت حرّيّتهم وفكرهم – الأغلال السّياسيّة للمجتمع القمعيّ، والأغلال الفكريّة والدّينيّة والعلمانيّة للفكر التّقليديّ. ولم يكن من نوع الأشخاص الّذين يؤمنون بالقتل. وكان شعاره الخاصّ، تجرّأ على أن تعرف – اِقبل التّحدّي لتقف على قدميك، وفكّر بنفسك، اِختبر السّمتين المحدّدتين للبشريّة: الحرّيّة والعقلانيّة».

لاحظت أنّ مونتي كان يرمقني بِاستغراب. بدا كأنّه يشعر بالإحراج قليلاً.

«أوه، نعم، أخذني الحماس تجاه كانط. من مؤشّرات السّخافة وعدم النّضج أن يكون لديك فلاسفة مفضّلون، لكن إذا كان لديّ فيلسوف مفضّل، فسيكون هو. وسنتحدّث لاحقاً عن مساهماته الثّوريّة في الإبستمولوجيا والميتافيزيقا، لكنّنا سنبقى اليوم مع أخلاقيّاته.

ليست أخلاقيّاتُ كانط الأخلاقيّات الوحيدة الّتي اِستندت إلى مفهوم اِتّباع القواعد. لذلك سأذكر أوّلاً مجوعة نقاط عامّة عن المفهوم. إحدى الأفكار الأساسيّة هي أنّك لا تتّبع القوانين لأنّها تناسبك، أو لأنّك معجب بالنّتائج أو العواقب الّتي تأتي من اِتّباع القوانين، ولا لأنّها تمنحك شعوراً لطيفاً من الدّاخل. أنت تتّبع القوانين ***لأنّها القوانين***. في الواقع، كلّما قلّت رغبتك بِاتّباع القوانين اِزداد إرهاقك لإجبار نفسك على طاعتها، وأصبح من الأخلاقيّ أكثر أن تتّبعها».

كيف؟

«فكّر بالأمر على الشّكل التّالي – إذا كانت لديك رغبة بفعل ذلك الشّيء بأيّ حال من الأحوال، فلن تحتاج إلى قانون. وإذا اِتّبعت القانون لأنّ النّتائج جذّابة بالنّسبة إليك، فلن يكون تصرّفك حينها من أجل القانون نفسه، بل من أجل تحقيق نتائجه».

رمقني مونتي بتلك النّظرة المحتارة الواهنة.

بعض الأمثلة قد تساعد. عن أيّ نوع من القوانين نتحدّث؟ ومن أين أتت؟

«سؤالان جيّدان. إحدى الإجابات – الأولى – هي أنّها أتت من الله. جميع الدّيانات تقريباً لديها قوانين. وتستطيع أن تقول بمعنى معيّن في الواقع إنّه هذا ما يعنيه الدّين: سلسلة قوانين عليك اِتّباعها».

أنت تتحدث عن أمرين اِثنين، أليس كذلك؟

«هذه نقطة جيّدة للبدء. خذ الأكثر شهرة ربّما –»

لا تشتهِ حمار قريبك.[25]

«هذا مسلّ. لا، ***لا تقتل***. بكلّ ما في هذه الآية من مجد وبساطة. لم تقل الآية لا تقتل ما لم يأتك القتلُ ببعض الفائدة. أو لا تقتل إلّا إذا منعت ضرراً أكبر بالقتل. القتل خطأ. وتنتهي القصّة. لماذا هو خطأ؟ لأنّ القانون يقول ذلك».

رائع. أنا لم أقتل أيّ شخص. وبالتّالي أنا كلب جيّد.

«لكنّك نسيت التّسعة الباقية. هل أذكر عبارة ***لا تسرق***؟»

بدا مونتي محرجاً للغاية عند هذه النّقطة.

ما كان عليها أن تترك تلك الكعكة على طاولة القهوة عندما غادرتِ الغرفة.

«هل تتذكّر كيف تعمل القوانين؟ من غير المناسب أن تسرق لمجرّد أن أحدهم ترك كعكته بدون حراسة».

همممممم... حسناً، يُفترض بك أن تتبع هذه القوانين – لماذا؟

«يمكنك أن تحاول مناقشة أنّ اِتّباع هذه القوانين – الوصايا العشر، على سبيل المثال – يؤدّي إلى مجتمع أفضل للجميع. إنّ مجتمعاً يهيم فيه البشر (أو الكلاب)

(25) سفر الخروج 20: 17. لا تشتَهِ بيتَ غيرِكَ. لا تشتَهِ اِمرَأةَ غيرِكَ ولا عبدَهُ ولا جاريَتَهُ ولا ثَورَهُ ولا حِمارَهُ ولا شيئاً ممّا له (م).

عشوائيّاً ويقتل أحدهم الآخر لن يكون مجتمعاً سعيداً، أليس كذلك؟ لكن كما قلتُ سابقاً، هذا نوع مختلف من الحجج الّتي تتّبع القانون. نوعٌ قام على النّتائج، وسنعود إليه لاحقاً (إنّها نسخة عمّا يُسمّى قوانين النّفعيّة). لا تنظر حجج اِتّباع القوانين إلى هذا النّوع من الدّفاعات. لأنّها لا تتعلّق بالنّتائج – إنّها عن القانون.

القانون الثّاني هو ***لا تكذب***. ربّما تفكّر بجميع الحالات الّتي قد يبدو فيها أنّ من الصّحيح أن تكذب – إذا كانت كذبة صغيرة تمنع ضرراً أشدّ مثلاً. لكن القانون يقول ***لا تكذب***، وبالتّالي ليس مقبولاً من النّاحية الأخلاقيّة أن تكذب.

للأخلاقيّات الواجبة العديد من الأشياء الجيّدة. حسناً، هناك شيء واحد كبير فعلاً. إنّها البساطة. أنت تعرف متى تكون مع القانون. في جميع الأنظمة الأخلاقيّة الأخرى الّتي درسناها، كان على الشّخص الأخلاقيّ أن يقوم بعمل حقيقيّ. عمل يدوم مدى الحياة. يحتاج البدء بفهم أفلاطون إلى سنوات من التّعليم والدّراسة. وتحتاج فضائل أرسطو إلى سنوات من الغرس في الأذهان لتصبح عادات جيّدة. أمّا فهم الطّبيعة بشكل كامل فيكاد يكون مستحيلاً بالنّسبة إلى الحكيم الرّواقيّ. حتّى حياة اللّذّة الّتي يتصوّرها الأبيقوريّ تتضمّن دراسة متأنّية للأفعال الّتي ستؤدّي إلى سهولة أكبر وإزعاج أقلّ. لكن اِتّباع قانون؟ يستطيع أيّ شخص أن يتّبع القانون. ومعظم البشر يفعلون ذلك - إذا افترضنا أنّ الكثير من سكّان العالم يأخذون الموقف الأخلاقيّ من الدّين بعين الاِعتبار».

حسناً، هذا جميل وواضح. فهمت. هل اِنتهينا؟

أنت تعرف جيّداً أنّ هناك "ولكن".

أعرف بالتّأكيد.

«السّؤال الواضح الّذي ينبغي طرحه هو كيف نشأت القوانين. ومن أين أتت؟»

«من الله، أنت قلت ذلك...»

«لكن ما الّذي يمكن أن يكون خاطئاً في ذلك؟»

هزّ مونتي كتفيه. *الله ليس ضمن مجال اِهتمامي فعلاً.*

«حسناً، أوّلاً، يؤمن بعض النّاس بالله، وبعضهم لا يؤمن، وإذا كانت أخلاقيّاتك تعتمد على وجود كيان معيّن، فسيكون هناك مجموعة كبيرة من النّاس أحراراً تماماً من فكرة أنّ عليهم أن يكونوا صالحين:

أفهم ذلك. إذا قلتَ لا تسرق الكعكة، وأنا سألتُ لماذا، وأجبت بأنّ الله يقول ذلك، وأنا لا أؤمن بالله، فهذا يعني أنّني أستطيع أن أسرق الكعكة.

"صحيح تماماً. وهناك مشكلة أخرى – مشكلة أشار إليها صديقنا أفلاطون منذ زمن بعيد. دعنا نأخذ قانون ***"لا تقتل"***. هل من الخطأ القتل لأنّ لله أمرنا بذلك، أم أنّ الله أمرنا بذلك لأنّ القتل خاطئ؟»

ماذا؟

«لا أعرف كيف أصوغها بطريقة أبسط. لذلك سأكرّر العبارة فقط. القانون ضدّ القتل – هل هو قانون لأنّ الله سنّ هذا القانون؟ هل كلّ ما يأمرنا الله به يكون صالحاً أيّاً كان؟ ولو سنّ الله قانوناً يقول "اُقتل"، هل يكون من الجيّد أن تفعل ذلك؟»

هذا غير منطقيّ! لماذ قد يقول الله ذلك؟

«يستطيع الله أن يقول أيّ شيء».

لا يعجبني ذلك. إذا كان الله موجوداً فلن يطلب منّا أشياء سيّئة... هل يطالب بشيء كهذا؟

«ربّما تطلب بعض الآلهة ذلك. يستمتع الكثير من الآلهة على ما يبدو

بالأضاحي البشريّة الغريبة... لم يكن إله العهد القديم نفسه أسمى من ذلك. لكنّك أصبت لبّ المشكلة. نحن نبتعد عن فكرة أنّ هذه القوانين تعسّفية – وأنّها تعكس أهواء الله ببساطة. نريد أن نؤمن بأنّها تجسّد مبدأ أعظم بطريقة ما...»

تعني أنّ الله اِنتقى هذه القوانين لأنّها صحيحة، ولا ترجع صحّتها لأنّ الله اِختارها؟

«تماماً، هل ترى المرحلة الثّانية من المحاجّة؟»

أوه، إذا اِختارها الله لأنّها صحيحة، فهذا يعني أنّ الصّحّة – القوانين – يجب أن تكون موجودة بغضّ النّظر عن وجود الله. لقد صاغ بكلمات ما كان موجوداً سلفاً. شيئاً أعظم منه؟

«لست واثقاً من أننّا نستطيع أن نقول "أعظم" لكنّه بالتّأكيد شيء مستقلّ. لذلك قرّرنا أن نحذف الله من هذه المعادلة. وتصبح الطّريقة الأخرى للنّظر إلى هذه الحجّة هي التّفكير في الطّرق المختلفة الّتي اِستخدمتها المسيحيّة على مرّ السّنين مثالا. يوجد في العهد القديم والجديد الكثير من الموادّ لتبرير المواقف الأخلاقيّة. إذا صفعك أحدهم على خدّك الأيمن، فهل تقتلع عينه، أم تدير له الخدّ الأيسر؟

نطاق التّفسيرات هذا ليس تاريخيّاً فقط بل معاصرٌ أيضاً. "دُعاةُ النّار والكبريت"[26] الإنجيليّون الأمريكيّون الّذين يريدون إرسال المثليّين إلى الجحيم إلى الأبد، والإنجيليّون اللّيبراليّون اللّطفاء، جميعهم يقدّمون عظاتهم صباح أيّام الآحاد. ويقول جميعهم إنّهم يتّبعون كلمة الرّبّ، لكن يختار كلّ منهم ما يريده من الإنجيل. وأنا نفسي فعلتُ ذلك أيضاً. لطالما أثّرت بي قصّة المرأة الزّانية. جاء الكتبةُ والفريسيّون إلى يسوع المسيح، ومعهم اِمرأة اِرتكبت جريمة الزّنا. والنّصّ

(26) تعبير اِصطلاحي يشير إلى غضب الله في الكتاب العبري المقدّس (العهد القديم) والعهد الجديد أيضاً. وغالباً ما يشير إلى مصير الكفّار (م).

في القانون واضح جدّاً: يجب أن تُرجم. وكان يسوع المسيح معروفاً بتقديسه للقانون، لكنّه معروفٌ برحمته أيضاً. إنّه فخّ – إمّا أن يدعم القانون ويُثبت أنّه يهوديّ جيّد، ويتخلّى عن مبادئه، أو يتمسّك بمبادئه، ويُثبت أنّه يهوديّ سيّئ. ووسط نظرات الحشد المترقّبة، كان الحلّ الّذي اِكتشفه رائعاً. اِنحنى يسوع وبدأ يكتب بإصبعه على الأرض. ولم يخبرنا أحدٌ عمّا كتبه. أظنّ أنّه كان يعبث في محاولة منه للخروج بإجابة صحيحة. وأخيراً، اِعتدل وقال لهم: "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أوّلاً بحجر. فارتدّ الحشد إلى حالة الصّمت وٱختفى. ثمّ خاطب المرأة قائلاً: "اِذهبي يا اِمرأة، ولا تعودي إلى الخطيئة».

قصّة جميلة. ما هدفك منها...؟

«نعم، آسف جدّاً، كان هدفي أن أظهِرَ أنّني اِخترتُ هذه القصّة من بين العديد من القصص المتاحة في الإنجيل لأنّها تدعم مبادئي الأخلاقيّة الموجودة سلفاً. لكنّني أؤيد أساساً نقد أفلاطون لوجهة النّظر الّتي تقول إنّ شيئاً معيّناً صحيح لأنّ الله أو الكتاب المقدّس يقول ذلك».

همم. إذن، هل هذه نهاية فكرة أنّ الأخلاق تتعلّق كلّها باِتّباع القوانين؟

«لا. ذكرتُ سابقاً أنّ الفلسفة حوارٌ طويلٌ جدّاً.... والسّؤال المطروح الآن هو التّالي: هل تستطيع حفظ نهج القانون القائم على الأخلاق دون وجود إله يساندك؟ وهذا يعيدنا بدقّة إلى كانط».

ماذا!

«حاول كانط إيجاد بعض القوانين الّتي تُطبّق على أيّ إنسان في أيّ زمان وأيّ مكان، ودون الحاجة إلى إله. وهذا ليس لأنّه غير متديّن أو مناهض لفكرة وجود الله. لقد نشأ لوثريّاً مخلصاً، وعلى الرّغم من الجدل الكبير حول المدى الّذي يلعب فيه الإله أيّ دور في فلسفته، إلّا أنّ ما كتبه لم يتعارض مع النّظرة الدّينيّة للعالم. لكنّ مبدأه الحاكم هو العقل. كان يؤمن أنّ الأخلاق محكوم عليها بالفناء ما لم

نستطع تأسيسها على المنطق العالميّ، وبمبادئ عقلانيّة يمكن للذّهن اِستيعابها.

بدأ كانط مشروعه الكبير بتلخيص جميع الأنظمة الأخلاقيّة السّابقة ونبذها، سواء أقامت على اِتّباع شعور داخليّ معيّن، أو اِتّباع التّقاليد، أو على فائدة عَمَليّة مفترضة من حياتك كإنسان صالح. ففي هذه الحالات كلّها كان التّصرّف بأخلاق أمراً مشروطاً: إنّه طريقة لتحقيق شيء آخر، أو نتيجة جانبيّة عَرَضيّة لعمليّة أخرى. وهذا ليس جيّداً كفاية بالنّسبة إلى كانط. أراد أن يجد طريقة يؤكّد فيها أنّ الكذب، مثلاً، خاطئ ***دوماً***، أيّاً كانت الظّروف.

يقول كانط إنّ العقل يتطلّب أن يكون القانون بسيطاً، إضافة إلى كونه عالميّاً. فالحياة الحقيقيّة معقّدة، ولدى البشر رغبات واحتياجات هائلة يمكن أن تعترض طريقهم وتشوّش فهمهم لطريقة التّصرّف الصّحيحة. لكن إذا كان بالإمكان فعلاً تأسيس الأخلاق على العقل، بالطّريقة الّتي تأسّست عليها الرّياضيّات، نستطيع عندئذٍ تجاهل هذه التّعقيدات أو التّخلّص منها، ورؤية الحقيقة بوضوح. (يوجد هنا تناقض مثير للاِهتمام مع أرسطو الّذي أوضحتُ سابقاً أنّه اِعتبر الأخلاق والسّياسة علوماً غير كاملة، على النّقيض من الميتافيزيقا والرّياضيات. واِعتقد أنّ أفضل ما يمكننا فعله بمبدأ الأخلاق هو فهمها بشكل صحيح تقريباً، والشّعور بطريقنا في الضّوء الخافت للمساء، بدلاً من رؤيتها في الضّوء السّاطع لمنتصف النّهار). إنّ ما نتطلّع إليه إذن، مبدأٌ عالميّ واحد يخبرنا ما علينا أن نفعله، أو ما لا نفعله».

سؤال كبير.

«كما قلت، بدأ باِفتراض أنّ البشر عقلانيّون فعلاً، وقادرون من خلال التّفكير الواضح المتأنّي على اِكتشاف القوانين الأخلاقيّة الكونيّة. أعتقد أنّ بإمكاننا فعلاً إيجاد هذه "الضّرورة الحتميّة" —»

وماذا يعني ذلك؟

«لا تجزع! تعني "الضّرورة الحتميّة" القانون الّذي عليك أن تتبّعه في الحالات كلّها وليس في حالة معيّنة. هو يتميّز عن "الضّرورة الاِفتراضيّة" الّتي لا حصر لها، وهي قانون عليك أن تتبّعه بهدف تحقيق شيء آخر».

أوه، هل يشبه إلى حدّ مّا الخير الأصغر الّذي تحدّث عنه أرسطو؟ ذلك الّذي يساعدك في تحقيق الخير المطلق.

«تماماً، نعم! إذا وضعنا لأنفسنا هدفاً (غاية) – ليكن على سبيل المثال الوصول إلى علبة الحلوى تلك في الخزانة – فهذا يجبرنا عمليّاً على اِتّباع أفعال أو وسائل معيّنة تساعدنا على بلوغ ذلك الهدف. هذه الأفعال عبارة عن "ضرورة اِفتراضيّة" – ضرورة لأنّنا إذا أردنا تحقيق هذه الغاية، فعلينا أن نفعل ذلك؛ واِفتراضيّة لأنّ هذه الوسائل لا تتعلّق إلّا بذلك الهدف. وقد يكون من الصّواب أحياناً القيام بهذه الأفعال، وأحياناً لا. لكن كانط أراد ضرورة لا تكون وسيلة لتحقيق هدف معيّن، بل ضرورة ***صحيحة في كافّة الأوقات***. "الضّرورة الحتميّة" تُطاع كالواجب، وليس لتحقيق ميزة معيّنة أو هدف معين فقط».

ما زلتُ لا أفهم الأمر كما ينبغي.

«أيّ قوانين يمكن اِتباعها في الحالات الأخلاقيّة كلّها؟ ***فعل الشّيء الصّحيح*** لا يقدّم أيّ جديد في الإجابة. ***فعل ما يقوله الله*** أظهر للتّوّ بأنّه غير منطقيّ ولا معقول. ***التّصرّف وفقاً للفضائل*** أظهر أنّه لا يتوافق إلّا مع معايير المجتمع القائمة. ***السّعي إلى "اليودامونيا"*** يرتبط بالسّعادة الشّخصيّة والإنجاز أكثر ممّا يساعد على اِتّخاذ قرارات أخلاقيّة صعبة.

صحيح، تقول الضّرورة الحتميّة ***تصرّف دائماً بطريقة يصبح عملك فيها قانوناً عالميّاً***».

حسناً... وماذا يعني ذلك؟

«لنفترض أنّك تعتقد أنّ سرقة الكعكة أمر مقبول، لأنّ صاحبتها تناولت ثلاث شرائح منها، ولا أحد يحتاج تلك الكمّية، وربّما لم تعد في حاجة إليها، ونسيت أن تطعمك، وأنت تتضوّر جوعاً، وقد تموت».

نعم؟

«عندئذٍ سيقول كانط، قبل أن تسرق الكعكة، اِسأل: هل من الصّحيح تعميم هذا الفعل؟ اِسأل نفسك، هل من الصّحيح أن أسرق الكعكة؟ إذا كانت الإجابة لا، عندئذٍ لا تفعل ذلك».

يبدو ذلك ذكيّاً جدّاً في الواقع. لكن هناك شيء غير دقيق... أنا مجرّد كلب، لكن ألا يحتاج ذلك شيئاً آخر؟ مثل، لماذا؟

«لا، هذه نقطة مهمّة. لماذا علينا أن نجعل منه مبدأ أخلاقيّاً لنا؟ كيف يكون أفضل من أيّ طريقة تفكير أخرى بموضوع الأخلاق؟ دعنا نعد إلى إيمان كانط بالعقل. إذا اِفترضنا أن البشر يسعون للتّصرف ***بشكل عقلانيّ***، تستطيع عندئذٍ تصحيح سلوك شخص مّا بالإشارة إلى أنّه يتصرّف بشكل ***غير عقلانيّ***. إحدى الطّرق الّتي يمكن فيها أن تقنع شخصاً بأنّه يتصرّف بشكل غير عقلانيّ هي إذا اِستطعت أن تظهر أنّ أفعاله أو تصريحاته متناقضة، أي أنّ نتائج القيام بشيء معيّن يقوّض أسباب القيام به. إذا قال أحدهم إنّه يريد أن يخفّف من وزنه، ومع ذلك يأكل كعكة من تلقاء نفسه أمام التّلفاز كلّ ليلة، ربّما تستطيع إقناعه بأنّ تصرفاته متناقضة».

حظّ جيّد مع ذلك الشّخص!

«يجادل كانط بأنّ "القانون الأخلاقيّ" (هذا مجرّد اِسم أطلقه كانط على قانون أخلاقيّ، ويقصد به أيّ شيء تفعله لأنّك تعتقد أنّه صحيح) يجب ألّا يتضمّن تناقضاً. وإذا حدث ذلك، فمن الواضح أنّه سيفشل في إقناع الشّخص العقلانيّ. ويمكن أن نرى كيف ينطبق ذلك على الكعكة، لكن كيف يمكننا تطبيقه على

الأخلاق؟»

المثال الّذي قدّمه هو الإخلال بعقد مُبرم. إذا وافقت على عقد معين ثمّ أخللت به، فالضّرورة الحتميّة تتطلّب منك أن تتخيّل عالماً يكون فيه قانون الطّبيعة أن يتمّ الإخلال بالعقود كلّها. لن يُبرِم أيّ شخص عقداً في عالم كهذا، وستنهار جميع مؤسّسات العقود. لذلك فإنّ هدفك بالاِستفادة من الإخلال بعقدِك المُبرم سينتهي بالفشل. أو لنأخذ فكرة الكذب. لا يكون الكذب اِستراتيجيّة مفيدة إلّا في عالم يقول معظم النّاس فيه الحقيقة. إذا كان الجميع يكذبون دوماً، فلا فائدة تُرجى من كذبك، لأنّه ما من أحد سيصدّقك.

لذلك تطلب منك الضّرورة الحتميّة أن تتفحّص ما تفعله أمام هذا المبدأ: ماذا سيحدث إذا فعل الجميع ذلك؟

ثمّة شعور حدسيّ بصحّة هذا المبدأ المعمّم كونيّاً. لقد سمعنا جميعاً (عندما كنّا أطفالاً، ربّما) عبارة ***ماذا سيحدث إذا فعلنا جميعنا ذلك***؟ وربّما شعرنا بثقلها".

حسناً، أنا مُعجب جداً بذلك. لكنّني أفترض أنّك توشك أن تجد ثغرات فيه؟

«لا بدّ من القول بداية إنّ نظام كانط الأخلاقيّ لايزال محتفظاً بالعديد من الأتباع. لكنّ وجهة نظره ليست منيعة عن النّقد بالتّأكيد. إذ يقول أحد الاِنتقادات إنّ الصّيغة الكانطيّة ***فارغة***، من ناحية أنّها لا تتضمّن فعلاً أيّ محتوى أخلاقيّ. وكلّ ما لدينا هو قانون يؤكّد ما سيحدث إذا عمّمتُ ***امراً معيّناً*** (أيّا كان هذا الأمر). لماذا لا أستطيع أن أعتبر القانون الأخلاقيّ هو ***قل الحقيقة دوماً، ما لم تكن أنطوني ماكغاوان***؟ سأكون سعيداً تماماً إذا تمّ تعميم هذا القانون».

وماذا يقول كانط...؟

«إحدى الإجابات لها علاقة بتعريف القانون. يقول كانط إنّ القانون ينبغي أن يصبح قاعدة عامة، مع إمكانيّة تطبيقها بشكل واسع النّطاق، *والقيام بالفعل* x

بِاستثناء أنطوني ماكغاوان، لا يناسب ذلك. وقد يقول أيضاً إنّه توصّل إلى فرضيّة مفادها أنّنا نتحدّث عن جماعة من النّاس لديها ما أسماه "***النّيّة الصّالحة***"، والرّغبة بفعل ما هو جيّد. لقد اِفترض كانط بالتّأكيد أنّ عقلانيّتنا تعني أنّنا يجب أن نرغب بإيجاد أفضل القوانين الّتي نعيش وفقها. لا أحد لديه الرّغبة بفعل ما هو جيّد يمكن أن يؤسّس على هذا النّوع من الاِستثناء. إذا كنت فعلاً "سيكوباتياً" Psychopathe (مريضا نفسيّا) تستمدّ اللّذة من تعذيب الجراء وقتلها، فمن الصّعب أن ترى ما يمكن أن تفعله أيّ مجموعة من الأخلاقيّات لكي تُبقي الأمور تحت السّيطرة، كنقيض للسّترة المربوطة بإحكام[27]. ومع ذلك، اِستمتع الكثير من الفلاسفة بالبحث عن أمثلة تقوّض نظام كانط.

لطالما شككت بوجود نقد آخر - ما يسمّى دفاع "يوساريان" بطل رواية "جوزيف ميلر" بعنوان "كاتش 22". في هذه الرّواية، يشعر بطلنا برعب حقيقيّ من الموت، في عمله كقاذف قنابل على طائرة أمريكيّة في الحرب العالميّة الثّانية. لذلك فكّر في تمثيل دور المريض العقليّ، كي لا يتمّ إرساله في طائرة بمهمّة خطيرة. "لكن ماذا سيحدث إذا فعل الجميع ذلك؟" يسأل الضّابط الأعلى. "إذا فعل الجميع ذلك، سأكون مجنوناً إذا لم أفعل"، أجاب يوساريان، أو قال كلمات بهذا المعنى».

وبعد.

«على أيّ حال، مرّة أخرى، فكرة أنّنا جماعة من النّاس "لديها نوايا صالحة" قد تستبعد تلك الفكرة، والأهمّ من ذلك، لدى كانط صيغة جديدة عن الضّرورة الحتميّة تعمل إلى جانب الصّيغة الأولى».

مهلاً، هل هناك ضرورتان حتميّتان؟ اِعتقدت أنّه من المفترض أن تكون واحدة؟

(27) ثوب متين بأكمام طويلة قابلة للربّط لحصر ذراعي سجين عنيف أو مريض نفسيّ (م).

«يقول إنّهما وجهان لأمر واحد. لكنّ الصّيغة الثّانية جميلة. ***لا تعامل الآخرين إطلاقاً باعتبارهم وسائل لتحقيق غاية معيّنة. بل بوصفهم هدفا بحدّ ذاتهم.*** من الرّائع أن تعامل فأساً أو حصاناً أو كعكة كوسيلة لتحقيق غاية. لكنّ البشر مختلفون بشكل فريد من نوعه. فاِمتلاكنا للعقل يعني أنّه لا يجب أن يتمّ التّعامل معنا على أنّنا كغاية أو كوسيلة لتحقيق شيء آخر. وحتّى دون هذا المخطّط الكانطيّ، من الرّائع محاولة العيش وفق هذا المبدأ. لا تستخدم النّاس الآخرين طريقة لتحقيق متعتك أو فائدتك الخاصّة؛ لا تنظر إلى الآخرين كدرجات سلّم تتسلّقه. إذا اِستخدمت هذا المبدأ مع النّسخة الأولى من الضّرورة الحتميّة، وأفترضتَ أنّ لديك جماعة من النّاس يرغبون حقّاً بالعيش بشكل أخلاقيّ، عندئذٍ يكون لدينا نظام قوي».

إذن، لدينا رابح؟

«لدينا منافس... لكن دعنا نشدّد على ذلك أكثر لنرى كم يصمد. تذكّر أنّ ما يجعل نظام كانط نظاماً أخلاقيّاً بالنّسبة إليه هو أنّه عندما نجد قانوناً يمكن تعميمه، فإنّنا نتّبعه بغضّ النّظر عن ميولنا أو العواقب النّاتجة عن ذلك. وبالتّالي، إذا قرّرنا أنّ أحد القوانين يقول "***ساعد السّيّدات العجائز في إجتياز الشّارع***". أنا أطبّق اِختبار الضّرورة الحتميّة، ويسعدني أو أشدّد على أنّ علينا جميعاً أن نساعد السّيّدات العجائز في اِجتياز الشّارع. لكن تخيّل الآن وجود شخصين اِثنين. الأوّل، واِسمه طوني مثلاً، يحبّ مساعدة السّيّدات العجائز. وتنتابه السّعادة لمرافقة "دوريس" البالغة من العمر اِثنين وتسعين عاماً (تشعر بالتّشوّش أحياناً بشأن تحديد موقعها، لكنّها تستطيع أن تحلّ لغز السّودوكو على الورق)، في اِجتياز الشّارع.

تخيّل الآن ذلك العدوّ اللّدود، "توبي". يكره توبي السّيّدات العجائز. ويرى أنّ رائحتهنّ خارجة عن المألوف. ربّما كانت إحداهنّ لئيمة معه عندما كان طفلاً، وقدّمت له حلوى طريّة، وأخبرته أنّها اِمتصّتها مدّة خمس دقائق قبل أن تعطيها

له، ممّا أفسد اِستمتاعه بالحلويّات الطّريّة إلى الأبد –».

مهلاً، هل حدث ذلك معك...؟

"ليس هذا بالأمر المهمّ... لكن مع أنّ توبي يكره السّيّدات العجائز، فقد قرّر أنّ "مساعدة السّيّدات العجائز بعبور الشّارع" هو قانون يتوافق تماماً مع الضّرورة الحتميّة وبالتّالي، يقوم على مضضٍ، وروحه تصرخ من البؤس والعذاب، بمساعدة "مافيس" (سبع وثمانون عاماً، لكن بكامل صحّتها العقليّة) على اِجتياز الشّارع إلى الصّيدليّة لشراء وصفة دواء. هكذا لدينا نوعان من النّاس: طوني الطّيّب، وتوبي اللّئيم. لكن، وفقاً لأخلاقيّات كانط، أحدهما فقط يؤدّي عملاً أخلاقيّاً: إنّه توبي".

ماذا؟

"يمكنك اِكتشاف ذلك. بالنّسبة لكانط، أن تكون خيّراً أو جيّداً، يعني أن تتّبع القوانين من خلال الواجب. والأشياء الّتي تستمتع بفعلها لا تُعتبر أخلاقيّة – أو لا يمكن أن تكون اِختباراً لما هو أخلاقيّ، إذ ما الّذي سيحدث إذا كنت تودّ القيام بأشياء سيّئة؟ يرغب توبي بإلقاء الحصى على طيور البطّ بدلاً من مساعدة النّساء العجائز. وكانط لا يعطيك أيّ إشارات على أنّ الاِستمتاع يجعلك جيّداً.

بالنّسبة إلى بعض النّاس، هذا كافٍ للتّشكيك في نظام كانط. يبدو أنّه يسير ضدّ وجهة نظرنا الرّئيسة حول ما يعنيه أن تكون شخصاً جيّداً أو سيّئاً. إذا لم تستطع التّمييز بين طوني اللّطيف وتوبي اللّئيم، فما الفائدة؟ وهناك جانب محرج أكثر في ذلك. مع تذكّر الصّيغة الثّانية، هل يمكن أن نرى إصرار طوني على مساعدة السّيّدات العجائز في اجتياز الطّريق مخالفاً للبند الثّاني الّذي يشدّد على عدم اِستخدام البشر باعتبارهم وسيلة لتحقيق غاية؟ ألّا يستخدم الآخرين لتحقيق متعته الخاصّة، بقدر ما يستطيع السّاديّ أن يقتلع أجنحة الذّباب لتحقيق متعته الخاصّة.

بما يخصّ النّقطة الأولى، أعتقد أنّ هذه في الواقع إحدى ***نقاط القوّة*** في الضّرورة الحتميّة. ثمّة نوع خاص من الفضيلة في مقاومة دوافعك للقيام بفعل خاطئ من أجل المثل الأعلى الّذي اِشتركت فيه. ومن هو الّذي يحتاج أكثر إلى مرشد أخلاقيّ؟ أولئك الّذين يجدون جاذبيّة الشّرّ قويّة بالتّحديد.

لكن هناك اِنتقادات أخرى أعمق. مع التّذكير بأنّ الضّرورة الحتميّة يجب أن تُطاع دون أيّة اِستثناءات، فإنّ الفكرة الأولى لطلّاب الفلسفة عندما يصادفون هذا المبدأ هي اِختلاق موقف يكون فيه الخضوع للضّرورة الحتميّة ضرباً من الجنون. ويصلون، بشكل دائم تقريباً، إلى فكرة قاتل مجنون بفأس، يطرق بابهم ويسأل عن مكان وجود الضّحيّة المقصودة. تعلّمنا الضّرورة الحتميّة أنّه ليس علينا أن نكذب، ومع ذلك، من هو صاحب الضّمير الّذي يستطيع أن يكشف موقع اِختباء كلب صغير يريد القاتل الوصول إليه؟"

هيه أنت!

"تأكّد من أنّك لا تزال مستيقظاً. المدهش في الأمر أنّ كانط توقّع هذا الأمر، وصولاً إلى السّلاح".

والكلب الصّغير؟

"لا، ليس الكلب بل إنسان. وبقي جوابه وفيّاً لقانونه. قال إنّ عليك ألّا تكذب على رجل الفأس".

لا أكذب!

"يساعد منطقه أيضاً على تفسير سبب اِعتقاده بأنّه لا يمكنك إنشاء نظام أخلاقيّ عبر النّظر على نتائج أفعالك. المشكلة مع النّتائج هي أنّها، بالتّعريف، تحدث في المستقبل، ولا يمكن التّنبّؤ بالمستقبل. ربّما تكذب على رجل الفأس، وتقول له إنّ كلبك أو صديقك ليس في المنزل، في حين أنّك تعرف أنّه في المنزل.

لكن، برؤية رجل الفأس على الباب، ربّما اِنسحب صديقك من الباب الخلفيّ. والآن يواجهه رجل الفأس في الطّريق... من وجهة نظر كانط، لا يمكن إطلاقاً أن تتحمّل مسؤوليّة أخلاقيّة عن نتائج قول الحقيقة. لكنّك مسؤول عن العواقب السّيئة للكذب. وهناك دوماً اِحتمالات أخرى، لم يحرّمها كانط بأيّ شكل من الأشكال، تمكّنك من رفض الإجابة على سؤال رجل الفأس، أو إغلاق الباب في وجهه وطلب الشّرطة.

من الصّعب للغاية أن يحدث اِحتمال كهذا طبعاً. سيعيش معظمنا حياته دون أن يضطر إلى مواجهة معضلة كهذه. والأكثر شيوعاً هي الحالات الّتي نكذب فيها لأنّ الكذبة مريحة لنا، أو ربّما لنتجنّب بعض الإحراج البسيط. وغالباً ما نعتقد في الواقع أنّنا نكذب لأسباب خيّرة – نعم، تبدو لطيفاً هذه اللّيلة، لا، لا تبدو مؤخرتكِ كبيرة في هذا الزّيّ، كانت وجبة اللّازانيا بالخُضار والحبوب الخضراء لذيذة. هنا يبدو كانط واضحاً للغاية. لا تكذب. إذا كان الكذب واسع الاِنتشار، فستظهر مداهنتك فيه. وهذا محتملٌ على أيّ حال. يمكننا دوماً أن نفكّر بمبرّرات للكذب، لكن هذه المبرّرات غالباً ما تخدم الذّات، حتّى عندما لا تكون لفائدتنا بشكل واضح. ويتطلّب قول الحقيقة شجاعة. والضّرورة الحتميّة تمنح القوّة لهذه الشّجاعة.

لكن يوجد مشكلة واحدة لا تزال تزعجني. ثمّة أوقات يبدو فيها أنّنا نستطيع تطبيق هذه الطّريقة، ويبدو أنّها تساعدنا فعلاً على التّخطيط لمسار صحيح في حياتنا. لكنّها تتركنا في أوقات أخرى مع الكثير من العمل الّذي يجب إنجازه. هذا يعود إلى "فراغ" الصّيغة – علينا أن نطبّق المحتوى بأنفسنا. أحياناً يكون واضحاً. لا تجتز الإشارة الضّوئيّة الحمراء – إذا فعلنا جميعاً ذلك، فستعمّ الفوضى، وبدلاً من الوصول إلى بيتك بفترة أقلّ بقليل، لن تعود إلى البيت إطلاقاً. لكن ماذا عن قضايا أخلاقيّة دقيقة ومعقّدة؟ كيف تساعدنا في اِتّخاذ قرار حول ما إذا كان صحيحاً أن نقتل الحيوانات مثلاً أو نأكل الحيوانات الأخرى أم

لا؟ وبالتّالي، إذا أردت أن تتناول شطيرة لحم مقدد، تجعل القانون العامّ - ***من الصّحيح أخلاقيّاً أن تتناول لحم الحيوانات***. من الصّعب أن نعرف كيف تمّت إضافة الوضوح الأخلاقيّ هنا. تلك الّتي توافقُ على تناول اللّحم سترفع شطيرة البرغر بنوع من التّحيّة. وسيهزّ النّباتي لحيته الصّغيرة. كيف يمكن للضّرورة الحتميّة أن تساعدنا؟ لقد أعدنا صياغة مشكلتنا ببساطة.

الطّريقة الدّقيقة الّتي تشكّل فيها قانونك العامّ قد يكون لها تأثير كبير. دعنا نأخذ عقوبة الموت. تخيّل رجل الفأس وقد وجد ضحيّته، وقتلها، وتمّ القبض عليه ومحاكمته وتبيّن أنّه مذنب. ربّما يكون قانونك ***"لا تقتل أيّ إنسان***، وهو يُبطِلُ بوضوح إمكان قتل أيّ شخص في أيّ ظروف، بما في ذلك العقوبة بتهمة القتل. أو ربّما يكون قانونك، ***لا تأخذ حياة أخرى إلّا بعد أن تُثبت محاكمة قضائيّة عادلة أنّ الشّخص مذنب بارتكاب جريمة قتل***. مع أنّ من الممكن للقانون الّذي يقول، ***لا تستخدم شخصاً آخر وسيلة لتحقيق غاية***، أن تساعد المجرم. لن يكون مسموحاً أن تقتل شخصاً آخر من أجل تحقيق هدف أن تجعل العالم مكاناً آمناً، أو لتلبية مطالب الضّحيّة بالاِنتقام...

(في الواقع، جادل كانط لصالح عقوبة الإعدام. وتقوم حجّته على أنّنا من أجل تأكيد حرّيتنا باعتبارنا بشرا، علينا إنشاء دولة قويّة، وتأسيس نظام عدالة أخلاقيّ. ودون ذلك، لا يمكن ضمان الحقوق الّتي تؤكّد حرّيّتنا. ويجب على نظام العدالة هذا أن يعمل مع نظام عقوبات يشكّل ثقلاً موازناً للفعل الخاطئ. يرى كانط أنّ البشر يزدهرون ضمن مجتمع يسمح لهم بأن يصبحوا إنسانيّين، ويصبحوا أنفسهم، بشكل كامل. وهذا يعني بدوره أنّ المجرم يرتكب الجريمة ضدّ ذاته. ويجب على العقوبة أن تجعل هذه الجريمة النّظريّة ضدّ ذاته جريمة حقيقيّة. لا بدّ للمجرم أن يموت).

لكن العيب الأكبر، من وجهة نظري، هو محاولة اِكتشاف الحالة الأنطولوجيّة الدّقيقة لمبدأ التعميم".

ماذا! الحالة الأنطولوجيّة؟ ما الّذي يعنيه ذلك؟

آسف. أعرف أنّنا أشرنا إليها سابقاً، لكنّنا لم نطبّقها على نحو لائق حتّى الآن، أليس كذلك؟ في هذا السّياق، ذلك يعني أيّ نوع من ***الأشياء*** هذا؟ أيّ نوع من الحقيقة لديه؟ وهل يعني مبدأ التّعميم أيّ شيء في موقف تفعل فيه أو لا تفعل شيئاً لا يشكّل فرقاً في العالم الحقيقيّ؟ إذا ألقيت قمامتي إلى جانب الطّريق، ألا يجعل هذا التّصرف الِاحتمال الأكبر أن يقوم آخرون بفعل الشّيء ذاته، وبالتّالي يكون للضّرورة الحتميّة أسنان حادّة حقيقيّة. لكن بالعودة إلى سائقة السّيارة الّتي تفكّر في اِجتياز الإشارة الحمراء. إنّها السّاعات الأولى من الصّباح الباكر. وكانت تعمل في ورديّة متأخّرة، وهي تصارع للعودة في الوقت المناسب لتطعم طفلها الصّغير وجبة منتصف اللّيل. وليس هناك سيّارات أخرى على الطّريق. إذا اِجتازت الإشارة الحمراء، لن يعرف أحد بالأمر. وإلّا فسيبدأ السّائقون الآخرون فجأة باِجتياز الإشارات الحمراء. همس كانط بأذنها، ***لكن إذا فعل الجميع ذلك***... وكان جوابها، ***لكنّهم لن يفعلوا!*** في تلك الحالة، إذا عرفتَ بشكل مؤكّد أنّ اِنتهاكك الصّغير للقانون لن يؤدّيَ إلى اِنهيار كارثي في النّظام، فهل يبقى اِمتثالك للقانون ضروريّاً؟"

أنا أعرف ما يجب أن أفعله. لو كنت أستطيع القيادة.

"نعم، وأنا أيضا. هذا يعني أنّنا كانطيّون سيّئون.

آخر نظام أخلاقيّ سنبحثه في تلك الظّروف الّتي أوضحتها، هو القانون الّذي يقول بشكل لا لُبسَ فيه، *نعم، قم بِاجتياز الإشارة الحمراء. إنّه التّصرّف الأفضل.*

إنّها وجهة النّظر الّتي تقول إنّ البشر (والكلاب الصّغيرة) ساعون للمتعة، ممّا يعني أنّ السّعادة بالنّسبة إلينا هي ذاتها اللّذة. إنّنا نتوق إلى السّعادة، وتقودنا الرّغبة إلى اللّذة، والرّغبة بتجنّب الألم. كلّ شيء نفعله في الحياة محكوم باِنجذاب

لا يُقاوم للأولى، ونور من الأخرى. واللّذة هي الأساس العقلانيّ الوحيد لإقرار ما هو الصّواب والخطأ أخلاقيّاً. بالتّأكيد، عندما نقول إنّ شيئاً مّا صحيح، لا نعني بذلك أكثر من أنّه يسبّب اللّذة أو يروّج لها، وعندما نقول إنّ شيئاً مّا خاطئ، نعني أنّنا نعتقد بأنّه سيحرمنا من اللّذة، أو أنّه يسبّب ألماً شديداً".

وأخيراً، ثمّة شيء منطقيّ!

"تسمّى وجهة النّظر هذه "النّفعيّة"، وهو مصطلح صاغه "جيرمي بينثام (1748 – 1832)، وطوّره لاحقاً "جون ستيورات ميل" (1806 – 1873). بالنّسبة للنّفعيّين، أن تتصرّف بطريقة أخلاقيّة يعني دوماً مراعاة عواقب أفعالنا الفرديّة أوّلاً – يتمّ قياسها بشكل أساسيّ من حيث اللّذّة والألم. إذا دفعت باونداً واحداً لهذا المتسوّل، فهل سيرفع من المستوى العام لسعادتي في العالم؟ إذا كانت الإجابة نعم، فسأحشر يدي في جيبي وأعطيه نقوداً. هل سيوفّر مسار القطار الجديد هذا من السّعادة (عبر توفير طرق اِنتقال أسهل وأسرع) أكثر مما يسبّب التّعاسة (عبر إزعاج راحة أولئك المجبرين على الاِستماع إلى أصوات القطارات وهي تعبر قرب حديقتهم)؟ إذا كان الحال كذلك، علينا إنشاء تلك السّكّة الحديديّة.

هذه فعلاً نفعيّة بأبسط أشكالها. وهي أسهل نظريّة على الفهم من بين جميع النّظريّات الأخلاقيّة الّتي ناقشناها. ولأكون صادقاً، على الرّغم من أنّني أثنيت على أفكار كانط في القسم الأخير، إلّا أنّني منجذب جدّاً إلى النّفعيّة. إنّها تقدّم لنا اِختباراً موضوعيّاً لأيّ تصرّف. هل هذا التّصرّف يزيد من السّعادة في العالم أم يضعفها؟ إذا كان يزيد من منسوب السّعادة، فافعل. وإذا كان يزيد من منسوب الألم، اِفعل شيئاً آخر".

أنا مُعجب بهذه الفكرة. من يمكنه أن يعترض على أيّ شيء من ذلك؟

"تبدو النّظريّة صريحة ومباشرة للغاية، لكن تظهر المشاكل فيها حالما تلامسها. إحدى هذه المشاكل هي أنّ العثور على المسار الأخلاقيّ الصّحيح ربّما يتضمّن

مقارنة بين الملذّات (أو الألم). كيف يمكنك أن تقارن ملذّات (آلام) الرّكاب وإفساد حياة مالكي البيوت في مثالنا عن سّكة الحديد؟ وماذا عن مقارنة وجبة جيّدة بأمسية في دار الأوبرا؟ أو مباراة كرة قدم مع رقصة باليه؟ (قد ينشأ اِعتراض بأنّ هذا الأمر ليس مجالاً للأخلاق فعلاً، لكن حالما تساوي الخير والشّرّ باللّذّة والألم، فإنّ أيّ شيء يعزّز اللّذّة يكون ضمن مجال الأخلاق).

أحد الأساليب، الّتي اِتخذها "ميل"، هي الجدال بأنّ هناك تسلسلاً هرميّاً للمتعة، مع وجود مساعيَ فكريّة وأخلاقيّة في الأعلى، ووسائل التّرفيه الرّديئة للجماهير في الأسفل. وقد تأسّس ذلك على التّمييز الّذي أقامه بين ***السّعادة الحقيقيّة*** ***ومجرّد التّسلية***. يقول "إنّه من الأفضل أن تكون إنساناً غير راضٍ على أن تكون خنزيراً راضياً؛ ومن الأفضل أن تكون سقراط غير راضٍ على أن تكون غبياً راضياً. وإذا كان للخنزير أو الغبيّ رأي آخر، فهذا لأنّه لا يعرف إلّا جانبه من المسألة". لذلك يكون بناء المكتبة دوماً أفضل من بناء ملعب كرة قدم. وعلى أيّ حال، من الواضح أنّ تحيّز ميل الثّقافيّ تحيّزٌ خاصّ، ولم يلقَ الكثير من الاِهتمام. ومعظم النّفعيّين الحديثين يكتفون بجعل النّاس يقرّرون ما هي لذّتهم الخاصّة.

يعتقد بينثام، معلّم ميل، أنّه لا يمكنك الحصول على تسلسل هرمي للملذّات بناءً على التّقييم الثّقافيّ أو الفكري الّذي تتلقّاه. هناك ببساطة لذّة وألم، وليس لذّة أعلى أو أدنى. وهو يقدّم طريقة لتقييم مقدار اللّذّة لمساعدتك على اِتخاذ القرار في المسار الّذي يجب عليك اِتخاذه. كان بينثام مفتوناً بالعلم، وكان مقتنعاً بأنّه يستطيع تطبيق أساليب علميّة لقياس السّعادة. أطلق على ذلك اِسم ***حساب السّعادة***. حيث يمكنك تحديد درجة كثافة كلّ لذّة (مدى قوّة هذه اللّذّة؟)؛ مدّتها (كم تستمرّ؟)؛ الثّقة بحدوثها (اِحتماليّة حدوث هذه اللّذّة)؛ قرب حدوثها (متى ستحدث مرّة أخرى؟)؛ الخصوبة (هل ستأتي ملذّات أخرى بعدها؟)؛ النّقاء (ما مدى ثقتك بأنّه لن يتبعها ألم؟) ثمّ المجال (كم عدد الأشخاص الّذين تؤثّر

فيهم؟). أُحصل على دفتر ملاحظات صغير، وسجّل العلامات، عندئذٍ تعرف ماذا ستفعل".

"أنت لا تصدّق شيئاً من ذلك، صحيح؟

"من السّهل للغاية أن تسخرَ من النّفعيّة الفَظّة - قام "تشارلز ديكنز" بعمل رائع في روايته "أوقات عصيبة". وهناك اِعتراضات أخرى أكثر صعوبة. كان كانط معارضاً للنفعيّة قبل أن تتّخذ اِسمها. حيث جادل، كما رأينا سابقاً، بأنّنا لا نستطيع أن نثبّت نظاماً أخلاقيّاً على أساس النّتائج لأنّها لا يمكن أن تكون معروفة بشكل كامل. واعتقدَ أنّ اللّذّة لا يمكن أن تكون مرشداً موثوقاً لما يجب علينا فعله. هل ستؤسّس نظاماً أخلاقيّاً على شيء غير عقلانيّ، ولا يمكن التّحكم فيه مثل الرّغبة الجنسيّة، أو الجوع؟ يعتقد أنّه بدلاً من تأسيس أخلاقيّاتك على هذه الملذّات، يجب على أخلاقيّاتك أن تساعد على السّيطرة عليها.

لكن الِاعتراض الحقيقيّ على النّفعيّة هو أنّه في تقييم الكتلة الكاملة للسّعادة النّاتجة عن فعل معيّن، لا تتمّ معاملة النّاس باعتبارهم أفرادا منفصلين، لكلّ منهم وجهة نظره العالميّة الخاصّة، وتجاربه وحقوقه ورغباته، بل يجب جمعهم معاً بشكل صارم. وإذا كان الهدف الوحيد للأخلاق إنتاج أعظم قدر من الخير، فلن يكون مهمّاً من يحصل على الخير، أو من قد يعاني أثناء العمليّة. وإذا اِكتشفنا من خلال البحث الدّقيق أنّ أحكام الإعدام العلنيّة تردع المجرمين بشكل فعّال، وأنّ حالة إعدام واحدة مثلاً ستؤدّي إلى إنقاذ اِثنين كان يُحتمل قتلهما، فإنّ الواجب النّفعيّ يتطلّب تنفيذ حكم الإعدام بشخص مّا. وإذا لم يتوفّر لدينا قاتل مناسب في سجن المحكومين بالإعدام، فعلينا عندئذٍ أن نلتقط أحدهم من الشّارع ونعدمه.

مع أنّ ذلك يبدو سخيفاً بالنّسبة إلينا، فإنّ العديد من أفظع الجرائم البشريّة

اِرتكزت بدقّة على هذا النّوع من التّفكير النّفعيّ الفَظّ، الّذي يجد أنّه من المقبول القتل والاِستعباد من أجل تحسين عدد أكبر من الآخرين. ضابط قوّات الأمن الخاصّة الّذي اِعتقل قرويّين فرنسيّين وقتلهم لردع هجمات المقاومة، كان يعمل وفقاً لهذا المبدأ تحديداً. حتّى الحكومات غير الشموليّة اِتّخذت قرارات تتعلّق بالحياة والموت على أسس نفعيّة. وعلى مدى سنوات، وجدت الولايات المتّحدة الأمريكيّة أنّ من المقبول قتل المدنيّين الأبرياء، بما في ذلك الأطفال، في هجمات لطائرات دون طيّار، بهدف اِغتيال أعضاء في منظمات إرهابيّة.

تبدو كأنّها مشاكل كبيرة جدّاً.

"كبيرة بالفعل، لكنّ النّفعيّة تستطيع الإجابة عليها إلى حدّ معيّن. النّظام الشّموليّ الّذي يضحّي بالأبرياء ليس مكاناً سعيداً بكلّ وضوح، وتتطلّب النّفعيّة ألّا نذهب إلى هناك. ويمكن القول بشكل عامّ أنّنا، قبل كلّ شيء، سنكون أكثر سعادة إذا أعطينا الأفراد حقوقاً تمنع التّضحية بهم. طالما أنّنا نقول إنّ هدفنا هو تحقيق أعظم سعادة ممكنة، فإنّ دفاعاً كهذا عن حقوق الإنسان يقع ضمن مجال النّفعيّة. الفكرة الّتي تقول إنّ علينا ترسيخ بعض المبادئ الأساسيّة المعيّنة في إطار نفعيّ كانت تُسمّى "***نفعيّة القانون***"، تمييزاً لها عن "***نفعيّة التّصرّف***". تركّز نفعيّة التّصرّف بشكل حصريّ على سلوك معيّن ونتائجه. بينما تأخذ نفعيّة القانون خطوة إلى الخلف لتقول إنّ تعظيم المتعة يتطلّب منّا جميعاً أن نمتثل لقوانين معيّنة، وحتّى إذا كان كسر هذا القانون من حين إلى آخر يقودنا إلى زيادة منسوب السّعادة، علينا أن نتّبع القانون لحماية الخير الأعظم طويل الأمد.

وبالعودة إلى تلك الأمّ الّتي تريد الوصول إلى بيتها بسرعة، وواجهت إشارة حمراء في وقت متأخّر من اللّيل، ستقول "نفعيّة التّصرّف"، ***عليك باِجتياز الإشارة الحمراء***: لن تكون هناك أيّ عواقب وخيمة جرّاء اِجتيازها في لحظة كهذه. وستقول "نفعيّة القانون"، ***توقّفي***. القانون الّذي يقضي بوقوفنا عند الإشارة الحمراء له فائدة كبيرة جدّاً في ضمان منفعة طويلة الأمد إذ ينبغي علينا

الاِمتثال له. وبالطّريقة ذاتها، يقول أتباع نفعيّة القانون إنّ القانون ***لا يؤدي النّاس إلى ضمان خير أعظم*** فحسب، بل يؤدّي في الواقع إلى هذا الخير الأعظم بالضّبط.

يجادل ميل بأنّ العديد من الأنظمة الأخلاقيّة السّابقة عبارة عن نسخ مقنّعة من النّفعيّة. ما هي ضرورة كانط الحتميّة غير قانون يطالبنا بتخيّل عواقب تصرّفاتنا، حتّى لو كانت تقول إنّ لا صلة لها بالموضوع. كان يسوع المسيح نفعيّاً من وجهة نظر ميل: القانون المسيحيّ الأخلاقيّ عن الحبّ والسّلام والخير هو مرشد جيّد لتعظيم السّعادة. ولن يحتاج الأمر إلى جهد كبير لتحويل "اليودامونيا" الأرسطيّة الأنانيّة الفرديّة إلى وصفة للسّعادة العامّة.

من التّعقيدات الأخرى للنّفعيّة مسألة من الّذي تهمّنا سعادته. عادة ما يكون الحلّ بالقول إنّ الوحدة الأساسيّة لرؤية السّعادة هي الشّخص. وعندئذٍ يصبح السّؤال، من الّذي نعتبره ***شخصاً***؟ هل البشر فقط؟ أم نأخذ الحيوانات أيضاً؟ إذا كانت الحيوانات أيضاً، فسنأخذ الحيوانات كلّها أم تلك الّتي اِجتازت عتبة معيّنة من الذّكاء؟ ومع الحيوانات، هل نأخذ البشر جميعاً؟ هل نوسّع النّطاق ليشمل الأجنّة؟

على الرّغم من تعقيدات هذه المشاكل، إلّا أنّها لا تبدو عصيّة على الحلّ. ثمّة تفاصيل ينبغي العمل عليها إذا قرّرنا أنّ السّعادة هي فعلاً المرشد للأخلاق".

أنا مشوّش. هذه الأنظمة كلّها، وهذه الأفكار كلّها. ماذا يجب أن نفعل؟ أيّ طريقة هي الصّحيحة؟ كيف لنا أن نحافظ على سكّان ميلوس؟

"ها قد وصلنا، أليس كذلك، من خلال وصف حالة التّشوّش الأخلاقيّ الّتي نراها في النّقاشات المعاصرة. رأينا ذلك مشكلةً يجب أن نحاول حلّها. هل يقدّم لنا تاريخ الأخلاق نظريّة واحدة يمكن أن توحّدنا جميعاً، وتمنحنا ذلك الشّعور بالأمان في محاكماتنا الأخلاقيّة الّتي نتوق إليها؟ لكن كلّما فكّرت أكثر في هذا الأمر، صدمني أكثر أنّ هذا التّشوّش يُصبح قوّة دفعٍ بدل أن يكون مشكلة".

إذا فكرنا في نماذج الأشياء الّتي تندرج تحت وصف القواعد الأخلاقيّة أو الأخلاق، نجد تنوّعاً مذهلاً. ثمّة عمليّات خداع بسيطة تشكّل جزءاً من كلّ علاقة إنسانيّة تقريباً؛ هناك الكثير من الخيانات السّيّئة لعلاقة الصّداقة وعلاقة الحبّ؛ هناك مخالفات جنائيّة تنقسم بدورها من تلك الّتي نجدها لا تستحقّ العناء (مخالفات وقوف السّيّارات)، إلى الّتي نجدها منفّرة للغاية (قتل واغتصاب). وهناك قرارات حكوميّة لها تأثير هائل في حياة المواطنين، من قرارات حول إنفاق المال على الرّعاية الصّحّيّة أو السّلاح، وقرارات حول من يجب قصفه بهذه الأسلحة. وتؤثّر بعض هذه القضايا الأخلاقيّة في بشر آخرين، وبعضها ليس لديه تأثير في العالم إطلاقاً، يتجاوز أرواحنا.

أليس غريباً أن يكون قانون أخلاقيّ واحد، أو مجموعة قوانين أخلاقيّة، قابلاً للتّطبيق في كافّة الحالات؟ لقدّ مرّت بالطّبع أوقات في التّاريخ تمّ فيها فرض قانون أخلاقيّ واحد على النّاس – القانون المسيحيّ الأصوليّ، أو السّتالينيّ، أو الفاشيّ أو الإسلاميّ، ولم يعمل بشكل جيّد على الجميع. لذلك ربّما يتناسب مزيج مشاعرنا الأخلاقيّة مع الواقع بطريقة خاصّة وعمليّة إلى حدّ مّا.

ثمّة تناقض حتّى في نظامنا القانونيّ. تحتاج الجريمة إلى نيّة جرميّة وفعل إجراميّ، لمواءمتها بطريقة مّا مع منظور كانط؛ لكنّ الجريمة المدنيّة لا تتطلّب سوى إظهار الفعل الّذي يتضمّن حلقة نفعيّة. ومع ذلك ربّما يكون لشخصيّة المدّعى عليه – المدى الّذي يصل إليه في تجسيد فضائل أو رذائل معيّنة – تأثير على كيفيّة إدانته، وهو ما يقرّبنا أكثر من أرسطو.

نواجه هنا للمرّة الأولى شيئاً سيحدث مرّة تلو الأخرى في مشاويرنا. إنّها حقيقة أنّ لدينا مَلَكات وإمكانات فكريّة معيّنة، وأدوات تحليليّة معيّنة أيضاً – اللّغة بشكل أساسيّ – نستخدمها لمحاولة فهم العالم. وهذا نوع من العمل. نحن

نمضي اليوم دون أن نسير على منحدرات أو نزعج جيراننا إلى درجة أن يقوموا بالبحث عن فأس في قبو منزلهم. لكنّ هذا لن يغيّر حقيقة وجود شيئين منفصلين تماماً: الواقع المتشكّل من التّعقيدات الكبرى للعالم المادّيّ، وهي تعقيدات شائكة وغريبة أكثر بالنّسبة إلى العقول الأخرى، من جهة أولى؛ ومحاولاتنا لنمذجة ذلك العالم وفهمه وتحليله من جهة أخرى. لدينا نموذج جيّد لكنّه لا يحيط بكلّ شيء. إنّ حبيبات الواقع النّاعمة تنزلق من بين أصابعنا كلّما حاولنا اِلتقاطها.

في مشوار سابق لهذا المشوار، طرحنا فكرة التّمييز بين الحقائق الموضوعيّة والحقائق الذّاتيّة. الموضوعيّ هو عالم الحقيقة المطلقة غير المشروطة، بينما يهتمّ العالم الذّاتيّ بتلك المواضيع الّتي تعتمد على الإدراك المحدود لفرد معيّن. وقد طوّر "ديفد هيوم" فلسفة أخلاقيّة كانت تهدف إلى طريقة وسطى بين هذين التّطرّفين، وهو ما أُطلِقَ عليه لاحقاً "التّوفيق بين الذّوات". وجادل بأنّ للبشر قدرة فطريّة على التّعاطف (لقد اِستخدم مصطلح "الشّعور بالآخر – sympathy"،[28] لكنّه قَصَدَ فيه القدرة على اِختبار الملذّات والآلام الّتي يشعر بها الآخرون). بجعل هذه القدرة المحدودة نقطة اِنطلاق، نكتسب قواعد الثّقافة الخاصّة الّتي نشأنا عليها ومعاييرها. يقول هيوم تصبح أسماء ***الخير والشّر*** مرافقة للمشاعر الّتي نختبرها عندما نرى نماذج سلوك معيّنة – أولئك الّذين اِبتسموا في مجتمعنا الخاصّ أو اِستاؤوا منه.

يجادل هيوم بأنّه لا يمكن العثور على الخير والشّرّ في الأحداث بحدّ ذاتها، لأنّها ترتبط بالمشاعر الّتي تراودنا في ظروف معيّنة. لكن بسبب الطّبيعة الاِجتماعيّة للبشر، والطّريقة الّتي نشأنا عليها بمعتقدات وعادات مشتركة، وبسبب تلك القدرة الفطريّة على التّعاطف، سيحدث ضمن تلك الثّقافة اِستجابة مشتركة

---

(28) المصطلح الأوّل هو "الشّعور بالآخر – Sympathy"، والثّاني هو "التّعاطف – Empathy": كلاهما يعنيان التّعاطف. لكنّ المصطلح الأوّل يتضمّن الفهم من وجهة نظرك الخاصّة. أمّا الثّاني فيتضمّن أن تضع نفسك مكان الشّخص الآخر وتفهم لماذا نشأ لديه هذا الشّعور (م).

للمحفّزات الأخلاقيّة ذاتها، ممّا يجعل الأحكام مشتركة إلى درجة معيّنة ضمن تلك الثّقافة، لذلك تسمّى ***التّوفيق بين الذّوات***. وهذا ما يبعدها عن العاطفيّة البسيطة الّتي ناقشناها سابقاً. تُعطى العاطفة معنى بسبب سياقها الِاجتماعيّ وطبيعتها المشتركة.

رغم العديد من الِاختلافات الّتي تمّت مناقشتها، يفسّر هذا النّهج كيف يكون هناك اِتّفاق كبير على قضيّة أخلاقيّة ضمن ثقافة معيّنة. ويفسّر أيضاً المسافة بين الأطر الأخلاقيّة للثّقافات البعيدة، الّتي تفتقد لغة مشتركة عن الأخلاقيّات. نحن وشعب الأزتك، ربّما ننظر أحدنا إلى الآخر بالقدر ذاته من الِاشمئزاز. وقد يكون هناك ما يكفي من القواسم المشتركة بين جميع الثّقافات لتوفير عناصر مشتركة قليلة في قواعد الأخلاق. عندما يعيش البشر معاً، سيكون هناك دوماً بعض القوانين المطبّقة، وبعض المعايير الّتي لن يكون بإمكاننا العيش جماعة دونها. اِحفظ عهودك، وسدّد دينك..."

أحبب كلبك.

"أحبب كلبك. لكن بسبب تنوّع التّجارب البشريّة حتّى ضمن الثّقافة، وتعقيد ما يعنيه اِتّخاذ قرار أخلاقيّ، لن تكون هذه الِاستجابة الثّقافيّة المشتركة شاملة أبداً. سوف تهترئ وتتحطّم.

ما نتوق إليه هو نهج أخلاقيّ مشابهٌ لمضادّ حيويّ واسع الطّيف، يقتل الجراثيم كلّها ويعالج الأمراض كلّها. لكنّ الحالة في الأخلاق مشابهة للحالة في الطّبّ، هناك الكثير من مسبّبات الأمراض، والكثير من الطّرق الّتي تجعلك مريضاً، إذ لا يمكن لدواء واحد أن يجمعها كلّها. لذلك لدينا هذه الوفرة في المناهج الأخلاقيّة – جميعها لديها عيوب، وجميعها تُطبّق على بعض جوانب ما يعنيه أن تكون أخلاقيّاً. يجب على السّياسة الحكوميّة (وأحياناً تفعل) أن تتطلّع إلى مصلحة الغالبيّة العظمى من السّكان. ومن الجيّد أيضاً أن نتّبع القانون الّذي

يمنعنا من الكذب، حتّى لو أوصلنا في لحظة معيّنة إلى مصاعب ومواقف خطيرة. ربّما كان على تلك الأمّ أن تجتاز الإشارة الحمراء (مع الِافتراض بأنّها ستفعل ذلك بشكل آمن)؛ وعلينا فعلاً أن نُعجبَ بالفضائل الكلاسيكيّة للشّجاعة والِاعتدال والشّهامة والتّواضع؛ إضافة إلى الفضائل المسيحيّة المرتبطة بالإيمان والأمل وفعل الخير. لأنّ مبادئ الخير والشّرّ غامضة في نهاية المطاف. والغموض أمر سنعود إليه...

ربّما هناك شيء دقيق آخر يتعلّق بذلك. عندما نحاكم الأخلاق، هناك أمران محتملان يمكن تفحّصهما. قد ننظر إلى التّصرّف، وقد ننظر إلى الشّخص. من الممكن أن نقرّر أنّ الشّخص كان بريئاً لكنّ التّصرّف مرعب، مثل كارثة مروّعة وقعت بسبب خطأ عَرَضيّ؛ ومن الممكن أن نحاكم شخصاً على أنّه مروّع، على الرّغم من ظهور نتائج جيّدة لتصرّفه".

أشعر بوجود مثال غريب قادم.

"تخيّل وجود قاتلٍ متسلسل محتمل على قمّة مبنى مرتفع. لديه بندقيّة، ويطلق النّار على النّاس في الشّارع في الأسفل. لكنّه سيّئ في التّصويب، وجميع تسديداته تخطئ الهدف. بِاستثناء إصابة واحدة لامست "شامة" في عنق اِمرأة في منتصف عمرها. وبطريقة أشبه بالسّحر، أزالت الرّصاصة الشّامة عن عنق المرأة دون أن تسبب أيّ أذيّة. واِتّضح أنّ تلك الشّامة كانت توشك أن تصبح ورماً سرطانيّاً. دون رصاصة الحظّ تلك، كانت المرأة ستموت بسرطان خبيث في الجلد".

مثال سخيف إلى حدّ مّا.

"نعم، أعرف، لكن يساعدنا المثال المتطرّف أحياناً على توضيح الفكرة. إنّنا نصِف هنا بشكل لا لُبسَ فيه رجلاً سيّئاً للغاية، ونتّفق بالقدر ذاته على أنّ النّتيجة كانت جيّدة. تبتسم النّفعيّة لهذه النّتيجة؛ ويعبس كانط بوجه مطلق النّار. وفكرتي هي التّشديد مرّة أخرى على أنّنا ربّما نحتاج إلى وجهات نظر أخلاقيّة مختلفة

لنحيط بالتّعقيد الكامل لعالم الأخلاق".

هذا عظيم. وماذا عن شعب ميلوس...؟

"أها، شعب ميلوس. كان نيتشه يهتف للأثينيّين. وحقيقة أنّ شعب ميلوس خسر المعركة يعني أنّهم كانوا دونيّين، ويقول قانون "السّوبرمان" إنّه يستطيع أن يفعل ما يشاء مع المهزوم. أعتقد أنّ مبدأ أفلاطون عن العدالة كان سيقوده إلى القول إنّه لا يجب تدمير شعب ميلوس. يتخيّل كتاب "الجمهوريّة" الدّولة المثاليّة تذهب إلى الحرب في حالتين اِثنتين: في حالة العدوان لضمان بقائها، ولنشر العدالة حول العالم. لا تحمل أخلاقيّات أرسطو الكثير من الأمل لشعب ميلوس، إلّا إذا كان بإمكان فضيلة الاِعتدال أن تكبح عنف الأثينيّين. لكن أرسطو كان معلّم الإسكندر الكبير الّذي لا يتّصف بالاِعتدال إطلاقاً... لا أستطيع أن أرى أيّ شيء في مفهوم أرسطو عن "اليودامونيا" يمكن أن يجعل الأثينيّين يبقون على أعدائهم، مع أنّه كان يعتقد أنّ على الإغريق أن يتوقّفوا عن الاِقتتال فيما بينهم، ويوحّدوا صفوفهم ضدّ البرابرة.

تقول "نفعيّة التّصرّف" إنّ على الأثينيّين أن يطبّقوا "حساب السّعادة" بدقّة. هل تؤدّي هذه الفظاعة إلى مقدار أعظم من السّعادة؟ وعلى الأثينيّين طبعاً، ألّا يحصوا سعادتهم الخاصّة فقط، بل سعادة جميع المتضرّرين من ذلك. ولو كان شرّ الإسبارطيّين الّذين كسبوا الحرب البولينيزيّة أكبر من الشّرّ الّذي اِرتكبه الأثينيّون بحقّ أهل ميلوس، لكانت المذبحة صحيحة. هذا هو نوع الحساب الّذي أجرته قوّات التّحالف في قصف المدن الألمانيّة في الحرب العالميّة الثّانية. شرّ قتل النّساء والأطفال "اِشترى" خير هزيمة هتلر. وعلى أيّ حال، مع أخذ كلّ شيء بعين الاِعتبار، لا أعتقد أنّ التّقييم الموضوعيّ للعواقب سيسمح للأثينيّين باِرتكاب مذبحتهم. وستكون "نفعيّة القانون" واضحة حول رفض الأداء. إنّه من النّاحية الموضوعيّة عالمٌ أكثر سعادة لنا جميعاً، على المدى البعيد، إذا لطّفنا هذا النّوع من السّلوك وتحكّمنا به.

كانط هو الأكثر وضوحاً بين الجميع. لا يمكن أن تقتل أهل ميلوس وتستعبدهم. من المستحيل أن ترسخ ضرورة حتميّة تقول: ***إذا أعاق أيّ شخص خطّتك لكسب هذه الحرب، عليك أن تقتله وتستعبده***. هذا من شأنه أن يدعو لتطبيق المصير ذاته عليك. وكان ذلك تحديداً ما حدث للأثينيّين بعد سنوات قليلة. حملة كارثيّة ضدّ مدينة "سيراكوس" في صقلّيّة اِنتهت بهزيمة مطلقة للأثينيّين. أبيد القسم الأعظم من الجيش. وأولئك الّذين نجوا من الموت تابعوا العمل في المناجم حتّى موتهم، وشعروا بالأسف لأنّهم حُرِموا من نهاية سريعة لمعاناتهم. وهكذا ربح الإسبارطيّون الحرب".

هل كان ذلك كلّه من أجل لا شيء؟

"نعم".

هممممممم.

"الكارما. دعنا نعد إلى البيت".

المشوار (4)

عقول أخرى والإرادة الحرّة

في هذا المشوار، فكّرت أوّلاً في السّؤال عن العقول الأخرى، أي كيف نستطيع أن نتأكّد من أنّ الآخرين ليسوا أشبه برجال آليّين مثلاً، لكن لديهم عمليّات وتجارب عقليّة مثلنا؟ ثمّ ناقشنا أنا ومونتي مشكلة الإرادة الحرّة: هل النّاس أحرار في خياراتهم – الأخلاقيّة وغيرها – أم أنّ أفكارنا وأفعالنا كلّها تمّ تحديدها بأشياء تتجاوز سيطرتنا؟

قرّرت في اليوم التّالي أن أذهب في نزهة مع مونتي إلى ضفّة نهر التّايمز، من ريتشموند إلى هضبة ستروبري. وهذا يعني ركوب القطار إلى ريتشموند، وكان مونتي يحبّ النّقل العامّ، لكنّه نادراً ما يُفصح عن ذلك. جلس على ركبتيّ في العربة المزدحمة بينما كنت أقرأ، وانحشر أنفه في المنتصف بين نصفي الكتاب، فبدا كأنّه كان يقرأ أيضاً. ألقيت نظرة حولي على أمل أن أرى من هو مستمتع بهذا المشهد البسيط، وأن نستطيع أن نتبادل اِبتسامات مفادها "أليس لطيفاً"، لكن المسافرين الآخرين كانوا منشغلين بهواتفهم، ينقرون عليها أو يمرّرون أصابعهم على الشّاشات، ويبتسمون لنكتة على "واتس آب"، أو لمقطع على "يوتيوب" يظهر عطسة دبّ الباندا.

في أوقات كهذه، عندما يصبح كلّ فردٍ مطوّقاً بعالمه الخاصّ، أجد نفسي أتأمّل ما يُسمّى *مشكلة العقول الأخرى*. إنّه – سؤال حول ما إذا كان للآخرين عقول

مثل عقلي – من الأسئلة القليلة الّتي لا تعود إلى الإغريق. ولا يبدو أنّ أحداً تساءل عن ذلك قبل "جون ستيورات ميل" في القرن التّاسع عشر. لكنّ الجلوس هنا ومشاهدة النّاس حولي في القطار جعلت من الصّعب ألّا تتساءل كيف يمكن إثبات الِافتراض الشّائع بأنّ الآخرين يفكّرون ويشعرون ويختبرون عالماً مثل عالمك. أنا لا أستطيع أن أختبر ألمك ولا فرحك. لا أستطيع أن أشعر بمشاعرك وأنت تحكّ رأسك، أو تحشر أصابع قدميك في حذائك الضّيّق. هل سعادتك مثل سعادتي، وحزنك مثل حزني؟

إن عدم قناعتنا بأنّ عقول الآخرين تشبه عقولنا هو مؤشر على الجنون طبعاً: النّاس الفُصاميّون والمصابون بِاضطرابات نفسيّة أخرى غالباً ما يعتقدون أنّه تمّ اِستبدال النّاس الّذين حولهم بنسخ مماثلة لا روح لها أو برجال آليّين. بينما يعتقد العقلاء بوجود هويّة للوعي البشريّ، وأنّ الِاختلافات بيننا هي فروقات في موضوع محدّد. لكن الِاعتقاد ليس مكافئاً للمعرفة. هل يمكننا أن نعرف أنّنا متماثلون، أو هل نحن نحظى على الأقلّ باليقين ذاته حول الأعمال العقليّة لرفاقنا البشر الّذي يمتلكه علماء التّشريح عن الجسد البشريّ؟

ثمّة جانبان مختلفان تماماً لهذه المشكلة. الأوّل هو كيف يمكن أن أعرف ما يوجد في رأسك؟ ما الّذي يمكن اِعتباره دليلاً أو إثباتاً؟ والثّاني مفاهيميّ أكثر. لأعرف فعلاً ما إذا كنّا متماثلين، يجب أن أفكّر بأفكار الآخر، وأشعر بمشاعره، وكيف يمكن ذلك؟ لا يمكن لأفكاري ومشاعري أن تتضمّن أفكارك أو تُحيط بها بطريقة أو بأخرى. شيء كهذا لا يمكن تصوّره فعلاً خارج عوالم الخيال العلميّ.

سأقول مباشرة إنّه ليس لدى الفلسفة أيّ إجابة على البند الثّاني للمشكلة. كما أنّ إجابتها على البند الأوّل ليست كافية تماماً أيضاً. لكن هناك، على الأقلّ، محاولات للإجابة على السّؤال الأوّل، حتّى لو كانت إجابات صلبة وقاسية مثل كعكة "الميرينغ" الجافّة....

أثار الفلاسفة ثلاث إجابات مختلفة على مشكلة العقول الأخرى. الأولى هي حجّة تعتمد على القياس. أعرف أنّ لديّ هذا النّوع من العقل. وأنا أشعر وأفكّر وأعتزم وأحكّ وأتألّم. والآخرون مثلي بكثير من الطّرق الخارجيّة الأخرى الّتي أستطيع أن أراها بوضوح. وبالتّالي ينبغي بالتّأكيد أن يكونوا مثلي تماماً من الدّاخل أيضاً، أليس كذلك؟

هذا ما يفكّر فيه معظمنا غريزيّاً. وهو نوع من التّفكير الِاستقرائيّ. الِاستقراء عمليّة نستطيع من خلالها محاولة تشكيل قوانين عامّة من حالات معيّنة. أنت تجد عدداً معيّناً من حالات يكون فيها "X" متبوعاً بـ "Y"، فتقوم بقفزة اِستقرائيّة لتقول إنّ جميع أحرف "X" ستتبعها أحرف "X". وألاحظ في حالتي الخاصّة أنّ لديّ عمليّات وتجارب معيّنة، لذلك أصوغ قانوناً عامّاً مفاده أنّه يجب على الجميع أن يختبروا هذه الأشياء ذاتها بالطّريقة ذاتها.

بغضّ النّظر عن المشاكل المختلفة المرتبطة بالتّفكير الِاستقرائيّ (سوف نتفحّصها بإسهاب في مشوار لاحق)، ثمّة عيب كبير في الحجّة المعتمدة على القياس. عادة ما تقوم بِاستخدام الِاستقراء بجمع أدلّة من حالات متعدّدة، وتشكّل قانوناً عامّاً، ثمّ تستخدمها لتتوقّع حالة مستقبليّة. لكن مع مشكلة العقول الأخرى، تعكس الحجّة المعتمدة على القياس هذه العمليّة تقريباً. لدينا فقط مثال واحد يمكننا التّعميم من خلاله. ثمّ نقوم بتطبيقه على مليارات البشر كلّها على الكوكب. على الرّغم من كونها جذّابة ظاهريّاً، وتمّ توظيفها عالميّاً، فهي حجّة واهية.

تبدو الحجّة الثّانية مشابهة، لكنّها مميّزة في الواقع. إنّها حجّة تقوم على الِاستدلال وليس على القياس. بدلاً من الِافتراض ببساطة أنّه، لأنّ لديّ عقلاً من هذا النّوع، يجب أن يكون للآخرين العقل ذاته، ترتكز هذه الحجّة على مراقبة سلوك الآخرين، وتشكيل أفضل فرضيّة ممكنة لتفسيرها. إذا رأينا شاحنة تسير على الطّريق، نفترض أنّها مقودة بمحرّك، وليس بالسّحر أو بواسطة خيول مخفيّة

بطريقة دقيقة. نرى النّاس يتصرّفون بطرق مختلفة ويسيرون ويتحدّثون ويحبّون ويكرهون بطرق مختلفة. إذا حاولنا الآن تفسير هذه السّلوكيّات، فهناك اِحتمالات متعدّدة. يمكن أن يكونوا، كما أشرنا سابقاً، روبوتات نابضة بالحياة، دون أن يكون لديهم الوعي الّذي لديّ. ويمكن أن يكونوا معتمدين على المحاكاة الحاسوبيّة. ويمكن أن يكون هناك آلات تقودهم وتوجّههم، وغير معروفة بالنّسبة إلينا حتّى الآن. لكنّ التّفسير الأكثر عقلانيّة هو أنّ لدى كلّ منهم عقلاً ووعياً. وهذا يتوافق ببساطة مع الحقائق الّتي نلاحظها أكثر من أيّ تفسير آخر.

المشكلة هنا هي أنّنا نصل في أفضل الحالات إلى اِستنتاج مفاده أنّ التّفسير الأكثر رجحاناً لسلوك الآخرين هو أنّ لديهم عقولاً مماثلة لعقولنا إلى حدّ مّا. ثمّ يتمّ الاِعتماد على حجّة القياس لتأخذنا ما تبقى من الطّريق، واِفتراض أنّ النّسيج الحقيقيّ لتجربتهم مطابق لنسيج تجربتنا. وقد رأينا للتّوّ المشكلة في ذلك.

"الحلّ" الثّالث أكثر بساطة وإغراء (بالنّسبة إليّ على أيّ حال). يفترض أنّ الحالات العقليّة ليست مخبّأة على الإطلاق. والأشياء الّتي تحدث في عقلك مكتوبة على الجسد. أن تحكّ يعني أن تخدش. أن تفكّر يعني أن تبدو غارقاً في الأفكار. أن تكون سعيداً يعني أن تبتسم. إنّها، بمعنى مّا، تحطّم ثنائيّة العقل/ الجسد. فبدل أن يكون لدينا شيئان اِثنان، العقل والجسد، هناك شيء واحد: كائن مفكّر متّحد. تفترض وجهة النّظر هذه مسبقاً أنّ حياتنا باِعتبارنا كائنات اِجتماعيّة قد تطوّرت ليقرأ أحدها الآخر. وأنّ الوعي ليس وعاءً خاصّاً في أذهاننا، بل منطقة مفتوحة نتشاركها.

يرتبط بهذه الحجّة فكرة أنّ اللّغة ليست ممكنة إلّا إذا كانت عقولنا تعمل بالطّريقة ذاتها. اللّغة جماعيّة دوماً، اِعتماداً على الفهم المشترك للعالم. تمثّل الكلمات أفكاراً؛ التّواصل هو حقيقة: جميع أنواع الأشياء تحدث بوضوح بسبب نقل معلومات وتعليقات دقيقة. وكما قال "فتغنشتاين"، لو يستطيع الأسد أن يتحدّث، فلن نفهم ما يقول. وهذا لأنّ العالم العقليّ والاِجتماعيّ للأسد يختلف

كثيراً عن عالمنا العقليّ والاِجتماعيّ. لكنّ البشر يتحدّثون، ويمكن فهمهم.

هناك مشاكل في وجهة النّظر هذه طبعاً. يمكن أن نخدعَ ونُخدَعْ. ويمكن أن نسيء فهم الأعراض الجسديّة للتّفكير. ويمكن أن نفكّر دون عرض أيّ مشاعر أو علامات أخرى. لا يوجد طريقة للعثور على بنية العقل في الوجه.

ومع ذلك، تفترض الاِستثناءات مُسبقاً وجود قاعدة. الخداع ممكن فقط لأنّنا لا ننخدع عادة.

سيقول الكثيرون إنّ الأفكار الغريبة حول العقول الأخرى – فرضيّة الأتمتة، وما إلى ذلك – يمكن أن تتوالد بسهولة بقضاء القليل من الوقت في غرفة تشريح الجثث. تُظهِرُ بضع دقائق باِستخدام منشار دائريّ متمرّس أنّ كلّ جمجمة نواجهها فيها دماغ داخلها، ويكشف السّبرُ الدّقيق بالمشرط أنّ للأدمغة كلّها البنيةُ ذاتها، ولا وجود لأيّ دارات خفيّة أو غرسات غريبة. تحقيق كهذا من شأنه أن يرضي معظم المتشكّكين، مع أنّه لا يرقى إلى مستوى دليل فعليّ. هل يمكن للتّكنولوجيا أن تتنكّر بزيّ مادّة عضويّة؟ هل الأمر كلّه أشبه بحلم أو أخيولة لديّ؟ كيف أعرف أنّ عيّنات الأدمغة تمثّل الفكرة؟ ربّما تكشف الجمجمة الأخيرة من مئة جمجمة عن وجود رقاقات إلكترونيّة صغيرة؟ حتّى إذا نقّبت في جماجم البشر الآخرين كلّهم، وجلست في النّهاية على كومة من الجثث، كيف لي أن أعرف أنّ جمجمتي لا تحتوي على عضو هلامي كهذا؟ هل يمكن أن أكون الشّخص الّذي لديه دارة تصدر صفيراً؟

إلى أين يوصلنا ذلك من ناحية مشكلة العقول الأخرى؟ كما يحدث غالباً، تساعدنا الفلسفة على فهم المشكلة دون أن تعطينا حلاّ كافياً كاملاً. أعتقد أنّ بإمكاننا أن نستدلّ بما يكفي، وبقوّة كافية، على طريقة الاِستمرار في التّعامل مع أولئك المحيطين بنا كما لو أنّهم مثلنا تماماً، حتّى لو كنتُ لا أعرف تماماً ما إذا كان ألمكَ مثل ألمي أو نعيمك مثل نعيمي.

وفي مشوار آخر، سوف ننظر ما الّذي يجب معرفته، وما الّذي يجب أن نشكّ فيه...

شعرت أنّ مونتي يتحرّك في حضني، ثمّ قفز إلى الأرض. نظرت إلى نفسي. كانت العربة فارغة تماماً، والقطار متوقّف في محطّته الأخيرة. وكانت عاملة النّظافة تتّجه نحونا وبيدها سلّة مليئة بالنّفايات.

"آسف، أيّها الصغير"، قلت لمونتي. "لا بدّ أنّني اِنجرفت بأفكاري".

من ريتشموند، يتطلّب الأمر مسيرة ساعة بكلّ اِتّجاه، ممرّ مشاة ضيّق متعرّج عبر أشجار الصّفصاف والبتولا المحاذية للنّهر. كانت نزهة اِعتدتُ القيام بها عدّة مرّات أسبوعيّاً عندما كنت أعمل في التّدريس في كليّة صغيرة مغمورة نسبيّا. لكنّني تركت عملي فيها، ومضت سبع سنوات على آخر نزهة لي على هذا الطّريق.

السّماء رماديّة اللّون رغم خلوّها من الغيوم، ويعيد النّهر الكآبة ذاتها. كنت أتساءل كم هو غريب هذا السّكون. يعتقد المرء أنّ الماء يتدفّق بصخب. من الواضح أنّ النّموذج المثاليّ عبارة عن اِنحدارات مدوّية أو محيطٌ متلاطم، وتعتقد أيضاً أنّه حتّى نهر عريض حزين مثل نهر التّايمز في ريتشموند سيصدر نوعاً من الضّجيج أو الفقاعات أو التّجشّؤ. لكنّني عندما أغلقت عينيّ لم أسمع سوى حفيف أوراق أشجار شهر أكتوبر المحتضرة، وضحكات أطفال في مكان مّا.

من المعروف أنّ فيلسوف ما قبل سقراط، "هيراقليطس" – الشّخص ذاته الّذي تركنا جثّته المتفسّخة المتقطّرة ملطّخة بالقذارة، وأكلته الكلاب – يقول إنّنا لا يمكن أن نسبح في النّهر ذاته مرّتين. وتمّ أخذ هذه المقولة تقليديّاً بمعنى أنّ الأشياء كلّها بحالة تغيّر مستمرّ، ولا شيء ثابت، ولا شيء يمكن معرفته في النّهاية لأنّه ما إن يلفت اِنتباهك شيء يؤثّر فيك على اِمتداد النّهر (أو الحياة)، حتّى يتغيّر. وهذا التّشديد على الحياة المتقلّبة يتوافق مع اِعتقاد هيراقليطس بأنّ

مادّة الكون الأساسيّة، والحقيقة الأساسيّة الّتي تجلّت منها الأشياء كلّها، هي النّار. النّار غير مستقرّة، وقابلة للتّحول. أنت ترى النّهر يتغيّر، لكنّ النّار تغيّرك.

تطرح هذه الفكرة مسألة الهويّة الشّخصيّة. هل أنا الشّخص ذاته الّذي عاد إلى النّهر بعد هذه السّنوات كلّها؟ تموت خلايانا وتتجدّد. تخبو ذكرياتنا القديمة وتنشأ غيرها. وتتبدّل وجهات نظرنا فيصبح الأب الرّاديكاليّ عجوزاً محافظاً، أو تكتشف الشّابّة الفظّة أنّ الحياة توسّع تعاطفها.

أتذكّر ذهابي إلى حديقة حيوانات لندن، ورؤية قردة يافعة تقفز بفرح حول أقفاصها، وتمرح وتمزح ويعانق أحدها الآخر للحظة، وتتقاتل في ما بينها لحظة أخرى. ثمّ رأيت ذكراً عجوزاً مسترخياً في زاوية بعيدة تتقاطع ذراعاه حول معدته الضّخمة. وتبدو في ذلك الوجه الهائل المسطّح نظرة أحد أولئك القتلى السّلتيّين المضحّى بهم، الّذين ظهروا في مستنقعات الطّمي الإيرلنديّة. كان ينضح بكرامة تُضمر ضغينة، كما لو أنّه يحتفظ في مكان مّا في أعماقه بذاكرة موروثة عن سعف الأدغال والفاكهة البرّيّة، وقمم أشجار بعرائس جميلة ذهبيّة تميل إلى الحمرة، وقد عرف الخسارة وكرهها.

خطا أحد القردة الشّبان المتحمّسين للغاية مقترباً من هذا المستبدّ العجوز، ومدّ يداً طويلة لتثبيته بكفاءة عالية عند مؤخّرة الرأس. لقد كان مثلهم يوماً مّا. أين الخيط الّذي يربطهم؟

صراع كهذا بين القديم والحديث، أو بين الشّاب والعجوز، هو موضوع أساسيّ آخر لهيراقليطس. إذ يقول، الحرب في كلّ مكان، والنّزاع عادل. والسّلام الوحيد الّذي يمكن للعالم تحقيقه هو توازنٌ مؤقّت بالقوى: القوس مشدود، والسّهم مشحوذ ينتظر الاِنطلاق. إنّها لحظة الهدوء التّامّ والتّوازن الّذي يسبق الإطلاق.

لكن بدأ بعض الفلاسفة بتحدّي وجهة نظر هيراقليطس هذه. لقد كان كاتباً

كثيفاً قاتماً وغامضاً بشكل متعمّد، معروفٌ باِحتقاره لعامّة النّاس، ويصعب تفسير ما تمّ إنقاذه من أعماله. تتحدّث السّطور الّتي كتبها عن اِستحالة النّزول إلى النّهر ذاته مرّتين عن تغيّر *الماء* في الواقع وليس عن النّهر نفسه. إنّها تعني ببساطة أنّ النّهر مستمرّ في التّغيير مثل أيّ شيء آخر، وأنّ الاِستمراريّة ***تتطلّب*** التّغيير بالتّأكيد. إذا لم يتدفّق الماء، سيصبح النّهر مستنقعاً. وإذا لم يتغيّر الإنسان، فلن يكون إنساناً بل صخرة.

لذلك، بالعودة إلى هذا المكان الآن، إنّه النّهر ذاته، وأنا ذاتي. ربّما.

تركتُ مونتي في المقدّمة، وبدأ يعدو جيئة وذهاباً ليستعيد بعض طاقته المكبوتة في القطار.

"كنت أفكّر في نقاش البارحة عن الأخلاق"، قلت له عندما تراجع خطوة إلى الخلف.

نظر إلى الأعلى، كما لو أنّه يقول، *تابع*.

"أعتقد أنّنا وصلنا إلى نتيجة مّا، أليس كذلك؟ إذا كنّا نتحدّث عن القيمة الأخلاقيّة ***لأداء*** معيّن، فمن المنطقيّ الاِهتمام بالعواقب أو النّتائج أو الغاية الّتي توجّه إليها؛ وإذا كنّا نتطلّع إلى الإشادة ***بشخص*** أو مديحه على أفعاله، ربّما تقديم مكافأة أو إصدار عقوبة، فمن المنطقيّ البحث في النّوايا، وإلى مدى اِمتثاله للقوانين أو المبادئ. هذا غير ملائم نوعاً مّا، أعني حقيقة أنّنا علقنا بمنهجين مختلفين بشكل أساسيّ حول مسألة الخير والشّرّ، والصّواب والخطأ، لكنّ هذا أفضل ما يمكننا فعله".

هزّ مونتي كتفيه.

"هناك مشكلة، على الرّغم من ذلك"، قلت له.

اِعتقدتُ ذلك.

"المشكلة هي أنّه في البند الثّاني، محاكمة الشّخص بدلاً من تقييم الفعل، كنّا نفترض شيئاً أساسيّاً إلى حدّ مّا".

هل هناك من يهتمّ؟

أجبته بحزم، "لا، لدينا خيار. إنّنا أحرار في اِتّخاذ قرار أن نفعل الشّيء الصّحيح. أو الشّيء الخاطئ".

رمقني مونتي بتلك النّظرة الحائرة.

"أنا على ثقة من أنّك تستطيع تقدير مدى أهمّيّة ذلك. دعنا نتخيّل حالة تتطلّب منّي اِتّخاذ قرار أخلاقيّ". نظرت حولي واِلتقطّت غصناً رفيعاً متدليّاً من إحدى الأشجار. "أعتقدُ أنّ كلانا يعترف بأنّ ضرب كلب صغير لطيف بعصا من شأنه، في ظلّ غياب معايير معيّنة صارمة –،

مثل ماذا.....

"حسناً، إذا كان ذلك لمنع حدوث ضرر لك، لنقل إذا كنت توشك أن تموت في الشّارع... لكنّ هذا ليس مهمّاً. لكن من غير المقبول أن أضربك بعصا دون مبرّر في ضوء أيّ منظومة أخلاقيّة نظرنا إليها".

حسناً.

يبدو أنّ مونتي لا يزال غير سعيد بما يخصّ إمكانيّة ضربه بعصا، وتمنّيت أن يخطر في ذهني مثال مختلف".

"لذلك أتوقّع بشكل عامّ أن أعاني من اللّوم وعدم القبول، وقد أتعرّض لملاحقة جنائيّة بسبب ضربك".

صحيح تماماً أيضاً.

"لكن تخيّل الآن ظروفاً مختلفة لا أكون فيها حرّاً في أفعالي. ظرفاً أكون فيه إمّا

مقيّداً بحيث لا أستطيع فعل ما أرغب فيه، أو مُجبراً على فعل ما لا أريد فعله. أنا أُسرنم، وأحلم في نومي بأنّني أمتلك عصا سحريّة ألوّح بها لأحصل على وليمة رائعة أو شيئاً جميلاً... دعنا نحافظ على فكرة الوليمة. لكن لديّ في الواقع هذه العصا بيدي واِنتهى بي الأمر إلى ضربك بها. أو لنقل إنّني أُصِبتُ بمرض جعلني أتصرّف بطريقة عنيفة غير عقلانيّة، دون أيّة فرصة لأن أتصرّف بشكل مختلف. لنقل داء الكَلَب مثلاً..."

داء الكَلَب؟

"أوه، إنّها عدوى أُصِبتَ بها أنت من مجنون... لا تهتمّ، ربّما لديّ نوبة ذُهان، وأعتقد أنّك لست كلباً بل نمراً يأكل البشر، وأحاول إبعادك عن "روزي"..."

أطلق مونتي هديراً منخفضاً على ذكر النّمور، محاولاً تمثيل إيذاء حبيبته "روزي"، اِبنتي.

"أو إنّني اِعتقدتُ في أوهامي أنّك تحترق، وأحاول أن أطفئ اللّهب بعصاي. هل تعتقد أنّني أُلامُ في أيّة حالة من الحالات الّتي ذكرتها؟"

بالطبع لا.

"لن تضع اللّوم عليّ في أيّة حالة من تلك الحالات لأنّني لم أكن حرّاً في اِختيار إلحاق الأذى بك؟"

نعم، يبدو ذلك صحيحاً.

"لكنّها حالات خاصّة، أليس كذلك؟ عادة عندما ترتكب فعلاً معيّناً، مثل إيذاء كلب، أو الكذب، أنت لا تكون مجنوناً، ولا تكون في موقع تحاول فيه أن تفعل شيئاً آخر. لكن ماذا لو كنت لست حرّاً حتّى في الحالات الّتي لا يكون فيها قيود رسميّة على تصرّفاتك من النّوع الّذي ناقشناه؟ ماذا لو كانت حرّيّة الاِختيار دائماً مجرّد وهم؟ ماذا بعد ذلك؟"

بدا مونتي غير متأثّر. سحب ساقه إلى الجانب الأوّل من الطّريق، ثمّ سحب الأخرى إلى الجهة الأخرى. كانت تلك طريقته في قول إنّنا أحرار في إمالة ساقينا حيث نريد.

"إنّ موقفك إذن هو أنّه في المسار الطّبيعيّ للأشياء، عندما أكون مستيقظاً ولا يكون هناك قوى خارجيّة أو اِضطراب داخليّ يعيقني عن فعل ما أريد فعله، أو يجبرني على فعل ما لا أريد، أكون حرّاً في التّصرف بطريقة أخلاقيّة أو غير أخلاقيّة؟"

دمدم مونتي معلناً موافقته.

"هذه هي وجهة النّظر العامّة الّتي يحملها معظم البشر كما أعتقد. لكن على وجهة النّظر هذه أو أن تواجه بعد الاِعتراضات الجدّيّة للغاية".

هدف بعيد.

"الأوّل هو أنّنا نعيش في مكان وزمن معيّنين، حيث يمكن التّفكير في أشياء معيّنة، وهناك أشياء أخرى لا يمكن التّفكير فيها. ولدينا قائمة في الأشياء إذا أردت ذلك. ثمّة الكثير من المواد على القائمة، كلّ أنواع البيتزا الّتي ترغب فيها. والباستا أيضاً: بكافة أنواعها. أصبحنا إيطاليّين. لك حرّيّة الاِختيار طبعاً. لا أحد يجعلك تتناول المارينارا إذا كنت ترغب في تناول "كواترو ستاجيوني". كلّ ما هو موجود في القائمة مُتاح. لكنّ القائمة ليست نهائيّة. لا يوجد مطبخ يمكنه التّعامل مع ذلك كلّه. وبالتّالي، ليس هناك "كاري"، ولا سمك القرش المخمّر من النّوع الّذي يؤكل في أيسلندا. ولا الحساء الأسود المصنوع من دماء الخنازير الّتي أبقت على جيوش إسبارطة تسير".

يبدو مثيراً للاِشمئزاز.

"هكذا فعلاً. تذوّقها شخص غير إسبارطيّ، وبصقها بسرعة وقال، "أعرف

الآن لماذا لا يخشى الإسبارطيّون الموت". أنت تفهم إلى أين يمضي ذلك. إنّ خياراتنا الأخلاقيّة مقيّدة بطرق مختلفة بالزّمان والمكان حيث نعيش. فمنذ ثلاثمئة سنة مضت، وفي مجتمعنا هذا، لا أحد كان يعتقد أنّ ضرب الكلب قضيّة أخلاقيّة. وكان الرّجال ينظرون إلى النّساء على أنّهنّ أدنى عقليّاً وأخلاقيّاً. وكان الأطفال يعملون في المناجم أعمالاً شاقّة تؤدّي إلى الموت. والعبوديّة كانت مقبولة، والعرقيّة المرتبطة بها كانت عالميّة تقريباً.

ربّما ستقول إنّ بعض الأشخاص تمكّنوا من كسر هذه التّقاليد والممارسات، والتّفكير بشكل مستقلّ، ولهذا تجاوزنا وجهات النّظر اللّاأخلاقيّة بوضوح. لكن ثورات التّفكير هذه كانت تميل إلى أن تأتي في فترات تحدثُ فيها تغيّرات جذريّة في المجتمع، حركاتٌ أعمق فتحت إمكانات تفكير جديدة. التّطوّرات التّكنولوجيّة جعلت العبوديّة غير فعّالة. والحاجة إلى إدخال النّساء في القوّة العاملة سهّلت تحرّر الأنثى. وأكّد الماركسيّون أنّ حالة التّطور الإِقتصاديّ والتّكنولوجيّ في أيّ مجتمع تحدّد التّرتيبات السّياسيّة والأفكار الّتي يتمّ تداولها".

تحدد...؟

"أعني أنّها تسبّبها، ولا يبقى أيّ شيء للشّرح أو التّفسير. الآلهة الّتي نبجّلها، ونموذج الحكومة، والفنّ الّذي نُنتجه، والقوانين الأخلاقيّة الّتي نتبعها، كلّها جزء من بنية فوقيّة يحدّدها – أو يسبّبها – الأساس الإِقتصاديّ، وحقائق حول كيفيّة ترتيب الأشياء والعلاقات بين الطّبقات.

وحتّى إذا كنت تشكّك في الرّابط الحتميّ بين الأفكار والتّرتيبات الإِقتصاديّة، لا يمكنك أن تشكّك في أنّ أفكاراً تتغذّى من أفكار، وهذه الأفكار لا تطفو بحرّيّة في الفضاء، بل يتم غرسها في فترات تاريخيّة معيّنة. إنّ أعمال جميع الفلاسفة الّذين تمّت مناقشتهم (مع الإِستثناءات المحتملة لما قبل سقراط)، أفلاطون، أرسطو، كانط، والنّفعيّين، إِنبثقت من تقاليد الفكر، ومن الأحاديث

والمناقشات الموجودة. وكان كانط الفيلسوف المحترف الّذي قام بتعليم أعمال معاصريه وأسلافه. ومع أن أفكاره كانت تنتقد أفكارهم وتتجاوزها، إلا أنها ما كانت لتظهر لولا تلك الأفكار. والأمر نفسه ينطبق على المستوى العاديّ بالنّسبة إلينا، هنا والآن، ليصوغ قرارنا حول الخطأ والصّواب. أنا، أو نحن، لا نستطيع الهروب من أفلاطون وكانط، والتّقاليد الأخلاقيّة المسيحيّة، والنّفعيّة، حتّى لو لم نذكر ذلك صراحة".

إذن، نحن لسنا أحراراً لأنّ ما نفكّر فيه تمّ التّفكير فيه سابقاً؟ لأنّها ليست "أفكارنا" إطلاقاً؟

"أنا مازلت أفكّر في ذلك في الواقع، لا، لا أعتقد ذلك. أعتقد أنّ حقيقة أنّنا نقف في نهاية مسار طويل من التّفكير الأخلاقيّ، في حال كنّا كذلك، تجعلنا متحرّرين أكثر وليس أقلّ. يمكننا التّفكير في أرسطو وكانط وميل، ومقارنة أفكارهم ونقدها، ثمّ الوصول إلى خيار مستنير حول ما هو الصّواب. وربّما تجادل بأنّ كلّ شخصيّة من هذه الشّخصيّات هي في الواقع جزء من تقاليد الفلسفة الغربيّة، لذلك مازلت لا أستطيع التّفكير خارج حدود ثقافتي. لكن لدينا أيضاً مدخل إلى الفكر الفلسفيّ للثّقافات الأخرى – الهندوسيّة والتّاويّة والبوذيّة – الّتي تطرح منظوراً مختلفاً بالكامل للمشاكل الأخلاقيّة. وحتّى ضمن التّقليد الغربيّ، الّذي أقبل به باعتباره إطارا مرجعيًا لي، ثمّة مجال للتّفكير النّقديّ حول أسس هذه التّقاليد. وبالتّالي، ما أودّ قوله هو أنّه حتّى إذا لم نستطع من النّاحية المنطقيّة أن نختار طبقاً غير موجود في القائمة، فالقائمة واسعة للغاية، وتوفّر تنوّعاً مختلفاً يجعل الاِختيار حقيقيّاً".

إذن، نحن أحرار! همممممم!

أدّى مونتي إحدى هرولاته، قافزاً فوق الخطوط الفاصلة لممرّ المشاة على طول النّهر ثمّ عاد. وقد اِعتاد أن يفعل ذلك كثيراً عندما كان أصغر، يجري ضمن مسار

يتّخذ شكل الرّقم ثمانية باللّغة الإنكليزيّة حتّى ينهار من التّعب. ونسمّي ذلك "نوبة مونتي". يتطلّب الأمر كثيراً لجعله يقوم بدورة واحدة هذه الأيّام.

"لستَ سريعاً جدّاً"، قلتُ له عندما هدأ.

ماذا؟

"لم ننظر إلّا إلى إحدى الطّرق الّتي قد تكون فيها قدرتنا محدودة في اِختيار الصّواب والخطأ بشكل حرّ. عندما نتحدّث عن الحتميّة عادة، في هذه الأيّام، ما يكون في أذهاننا ليس حقيقة أن وجهات النّظر المفتوحة لنا محدّدةٌ تاريخيّاً وثقافيّاً، بل إنّه ليس لدينا القدرة بوصفنا أفرادا على أن نختار بحرّيّة أيّ شيء على الإطلاق".

يبدو الأمر جدّيّاً.

"إنّه كذلك. وأخشى أنّنا سنضطر للاِبتعاد عن الفلسفة إلى عالم العلم لنصل إلى حقيقة الأمر. قامت الفيزياء الكلاسيكيّة، من "نيوتن" إلى "إنشتاين"، بعمل رائع في تفسير كيفيّة عمل الكون. فنحن نعيش في عالم مادّي. والكون مصنوع من أشياء، من المادّة. المادّة مصنوعة من الجزيئات، والجزيئات مصنوعة من ذرّات. والذّرات بدورها مصنوعة من أجزاء أصغر – بروتونات ونترونات وإلكترونات. وعلى المستوى دون الذّري، توجد مكوّنات أصغر – الكواركات والميونات والنّيوترينوات والغلوونات والفوتونات. وفي عمق الأشياء كلّها، ربّما تظهر الأوتار الفائقة المتعلّقة بالطّاقة المهتزّة.

يوجد في الكون عدد محدود من القوى الأساسيّة الّتي تحدّد كيفيّة تفاعل الموادّ. لا تعمل اِثنتان من هذه القوى - القوة الشّديدة والقوّة الضّعيفة – إلّا على مسافات صغيرة، وتحدّد سلوك الجزئيّات دون الذّريّة. ثمّ هناك القوّة الكهرومغناطيسيّة، أي القوّة الجاذبة والنّابذة الّتي تحدث بين الجزيئات المشحونة كهربائيّاً. عندما يمرّ تيّار كهربائيّ في سلك نحاسيّ، أو يلتصق مغناطيس بمشعاع

"راديatور" تصبح القوّة الكهرومغناطيسيّة في حالة عمل. وأخيراً، لدينا الجاذبيّة – القوّة الّتي تجذب جميع الأجسام ذات الكتلة إحداها إلى الأخرى.

هذا جيّد جدّاً بالنّسبة للكون. اِستخدم العلماء الطّرق المتوقّعة والرّسميّة الّتي يمكن للمادّة من خلالها أن تتفاعل مع هذه القوى الأربع لوضع قوانين – تصريحات عامّة مستمدّة من الملاحظات، تصف ظواهر معيّنة، وتتوقّع أنّه في ظلّ الظّروف ذاتها، ستظهر النّتيجة ذاتها. وهكذا، ينصّ قانون "بويل" على أنّ ضغط الغاز ضمن وعاء معيّن يتناسب عكساً مع حجم الوعاء. وأوضح نيوتن أنّ قوى التّجاذب بين أيّ جسمين تتناسب طرداً مع كتلتيهما (كلّما كانت الكتل أكبر، تصبح الجاذبيّة أقوى)، وتتناسب عكساً مع مربّع المسافة بينهما (تضعف الجاذبيّة بازدياد المسافة). وقال إنشتاين إنّ الطّاقة (E) ترتبط بالكتلة (m) وسرعة الضّوء (c) بحيث يصبح قانون الطّاقة ($E=mc^2$).

لكي يحدث أيّ شيء في هذا العالم المتشكّل من المادّة والقوى والقوانين، فلا بدّ أنّه حدث بتأثير شيء آخر سابق له. لا شيء يحدث دون سبب.

إذا أخذنا هذه الأشياء كلّها بعين الاِعتبار، يكون لهذه "الحقائق" عن كوننا قوّة تنبؤيّة وتفسيريّة هائلة. إذا كان لديك ما يكفي من المعلومات عن حالة الكون الآن، يمكن العودة بالزّمن أو التّقدم به، وتوقّع الحالة الدّقيقة، وموقع كلّ ذرّة في الكون في أيّ لحظة. ويمكن إجراء توقّعات دقيقة عن الخسوف، وإرسال صندوق معدنيّ مئات ملايين الكليومترات في الفضاء حيث يصطدم بقمر صغير يدور حول كوكب بعيد في الاِمتدادات البعيدة للنّظام الشّمسيّ.

تسمّى هذه النّظرة لطبيعة الواقع الفيزيائيّ *"الحتميّة"* – لأنّه في جميع مراحل الكون، كان التّرتيب الدّقيق لكلّ ذرّة في الكون محدّداً بما قبله، لا مداراة ولا مراوغة: لا يمكن لأيّ شيء أن يتوارى عن قوانين الطّبيعية. لا يوجد ذرة "حرّة": حركات الذّرة الدّقيقة وموقعها في الكون تمليه شروط مادّيّة تحيط بها

وسابقة لها".

مونتي ليس مهتمّاً بالعلم فعلاً، لذلك أستطيع أن أخمّن أنّ هذه المعلومات لم تترك أثراً لديه. هزّ كتفيه مرّة أخرى، لكن ما كان يعنيه هذه المرّة "***ما علاقتي بهذا كلّه***؟"

"ينطبق هذا الوصف على ***كلّ*** ذرّة في الكون. بما في ذلك الذّرات الّتي تدخل في تكوينك وتكويني. إذا كانت موجودات الكون كلّها عبارة عن مادّة وطاقة، فينبغي أن يتضمّن ذلك عقولنا وأفكارنا – العقول والأفكار موجودة في الكون مثل كلّ شيء آخر، لأنّه ما من مكان آخر تذهب إليه. وإذا قبلنا بتحديد كلّ ما هو موجود في العالم المادّيّ، فهذا يعني أنّ الحتميّة لا تنطبق على الكواكب والنّيازك وحبّات الرّمل فقط، بل علينا أيضاً وعلى أجسادنا وأفكارنا".

ثنيت الغصن الّذي كان بيدي من الوسط حتّى تشقّق وإنْكسر. ثمّ رفعته وألقيت النّصف المكسور في الماء. حطّ على الماء وتمايل، وإنجرف في مجرى النّهر مع التّيار.

"عندما ألقيت ذلك الغصن في الماء، حدّدت القوانين الفيزيائيّة ما سيحدث له بالضّبط. المسافة الّتي اِجتازها والاِتّجاه الّذي تحرّك نحوه حدّدتهما قوّة قذف الغصن وكتلته وتأثير الرّيح ومقاومة الهواء وقوّة الجاذبيّة. وأيّ شخص لديه إمكان الوصول إلى كلّ هذه العوامل المتعلّقة بالكتل والقوى المؤثّرة يمكن أن يعرف تماماً أين سيحطّ هذا الغصن. ويستطيع أن يخبرك بعد ذلك إلى أين سيسير به المدّ والجزر والتّيّارات.

لكنّك اِخترت أين ستقذف هذا الغصن. لقد قذفته إلى النّهر. ولم تقذفه باِتّجاهي...

"نقطة هامّة. دعنا نتعمّق أكثر قليلاً. أنت تعتقد أنّني كنت حرّاً في الاِختيار، وأنّ هناك ما يرتبط بإرادة الإنسان وذهنه، وما يجعله مختلفاً عن أيّ شيء آخر في

الكون، ويجعله منفلتاً من قبضة الحتميّة القويّة؟"

حسناً، نعم. لِمَ لا ؟

"اِرتكزت هذه النّظرة، الّتي تقول إنّ العقل منفلت من قيود السّببيّة المادّيّة، ومن اِصطدام الذّرّة بالذّرّة، على فكرة إنّ عقولنا ليست مثل أيّ شيء آخر في الكون. وتفترض أنّ هناك نوعين من الأشياء المختلفة: الأشياء المادّيّة الّتي ناقشناها سابقاً، والمصنوعة من الذّرّات وعناصر ما دون ذريّة؛ ومادّة عقليّة، العقل. الإسم التّقنيّ لوجهة النّظر هذه هو "الثّنائيّة الدّيكارتيّة"، وهذا الإِسم مشتقّ من العالِم "رينيه ديكارت" الّذي وهبها أشدّ أشكالها تماسكاً. ولم تحصل إلّا على جاذبيّة ظاهريّة –"

ظاهريّة؟ لماذا تراودني مشاعر بأنّ هذه النّظرة عن الثّنائيّة لن تنتهي بشكل جيّد؟

"لا، الأمر ليس على هذا النّحو. لكن كما كنتُ أقول، يبدو أنّها تتوافق مع الطّريقة الّتي يفكّر بها كثيرون منّا في ما يخصّ العالم. تبدو عقولنا وأفكارنا ببساطة كأنّها أشياء مختلفة عن المناضد والكراسي والكواكب الّتي تدور في الكون. والصّفات الّتي نعزوها للعناصر المادّيّة – إنّ لها أبعاداً وكتلةً ووزناً ولوناً وما إلى ذلك – لا تنطبق على الأفكار. باِستثناء اِستخدام المجازات طبعاً، إنّ للفكرة الثّقيلة والفكرة الخفيفة الوزن ذاته في الواقع. وهو ما يجعلنا نشعر أنّه بدلاً من أن تكون هذه الأفكار نِتاجَ العالم المادّيّ، فإنّ السّلسلة السّببيّة تعمل بطريقة أخرى. أي أنّه لدى التّفكير بشيء معيّن، أستطيع أن أجعل أموراً تحدث للأشياء الموجوة حولي. أنا أقرّر أن أرمي الغصن في الماء. ثمّ ألوّح بيدي، وأقذفه".

رميت النّصف الثّاني من الغصن على سبيل التّوضيح. لكنّه عَلِقَ بأغصان إحدى أشجار الصّفصاف المتشابكة، وتدلّى عاجزاً عن الحركة.

قلت لمونتي، "سنتحدّث أكثر عن الثّنائيّة في مشوار آخر، لأنّها غير مناسبة

لموضوعنا الآن. لكن ما أودّ قوله إنّه لم يعد أحد يؤمن بذلك. أعني الخبراء من علماء الدّماغ وفلاسفة العقل. لأنّ المشاكل المرتبطة بتلك الفكرة كبيرة جدّاً".

مثل ماذا؟

"ممّا يتشكّل العقل بدقّة، إذا لم يكن نبضات كهربائيّة تتحرّك عبر شبكة من خلايا الدّماغ؟ لأنّه إذا كان بالإمكان تخفيض الأفكار إلى مستوى نبضات كهربائيّة، فإنّ عقولنا عالقة مجدّداً في سلسلة السّببيّة المادّيّة. وإذا كان العقل والمادّة عناصر مختلفة تماماً، فكيف يتفاعلان، وأين؟"

الإجابة سهلة، الدّماغ.

"هذه إجابة عن أين يتفاعلان، وليست عن كيف. وأين يتفاعلان في الدّماغ؟ اِعتقد ديكارت أنّ الرّوح (أو العقل) والجسد يجتمعان معاً في "الغدّة الصّنوبريّة"، وهي كتلة صلبة صغيرة تقع حيث يلتقي عمودك الفقريّ بدماغك مباشرة. لكنّ هذا لا يساعدنا في التّغلّب على تلك المشكلة الأساسيّة، بل يخفّض المستوى أكثر وحسب. يجب على الشّيء الّذي لا يُعتبر مادّة أن يتفاعل مع شيء من المادّة، ولا أحد يمتلك أدنى فكرة عن كيفيّة إمكانيّة تحقيق ذلك".

وبالتّالي...

"وبالتّالي هذا يتركنا مع نتيجة مفادها أنّ العقل – الوعي، إذا كنت تفضّل ذلك – هو مجرّد أثر آخر لتلك العناصر والقوى الفيزيائيّة. الأفكار ليست أكثر من نبضات كهربائيّة تتحرّك ضمن شبكة خلايا عصبيّة بالغة التّعقيد في الدّماغ. وما إن نتّخذ قراراً بهذا الشّأن حتّى يتبع ذلك أنّ تلك الأفكار محدّدة، وأنّ حرّيّتنا مجرّد وهم. عندما نعتقد أنّنا نتخذ قراراً معيّناً – بأن أضربك أو لا أضربك، أو بأن أكذب أو أخبرك الحقيقة – لا نكون أحراراً أكثر من ذلك الغصن الّذي عَلِقَ بالشّجرة، وتأرجح في الهواء. وإذا اِستبعدنا فكرة الحرّيّة، كيف لك أن تُثني على شيء أو تضع اللّوم عليه؟ كيف تستطيع أن تحظى بالأخلاق من الأساس؟"

لا أزال لا أفهم تماماً كيف اِنتقلت من ذرّات تتصادم إلى شخص ليس حرّاً في اِختيار أن يضرب أو لا يضرب كلباً بريئاً صغيراً بعصا.

"حسناً، يقول أتباع الحتميّة إنّه عندما يتّخذ شخص معيّن قراراً أخلاقيّاً، يكون الكون قد وضعه هناك في ذلك الموقع، ووهبه مقدرات وتجارب معيّنة. دعنا نفترض أنّ طبيعة الإنسان تتشكّل جزئيّاً من التّجربة وجزئياً من الجينات – لكن هذا لا يهمّ فعلاً في هذا النّقاش. في كلا الحالتين، أنت من نوع الشّخص الّذي أنت عليه، في هذا الوضع تحديداً، في هذه اللّحظة من التّاريخ، ويجب على مقدرات الشّخص وآرائه وميوله أن تحدّد ما يفعله، تماماً كما تحدّد قوانين الفيزياء مسار غصن تمّ قذفه. ربّما تعتقد أنّك تفعل شيئاً من وجهة نظر أخلاقيّة، وتتّخذ قرارك وفقاً للمبادئ الكانطيّة أو النّفعيّة، لكن ذلك يعود إلى أنّ القوى المادّيّة الّتي تؤطّرنا وتشكّلنا جعلتك شخصاً يتّخذ قرارات قامت على تلك الأنواع من المبادئ. أنت لم تختر أن تكون كانطيّاً بأيّ معنى فعليّ، بل العالم اِختار لك مبادئ كانط. وإذا كنت من نوع الأشخاص الّذين يسرقون ويرتكبون الجرائم، فهذا لأنّ العالم جعلك بهذا الشّكل.

هناك نوع من الإكراه في هذه الحجّة، إذا نظرت إلى تاريخ حياة العديد من المجرمين. إنّ خلفيّتهم ونشأتهم، وربّما تكوينهم البيولوجيّ الوراثيّ، جعلت من المستحيل بالنّسبة لهم أن يهربوا من الحياة الّتي عاشوها. لا يمكنك أن تختار أن تكون طبيباً بدلاً من لصّ إذا نشأت لدى عائلة من اللّصوص في منطقة قاسية مُهملة، واِرتدتَ مدرسة لم يلتحق أيّ طالب منها بالجامعة سابقاً. إذا قرّرت أن تضرب الكلب، فهذا ليس قراراً اِتّخذته بنفسك، بل قرار غرسه الكون فيك.

يبدو أنّ هناك دليلاً تجريبيّاً معيّناً يدعم فكرة أنّ أفعالنا لم تُبنَ وفقاً لإرادتنا. إذ وجد علماء النّفس أنّه، أثناء أداء نشاطات روتينيّة مختلفة كإمساك كوب ماء أو تفحّص الوقت، يتمّ تحفيز العضلات المطلوبة عن طريق نبضات عصبيّة قبل تشكّل فكرة "أمسك الكوب" أو "اُنظر إلى ساعتك". والغريب في الأمر هنا أنّ

القرار الواعي في التّصرّف جاء بعد أن تمّ تلقين التّصرّف. إذا كانت الحال على هذا النّحو، فكيف لنا أن ندّعي أنّ ما نفعله كان نتيجة خيار حرّ اِتّخذه عقل منطقيّ؟"

مِثْلنا تماماً. أنا لا أفكّر عادة وأقول، أوه، أريد أن أتبوّل الآن، بل أجد نفسي وقد شممت وتبوّلت.

"نعم، أعتقد ذلك. لكن ربّما يقول كثير من النّاس إنّه حتّى بالنّظر إلى حقيقة أنّ التّاريخ والاِستعداد الجينيّ قد جعلك شخصاً بالشّكل الّذي أنت عليه، فإنّ جزءاً من كونك إنساناً يعني أنّ بإمكانك التّغيير. ربّما لا يمكنك الاِنتقال من كونك لصّاً لتصبح طبيباً، لكن يمكنك الاِنتقال من شخص يسرق إلى شخص لا يسرق. وكدليل على ذلك، ثمّة ملايين البشر الّذين قرّروا أن يصبحوا أفضل حالاً، أن يتخلّوا عن اللّصوصيّة أو الإدمان الكحوليّ، ويتوقّفوا عن كونهم تافهين. أليس هذا دليلاً على أنّنا أحرار؟"

حسناً، نعم، أليس كذلك؟

"دعنا نعد صياغة الفكرة، بطريقة تظهر فشل هذا الدّليل. لنكون مسؤولين أخلاقيّاً عن أفعالنا، يجب أن نكون مسؤولين عن الطّريقة الّتي نحن عليها، وأن نختار بطريقة ما يعني أن تكون شخصاً من ***هذا النّوع***. هل هذا منطقيّ بما فيه الكفاية؟"

لم يُبدِ مونتي عدم الموافقة.

"هناك شيء في داخلك يقرّر أن تكون من النّوع الّذي أنت عليه. دعنا نقل إنّك تغيّرت من شخص يكذب إلى شخص يقول الحقيقة، وأصبحت تمتثل إلى ضرورة كانط الحتميّة. لقد غيّرت الآن نوع الشّخص الّذي أنت عليه مُثبتاً حرّيّتك، ومع هذه الحرّيّة تتحمّل المسؤوليّة".

إيماءة موافقة أخرى من مونتي.

"عند هذه اللّحظة من الاِختبار، هذا يعني أنّك لا بدّ أن تكون من نوع الأشخاص القادرين على إجراء هذا التّغيير. وقد اِتّفقنا على أنّه لكي تكون مسؤولاً أخلاقيّاً، يجب أن تكون مسؤولاً عن نوع الشّخص الّذي كُنتَ عليه. لذلك، يجب أن تكون أنت من اِختار النّسخة السّابقة عنك، تلك النّسخة الّتي قرّرت إجراء التّغيير، هل فهمت؟"

أعتقد ذلك.

"لكن كيف أتت النّسخة السّابقة منك إلى الوجود؟ إمّا أنّها تشكّلت بقوى خارجيّة ليس لديك سيطرة عليها، أو أنت أحضرتها إلى الوجود بإرادتك. إذا كانت الفرضيّة الأولى صحيحة، فليس لدينا خيار حرّ، وليس هناك مسؤوليّة أخلاقيّة. وإذا كانت الثّانية، فقد أوجَدَتها نسخة سابقة عنك... إنّه نوع من النّكوص اللّانهائيّ.

ماذا؟

"أعتقد أنّنا سنصادف هذا المفهوم عدّة مرّات أخرى في مشاوير لاحقة. في مواضيع الفلسفة، قد تجد نفسك تنزلق في نكوص لانهائيّ عندما تكون أسباب إقناعك بشيء معيّن معتمدة على أسباب أخرى لا يمكن تبريرها إلّا من خلال أسباب أخرى، هي بدورها –"

فهمت.

"وتكون الطّريقة الوحيدة لإيقاف هذا النّكوص هي العثور على ما لا يمكن أن يكون موجوداً: نقطة بداية أحضرتَ فيها نفسك إلى الوجود بطريقة مّا من خلال القيام بخيار حرّ، مثل أن نقول إنّ الله خلق نفسه".

مشينا لفترة بصمت. بدا تقريباً كما لو أنّ الطّيور توقّفت عن التّغريد، وأوراق

الأشجار تصدر حفيفها بشكل يثير الذّعر حيث كنّا: عالمٌ دون مسؤوليّة أخلاقيّة. ثمّ كسر مونتي حاجز الصّمت.

هل ثمّة طريقة للخروج من ذلك؟ أشعر بوجود ... خطأ مّا.

"تعني هل نستطيع بطريقة مّا أن نوفّق بين شعورنا بأنّنا أحرار بالإختيار – الخيارات العقلانيّة، وخيارات حول ما نريده على العشاء، خيارات حول أيّ طريق نتّخذه – والواقع القاسي للسّببيّة والحتميّة؟ ربّما. دعنا نحدّد الخيارات. هل العالم المادّي محدّد؟ الإجابة هي نعم أو لا. إذا كان محدّداً، فهل يتبع ذلك محدوديّة حالتنا العقليّة؟ وإذا كانت حالتنا العقليّة محدّدة، فهل هناك أيّ معنى نستطيع من خلاله القول إنّنا أحرار؟ دعنا نلقِ نظرة أخرى على كلّ سؤال، ونرَ ما إذا كان هناك مخرج".

اِعتقدت أنّنا قرّرنا للتّو أنّ العالم المادّي محدّد. الذّرات وما شابه ذلك، تتصادم...؟

"حسناً، هناك اِعتراضان على هذا الرّأي. أتت إحدى الحجج من التّعقيد الهائل للعالم المادّيّ – تعقيد يميل العلم إلى تبسيطه – ويعني أنّنا لا نستطيع أن نعرف ما يكفي لجعل الحتميّة حقيقة، أي معرفة ماذا سيحدث. في القرن التّاسع عشر، لجأ الفيزيائيّان "جيمس ماكسويل" و"لودفيغ بولتزمان" إلى الإحتمالات لتفسير حركة جزيئات الغاز ضمن حاوية. كانت الأشياء الّتي تحدث كثيرة لدرجة لا يمكن إطلاقاً أن تتوقّع ما يمكن أن تفعله ذرّة واحدة. ومؤخّراً، حاولت نظريّة الفوضى بشكل مشابه أن تفسّر أنظمة معقّدة معيّنة – مثل الطّقس، أو حدوث الزّلازل أو التّوهّجات الشّمسيّة – تؤدّي فيها متغيّرات بسيطة في الحالات البدائيّة إلى تنوّعات غريبة ونتائج غير متوقّعة. وعلى الرّغم من أنّ منظّري الفوضى يمكن أن يجدوا نماذج ومناطق مكرّرة من الإستقرار النّسبيّ ضمن حالة الصّخب والفوضى، فهم لا يستطيعون إطلاقاً تشكيل توقّعات

مطلقة نعتقدُ أنّ بالإمكان اِعتبارها علماً "حقيقيّاً". ربّما تكون توقّعات الطّقس على أجهزة الكومبيوتر الحديثة أفضل بكثير ممّا كانت عليه، لكنّني لن أعرف بشكل مؤكّد ما إذا كنت سأحتاج مظلّة، وستحتاج أنت إلى سترتك الصّغيرة، في مشوار الغد عندما نكون في الخارج".

أكره تلك السّترة. لا أحظى بأيّ قدر من الاِحترام من الكلاب الأخرى عندما تجعلني أرتديها.

"أخالفك الرّأي أيّها العنيد. المشكلة مع الفوضى والتّعقيد من النّوع الّذي كنّا نناقشه هو أنّه حتّى إذا كانا يعنيان أنّه في الواقع لا يمكننا توقّع المستقبل بيقين مئة بالمئة، فهذه ببساطة مسألة ترتبط بحدود معرفتنا. ولو كان لدينا كمبيوتر قويّ بما يكفي، وتمكّنّا من تزويده بكلّ التّفاصيل اللّازمة عن حالة الكون، فستمكّن من التّنبّؤ بالأثر الدّقيق لفراشة ترفرف بجناحيها في بورنيو على الطّقس في فلوريدا. ويمكننا التّنبّؤ بحركات كلّ ذرّة في وعاء ماكسويل للغاز. لذلك فإنّ الجهل لا يُخرجنا من قبضة الحتميّة. ليس علينا أن نعرف تماماً ما هو ميزان القوى الّذي يُخضعنا، لكنّنا خاضعون.

كنّا نتحدث حتّى الآن عن الكون كما وصَفَتهُ الفيزياء الكلاسيكيّة – بما في ذلك الثّورة النّسبيّة الّتي أطلقها إنشتاين. غيّر إنشتاين كيفيّة نظرتنا إلى الفضاء والزّمن بشكل كامل، لكنّ ذلك الكون لا يزال بالإمكان التّنبّؤ به بالمطلق، طالما أنّنا نركّز على المقياس الكبير – مقياس يمتدّ على طول المسار من المجرّات إلى الذّرّة. لكنّ الأمر يصبح شديد الغرابة عندما نقلّص المرحلة إلى مستوى دون الذّرّي. وهي غرابة جادل بعضهم بأنّها تقوّض الطّبيعة الحتميّة للكون. حاولت النّظريّة الكوانتيّة – ونجحت إلى حدّ كبير – بتفسير الغرابة. ومن الصّعب أن يكون هذا المكان مناسباً لمناقشة الآليّات الكوانتيّة، لكنّني سأقدّم مجموعة من الأمثلة البسيطة الّتي قد تساعدنا على رؤية المشكلة. عندما تصطدم كرتا بلياردو، نستطيع أن نتوقّع تماماً ما الّذي سيحدث. وعندما يصطدم إلكترونان أحدهما

بالآخر، كلّ ما يمكن أن ينتج عن التّنبّؤ هو "سحابة اِحتماليّة" – ستكون الإلكترونات في مكان مّا من هذه السّحابة. وهذه ليست مشابهة لمشكلة ذرّات الغاز في الوعاء، أو عدم القدرة على التّنبّؤ بالطّقس. تُعزى تلك النّماذج من عدم اليقين إلى جهلنا النّسبيّ. مع الإلكترونات، ليس هناك طريقة يمكن فيها التّنبّؤ بموقعها بعد التّصادم. إذ تتصرّف الجسيمات الكوانتيّة بطريقة لا يمكن التّنبّؤ بها ليس نسبيّاً فقط بل على الإطلاق. وهذا يرتبط بمبدأ عدم اليقين سيّئ السّمعة الخاصّ بهيزنبيرغ. لكي تتوقّع مسار إلكترون، تحتاج لأن تعرف موقعه في الفضاء وقوّته الدّافعة (مجموع سرعته وكتلته). إذا كانت تلك سيّارة أو عصا أو أيّ شيء آخر من "عالمنا"، فليس هناك مشكلة. أمّا في حالة الجسيمات الكوانتيّة، فنستطيع أن نعرف موقعها، أو قوّتها الدّافعة، لكنّنا لا نستطع معرفة الاِثنين معاً".

لِمَ لا ؟

"يُعتقد أحياناً أنّ هذه هي وظيفة ما يُسمى تأثير المراقب – ظاهرة يتّضح من خلالها أنّ هناك تفاعلاً معيّناً ما بين الشّيء الّذي يخضع للقياس، وأداة القياس أو من يقوم بالقياس، ممّا يؤدّي إلى تغيير في نتائج القياس. والمثال على ذلك من "عالمنا" هو حقيقة أنّ قياس ضغط.الدّم غالباً ما يؤدّي إلى إجهاد خفيف، وهذا بدوره يرفع ضغط دمك. وعلى المستوى الكوانتيّ، يتضمّن قياس موقع إلكترون إطلاق فوتون عليه. ويصطدم الفوتون بالإلكترون، ويغيّر حتماً موقعه وقوّته الدّافعة.

لكن عدم اليقين الكوانتيّ أكثر عمقاً من ذلك. لقد ثبت نظريّاً أنّ عدم اليقين هو نتيجة لا مفرّ منها لطبيعة الجسيمات الكوانتيّة شبه الموجيّة. وقد تمّ دعم هذه النّتيجة بالتّجارب الّتي أثبتت أنّه، حتّى عندما لا يتداخل إجراء القياس مباشرة بالجسيم، يؤثّر القياس على الحالة الكوانتيّة بحيث يجعل التّنبّؤ مستحيلاً".

اِنتظر، هل تقول الآن إنّ العالم المادّي أيضاً غير محدّد؟

"جادل بعض النّاس بذلك".

بعض النّاس؟ إذن، ليس أنت؟

"هناك طريقتان للهروب من عدم اليقين الكوانتيّ من أجل أهدافنا".

هروب...؟

"الإجابة.... ***أوّلاً***، من غير الواضح تماماً أنّ التّأثيرات الكوانتيّة تتّسع لدرجة يمكن أن تظهر على مستوى يؤثّر على حياتنا. إنّ الأجسام الأكبر، من جزيئات الهيدروجين إلى بالونات الهواء السّاخن، لا تُظهِر خصائص شبيهة بالموجات، وعدم التّحديد الخاصّ بالجسيمات الكوانتيّة. كما يضيع التّأثير الكوانتيّ على مقياس أكبر بسبب عمليّة تسمى "فكّ التّرابط"، ففقدان عدم التّحديد الخاصّ بالعناصر الكوانتيّة عندما تتفاعل مع بيئة "طبيعيّة". وتمّ حساب أنّ فكّ التّرابط يحدث في فترة جزء من مليار مليار من الثّانية – بسرعة كبيرة جداً إذ يصعب تسجيل أيّ تأثير على مقاييسنا.

ثانياً، لقد قيل، مع أنّه غير مُثبت، إنّ العشوائيّة الظّاهرة للتّأثير الكوانتيّ هي مجرّد إشارة على أنّنا لم نكتشف حتّى الآن المبدأ الضّمنيّ الأساسيّ الّذي سيعيد إمكان التّنبّؤ والحتميّة إلى العالم (تلك كانت وجهة نظر إنشتاين). نظريّة كهذه سوف تطوّقنا مرّة أخرى في شبكة الضّرورة والحتميّة".

وبالتّالي...؟

"من الصّعب للغاية معرفة كيفيّة التّعامل مع هذه الِاعتراضات – ولا سيما لشخص غير مختصّ، ليس عالماً. لا يبدو أنّ أحداً يعرف تماماً كيف ستبدو النّظريّة الموحّدة الجديدة الّتي ستعيد الحتميّة – المشكلة ببساطة هو أنّ الكثير من العلماء غير سعداء بعالم يهرب من قدرتنا على الفهم والتّنبّؤ. ومع أنّ عدم التّحديد الكوانتيّ لا يظهر في العالم على المستوى الكبير، فإنّ حقيقة وجود

جوانب غير محدّدة في العالم بالتّأكيد تفتح على الأقلّ شروخاً في جدار الضّرورة ربّما تتسرّب منها الحرّيّة أو شيء من هذا القبيل.

القاعدة الّتي تقول ***إنّ كلّ شيء تمّ تحديده***، تقودنا بشكل لا مفرّ منه إلى نتيجة مفادها أنّ خياراتنا الأخلاقيّة محدّدة. أمّا القاعدة الّتي تقول ***إنّ بعض الأشياء محدّدة***، فليس لديها القوّة الكاملة. وعلى الرّغم من مشكلة فكّ التّرابط، لا يزال بعض العلماء يؤكّدون أنّ الوعي وظيفة من وظائف التّأثير الكموميّ في خلايا الدّماغ، وهذا يفسّر الغرابة الّتي لا شكّ فيها في الوعي، وشعورنا بأنّ الفكرة ببساطة ليست مثل الأشياء الأخرى في الكون.

على أيّ حال، بقدر ما نحاول تأكيد ما إذا كنّا أحراراً في خياراتنا الأخلاقيّة أم لا، فإنّ مساعدة عدم التّحديد الكوانتيّة محدودة للغاية. وكلّ ما يمكن للآليّات الكوانتيّة أن تفعله هو إدخال عدم إمكان التّنبّؤ والصّدفة في العالم المادّيّ. ويبدو أنّ الاِتّجاه الّذي سيتّخذه إلكترون واحد بعد اِصطدامه بإلكترون آخر هو اِتّجاه عشوائيّ فعلاً. وإذا حاولنا قراءة تلك المعرفة عبر قدرتنا على اِتّخاذ قرارات أخلاقيّة، فمن الصّعب أن نرى كيف يتحسّن وضعنا. الخيار الأخلاقيّ، إذا كان له وجود، لا يمكن أن يكون عن عمليّات الصّدفة والعشوائيّة. تخيّل لو أنّني، عندما أواجهُ خيار ما إذا كنت سأضربك بعصا أم لا –"

ماذا؟ لقد غفوت للحظة. لماذا عدنا إلى هذه العصا مجدّداً؟

"أحياناً يبدو الكلام مع كلبك أشبه بطريقة غير مجدية لنقاش الفلسفة... كلّ ما كنت أقوله هو أنّه إذا لم يكن العالم المادّيّ محدّداً بشكل كامل، وكان يسمح بإمكان الصّدفة، فهذا لا يدفعنا كثيراً في فهم مسألة كم نحن أحرار لنتّخذ خيارات أخلاقيّة عقلانيّة من النّوع الّذي يسمح بالإشادة أو الملامة، والمكافأة أو العقوبة. لذلك، تخيّل لو أنّني، عندما أواجه خيار ما إذا كنت سأضربك بعصا أم لا، اِلتقطتُ قطعة نقود وقذفتها في الهواء. إذا ظهر الشّعار؛ سأضربك؛ وإذا

ظهرت الكتابة، سألقي العصا وتقوم بملاحقتها".

ليس أنا، يا صديقي، كما تعلم.

"حسناً، إذا ظهر الشّعار، سوف أضربك، وإذا ظهرت الكتابة سأعاملك معاملة كلب صغير".

أوافقك الرّأي. طالما أنّك لا تضربني.

"لن أضربك".

دغدغت هذا المغفل الغبيّ خلف أذنه.

"لكن النّقطة الهامّة هي، هل تعتبر نتيجة قذف قطعة النّقود في الهواء خياراً أخلاقيّاً عقلانيّاً؟"

لا، طبعاً لا.

"صحيح. قال إنشتاين إنّ الله لا يلعب النّرد، ولا نحن أيضاً، عندما يتعلّق الأمر بالأخلاق.

إذن، إلى أين يقودنا ذلك؟

"إلى توازن الاِحتمالات، العالم المادّيّ مُحدّد. إذا لم يكن كذلك، فإنّ كلّ ما يستطيع العلم أن يقدّمه لنا هو فترة راحة من عجلة طحن الضّرورة والصّدفة. لكن دعنا نتابع. حتّى إذا أخذنا بعين الاِعتبار هذه النّظرة القاتمة (أو السّامية، كما أفترض) عن الكون باِعتباره آلة ضخمة لا نشكّل فيها أكثر من ترس صغير، هل يمكننا إنقاذ أيّ نوع من الشّعور بالإرادة الحرّة؟"

كلّي آذان صاغية.

"يجب اِتّباع الحتميّة رؤية أنفسهم حازمين، وواقعيّين موجّهين علميّاً، ومؤثّرين في الهراء الهزيل المرتبط بالحرّيّة والاِختيار. لكن هناك مشكلة واحدة

كبيرة مع الحتميّة كتفسير علميّ لما هو عليه العالم. بالعودة إلى ما إذا كنت سأضربك بعصاي أم لا..."

أها، أيّها القائد، لقد تخلّصت من العصا.

"إنّه كيدٌ اِفتراضيّ مرتدّ، لذلك عاد. لكن، إذا ضربتك، سيقول الحتميّ إنّ ***تصرّفي*** كان محدّداً. وإذا لم أضربك، سيقول الحتميّ إنّ ***عدم تصرّفي*** كان محدّداً. وأيّاً كان ما حدث، سيقول الحتميّ إنّه كان محدّداً. لذلك، كيف يمكننا دحض الحتميّة؟ النّتائج كلّها متوقّعة ولا شيء مُستبعد. اِعتدتُ أن أرى فتاة في المدرسة كان لديها هذا الشّعار. متى قلت أيّ شيء، تجيب على الفور، "عرفتُ أنّك ستقول ذلك". وإذا قلت، "لا لم تعرفي!" تقول فوراً، "عرفت أنّك ستقول ذلك". ويستمرّ الحوار حتّى يُصيبني بالجنون أو يُقرع الجرس لإعلان نهاية فترة الاستراحة".

أمر مزعج.

"مزعج جدّاً. لكنّه مشابه لقول الشّخص العلميّ إنّ كلّ شيء محدّد. وسوف نتحدّث عن ذلك عندما نصل إلى موضوع فلسفة العلم".

أوه، رائع.

"سيكون ممتعاً حقّاً. لكن إذا كانت الحتميّة نظريّة علميّة، فينبغي أن تكون قادرة على صوغ توقّعات يمكن إثبات أنّها صحيحة أو خاطئة. يجب أن تستبعد نتائج معيّنة، وتضيّق الاحتمالات كلها ليبقى احتمال واحد. لا تستطيع الحتمية أن تفعل ذلك. وبالتالي، فهي ليست نظرية علمية".

فالحتمية تخسر إذن، همممم!

"يمكن التّملّص من ذلك أيضاً بالاِدّعاء أنّه إذا كان لدينا معرفة كاملة، فسنستطيع أن نضع بدقّة توقّعات ضروريّة لإثبات أنّها علم. وربّما ستظهر يوماً

مّا كمبيوترات ذكيّة بما يكفي لتتوقّع تماماً ما سنتناول في الغداء غداً. لكنّ اِدّعاءات الحتميّة الحاليّة بأنّها تحظى بموقع النّظريّة العلميّة أمرٌ غير منطقيّ. بل أشبه بالإيمان اللّاهوتيّ.

لكن ثمّة أسباب أخرى تجعلنا نتمسّك بإيماننا بالحرّيّة. لا يهتمّ بعض الفلاسفة بالحتميّة المادّيّة. ويعتقدون أنّ بإمكانك قبول كلّ ما يقوله العلم عن الذّرّات والكواركات، لكنّهم يؤكّدون أنّنا لا نزال أحراراً بطريقة ذات مغزى. والمصطلح الّذي يصف هذه الحالة هو "التّوافقيّة"(29).

أخبرني بالمزيد...

"هل تتذكّر تلك الأشياء الّتي اِتّفقنا على أنّها تؤثّر في قدرتنا على الاِختيار الحرّ؟ أن تكون مريضاً عقليّاً، أو نائماً، على سبيل المثال".

كيف لي أن أنسى؟ لقد تضمّنت مناقشة ضربي بعصا!

"يمكن إضافة بضع أشياء أخرى تتداخل مع حرّيّتنا بالاِختيار بشكل عقلانيّ. دعنا نذكر الكحول والأدوية العصبيّة المنشّطة. من السّهل العمل عليها إلى حدّ مّا لمعرفة مدى تأثيرها في قدرتنا على التّصرّف بحرّيّة. وإلى أيّ مدى نكون مؤهّلين للمسؤوليّة الأخلاقيّة. ويمكننا مناقشة ذلك قليلاً، لكنّني أودّ أن أقول إنّ الأمر قد يكون شيئاً مشابهاً للمضيّ قدماً من المسؤوليّة البسيطة إلى المسؤوليّة القصوى: السّرنمة؛ المرض العقليّ الشّديد كالفُصام مثلاً؛ المرض العقليّ المتوسّط كالقلق والاِكتئاب؛ تعاطي الأدوية المنشّطة؛ الكحول. يمكننا إضافة، أو طرح، أشياء تؤثّر علينا – التّضليل بما يخصّ حالة العالم، التّصرّف دفاعاً عن النّفس، وما إلى ذلك. وأستغرب أن يقوم شخص مّا بإنكار أنّ هذه الأشياء تؤثّر في قدرتنا على

---

(29) "التّوافقيّة – Compatibilism" هي الاعتقاد بأنّ الإرادة الحرّة والحتميّة متوافقتان بشكل متبادل، وأنّه من الممكن الإيمان بهما دون تناقض منطقيّ. ويعتقد التّوافقيّون أنّ الحرّيّة يمكن أن تكون حاضرة أو غائبة في المواقف لأسباب لا علاقة لها بالميتافيزيقيا. ويقولون إنّ الحتميّة السّببيّة لا تستبعد حقيقة النّتائج المستقبليّة المحتملة (م).

التّصرّف بشكل حرّ، وعلى المسؤوليّة الأخلاقيّة النّاتجة عن ذلك.

هذه حالة علاقات يعكسها نظامنا القانونيّ. يمكن اِستخدام السّرنمة والجنون في حالات الدّفاع، وذلك بموجب القانون الجنائيّ الّذي يتطلّب كلّاً من الأداء الجرميّ والنّيّة الجرميّة. لكن إذا كان الشّخص المؤمن بالحتميّة على حقّ، فلن يكون هناك تدرّج بالمسؤوليّة. الجنون أو العقاقير ليست ذات صلة: إنّنا جميعاً مجبرون على القيام بما نقوم به. وأعتقد أنّ الحضور الجليّ البدهيّ للتّدرّج يجب أنّ يجعلنا نميل بشدّة نحو فكرة أنّ هناك درجات للمسؤوليّة، ودرجات للحرّيّة".

هزّ مونتي ذيله.

"علينا العودة إلى كلمات معيّنة وتحديد معناها. عندما نستخدم في الواقع مصطلح "الإرادة الحرّة"، فما الّذي نعنيه؟ يتّخذه معظم البشر غريزيّاً باِعتباره غياب المعوقات الّتي ناقشناها. أن تكون حرّاً يعني أن تتحرّر من العوائق والقيود العلنيّة. إذا وصفتَ بدقّة موقفاً من اِختيارك: لنقل رجلٌ يفكّر في سرقة قلادة من متجر مجوهرات، وأظهرتَ كيف أنّه ذو عقل سليم، وقادر على فهم الصّواب والخطأ وقانون البلاد، ولا وجود لأيّ شيء من المسبّبات الأخرى الّتي سبق عرضها - لا أحد يُمسك شخصاً من عائلته رهينةَ، ولا أحد يسدّد نحوه منظار بندقيّة قنّاصة من سطح مجاور – عندئذٍ يكون هذا تماماً ما نعنيه بأنّه حرّ. وإضافة أنّ هناك قوّة أعمق تملي علينا خياراتنا لا تضيف أيّ شيء لتفسير ما نفعله، ولماذا.

نحن نطلق مئات الأحكام الصّغيرة يوميّاً. نشكر بعض النّاس، نستهجن أنانيّتهم، نبتسم، نومئ، نلوّح باليد، نتجاهل، نوبّخ، نصدّ. نفعل ذلك على أساس فهمنا لتصرّفات أولئك المحيطين بنا ودوافعهم. ونقيّم في أجزاء من الثّانية ما إذا كانوا مذنبين. تدوس إحداهنّ على إصبع قدمك صدفة. تصرخ، "آخخخ"، ثمّ تبتسم بعد أن تعتذر إليك. توقفُ أخرى سيّارتها "الرّانج روفر" في المكان المخصّص للمعاقين في السّوبرماركت، وتنزل من سيّارتها وتسير بثقة

نحو المتجر دون أن تهتمّ حتّى بالتّظاهر بأنّها تعرج، فتشتمها على أنانيّتها. أن تكون إنساناً يعني أن تقوم بهذه المحاكمات. وتكون بعض الأحكام خاطئة. لكنّنا جيّدون فيها، وعادة ما تكون صحيحة. تبدو الحتميّة الغامضة الكامنة وراء الخيارات الّتي نتخذها غير مرتبطة بحياتنا إطلاقاً. لقد وَضَعنا القَدَر بالتّأكيد حيث نحن. وزوّدنا بالمعرفة والذّكاء. أنا أستطيع تطبيق معايير أخلاقيّة عقلانيّة لِاتّخاذ قراري. وسأتأثر بأشياء كثيرة، لكن لحظة الِاختيار تلك، ذلك التّحليق بين الِاحتمالات واِتّخاذ الطّريق الّذي سأذهب فيه، لا يمكن التّهرّب منها. الظّلّ القاتم الهائل للحتميّة واسع الِانتشار للغاية وغامض للغاية ويفتقد القوّة التّفسيريّة الّتي يمكن محوها وإزالتها من كلا جانبي المعادلة".

نظرت للأسفل. كان مونتي قد اِبتعد عن مكانه الِاعتياديّ وتوارى بين الأشجار. بدا متعباً. عاد يعرج من جديد.

"ثمّة فاصل علميّ أخير قبل أن نأخذ اِستراحة. ناضلت البيولوجيا التّطوّريّة على مدى فترة طويلة لتفهم فكرة الإيثار في عالم الحيوان – يُعرّف الإيثار بأنّه تقليل فرصك الخاصّة بالنّجاة والتّكاثر بهدف مساعدة كائنات أخرى. أيّ شيء يقلّل فرص الكائن الحيّ بإنجاب ذرّيّة يجب اِختياره بمرور الوقت. ومع ذلك هناك العديد من الأمثلة في العالم الطّبيعيّ، وأكثرها شيوعاً بين الحشرات الِاجتماعيّة، حيث عضو واحد في المستعمرة سيضحّي بحياته للدّفاع عن العشّ، وتتخلّى المجموعات كلّها عن قدرتها على الإنجاب تماماً، لصالح الملكة. لكنّنا نرى ذلك في العديد من أنواع الثّدييّات والطّيور أيضاً. وقد آكتشف العلماء مؤخّراً أنّ الإيثار في عالم الحيوانات غير موجود إلّا في ظروف محدّدة معيّنة. وعادة ما يكون المانح والمُستقبِل مرتبطين للغاية ويتشاركان الجينات. وهو أكثر ما يتّضح في حالة الحشرات الِاجتماعيّة. عندما تقدّم النّحلة العاملة حياتها دفاعاً عن الخليّة، يكون نوعاً من الأنانيّة، إذ تشترك جميع النّحلات الإناث في المستعمرة بالجينات ذاتها تماماً (إنّهنّ في الأساس مُستنسخات من الملكة) وبالتّالي فالتّضحية

تستحقّ من النّاحية الجينيّة، إذا كانت تساعد على اِزدهار المستعمرة.

تفسّر فرضيّة الجينات المشتركة هذه بعض أنواع إيثار الحيوانات لكن ليس جميعها. يحدث نوع من الإيثار بين أعضاء غير أقرباء من النّوع ذاته. هنا تبدو الميكانيزمات كأنّها وعد بالمعاملة بالمثل. الخفّاش مصاص الدّماء، بعد عودته من عمليّة صيد ناجحة، يطعم الدّم لخفّاش آخر ليس قريباً له، وغير قادر على الخروج من الكهف على أمل أن يتمّ إعادة ما تفضّل به الآن عندما تنعكس الظّروف. وتساعد العديد من أنواع الرّئيسيّات في رعاية صغار غير أقرباء، مرّة أخرى، لتخزين النّوايا الحسنة للمستقبل.

إيثار هذه الأنواع مفيد للجينات الّتي تحملها الكائنات الحيّة، وتملي هذه الجينات أن تتصرّف الحيوانات بهذه الطّريقة. فالسّلوك محدّد بالمعنى الأدقّ للكلمة.

ينخرط البشر طبعاً في هذين النّوعين من الإيثار. حيث يضحّي الأهل بأنفسهم من أجل أبنائهم – ونُصدمُ بالتّأكيد عندما نواجه صدفة نادرة يضحّي فيها الأهل بأولادهم لإنقاذ أنفسهم. وفي حالات اِجتماعيّة معيّنة نكون مدركين تماماً لعلاقة "أحكّ لك ظهرك إذا حككت لي ظهري". حيث نتذكّر من عامَلونا بشكل جيّد، ونردّ لهم فضلهم. إذا كان هذا هو المدى الأوسع لإيثارنا، فالتّفسير العقلانيّ له سيكون إنّه محدّد أيضاً بأقوى شعور، مثلما لا يكون للنّحلة أيّ خيار إلّا أن تلسعك إذا تعرّضت الخليّة للتّهديد.

على أيّ حال، هناك ظروف يضحّي فيها البشر بأنفسهم وبفرصهم بإنجاب ذرّيّة ليس لمساعدة أقربائهم، ودون أمل بمعاملة بالمثل. أشخاص تخلّوا عن أماكنهم في قوارب النّجاة، أو قفزوا في الماء الجليديّ لإنقاذ أطفال غير أقرباء. جنود رموا أنفسهم على قنابل يدويّة لحماية الآخرين من أعضاء فصيلتهم. اِنقضّ طيّارو الكاميكاز اليابانيّون بطائراتهم على السّفن الحربيّة الأمريكيّة. ثمّة طريقة

واحدة لتفسير هذا السّلوك الغريب – من منظور تطوّريّ – هو أنّ البشر يخضعون لضغط اِجتماعيّ بشكل غير عاديّ. لقد تأثّر طيّارو الكاميكاز سلبيّاً بالتّهديد، وإيجابيّاً بوعد بالشّرف والمجد. أليست هذه أيضاً عوامل تجعل هذه القرارات حتميّة؟ ليس تماماً. لم يرتدِ جميع الطّيّارين اليابانيّين غطاء الرّأس الأبيض الخاصّ بالكاميكاز. ولا يغطس جميع الرّجال في البحيرة عندما يوشك طفل على الغرق. لكن يقول بعض النّاس إنّه حتّى هذه النّماذج من السّلوك الإيثاريّ تحدث ضمن مجموعات قريبة أو مغلقة، بحيث أنّه حتّى إذا لم نكن من الأقرباء جدّاً، فسوف نتشارك معهم العديد من الجينات ذاتها، فهل يمكن أن تكون مجرّد نوع ضعيف من الأنانيّة الجينيّة؟

لكن هناك أمثلة عن إيثار بشريّ لا يمكن حتّى لهذا التّفسير أن ينطبق عليه. يتبرّع الكثيرون منّا لمساعدة الجمعيّات الخيريّة لدعم سكّان البلدان النّامية. وهؤلاء بشرٌ لا تربطنا بهم علاقات قرابة، ومن غير المرجّح إطلاقاً أن يتمّ الرّدّ على أفعالنا بالمثل. ينفرد البشر وحدهم في أداء أعمال الإيثار "النّقيّ"، وليس لدى العلماء التّطوّريّين أيّ تفسير لذلك".

أدركت فجأة أنّني وحدي. نظرت إلى الدّرب. كان مونتي مستلقياً، منهكاً، على بعد عشرة أمتار تقريباً. عدت إليه وحملته.

"نسيت كم هي ساقك ضعيفة. الحانة قريبة على أيّة حال".

تلك كانت وجهتنا: حانة ظريفة مطليّة باللّون الأبيض على جانب النّهر، وقد اِعتدتُ دخولها، وحدي أو مع صديق، طوال تلك السّنوات المنصرمة. لم أعرف بشكل واعٍ أنّها كانت وجهتي حتّى رأيتها.

"دعنا نأخذ شراباً"، قلت لمونتي.

ومقرمشات.

لا يزال الوقت مبكّراً لوضع المناضد واستخدامها مجاناً في الخارج. ربطت مونتي ودخلت لإحضار البيرة وعبوة ماء.

هل أحضرت المقرمشات؟

"طبعاً".

بالجبن والبصل؟

جلسنا لبعض الوقت. مرّت أمامنا قوارب تجديف نحيلة للغاية يدفعها ثمانية مجدفين. ثمانية مجدفين بعضلاتهم القويّة، يدفعون القارب إلى الخلف دون أن يروا مسارهم. هل نشبهُ فعلاً ذلك القارب، توجّهنا قوى غير مرئيّة، غير قادرين على التّحكّم بمسارنا أو تحديده؟ لا، فهناك شابّ صغير في الخلف. شخص من السّهل حمله. ويعرف إلى أين يتّجهون.

"ما رأيك يا مونتي؟ أقصد بما يخصّ الإرادة الحرّة، القضيّة الّتي كنّا نناقشها".

لقد أنهى نصف مقرمشاته. ولحس فتات البصل والجبن حول فمه، مانحاً لنفسه وقتاً للتّفكير.

الأمر مختلف بالنّسبة إلى الكلاب. نحن نقوم بشيء معيّن. ننبح على ساعي البريد، نتبوّل عند أعمدة الإنارة، ونتوسّل لتناول وجبة خفيفة. لا نفكّر في أنّ هذا صحيح وذاك خاطئ؟ نحن نفعل ذلك الأمر أو لا نفعله. لهذا نحن أذكى منك بكثير. أنت مثل أحد تلك الكومبيوترات الّتي رأيتها في أفلام تعود لسنوات طويلة مضت، كما تعلم، كبيرة بحجم غرفة. أنت تطرح سؤالاً، فتعمل أضواء معيّنة وتنطفئ، ويصدر بعض الطّنين، ثمّ تأتي الإجابة. لكنّنا على مستوى أعلى. لا ننتظر. تدخّل المعلومات ثمّ يصدر الأداء.

مسّدت ذقنه. ثمّ اِستلقى على ظهره وساقاه في الهواء ودغدغت بطنه.

لكن أعطني إجابة مباشرة، مرّة واحدة. عنكم أنتم، البشر. هل أنتم أحرار

"اِعتقدت أنّني أجبت عن ذلك، في النّهاية. نسيج حياتنا، وخيارات وأحكام لا نهاية لها. وهذا هو الأمر الوحيد ذو المعنى من وجهة نظري إذا كنّا أحراراً. وعبارة "كلّ شيء حتميّ" الكبيرة الغامضة لم تكن محلّ تركيز تماماً... لكن، نعم، سأخبرك بما أفكّر فيه، وهذا جزئيّاً اِعتقاد فلسفيّ عقلانيّ، وجزئيّاً رغبة حالمة. أعتقد أنّنا نحن البشر فريدون من نوعنا من ناحية أنّنا نتأرجح بين قطبين. من الممكن أن نتخيّل أنفسنا مثل آلات أخلاقيّة تامّة – ملائكة، إذا أردت، مبرمجين دوماً على فعل الخير تماماً. عقلانيّين في المطلق، ونحسب ببرود. آلة كانطيّة بمنطق صرف، لكن دون حبّ. ومن جهة أخرى هناك الوحش المفترس – لا، ليس أنت يا مونتي، أنت مميّز – وحش مفترس يتصرّف دوماً وفقاً لدوافع الأكل والخداع والقتال، مدفوعاً بقوى لا يمكن فهمها أو السّيطرة عليها. شيء وحشيّ، لكنّه أيضاً مع دوافع أخرى حتّى أكثر غرابة. والحبّ وتشنّجات الطّيبة غير الضّروريّة والشّفقة المهدورة. ثمّ نحن في الوسط. لدينا دوافع الوحش – نريد فعل أشياء مريعة، وأحياناً نفعلها. لكن هنا أيضاً ملاك يقودنا ويعرف ما هو الخير. لكن الملاك وحده سيكون وحشيّاً. ما هي الأشياء المريعة الّتي ربّما يفعلها الملاك من أجل الخير؟ لكن، آنا آسف، يُفترض أن يكون هذا ناجماً عن الحرّيّة. ولكن لا يتمتّع الوحش ولا الملاك بالحرّيّة، أحدهما أعماه الضّوء والآخر أعمته الظّلمة. لكن هناك، بين الاِثنين، ذلك الإمكان الصّغير للحرّيّة. ما الّذي تحدّث عنه هيراقليطس؟ توازن القوس. في اللّحظة الّتي ينطلق فيها الغوّاص عن اللّوح، ويعلق في الهواء، يكون حرّاً تماماً، يقهر الجاذبيّة للحظة..."

ثمّ يمضي إلى الأسفل...

ضحكت. "ألم يحن موعد العودة؟"

خذ عبوة شراب أخرى.

"حسناً، لا بأس".

المشوار (5)

مشوار عقلانيّ قصير للغاية

في هذا المشوار، كان لديّ عمل واحد: أن أشرح لمونتي نوع الحجج العقلانيّة المعروفة بإسم "القياس المنطقيّ".

لم يعد لدينا حليب. الحليب من مسؤوليّاتي، بالإضافة إلى إطفاء الأضواء والتّعامل بطريقة إنسانيّة مع العناكب في الحمام.

"جولة سريعة؟" قلت لمونتي. "مجرّد نزول إلى المتجر والعودة؟"

بالتّأكيد، هل هو مشوار فقط، أم مشوار للكلام؟

من العار أن نضيّع ذلك، لنتحدّث".

حسناً، لكن بسرعة.

"حسناً. تحدّثنا غالباً عن قضايا كبيرة، لكن يمكننا أن نجعل هذا المشوار لشيء أصغر قليلاً وقائم بذاته. يمكننا الحديث عن القياس المنطقيّ".

والّذي يعني ...؟

"...نموذج لحجّة منطقيّة طوّرها أرسطو. يمكن أن تكون مفيدة للغاية".

هات ما عندك.

كنّا في الخارج في الطّريق في ذلك الوقت.

"يتشكّل القياس المنطقيّ من مكوّنين هما المقدّمات والنّتائج. والنّموذج المثاليّ للقياس المنطقيّ لديه مقدّمة كبرى، وعادة ما تكون فرضيّة عامّة، ومقدّمة صغرى، ثمّ نتيجة".

تبقى مجرّد ضوضاء حتّى تعطيني مثالاً.

"حسناً، لنلتزم بالكلاسيكيّات:

كلّ النّاس فانون. (مقدمّة كبرى)

سقراط إنسان. (مقدمة صغرى)

وبالتّالي، سقراط فان. (نتيجة)

هل فهمت؟"

أعتقد ذلك.

"قبل المضيّ قدماً، علينا التّطرّق إلى بعض المصطلحات الخاصّة".

أوه، يا إلهي.

"لا تقلق، الأمر بسيط للغاية. يمكن للمقدّمة المنطقيّة أن تكون ***صحيحة أو خاطئة***، وهذا شيء يمكن التّعرّف عليه بالمراقبة أو الإستفسار، مع أنّنا سنتحدّث عن ذلك أكثر في ما بعد. كما يمكن أن تكون النّتيجة ***صالحة أو باطلة***. النّتيجة الصّالحة هي النّتيجة الّتي تأتي من المقدّمات بشكل لا مفرّ منه. والنّتائج الباطلة هي النّتائج الّتي —"

دعني أخمّن، لا تأتي بالضّرورة من المقدّمات؟

"لقد أنهيتَ هذه المسألة. إذا كانت المقدّمات صحيحة، وتبعتها النّتيجة بشكل منطقيّ، يمكن وصف قياسنا المنطقيّ بأنّه منطقيّ أو سليم.

جميع الكلاب من الثّدييّات. (مقدّمة كبرى)

مونتي كلب. (مقدمة صغرى)

مونتي من الثّدييّات. (نتيجة)

إذا قبلت أن جميع الكلاب من الثّدييّات، وقبلت بأنّ مونتي كلب، فلن تستطيع التّملّص من نتيجة أن مونتي من الثّدييّات. هل لا تزال معي؟"

نعم، لقد أثبتَّ أنّني من الثّدييّات.

"ستلاحظ أن المقدّمات الكبرى والصّغرى لهما حدّ واحد مشترك، وهو معروف بإسم "الحدّ الأوسط" – وهو "الكلب" في مثالنا. وستضمّ النّتيجة حدّاً من المقدّمتين الكبرى والصّغرى، وهنا تأخذ "الثّديّات" من المقدّمة الكبرى و"مونتي" من المقدّمة الصّغرى.

ربّما يبدو هذا النّوع من القياس المنطقيّ جامداً أو رسميّاً بشكل غريب، مثل بعض الرّقصات المهذّبة المنمّقة. وهو محدود بشكل لا يمكن إنكاره من ناحية أنّ فائدة الآليّة المتقنة تعتمد كلّها على صحّة المقدّمات. وهو حالة كلاسيكيّة تؤدّي فيها المُدخلات غير الصّحيحة إلى نتائج غير صحيحة. وبالتّالي فإنّ كلّ ما يمكن للقياس المنطقيّ القيام به فعلاً هو مساعدتك على تنظيم ما تعرفه سلفاً، واستخلاص النّتائج الصّحيحة منه. لكن عندما ينجح، فهو ينجح فعلاً، ويمكن أن يساعدك في توضيح ما يبدو حالة وسطى بشكل ميؤوس منه. لذلك، غالباً ما ستصادف محاجّات لا يأتي فيها الإستنتاج من المقدّمات. أو هناك حالات أخرى يتمّ فيها قبول صحّة المقدّمات، بينما يتمّ رفض النّتيجة مع أنّها صالحة. وفي كلتا الحالتين، يمكنك أن تكسب المحاججة بالإشارة إلى أنّ خصمك غير منطقيّ".

عظيم. مع أنّني يجب أن أخبرك أنّ حجج الكلاب لا تعمل كلّها على المنطق...

ربّما هذا النّوع من المنطق هو الأكثر فائدة في أنّه يُظهِرُ لك أين تتّخذ منحنىً خاطئاً. دعنا نتخيّل هذه المحاجّة.

1. مونتي كلب.

2. مونتي ينبح.

3. جميع الكلاب تنبح.

هذه إحدى الحالات الّتي تكون فيها كلتا المقدّمتين صحيحتين، لكن النّتيجة غير صالحة. ولا شيء في البندين الأوّل والثّاني يجعلنا نستنتج أنّ جميع الكلاب تنبح. الخطأ في هذه الحالة هو أنّ كلتا المقدّمتين من نوع "المقدّمات الصّغرى"، ولا يقدّم أيّ منهما اِدّعاءً عامّاً، ومع ذلك يقدّم الِاستنتاج مثل هذا الِادّعاء العامّ، وبالتّالي يتجاوز أيّ شيء يمكننا الِاستدلال عليه من المقدّمات.

وكما قلنا، تعتمد صحّة القياس المنطقيّ على صحّة المقدّمات المنطقيّة. خذ هذه الحالة:

جميع الكلاب تعضّ عمّال توصيل البريد. (مقدّمة كبرى)

مونتي كلب. (مقدّمة صغرى)

مونتي يعضّ عمال توصيل البريد. (نتيجة)

تفشل المحاجّة هنا لأنّ المقدّمة الكبرى غير صحيحة في الواقع. ليست جميع الكلاب تعضّ عمال توصيل البريد. وعلى الرّغم من صحّة المحاجّة من ناحية أنّ النّتيجة أتت من المقدّمات، فالِاستنتاج خاطئ.

هذا هو القياس المنطقيّ الّذي تمّ إجراؤه ونفض الغبار عنه. لم يكن سيّئاً جدّاً، أليس كذلك؟"

لا زلت غير مقتنع بأنّه شيء سوف أستخدمه كثيراً عندما أصارع من أجل "غلاف ناندو" مع ذلك السّوط العقليّ.

"سيتّضحُ أنّها مفيدة لاحقاً عندما نناقش نظريّة المعرفة. وعلى أيّ حال، أحياناً يكون أمراً رائعاً أن تفهم شيئاً لم يخطر بذهنك من قبل، ألا تعتقد ذلك؟"

كانت الطّرقات تغصّ بأولاد ضاحكين في طريق عودتهم من المدرسة، ومقدّمو الرّعاية مشغولون بهواتفهم، لذلك أجابني مونتي بإحدى إيماءاته الصّامتة والبليغة في آن معاً.

اِشتريت زجاجة نبيذ، ونسيت الحليب.

المشوار (6)

الميتافيزيقا 101: الأشياء البيضاء في براز الطّيور

في هذا المشوار، أوّل مشوار من مشوارين مرتبطين موضوعيّاً، تحدثنا أنا ومونتي عن الميتافيزيقا، وشمل الحوار تلك الأسئلة الّتي تتعامل مع الطّبيعة الأساسيّة للواقع. المشوار الأوّل يقدّم الموضوع، ثمّ ننتقل إلى البحث عمّا قاله الفلاسفة الأوائل، فلاسفة ما قبل سقراط، عن المكوّنات المادّيّة الأساسيّة للعالم، وكيف يتمّ ترتيبها وتنظيمها. وآكتشف مونتي في نهاية المطاف ما تعنيه "الأنطولوجيا – علم الوجود".

أحياناً يكون للمشوار غاية، هدف. لديك مقصدٌ في ذهنك، مكان تذهب إليه، أو مهمّة تؤدّيها. المصطلح الفلسفيّ لهذا التّوجّه النّهائيّ للفعل كان، إن كنت تذكر، الغائية. وقلتُ إنّ مصطلح الغائيّة مشتقّ من كلمتين إغريقيّتين هما "telos" وتعني نهاية، و"لوغوس – logos" وتعني عقل. لكن هناك ما هو أكثر من ذلك بقليل. اللّوغوس، بأبسط معانيه، يعني كلمة، تصريح، شيء مّا قيل. لا توجد مشاكل هناك. لكن بعد ذلك، تبدأ المعاني بالتّمدد والاِبتعاد عن أيّ تعريف حاسم. في إحدى الشّذرات الباقية من صديقنا هيراقليطس الملطّخ بالفضلات، يُستخدم اللّوغوس ليعني شيئاً مثل، ***تفسيريّ، أو شرحيّ، سبب وجود الأشياء بالطّريقة الّتي تكون عليها***. ولاحقاً، من خلال التّناقل والتّحويل، لم تعد تعني التّفسير فقط بل الشّيء الّذي يُفسّر، أي الفهم والمنطق البشريّين.

أصبحت الأشياء كلّها ممكنة الآن بالنّسبة للّوغوس.

رأى الرّواقيّون أنّ العالم الطّبيعيّ كلّه يسكنه ويسيطر عليه كائن ذكيّ، روح العقل الكونيّ، اللّوغوس. وأعطت المسيحيّة روح العقل هذا هيئة بشريّة، وأسمته يسوع المسيح: فِي ٱلْبَدْءِ كَانَ ٱلْكَلِمَةُ ***(اللّوغوس)***، وَٱلْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ ٱللهِ، وَكَانَ ٱلْكَلِمَةُ الله. هنا يحتفظ اللّوغوس بفكرة العبارة الواضحة، في أنّ يسوعَ المسيح كان جزءاً من الثّالوث المقدّس الّذي أُرسِلَ ليجسّدَ عظمة الله الّتي لا توصف ولا يمكن فهمها ضمن نطاق فهمنا البشريّ المحدود.

أها، أهلاً.

"عفواً. أحياناً يكون المشوار غائيّاً، وأحياناً يكون-"

إنّه مجرّد مشوار.

لم نكن أنا ومونتي في مشوار غائيّ، بِاستثناء أنّ على الكلاب أن تمشي، ولا سيما عندما تكون مقيمةً في شقّة. مشوار غير غائيّ إذن، بمعنى أنّه حتّى إذا كان لدينا غاية أو هدف (تجنّب القيام بتنظيف الأرض تحت منضدة الطّعام الّتي أصبحت ملجأ مونتي الأخير، حمام الطّوارئ)، فليس لدينا وجهة محدّدة. كانت مجرّد نزهة دون وجهة في وقت مبكّر من المساء عبر شوارع ويست هامبستد المملّة الرّطبة.

لكن الشّوارع، على الرّغم من ذلك، ليست مملّة أبداً بالنّسبة إلى كلب طبعاً. فهي مليئة بالإثارة، تفوح الرّوائح وتعبق في كلّ مكان مثل موسيقى الجاز في نيوأورلينز. وكلّ كلبٍ آخر يصادفه يكون مصدر بهجة عارمة أو قلق شديد. الشّمّ، الهدير، القُبَل، الزّمجرة، التّراجع المتردّد، الاِندفاع الحاسم، محاولة التّسلّق، القبول السّلبي للتّسلّق. ذلك كلّه يشبه إلى حدّ كبير حفلة إطلاق كتاب لناشر كتب. مع أنّ نزهة الكلب تتضمّن تعقيداً إضافيّاً وإحراجاً من اِضطرار المالكين للتّواصل المباشر، وفكّ التّشابك والاِنخراط في تسلية إنكليزيّة رائعة من الاِعتذارات.

ما هو موضوع هذه اللّيلة إذن؟

"همممممم. حسناً، يمكنك على نطاق واسع تقسيم جوهر الفلسفة إلى ثلاثة أقسام رئيسة. ثمّة فلسفة تحاول أن تخبرنا كيف يجب أن نعيش..."

الأخلاق. مررنا بها، وأنهيناها.

"ثمّ لدينا فلسفة تتفحّص كيف يمكننا معرفة أيّ شيء، وما الّذي يُعتبر معرفة. إنّها "الإبستمولوجيا". وسنتحدّث عنها في مشوار لاحق".

وبالنّسبة إلى هذه اللّيلة؟

"لدينا أخيراً "الميتافيزيقا"، وقد أصبحت مجموعة شاملة تُستخدم للمواضيع الّتي لا تتوافق بدقّة مع الفروع الفلسفيّة الكبيرة الأخرى. لذلك فإنّ الأسئلة الكبيرة الغامضة عمّا هو موجود في العالم، وطبيعة المكان والزّمن، وحتّى ما يُعتقد أنّه قضايا لاهوتيّة أساساً، مثل وجود الله أو عدم وجوده: هذه الأشياء كلّها تمّ اِعتبارها ميتافيزيقيّة. إنّ أسئلة من نوع، ***لماذا أنا هنا، وماذا يوجد هنا***؟ ربّما تلخّص ذلك كله.

كان المعنى في الأصل محدّداً أكثر. كانت الميتافيزيقيا اِسم أشار به الفلاسفة اللّاحقون إلى عدد من الكتب الّتي ترتبط مواضيعها بكتب أرسطو. ومعناها الحرفيّ "ما وراء الطّبيعة – metaphysics"، تشير كلمة "physics" إلى كتب أرسطو الّتي اِهتمّت أساساً بالطّبيعة، وبالحركة والتّغير في العالم الطّبيعيّ. والميتافيزيقا يمكن أن تعني إمّا أن هذه الكتب الّتي نتحدث عنها تتجاوز أعمال أرسطو عن الطّبيعة، أو تتفوّق عليها، أو ربّما تليها في القراءة. وقد تعني فقط أنّها تتبعها على رفّ الكتب.

مصطلح أرسطو الخاصّ بالمسألة الأولى الّتي تمّ تناولها في ***الميتافيزيقا*** هو ***الفلسفة الأولى***، الّتي عرّفها بأنّها دراسة ***الوجود كما هو***. ولنصغ ذلك بأسلوب آخر، الموضوع هو الوجود: ما هو الموجود، ما هي فئات الأشياء الموجودة في

العالم. يقول أرسطو أيضاً إنّه يدرس "ذلك الّذي لا يتغيّر"، ممّا يشكّل تناقضاً مع "علم" التّغيير الّذي درسه في كتبه عن "الطّبيعة". يقول أيضاً أن موضوعه هو "العِلَلُ الأولى للأشياء".

هذه المجموعة الفرعيّة المحدودة من الميتافيزيقا، أي الأسئلة عن ***الوجود***، يُطلق عليها الآن بشكل عامّ اِسم "***الأنطولوجيا***"، وهي كلمة محبّبة، لفظها وحده كافٍ ليجعلك تشعر بأنّك ذكيّ. حاول أن تلفظها.

أنطولوجيا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"والآن – ألا تشعر بأنّك أكثر ذكاء؟"

تشنّفت أذنا مونتي. *في الواقع، أشعر بذلك...*

"إنّها فكرة خادعة ومراوغة (أسامحك إذا أذهلك مفهوم غير متبلور تماماً). لكن ربّما يكون مفيداً أن تقارن الأنطولوجيا – دراسة ما هو موجود – مع "الإبستمولوجيا" – دراسة ما يُعتبر معرفة، وكيف نكتسبها. وهكذا يا مونتي. إذا سألتني "ماذا لدينا في العشاء؟" فالسّؤال يدخل ضمن النّطاق الأنطولوجيّ. وإذا أجبتك "لا أعرف. سأرى محتويات الخزانة عندما نرجع إلى البيت"، فسوف تكون إجابة إيبستمولوجيّة".

هلّا أعدتها مرّة أخرى؟

"حسناً، ما هي المادّة البيضاء في براز عصفور؟ هذا سؤال أنطولوجيّ. أنت تستفسر عن طبيعة المادة".

فهمت، كما أعتقد.

"كيف لي أن أستكشف ماهية المادّة البيضاء في براز عصفور؟ هذا سؤال إبستمولوجيّ. أنت تسأل عن طبيعة المعرفة، وليس عن طبيعة المادّة.

الحقيقة أنّ الأنطولوجيا والإيبستمولوجيا متشابكتان بشكل وثيق. وكم

سنرى، نوعيّة الأشياء الّتي تؤمن بوجودها (أنطولوجيا) تملي عليك الأدوات والمبادئ الّتي تطبّقها عندما تبحث عنها (إيبستمولوجيّا). وإذا كان لديك وجهات نظر معينة عن الإبستمولوجيا – لنقل إنّك تؤمن بحقيقة لا يمكن الكشف عنها من خلال تطبيقات المنطق أو، بشكل معاكس، تؤمن بمعرفة لا يمكن اِكتشافها إلّا بالحواسّ – فهذا يشير عندئذٍ إلى نظريّة عن نوعيّة الأشياء الّتي تنتظر أن يتمّ الكشف عنها. ما رأيك؟"

ماذا لدينا في العشاء؟

"براز عصفور،

ماذا!؟!

"أوه، لا، آسف. كنتُ أتابع سلسلة أفكارنا السّابقة. كنت قد فكّرت بأنّنا بدأنا الحديث عن الأنطولوجيا بسؤال عن براز عصفور. وتحديداً، ما هي المادّة البيضاء في براز العصفور؟"

أنا لا أفهمك تماماً.

"كما تعلم، ينظر بعض النّاس إلى براز العصفور ولا يرون إلّا براز عصفور. وهناك آخرون ينظرون إليه ويتساءلون ما هي المادّة البيضاء فيه. التّساؤل عن المادّة البيضاء هي عبارة عن بداية الميتافيزيقا. وربّما العلم".

حقّاً؟

"بالتّأكيد، الاِستفسار عن أنواع الأشياء الموجودة في العالم، وكيف يمكن تنظيمها وترتيبها، كان سؤالاً يقلقُ النّاس القدماء الّذين نَصِفُهم الآن بالفلاسفة".

أخبرني بالمزيد....

"بدأت الفلسفة، كما نعرفها، في منطقتين فكريّتين ساختنين أساسيّتين في القرن

السّادس قبل الميلاد. الأولى كانت "أيونيا"، وهو إقليم على طول شاطئ ما يُعرف الآن بتركيا الجديدة على البحر المتوسّط. قرابة القرن العاشر قبل الميلاد، اِستعمر الإغريق من المناطق المحيطة بأثينا هذا الإقليم وأنشأوا ما يشبه الدّول المستقلّة مثل ميلوس وكولوفون وإفسوس، وآزداد غناها بسبب التّجارة والتّبادل التّجاري. وخلقت هذه الثّروة ثقافة منحت بعض المواطنين وقتاً وفرصاً للتّوقّف عن عملهم والنّظر حولهم والبدء بالتّأمّل. وملأ هؤلاء أيديهم بالتّراب وتركوه ينساب من أصابعهم؛ وراقبوا تلألؤ نور الشّمس على الماء؛ وحدّقوا في القمر؛ وسألوا أنفسهم، "من أي شيء صُنِعَت هذه الأشياء كلّها؟"

ما يجعل هذه التّكهّنات الأولى فلسفيّة هو أنّه بدلاً من قبول الأسباب الدّينيّة الموجودة أو أسباباً فوقطبيعيّة للظّواهر – الرّعد، على سبيل المثال، بِاعتباره سلاح الإله زيوس الفتّاك الّذي لا يُخطئ، أو الزّلازل بِاعتبار أنّ سبب حدوثها قيام أخيه بوسيدون الضّخم الغاضب بضرب الأرض برمحه ثلاثي السّهام – حاولوا إيجاد تفسيرات طبيعيّة عقلانيّة. ودعموا تكهّناتهم بأدلّة، أو ***بمسوّغات***، في حال غياب الأدلّة.

العديد من أولئك الّذين نطلق عليه صفة "ما قبل سقراط" (لأنّهم كانوا قبل سقراط، مع أنّ بعضهم عاصره، وآثنين منهم اِلتقيا به) كانوا رجالاً عمليّين – الأقدم من بينهم طاليس من ميلوس، حيث كان سياسيّاً بارزاً، وتلميذاً في علم الطّبيعة، وعالِم فلك، وربّما توقّع (لديّ بعض الشّكوك بهذا الشّأن في الواقع) كسوف الشّمس عام 585 قبل الميلاد.

هناك قصّة جميلة عن طاليس. كان مثل معظم الفلاسفة منشغلاً بالتّفكير بأمور عميقة أعاقته عن توفير المال. ممّا جعله أحياناً شخصيّة للهزل والسّخرية بالنّسبة لسكّان ميلوس. وتعرّض للاِستهزاء كثيراً بسبب ملابسه القذرة ومزاجه المشتّت. كما تمّت مقارنته بالثّعلب الّذي يدّعي أن العنب حامض لأنّه لا يستطيع الوصول إليه. لكنّه اِستخدم معرفته بالرّصد الجوّي ليستنبط أرجحيّة أن يكون

محصول الزّيتون وفيراً، فاِشترى، أو اِستأجر، جميع معاصر الزّيتون الموجودة على مسافة أميال حوله، وقام بتشغيلها عندما جاء موسم القطاف، وبسبب اِحتكاره للمعاصر كلّها، اِستطاع أن يضع الأجر الّذي يريده. أراد أن يُثبت للنّاس أنّه لا يزدري المال لأنّه لا يستطيع كسبه، بل لأنّه يقدّر الفلسفة أكثر.

لكن ما جعل فلاسفة ما قبل سقراط مثيرين للاِهتمام بالنّسبة إلينا ليس مهاراتهم العلميّة بل تنظيرهم. إذ توصّل جميعهم تقريباً إلى كوزمولوجيّات متقنة، وصور معقّدة عن الكون، بالإضافة إلى تفسيرات لأصوله. فبالنّسبة إلى طاليس مثلاً، كانت الأرض عبارة عن قرص يطفو على مساحة شاسعة من الماء. بينما اِفترض أنكسمندر (610 – 654 ق. م) وجود فضاء لا نهائيّ تقبع الأرض في وسطه على شكل أسطوانة. نحن نعيش على قشرة هذه الأسطوانة، القمّة المسطحة على قطعة أرض تحيط بها البحار. كانت نسخة أنكسمندر عن الأرض أوّل نسخة ترى فيها الأرض تطفو بحريّة في الفضاء، ممّا أتاح فراغاً للشّمس والنّجوم والكواكب للدّوران تحتها. ويُظهرُ ردّه على سؤال مفاده لماذا "لا تغرق" الأرض غير المدعومة بأيّ شيء في الفضاء كم حاول فلاسفة ما قبل سقراط التّفكير بطرق للخروج من المشاكل. بما أنّ الكون لا نهائيّ، ويمتدّ بشكل لا نهاية له في الاِتّجاهات كلّها، فليس للأرض أيّ مبرّر يجعلها تتحرّك بأيّ اِتّجاه محدّد من هذه الاِتّجاهات. وبحسب كلماته تحديداً. الأرض "لا تبالي"، إنّها كطفلة سريعة الاِهتياج، ترفض حبوب البازيلاء وأصابع الجزر والسّمك. ربّما كان ذلك أوّل ظهور ***لمبدأ العلّة الكافية*** في الفلسفة، الحجّة الّتي تقول إنّ كلّ ما يحدث، يحدث لسبب معيّن، ويمكن تفسيره بالكامل من خلال ذلك السّبب. وبالنّسبة إليه، لا يوجد سبب مُقنع يجعل الأرض تسقط، لذلك فهي تطفو.

كان لديه تابع اِسمه أنكسيمينس. إذ كانت الأرض بالنّسبة إليه قرصاً طافياً من الهواء المكثّف، ينجرف كورقة في الخلاء. وبالنّسبة إلى بارامنيدس (وُلِدَ قرابة عام 515 ق. م)، الواقع كلّه عبارة عن مجال لا تنوّع فيه، وليس له بداية ولا

نهاية".

ماذا؟

"نعم، لم يكن بارامنيدس مثل الآخرين تماماً. وبغضّ النّظر عن أيّ شيء آخر، هو لم يكن من "إيونيا". كان من المركز العظيم الآخر لفكر ما قبل سقراط، المدن الإغريقيّة في الجنوب الإيطالي وصقلّية. ولسبب مّا، كان المقيمون في ما كان يُعرف بـ "ماغنا غراسيا" يميلون لأن يكونوا أقلّ اِرتباطاً بالواقع من أبناء عمومتهم في "أيونيا". وكان بارامنيدس أوّل فيلسوف يقول إنّه لا يُفترض بنا أن نثق بما تخبرنا به حواسّنا عن العالم، بل علينا أن نبدأ بالمبادئ العقلانيّة، واِتّباع هذه المبادئ إلى النّهاية، بغضّ النّظر عن مدى غرابة النّتيجة. والمكان الّذي يأخذنا إليه بارامنيدس هو "ويردسفل"

بدأ مع ما يراه أنّه مفتاح التّمييز بين ***"الوجود"***، ويعني به كلّ ما هو موجود، و***"اللّاوجود"***، أي ما هو غير موجود. وزعم أنّه من المستحيل أن نتصوّر حرفياً الأشياء غير الموجودة، وبالتّالي، فإنّ اللّاوجود غير موجود. هل أنت معي؟"

أوه، إيش...

"إذا لم يكن اللّاوجود موجوداً، فلهذا الأمر عواقب غريبة معيّنة، لكن لا مفرّ منها. والوجود، أي، كلّ ما هو موجود، لا يمكن إطلاقاً أن يكون قد أتى إلى الوجود، لأنّ ذلك يعني أنّه مرّت فترة قبل ذلك كان فيها اللّاوجود – وقد اِتّفقنا للتّو على أنّ اللّاوجود لا يمكن تصوّره، وبالتّالي فهو مستحيل. وكلّ ما هو موجود لا يمكن أن ينتهي، للسّبب ذاته – لأنّ هذا يتطلّب اللّاوجود. لذلك فإنّ كوننا سرمديّ، بلا بداية ولا نهاية. وهو لا يمتدّ بالزّمن إلى الأمام والخلف فقط بل يجب أن يكون غير محدود النّطاق. أن تتخيّل أنّ للعالم حجما محدودا يعني مرّة أخرى أن تتخيّل ما لا يمكن تخيّله: موقع لـ "اللّاوجود" خلف حدوده. لكنّ الغرابة لم تبدأ بعد. نحن ندرك في حياتنا اليوميّة أشكالاً وعناصر منفصلة:

أشخاص، كلاب، أعمدة إنارة، سيّارات. لكنّ "رؤية" هذه العناصر المختلفة يجب أن يكون نوعاً آخر من هذه الأوهام".

حقّاً؟

"نعم، لأنّه بالنّسبة إليّ، لكي أتوقّف عن كوني أنا، ولتبدأ أنت بأن تكون أنت، يجب أن يكون هناك فجوة، موقع ليس فيه أنا ولا أنت. أي اللّاوجود. و..."

اللّاوجود أمر مستحيل!

"كلب جيّد! لا يمكن أن يكون هناك حتّى نماذج مختلفة من الأشياء، أشياء رطبة، وأشياء جافة وأشياء ثقيلة وأخرى خفيفة. براز عصفور أبيض وبراز عصفور أسود. مواد، إن شئت أن تسمّيها هكذا. لأنّه إذا كان هناك أكثر من مادّة واحدة، فيجب أن يكون هناك الفجوة ذاتها، إذ تتوقّف مادّة عن أن تكون موجودة بذاتها. لذلك فإنّ كوننا لازمنيّ ولا نهائيّ ولا يتغيّر، وهناك نوع واحد من الأشياء فقط، مادّة واحدة".

المكسّرات.

"أوه، نعم، ولا يمكن أن يكون هناك حركة. إذا تحرّكنا، فهذا يعني أنّك تدخل مكاناً لا شيء آخر موجود فيه، مكان خاصّ باللّاوجود. وبالتّالي فإنّ الحركة وهم بقدر ما هو وهم وجود أجسام منفصلة.

بعض تداعيات تأكيدات بارميندس، بأنّ الزّمن والحركة وفكرة التّعدّديّة تحديداً مجرّد أوهام، تظهر في مفارقات تلميذه "زينون". كان هناك في الأصل أربعون مفارقة تقريباً، لم يصلنا منها سوى حفنة بسيطة. وإحدى أشهَر تلك المفارقات هي "أخيل والسّلحفاة". أخيل، المشهور بسرعته وخفّته بالرّكض على قدميه، وافق بتهوّر على المشاركة في سباق مع سلحفاة. وأفترِضُ أنّه كان يجب أن يعرف أنّه إذا تحدّتك سلحفاة في سباق، فهذا يعني أن هناك ما هو خفيّ. لكن أخيل المسكين السّاذج منح السّلحفاة أسبقيّة عليه. اِنطلق كلاهما. قبل أن يصل

أخيل إلى السّلحفاة، كان عليه أن يجتاز نصف الطّريق. وفي تلك اللّحظة من الزّمن، كانت السّلحفاة قد تقدّمت قليلاً إلى الأمام. وأصبح على أخيل أن يجتاز نصف هذه المسافة الصّغيرة. وعندما يصل إلى تلك النّقطة الثّانية، تكون السّلحفاة قد تقدّمت ببطء. ومرّة أخرى يجب على أخيل أن يجتاز نصف الطّريق. ومرّة أخرى تتقدّم السّلحفاة. يبدو أنّ المسافة ستقلّ بمرور الوقت لكنّ أخيل لن يصل إلى السّلحفاة أبداً.

بدا مونتي كأنّه يشكّ كثيراً في ذلك الأمر.

"أعرف ما تفكّر فيه. يجب أن يصل أخيل إلى السّلحفاة طبعاً. تبدو المفارقات كلّها عِرضَةً للدّحض من الفطرة السّليمة. يقول أحدهم إنّ السّهم المنطلق لن يبلغ هدفه أبداً. لكي يصل إلى نصف المسافة، عليه أوّلاً أن يصل إلى ربع المسافة؛ وليصل إلى ربع المسافة، عليه أن يبلغ ثُمن المسافة؛ وليصل إلى ثُمن المسافة، عليه أن يصل نصف هذا الثُمن. وهكذا دواليك.

صديقنا "ديوجينوس" الكلبيّ "دحض" زينون بالنّهوض باكراً بصمت والخروج من محاضرته. وفي كلّ مرّة أقرأ هذه القصّة، أتخيّل دوماً حكيماً غاضباً يرفع عباءته ويهزّ مؤخّرته المشعرة الهرمة الموجّهة نحو زينون تعبيراً عن أنّه لا يستحقّ الاِهتمام. لكنّ الهدف الكامل من نظام بارامنيدس هو أنّك لا تستطيع الاِعتماد على "الفطرة السّليمة" أو على تصوّراتك عن الواقع. فالمنطق وحده يستطيع أن يقودنا إلى الحقيقة، لذلك ينبغي حلّ المفارقات بالعقل والمنطق، وليس برفع عباءتك والاِنسحاب من المحاضرات".

لكن ما هو الحلّ...؟

"في الواقع، هذه المفارقات لا تزال تجعل النّاس تفكّر حتّى الآن. لكن هناك طريقتان للتّخلّص من هذه المشكلة. هناك الحلّ الرّياضيّ، باِستخدام حسابات التّفاضل والتّكامل الّتي لم تكن موجودة في ذلك الحين - كان يجب الاِنتظار

ألفيّتين أخريين لِابتكار الحلّ على يد "ليبنيز" و"نيوتن"، لذلك ليس هناك خجل. وهناك حلّ آخر لم يستند على الرّياضيات بل على الفيزياء. حيث تفترضُ مفارقات زينون كلّها أنّه يمكن تقسيم الحركة والزّمن إلى عدد لانهائيّ من اللّحظات الثّابتة الفرديّة، مثل فيلم في كاميرا تصوير الأفلام. فإذا أوقفتَ الفيلم، يتجمّد الجسد المتحرّك عند لحظة معيّنة وفي مكان معيّن. لكن في الواقع، هذه اللّحظات الثّابتة غير موجودة: وهي ليست ما تعنيه الحركة، فالحركة تعني أن يكون الجسد المتحرّك في حالة اِنتقال دائمة إلى مكان آخر. حالما يتمّ تغيير نسيج الحركة الحبيبيّ الّذي تخيّله زينون إلى نسخة سائلة، تتلاشى إمكانيّة التّراجع اللّانهائيّ. لكن هذه تفاصيل أكثر ممّا نحتاجه حول بارمنيدس وزينون. مع أنّنا سنعود إليها...

ما يوحّد جميع فلاسفة ما قبل سقراط هو الحافز لتفسير الطّريقة الّتي تكون الأشياء عليها من ناحية عناصرها الأبسط، لإيجاد المبدأ الأساسيّ، أو العلّة الأولى، الشّيء أو الأشياء الّتي نشأت منها الأشياء الأخرى كلّها. إذن، تلك الكوزمولوجيّات المسلّية كلّها، الأقراص الّتي تطفو في فضاء لانهائيّ وما إلى ذلك، تمّ بناؤها من خلال التّأكيد على العناصر الأكثر أساسيّة أوّلاً، ثمّ ترتيب هذه العناصر بطريقة منطقيّة. أو هكذا اِعتقدوا. بالنّسبة إلى طاليس، كان الماء: اِنبثقت الأشياء الأخرى كلّها من الماء، إمّا بتصلّبه بهيئة تراب، أو تخلخله إلى هواء. وبعد طاليس، كان لجميع فلاسفة ما بعد سقراط جولة أخرى في اللّعبة ذاتها. اِعتقد أنكسيمينس أنّه الهواء، حيث يمكن تخفيفه لتنشأ النّار، أو تكثيفه بشكل كبير لتشكيل الغيوم والماء والصّخور. وٱعتقد كسينوفان (قرابة 560 – 478 ق. م) – وهو فيلسوف آخر من أيونيا – أن تاريخ الكون نشأ من صراع ملحميّ بين الرّطوبة والجفاف، إذ تناوبا على الهيمنة، ولا تكون الحياة ممكنة إلّا خلال العصور الرّطبة. الحياة – من ضمنها حياة الإنسان – تمّ تجديدها مرّات لا حصر لها على مدى هذا الصّراع. وٱتّخذ أنكسمندر نهجاً مختلفاً، إذ رأى العناصر

المختلفة الّتي أيّدها الفلاسفة عبارة عن منتجات ثانويّة لكيان معيّن أعظم أسماه اللّانهائيّ.

دمج إيمبيدوقليس (قرابة 490 – 430 ق. م) أفكار بعض المفكّرين القدماء لبناء نظريّة كان يُفترض أن يدوم تأثيرها حتّى ولادة العلم الحديث في القرن السّابع عشر، لأنّ أرسطو تبنّاها وقام بتعديلها. يتشكّل الكون، بالنّسبة لإيمبيدوقليس، من أربعة عناصر أساسيّة هي التّراب والنّار والهواء والماء، تجتمع معاً أو تتباعد بتأثير قوّتين أبديّتين: الحبّ والنّزاع. تجمع هاتان القوّتان العناصر وتفصلهما في دورة لا تنتهي.مكتبة سُر مَن قرأ

بالإضافة إلى نظريّاتهم عن العالم المادّي، كان لدى فلاسفة ما قبل سقراط وجهات نظر معارضة ومثيرة للاِهتمام حول طبيعة الآلهة. لطالما تمّت رؤية آلهة الإغريق متجسّدة بصفات بشريّة ..."

ماذا؟

"أوه، يحدث ذلك عندما تمنح أشياء من غير البشر صفات بشريّة".

أمر غريب على ما يبدو.

"غريب فعلاً. ويبدو أنّ من الصّعب أن نتجاهله عندما نتحدّث عن الآلهة. وهكذا رأى الإغريق آلهتهم أكبر من البشر الخارقين في الحياة، وتداخلت قواهم الإلهية مع نقاط الضّعف البشريّة المتمثّلة في الشّهوة والجشع والغضب. ولن يدهشنا أنّ فلاسفة ما قبل سقراط، الّذين حاولوا كشف الحقيقة الكامنة خلف المظاهر، لم يكونوا راضين عن آلهة تغوي فتيات على هيئة بجعات، أو آلهة خاضعة لزوجات غيورات أو آلهة مارست تعذيب البشر من أجل متعتها الخاصّة. وقد تخيّل طاليس كوناً مخضّباً بعقل سماويّ، أو، وفقاً لتفسير آخر، كوناً تستحوذ فيه الآلهة على كلّ شيء. ألم يكن من الخطأ رؤية الحياة فقط في الحيوانات والنّباتات؟ ألا تُظهر قدرة المغناطيس على جذب الحديد أنّ في داخله قوّة محرّكة أو روح؟

وادّعى كسينوفان وجود إله واحد فقط، وكان إلهاً روحانيّاً وليس مادّياً. كما أضحكه ميل البشر لخلق آلهة على صورتها. وكان كسينوفان هو من قال إنّه لو كان للأبقار أو الخيول أو الأسود أيدٍ تستطيع الرّسم، لخلقت آلهة على هيئة أبقار أو خيول أو أسود".

ماذا عن الكلاب...؟

"أه، صحيح، لم يُشر كسينوفان إلى الكلاب صراحة، لكنّني أقول نعم، والكلاب بالتّأكيد. بالشّدّ بالإتّجاه المعاكس، اِدّعى صديقنا إيمبيدوقليس أنّه إله وقادر على شفاء المرض، وخلق الطّقس المفضّل، والتّملّص من بين يدي الموت نفسه".

لذلك هو لا يزال معنا، أليس كذلك؟

"لا، أشكّ في أنّ إيمبيدوقليس كان دجّالاً. ثمّة قصّة طريفة عنه. اِدّعى، بصفته إلهاً، أنّه لا يمكن أن يموت، ثمّ جاء الموت ليفترس عقله عندما أصبح عجوزاً مريضاً. وكان الإغريق القدماء مهتمّين للغاية بسمعتهم بعد الموت – كما رأينا، اِعتقد أرسطو أنّ سعادتك الشّخصيّة كانت مفهوماً واسعاً بما يكفي لتتضمّن ما يحدث لك بعد أن تموت، ولا يمكن لأيّ شخص أن يكون سعيداً إذا تحوّل إلى سبب للضّحك بعد وفاته. وبالتّالي إذا توفّي إيمبيدوقليس وفاة طبيعيّة، وتمّ العثور على جثّته وهي تعاني من التّفسّخ والاِنحلال الطّبيعيّين، فسوف تتلقّى سمعته ضربة قويّة. لذلك، مع شعوره باِقتراب أجله، اِنسحب خلسة إلى جبل إيتنا – ذلك البركان المحلّيّ القريب – وألقى نفسه فيه، متأمّلاً أن يؤكّد اِختفاؤه ألوهيّته. ولسوء الحظّ، تمّ العثور على إحدى فردتي صندله المميّز المصنوع من النّحاس الأصفر، إمّا أنّ البركان لفظها، أو بقيت على حافّة فوهة البركان بالطّريقة الّتي ينزلق بها حذاؤك الموحل عند مدخل المنزل. وٱفترضت القراءة الأقلّ سخرية لنهاية إيمبيدوقليس أنّه ألقى بنفسه في فوّهة البركان ليثبت إيمانه

بتقمّص الأرواح. كما اِفترضت أنّه ألقى بنفسه في الأعماق النّاريّة وهو يقول: "سوف أعود"".

اِلتفت مونتي ونظر إليّ مرّة أخرى نظرات "توما الشّكّاك"[30]. وبدا كأنّه يقول: *أنت تعرف الكثير عن هؤلاء الأشخاص الفظيعين الّذين عاشوا منذ فترة طويلة جدّاً.*

"ملاحظة جميلة. مع أنّني أبسّط بثقة وجهات نظر هؤلاء الفلاسفة، إلّا أنّه ليس لدينا فعليّاً سوى معرفة جزئيّة غير مباشرة عن معظمهم (باِستثناء بارامنيدس الّذي لدينا أقسام كبيرة من عمله الرّئيس بعنوان "***عن الطّبيعة***"، وإيمبيدوقليس، الّذي لدينا بضع مئات من السّطور عنه من قصيدتين طويلتين هما "تطهيرات"، و"***عن الطّبيعة***" أيضاً). وقد وصلنا ما نعرفه عنهم في الأساس من فلاسفة لاحقين اِقتبسوا عنهم وناقشوا أعمالهم ووافقوا عليها واعترضوا. والأكثر أهمّيّة من بينهم كان أرسطو، الّذي اِقتبس عنهم بشكل أساسيّ ليوضّح أين كانوا مخطئين".

يبدو أنّهم كانوا مخطئين معظم الوقت...

"لا يجب أن نقلّل من أصالة فلسفة ما قبل سقراط أو أهمّيتها في محاولة فهم العالم المادّيّ. كانت وسيلتهم هي الفهم من خلال التّحليل، والمعنى الدّقيق لتقسيم شيء معقّد إلى مكوّناته وإظهار كيف يمكن لتجميع أو تحويل هذه المكوّنات أن يشكّل الأشياء المعروفة حولنا كلّها. وكان ما حقّقوه مثيراً للإعجاب من نواحي كثيرة. إذ لم يقبلوا تفسير العالم كما وصل إليهم، وآمن به معظم معاصريهم، بل بحثوا وفكّروا وحاولوا الوصول إلى إجابات أفضل من مجرّد "الآلهة خلقت كلّ شيء هكذا". ويمكن أن نرى أنّ ما فعلوه كان في مجال العلم أكثر ممّا كان في مجال الفلسفة. وهو مكمن اِنتصارهم ومأساتهم أيضاً. لا

(30) إشارة إلى توما الرّسول الّذي رفض الإيمان دون تجربة شخصيّة مباشرة، ورفض الإيمان بقيامة يسوع وظهوره للرّسل العشرة الآخرين حتّى رأى جروح يسوع على الصّليب ولمسها (م).

أحد يصدّق كوزمولوجيّاتهم الرّائعة والغريبة، أقراص معلّقة في الفضاء، وأقراص تطفو على الماء. ولا تزال مفارقة زينون تفرض ضرائبها على العقول الذّكيّة، لكن ما من أحد يدرس العلوم الرّياضيّة يعتقد بأنّه يستطيع توظيف الأساليب الّتي تستخدمها السّلحفاة للبقاء متقدّمة على أخيل لتحسين الأداء الرّياضيّ اليوم. العلم يتقدّم، ويترك النّظريّات القديمة خلفه بطريقة لا تفعلها الفلسفة إطلاقاً. إذ لا يتمّ تجاهل النّظريّات القديمة إطلاقاً في الفلسفة. قد لا تكون الإجابات مُرضية، لكن الأسئلة تبقى جديدة".

وهل يُعتبر هذا أمراً جيّداً؟

"إنّ الأسئلة في الفلسفة لا تحظى بإجابات قاطعة؟ لا، لا أعتقد أنّه أمر جيّد. لكن ربّما لا يكون أمراً سيّئاً أيضاً. ولا تنظر إليّ بهذه الطّريقة الّتي تنمّ عن السّخط والاِنزعاج أيّها الكلب العجوز. ربّما لا تكون الأسئلة الّتي تطرحها الفلسفة من النّوع الّذي له إجابة واحدة مباشرة. والأسئلة الّتي كانت منفتحة على إجابات واقعيّة، كتلك الأسئلة عن طبيعة الكون، تمّت الإجابة عنها. تخبرنا الفيزياء الحديثة كثيراً عن كلّ ما نحتاج معرفته عن نوع الأشياء الموجودة في الكون، ويعرف علماء الفلك الحديثون ما هو شكل الكون، وكيف بدأ، وربّما كيف سينتهي.

العلم الحديث هو الأمر الوحيد الممكن بسبب قوّة الرّياضيّات الّتي كانت في يوم من الأيّام فرعاً من الفلسفة. ربّما كان الفيلسوف الأكثر غموضاً بين جميع فلاسفة ما قبل سقراط هو "فيثاغورس" (قرابة، 570 – 490 ق. م) الّذي نتذكره الآن بشكل أساسيّ لنظريّاته الرّياضيّة، وبشكل أقلّ لإيمانه بتقمّص الأرواح، أو الأثر الضّار لتناول الفاصولياء. وقد تأثّر أفلاطون كثيراً بفيثاغورس، إذ نقش على مدخل مدرسته الفلسفيّة، الأكاديميّة، "من لم يكن مهندساً لا يدخل أكاديميّتنا". وكان ديكارت وليبنيز عالِمين لامعين في الرّياضيات.

ربّما تكون الفلسفة مثل مأوى مجانين: نضع فيها المجانين كلّهم حتّى تتحسّن حالتهم، ثمّ يغادروننا. وليس لدينا ضمان لشفاء الكثيرين منهم لأنّهم خرجوا إلى العالم ليعيشوا حياة مُثمرة.

لم ينطق مونتي أيّة كلمة، لكنّني شعرت بازدرائه لطريقة التّفكير هذه.

ثمّ تذكّرت فيلسوفاً آخر من فلاسفة ما قبل سقراط.

"معظم النّظريات شبه العلميّة الّتي ناقشناها هي الآن مثيرة للفضول في تاريخ الفكر. لكن إحداها اِستمرّت لفترة طويلة. كان ديموقريطس (قرابة 460 – 370 ق. م) أحد الفلاسفة الإغريق "الأيونيّين" الّذي كان يميل إلى أن يكون أصيلاً أكثر بقليل من زملائه التّنبّؤيّين في "ماغنا غراسيا" وأماكن أخرى. مُتابعاً من الأفكار الّتي أعدّها أستاذه "ليوكيبوس"، اِفترض ديموقريطس أنّ المادّة مصنوعة من مكوّنات صغيرة غير مرئيّة تتحرّك في خلاء. وقد تمّ إنشاء جميع خصائص العالم حولنا من هذه *الذّرّات*. الذّرة هي ما يحدث عندما تقسّم مادّة وتجزّئها مستخدماً مِبضع جرّاح تخيّليّ، حتّى تصل إلى نقطة لا تعود قادراً فيها على تقسيمها إلى أجزاء أصغر، مهما بلغت حدّة مِبضعك. في هذه اللّحظة تظهر ذرّتك الأبديّة غير القابلة للقسمة ولا للهدم. تظهر الذّرّات بأشكال مختلفة، وتحدّد هذه الأشكال صفات المواد الّتي تشكّلت منها. فالمعدن الثّقيل الكثيف مثل الحديد والذّهب مصنوع من ذرات تكون متقاربة جدّاً. وتكون ذرّات الماء، على النّقيض من ذلك، زلِقَة ضعيفة الاِرتباط. بينما تتشكّل النّار والرّوح من ذرّات دائريّة نشطة.

كان ديموقريطس عالماً بالموادّ، ممّا يعني بالنّسبة إليه أنّ الذّرّات، والفراغ الّذي تتحرّك فيه، هي كلّ ما هو موجود. ولا وجود لموادّ غريبة غير مادّيّة، وليس هناك عالم سماويّ، ولا يُسمحُ بوجود الآلهة في عالمه. ويُفترض بالتّأكيد أنّ ديموقريطس هو أوّل من قال: ليس الآلهة من خلق البشر بل البشر هم من خلق

الآلهة.

مع أنّ نظريّة ديموقريطس تبدو إلى حدّ ما حديثة وقريبة بالتّأكيد ممّا يعتبره العلم صورة دقيقة عن الواقع، فهي ليست نظريّة علميّة فعلاً بالمعنى الحديث. لأنّه لم يجرِ أيّة تجارب، ولم يُخضع فرضيّاته للاِختبارات الصّارمة. بل نظر إلى العالم وتكهّن.

كانت حجّته تسير أحياناً على الشّكل التّالي: كلّ شيء حولنا خاضع للاِنحلال؛ الكائنات الحيّة تموت، الصّخور تنهار وتتفتّت، الماء يتبخّر، والخشب يتعفّن. ومع ذلك يبقى هناك كائنات حيّة وصخور وماء وخشب. ولا بدّ أنّ ذلك بسبب اِستمرار بقاء المادّة الأساسيّة الّتي تشكّلت منها هذه الأشياء. وسيُعاد تشكّلها بمرور الوقت، وستنشأ هذه المواد كلّها من جديد. كما تخيّل كوناً مليئاً بعوالم مثل عالمنا، وكيانات لا نهاية لها تتلاشى وتنشأ من جديد.

لو أنّ نظريّة ديموقريطس اِنتصرت في حرب كلاسيكيّة للأفكار، لأنتجت شيئاً مثل ولادة العلم الحديث. لكنّها خسرت. يتشكّل الكون من عناصر إيمبيدوقليس الأربعة، النّار والماء والتّراب والهواء، وهو كون دون خلاء، لأنّ الفضاء الخارجيّ كان ممتلئاً بـ "الأثير"، ظلّت هذه النّظريّة النّموذج الأساسيّ حتّى مجيء نيوتن.

أحد الأسباب الرّئيسة لذلك كان تأييد أرسطو. أعمال أرسطو الخاصّة بالطّبيعة - أعماله عن كلّ شيء تقريباً – شكّلت الصّورة الّتي رأى فيها العالم الكلاسيكيّ والقروسطيّ نفسه فيها. لكن هناك شخص واحد فقط نافس أرسطو في الذّكاء والتّأثير. حان الوقت للحديث عن أفلاطون".

حان الوقت لنتحدّث عن العشاء.

أوه، كنت قد تجوّلت مدّة طويلة في الشّوارع الخلفيّة. كانت أضواء الشّارع والسّيارات تعمل، مرخية ظلالاً مجمّعة على العالم. كان أوّل الرّكاب العائدين

يهرولون على الأرصفة. ليس هناك وقت للكلام عن الفلسفة.

"حسناً أيّها الصّغير، إلى المنزل".

والعشاء.

"والعشاء".

ومع ذلك، هناك شيء آخر.

"ما هو؟"

ما هو الشّيء الأبيض في براز العصفور؟

"حسناً، إنّه براز عصفور أيضاً".

المشوار (7)

ملء الصّور ومشكلة الكلّيّات

في مشوارنا الميتافيزيقيّ الثّاني، ناقشنا أنا ومونتي نظريّة صور أفلاطون، و«مشكلة الكلّيّات» المرتبطة بها؛ بكلام آخر، ما هي العلاقة بين الفكرة العامّة عن كلب وأيّ كلب معيّن؟ هل الأفكار العامّة لها وجود فعليّ، أم أنّها ليست أكثر من كلمات مفيدة؟ كما تحدثنا عن طيور النّورس.

لم يكن مونتي يُظهر حماسة لآخر مشوار في اليوم حتّى عندما كان صغيراً حيويّاً، ولا سيما في الشّتاء. كان يستاء جدّاً في تلك الأيّام من أخذه إلى البرد في الخارج. ناديته بالمصطلح اللّامع الاِعتياديّ "والكيز!"، لكن بدلاً من حزّ أظافره بحماسة على الأرض، ساد السّكون فقط، وكان عليّ أن أذهب وأتعقّبه إلى مأواه. وجدته غارقاً في النّوم على فراشنا. كان قد صنع وسادة من ملابس نومي. كانت لعبة الخروف برفقته، بالإضافة إلى علبة خيط تنظيف الأسنان، وهي لعبته المفضّلة للمضغ. وضعت في ذهني ملاحظة ضرورة شراء علبة خيوط تنظيف أسنان أخرى، لمعرفتي أنّني ربّما أنسى، ولن أتذكّر إلّا عندما أدرك أنّني أنظّف أسناني بشيء يعبق برائحة أنفاس مونتي.

"هيا يا رفيقي"، قلت له، "لم ننتهِ من الميتافيزيقا".

حدّق بي بتلك النّظرة الحزينة، إشارة إلى أن السّاديّ فقط يفكّر أن يجرّه في هذا الطّقس السّيّئ.

سرنا إلى المنطقة الخضراء في الزّاوية، تلك المنطقة المعتّمة المهجورة في هذا الوقت. في الصّيف الحارّ الّذي كنّا نعيشه فيه، كان بعض المشرّدين يصنعون أسرّة من صناديق الورق المقوّى، وينامون تحت الأشجار. لكنّنا الآن وحدنا. جلست على مقعد تغمره بقعة إضاءة خافتة وصلته من مصابيح الشّوارع المجاورة، بينما بدأ مونتي يشتمّ بعض الأشجار الهرمة، ويتبوّل بطريقة متقطّعة. ثمّ عاد ووضع ساقيه الأماميتين على ركبتيّ.

"هيا إلى هنا"، قلت له، متوقّعاً منه أن يقفز إلى ركبتيّ. لكنّه رمقني بنظرة وحسب، كانت عيناه السّوداوان تعكسان أضواء الشّارع، لذلك رفعته إلى ركبتيّ، وآسترخى ليتدفّأ من برودة اللّيل.

"هل هذا مريح؟"

تنهّد وانحشر أكثر تحت سترتي لتدفئة جسده.

"رأينا كيف حاول فلاسفة ما قبل سقراط فهم العالم بتقسيمه إلى العناصر أو المركّبات الّتي يتكوّن منها، ثمّ أنشأوا كوزمولوجيّات متقنة مختلفة لتوضيح موقعنا في الكون. كان بعضها مثيراً للاِهتمام، وبعضها جنونيّاً. ولم يعش الكثير منها لفترة طويلة كتقليد حيّ. كما صادفنا أفلاطون، وأستاذه سقراط، في مشوار سابق. ولدى مناقشة الأخلاق، رأينا كيف اِقترح أفلاطون وجود كيان، *الخير*، في عالم غامض خارج عالمنا. وجادل أفلاطون أنّ العمل الّذي نؤدّيه لا يكون خيّراً إلّا بقدر ما "يتشارك" فيه مع ذلك الكيان، أي صورة الخير. واستنتجنا في ذلك الوقت أنّه ليس مفيداً جدّاً في الواقع من جانب مساعدتنا في اِتّخاذ قرار للتّصرّف بشكل أخلاقيّ، لكن دعنا نتفحّص الآن النّظريّة الأوسع الّتي دخل فيها تفكير أفلاطون الأخلاقيّ.

سنناقش الآن مشكلة ذات صلة بهذه المشكلة – في الواقع، نظريّة صور أفلاطون هي محاولة لحلّ هذه المشكلة..."

والمشكلة هي...؟

"الكلاب".

ماذا؟

"مشكلة الكلاب أنّها تأتي بكافة الأشكال والأحجام. حيث لا يوجد حيوان آخر يعرض هذه الوفرة الشّكليّة، وهذا التّنوّع. لكنّ زائراً غريباً لن يضع إطلاقاً هذه الأنواع الّتي تسير على أربعٍ كلّها ضمن النّوع ذاته على أساس المظهر الخارجيّ وحده. إنّ شيفرتك الجينيّة فقط، وأفترض أيضاً رغبتك بالشّعور بالدّفء مع نوع آخر..."

أنت تحرجني.

"...هو ما يكشف علاقة القرابة. لذلك فإنّ السّؤال هو، ما الّذي يجعل من الكلب كلباً؟"

ماذا؟

"أعني، لماذا نقرّر وضع جميع رفاقك في المجموعة ذاتها، ونسمّيها كلاباً، ثمّ يكون لدينا مجموعات مختلفة للثّعالب والقطط وما إلى ذلك؟"

الأمر واضح. الكلب هو كلب. شيء يشبهني.

ثمّ أطلق مونتي عواءً سريعاً أجشّاً، لم أعرف ما إذا كان لي، أم لرائحة ثعلب كامن في مكان مّا.

"عمل جيّد. دعني أفسّر لك الأمر. أنت تعرّف الكلب بأنّه عبارة عن حيوان يسير على أربع، وينبح. وهذا رائع في محاولة أولى. لكن دعنا نُخضعها للمنهج الدّيالكتيكيّ القديم. لو كان سقراط هنا، ويتحرّك جيئة وذهاباً بصندله وسترته الصّوفيّة الطويلة الّتي تلفّ جسده، لكان قدّم الآن أمثلة عن كلاب لا تنبح، موضّحاً أن شرطك ***ليس ملزماً***، وأمثلة عن حيوانات رباعيّة الأرجل تنبح لكنّها

ليست كلاباً، مثل أسود البحر، موضّحاً أنّ شرطك ***ليس كافياً***.

ربّما يكون هذا هو الوقت المناسب لنقاش بسيط عن ***الشّرط اللّازم والشّرط الكافي***، إذ تكون في كثير من الأحيان مفيدة أكثر ممّا تعتقد، ليس في الفلسفة فقط بل في الحالات كلّها. دعنا نركّز على مثالنا عن كلب ينبح.

لكي يكون الكلب كلباً ينبغي أن تنطبق عليه صفات معيّنة. يجب أن يكون من الثّدييات مثلاً. وأن يكون من عائلة ***"الكلبيّات"***، مع أبناء عمّه اِبن آوى والثّعلب من جنس "الكانيز". وقد ترغب بالقول إنّه يجب أن يكون على قيد الحياة، أو على الأقلّ، كان على قيد الحياة. وأنّه موجود. هذه الخصائص هي شروط ***لازمة*** ليكون الكلب كلباً. ومن دونها، أيّاً كان الحيوان الّذي أمامنا، لا يمكننا الاِستنتاج بأنّه كلب.

لكن لا تُعتبر أيّة خاصّيّة من هذه الخصائص شرطاً ***كافياً***. وأعني بذلك أنّه لن تكون أيّة خاصّيّة من هذه الخصائص كافية بالنّسبة لنا لنقول عن شيء معيّن، أيّاً كان نوعه، إنّه كلب. ثمّة كائنات حيّة أخرى ليست كلاباً. وهناك ثدييّات ليس كلاباً. وهناك عناصر من عائلة ***"الكلبيّات"*** ليست كلاباً.

أنا أفكّر بذلك الآن، ولست واثقاً من وجود أي شروط ***كافية*** ليكون كلباً، غير ذلك الشّرط التّوتولوجيّ[31] المرتبط بتحديد جيناته الخاصّة".

توقّف! توتولوجيّ...؟

"التّوتولوجيا تعني فقط أنّك تقول الأمر ذاته مرّتين باِستخدام مصطلحات مختلفة. وربّما يكون أخرقَ وغبيّاً، مثل رئيس الولايات المتّحدة الّذي قال، "علينا أن نكون سويّة لنتّحد"، أو قد يكون مفيداً ويساعد في اِستخلاص الحقيقة المخفيّة جزئيّاً، أو توضيح جزء من التّعريف. إذا قلتُ إن البشر كلّهم فانون،

(31) "التّوتولوجيا – tautology": تحصيل حاصل، في المنطق التّقليديّ، هو مجرّد تكرار لما هو معروف سابقاً، أو للمقدّمات المأخوذة. ويتّضح المعنى من القول المأثور "فسّر الماء بعد الجهد بالماء" (م).

فهذه توتولوجيا، لأنّ صفة الفناء جزء من تعريف البشر، لكنّها تبقى تذكيراً مفيداً.

شكراً، فهمت الأمر.

"بالعودة إلى الكلاب النبّاحة. دعنا نقل إنّ الكلاب هي الحيوانات الوحيدة الّتي تنبح. في هذه الحالة، سيكون النّباح شرطاً كافياً بالنّسبة إلينا كي نستنتج أنّ مونتي كلب. وربّما علينا الإبتعاد عن الكلاب لحظة لنكمل فكرة الكفاية. أن يكون عدد معيّن قابلاً للقسمة على عشرة هو شرط كافٍ ليكون قابلاً للقسمة على اِثنين. حسناً، الموضوع جافّ قليلاً. تقع مدينة ليدز في مقاطعة يوركشاير. وبالتّالي، أن يولد الإنسان في ليدز هو شرط ***كافٍ*** ليكون من يوركشاير. (لكن في هذه الحالة، أن تولد في ليدز ليس شرطاً ***لازماً*** لتكون من يوركشاير، لأنّ يوركشاير كيان أكبر من ليدز، وأنت تكون من يوركشاير أيضاً إذا وُلِدت في برادفورد أو، لتساعدنا السّماء، في شيفلد).

أين كنّا؟ أوه، نعم، نحن نتحدّث عن الفكرة المجرّدة "للكلب". هل هناك معنى لكلمة "كلب" لا ينطبق على أيّ كلب معيّن، هذا الكلب "الشّاي تزو" أو ذلك "اللّابرادودلي"، بل ينطبق على الكلاب كلّها بشكل عامّ؟ وإذا كان هناك شيء من هذا القبيل، فسيكون له صفات مختلفة جدّاً لكلب معيّن متفرّد. لأنّه يمكن أن تكون في أكثر من موقع واحد في الوقت ذاته – في كلب هنا في لندن، وفي كلب آخر في بكين. وعلى الرّغم من وجوده في هذه الأماكن المختلفة، فسوف يكون شيئاً واحداً، وليس الكثير من الأشياء. إذاً لدينا فعلاً شيء مثير للفضول نوعاً مّا، أليس كذلك؟"

بدا مونتي موافقاً.

"ككلب مفرد يا مونتي، لديك صفات معيّنة، جمالك وشجاعتك..."

لا داعي للسّخرية.

"وهناك أيضاً الرّوتويلر الّذي قابلناه في هيث، لديه سمات مختلفة..."

وحشيّ وغبيّ ورائحته نتنة.

"ثمّ كلبة البودل من غرين..."

إنّها تحبّ رائحة بولها، كلبة البودل تلك.

"هكذا تماماً. الكثير من الأفراد المختلفين، وتنوّع لانهائيّ تقريباً للسّمات. لكن هناك صفات "للكلبنة" تشملهم جميعاً؟ وإذا كان هناك ***شكل*** عامّ أو ***فكرة*** عامّة عن "الكلبنة"، فأيّ نوع من الأشياء هي، وأين تعيش؟ وما العلاقة بين هذه الفكرة عن "الكلبنة" والكلاب الفعليّة؟"

لا أعرف، لكنّني أشعر بأنّك توشك أن تخبرني.

"سأحاول. لكنّها مشكلة أخرى من المشاكل الفلسفيّة الّتي حيّرت الفلاسفة منذ اللّحظة الّتي أتى فيها إلى الوجود شيء يُعتبر فلسفة تقريباً، ومازالت تحيّرهم حتّى الآن. تُسمّى ***مشكلة "الكلّيّات"***، وأستطيع أن أُطلِعك على الحلول الّتي طُرِحَت، وما يبدو أنّه الأفضل من ضمن مجموعة غير مُرضية إطلاقاً. لكنّه سيكون مشواراً طويلاً..."

لم يعترض مونتي، لذلك بدأت.

"كما رأينا سابقاً، في الحوارات الأولى، يربط سقراط محاوريه في عقدة أثناء محاولتهم تحديد مبادئ أساسيّة معيّنة مثل الشّجاعة والفضيلة والجمال. عندما يحاول أيّ شخص إيجاد رابط عامّ، أو تعريف يغطّي جميع الحالات النّوعيّة في قضيّة معيّنة، تظهر تعقيدات وتناقضات لا نهاية لها، ويعود باحثونا التّعساء بعد الاطّلاع إلى منازلهم مهزومين. نحن نبحث عن شيء واحد، لكنّ كلّ ما نجده هو التّعدّد.

إجابة أفلاطون على ما يُصيبنا من تشوّش ذهنيّ عندما نحاول تعريف هذه

المصطلحات العامّة هي أنّنا نبحث في المكان الخطأ. لن يوصلنا التّحديق في تشوّش العالم حولنا إلى أيّ مكان. لأنّ هذا التّشوّش تحديداً هو في الواقع دليلٌ على أنّ هناك ما هو "أفضل" و"أكثر صحّة" في عالم يتجاوز عالمنا. وأكثر تفسيرات أفلاطون شهرة عن هذا العالم الآخر، وعلاقته بعالمنا، هو صورة الكهف المجازيّة الّتي عرضها في كتابه ***الجمهوريّة***. يقول فيها إنّ البشر أشبه بسجناء مقيّدين في كهف، ووجوههم إلى جداره. وهناك نارٌ تتّقد خارج مدخل الكهف خلفنا. يمرّ أشخاص أمام النّار في الخارج، فتتحرّك ظلالهم العابرة الملتوية بشكل غريب لفترة بسيطة على الجدار أمام أعيننا الحائرة.

الأشياء الّتي ندركها بحواسّنا في العالم المحيط بنا تشبه هذه الظّلال تماماً، وهي نسخ عن واقع حقيقيّ، متوارية بطريقة تتجاوز إمكانات فهمنا لها. الكيانات ***الحقيقيّة*** الّتي تشكّل هذا الواقع الأعلى – الشّخصيّات الّتي تعبر خارج الكهف – عبارة عن صور أو أفكار. وهذه الصّور ليست أفكاراً في أذهاننا بل هي واقع معيّن، ووجود خارجيّ حقيقيّ. إنّها مثاليّة وأبديّة وعصيّة على التّغيير. ولا يمكننا بلوغ معرفة وحكمة حقيقيّتين، وبالتّالي بلوغ السّعادة، دون معرفة هذه الصّور".

نظرت إلى مونتي، ونظر إليّ بدوره. فشعرتُ أنّه يُفترض بي أن أضاعف جهدي لبعث الحياة في نظريّة أفلاطون عن الصّور.

"يطلب منّا سقراط في محاضرة بعنوان "فيدون" (المأدبة) أن نتخيّل ثلاثة عصيّ".

ما هي مشكلتك مع العصيّ، أصبحت نوعاً من الهوس.

"اِنتبه، الأمر بالغ الأهمّيّة. ومن الرّائع جدّاً أنّ إحدى أهمّ النّقاشات الفلسفيّة في العالم تتضمّن عصيّاً. هل تتخيّل هذه العصيّ الثّلاثة؟"

أحتاج مزيداً من التّفاصيل عن العصيّ لكي أستطيع تخيّلها كما ينبغي.

"اِثنتان طويلتان، واحدة أطول بقليل".

فهمت.

"والآن، فكّر في العصوين المتساويتين في الطّول. سنقول إنّما متطابقتان في الطّول، أو بأسلوب آخر، تتشاركان خاصّيّة التّساوي، بالإضافة إلى خصائص أخرى تتلخّص في أنّهما من الخشب، وبلون بنّيّ، وأصلهما من شجرة. سأستخدم بعض المصطلحات هنا، لكنّها ليست سيّئة للغاية، وربّما تفيدنا لاحقاً. في الفلسفة – ولا سيما في المنطق – نستخدم مصطلح "المحمول" ليعني شيئاً يمكنك قوله عن شيء آخر. وفي جملة معيّنة سيكون لديك "موضوع" و"محمول". على سبيل المثال، في جملة ***مونتي أبيض***، مونتي هو الموضوع، وأبيض هو الشّيء الّذي وصفنا به الموضوع، أي هو "المحمول". وبالعودة إلى عصيّنا، صفات ***التّساوي والتّشكّل من الخشب واللّون البنّيّ*** (بالإضافة إلى صفات أخرى) يمكن تطبيقها كلّها على العصيّ، موافق؟"

أعتقد ذلك. على الأقلّ بالنّسبة إلى العصوين المتساويتين...

"عظيم. لكن الآن، كما ظننتَ للتّوّ، إذا قارنّا العصوين المتساويتين بتلك الأطول بقليل، نجدها ***غير متساوية***. لذلك فإنّ "محمول" ***عدم التّساوي*** ينطبق عليها بقدر ما ينطبق عليها "محمول" ***التّساوي***. ربّما نتساءل كيف يمكن لشيء أن يكون مطابقاً لشيء آخر ومعاكساً له في آن معاً. أشار أفلاطون إلى نقطة مشابهة ترتبط بالحرارة: يمكن أحياناً لشيء معيّن أن يكون ساخناً بالنّسبة إلى شيء آخر، وبارداً بالنّسبة إلى غيره. لذلك فإنّ الحرارة ليست "محمولاً" بشكل مباشر. بل تَعلقُ مباشرة ضمن شبكة من العلاقات.

بالعودة إلى عصيّنا المتساوية تقريباً. إذا أجرينا عمليّة قياس دقيقة، سنجد طبعاً إنّها ليست متساوية تماماً. ربّما يكون طول إحداها 22 سنتمترا، والأخرى، 21.5 سنتمترا. وإذا أجرينا عمليّة قياس عالية الدّقّة على الأشياء الأخرى الّتي نعتقد

أنّها متساوية، حتّى المساطر أو أدوات القياس الّتي نعتبرها متساوية تماماً في الطّول، سنجد أنّها غير متساوية تماماً، بل تختلف بدرجات طفيفة للغاية.

هناك أشكال هندسيّة حولنا يا مونتي. ألا ترى كيف تشكّل أفاريز المنازل هنا أشكالاً مثلّثيّة؟ وتشكّل النّوافذ أنواعاً مختلفة من المستطيلات والمربّعات؟"

ألقى مونتي نظرة سريعة حوله، ولم يعترض على هذه النّقطة.

"ربّما نراها كمثلّثات ومربّعات وما إلى ذلك، لكن إذا أجرينا عليها قياسات دقيقة، سيتبيّن أنّها مختلفة قليلاً. سيظهر خطأ بسيط في الزّوايا. لا شيء مطابق تماماً لما يبدو عليه.

ثمّ اِنبثقت مجموعة من الأسئلة. الأوّل هو، بما أنّ هذه الأشياء غير متساوية تماماً، أو ليست مثلّثات تماماً، فكيف عرفنا في المقام الأوّل أنّها مثلّثات أو متساوية؟ نحن لم نختبر في الواقع مثلّثاً ***صحيحاً***، أو حالة تساوٍ ***صحيحة***. ومع ذلك لدينا فكرة، ليس فقط عن الشّكل المثلّثيّ ***الملتبس***، بل عن الشّكل المثلّثيّ ***المثاليّ***. وربّما يبدو أنّنا نتعرّف على كلّ هذه الأشكال الّتي توشك أن تكون خاطئة على أنّها مثلّثات أو مربّعات أو متساوية فقط لأنّ لدينا فكرة عن مثلّث مثاليّ أو مربّع أو مساواة مثاليّة نقارن بها. وإذا كان لدينا تلك الفكرة عن مثلّث مثاليّ، فمن أين أتت هذه المثاليّة في ظلّ النّقص الشّديد في المثاليّة في العالم المحيط بنا؟"

لا أعرف، قال مونتي، أو أعتقد أنّه قال ذلك.

"هناك محاولة أخرى لأفلاطون بعنوان "مينو"، توضّحُ فيها إحدى الشّخصيّات – شخصيّة "مينو" في الواقع – مفارقة لسقراط. دعنا نقل إنّني أريد أن أكتشف ماذا يعني أسد. إذا لم تكن لديّ أيّة فكرة عن ماهيّة الأسد، ورحتُ أتجوّل في العالم محاولاً العثور على أسد، فكيف سأعرفه إذا اِلتقيت به؟"

لكي أجد أسداً، يجب أن أعرف سلفاً ماهيّة الأسد.

"لنصغها بطريقة أخرى، إذا كنت تعرف الإجابة عن السّؤال، لماذا تسأل؟ وإذا لم تكن تعرف الإجابة، فلن تعرف الإجابة الصّحيحة حتّى لو تجلّت أمامك بشكل واضح.

نظريّة أفلاطون عن الصّور هي إجابته عن هذه المشكلة تحديداً، والمشاكل المرتبطة بها: السّؤال حول كيف نعرف أيّ شيء، وبشكل أكثر تحديداً، كيفيّة تحديد مصطلحات عامّة معيّنة. عندما نعرف أن شيئاً ما جميلٌ أو "أكبر من" أو مساوٍ أو مثلّثيّ، فهذا لأنّ لدينا معرفة مسبقة عنها بوصفها صورا مثاليّة، ويمكننا بالتّالي التّعرّف على الظّلال أمامنا".

مثل صور الخير؟ في مشوارنا عن الأخلاق؟

"تماماً".

إذن، هذه الصّور، إذا كنّا هنا، وكانت هي هناك، أينما كان ذلك، وكلّ ما لدينا هنا عبارة عن اِنعكاسات لظلالها، أو شيء من هذا القبيل، فكيف لنا أن نعرف ما هي؟

"سؤال رائع. وإجابة أفلاطون عليه، على ما أعتقد، هي إحدى أكثر الأشياء إحراجاً في تاريخ الفلسفة".

ماذا قال؟

"هذا صحيح. أؤمن تماماً بأنّها أسوأ حجّة طرحها شخص عاقل. الحجّة مرتبطة بإحدى هواجس أفلاطون الأخرى – فكرة أنّ أرواحنا خالدة مثل الصّور. لقد آمن، كما يؤمن كثير من المتديّنين، بأنّ أرواحنا عاشت قبلنا، وهي تنجو بعد موتنا. وهذه إحدى الأسباب الّتي جعلت سقراط متفائلاً للغاية أثناء تناوله سمّ الشّوكران – سيسقط جسده الخارجي ويتلاشى، تاركاً الجزء الحيويّ منه، سقراط الحقيقيّ، سليماً معافى.

لكن كيف يتمّ إثبات ذلك؟

أمر بسيط. ما فعله سقراط في محاضرة بعنوان "فيدون" (المأدبة) هو طرح أسئلة على صبيٍّ عبدٍ أمّيّ حول مفاهيم رياضيّة غامضة. كان الأمر يتطلّب بعض الإستقصاء الصّبور، لكنّه تمكّن أخيراً من جعل الصّبيّ المسكين يخرج ببعض النّظريّات المعقّدة الّتي لا يمكن أن يكون قد تعلّمها في حياته الفقيرة فكريّاً على الأرض. المبرّر الممكن الوحيد لذلك، من وجهة نظر سقراط، أنّه تعلّم هذه المبادئ الرّياضية قبل أن يُولد. مرّ زمنٌ كانت روحه في تواصل مع الصّور، وعلى الرّغم من أنّ ذكرياته عن تلك الأيّام ضاعت مع ولادته، فقد بقيت معرفته بالصّور. هكذا كانت إجابته على مفارقة "مينو". يمكننا إيجاد أسد لأنّنا صادفنا، أو بالأحرى لأنّ أرواحنا صادفت، صورة الأسد قبل أن نولد في عالم الصّراع والتّشوّش الّذي نعيش فيه".

أنت محقّ، هذا سيّئ.

"أليس كذلك؟ "أثبت" أفلاطون أنّ شيئاً معيّناً له وجود عبر اِبتكار شخصيّة في عمل أدبيّ، وجعلها تنطق كلماته. يبدو الأمر كما لو أنّني أثبتُ أنّ تلك الكلاب يمكن أن تعزف أوبرا، من خلال وصف الطّريقة الّتي وقفتَ بها الآن على ساقيك الخلفيّتين وغنّيت أغنية "نيسوم دورما"".

غباء. هذه أغنية لمن صوته من طبقة "تينور"، وأنت تعرف أنّ صوتي من طبقة "باريتون".

"لذلك لدينا حجّة غير مقنعة وُضِعَت للدّفاع عن اِقتراح غريب فعلاً، أي أنّ بعض الأفكار التّجريديّة المعيّنة لها وجود حقيقيّ في عوالم أخرى، وقد قام فهمنا الخاصّ للعالم على معرفة مسبقة بتلك الكيانات.

لكن دعنا لا نستبعد صور أفلاطون الآن. هناك عناصر في النّظريّة يبدو كأنّها تحلّ ألغازاً حقيقيّة. مسألة كيف نصل إلى فكرة مثلّث مثاليّ أو مساواة مثاليّة

عندما لا تكون الأشياء الموجودة حولنا حقيقيّة. تتطلّب مشاركة أيّ شكل من الرّياضيّات تلاعباً بالأفكار المثاليّة والدّوائر والمثلّثات والمربّعات. حتّى الأرقام نفسها توجد ككيانات مثاليّة. يبدو الرّقم ثلاثة ذا وجود منفصل عن جميع حالات *الثّلاثيّات* في العالم. إنّه يتمتّع بخلود ونقاء سيبقى بالتّأكيد موجوداً بعد أن تلتهم الشّمس عالمنا، وينهار كوكبنا في النّهاية على نفسه. وإذا قبلنا بوجود الرّقم ثلاثة بطريقة مثاليّة، فلماذا لا ينطبق الأمر على فكرة الجمال أو الحبّ أو العدالة؟

لكن كلّ ما لدينا حتّى الآن هو مفهوم غامض إلى حدّ مّا عن ماهية الصّور، وكيفيّة اِرتباطها بالعالم المادّيّ المحيط بنا. ينبغي القول إنّ أفلاطون نثر أدلّة على معناها في حواراته دون أن يثبتها بشكل حاسم. وربّما كان أفضل موقع للبدء هو حواره بعنوان "بارامنيدس". حين ناقش سقراط الشّابّ النّسخة الأولى من نظريّته عن الصّور مع بارامنيدس. بذل بارامنيدس ما في وسعه، مشيراً إلى وجود الكثير من المشاكل والتّناقضات".

وقدّم لسقراط نكهة دوائه الخاصّ!

"تماماً. والحقيقة أنّ ذلك أظهر أفلاطون بأفضل حالاته، مستعدّاً لإخضاع نظريّته الخاصّة للنّقد الشّديد. ليس هناك الكثير ممّا يشبه ذلك في عالم الفلسفة كلّه.

أراك لطيفاً مع أفلاطون مع التّغيير!

"أحاول أن أكون عادلاً... على أيّة حال، اِتّخذ بارمنيدس ثلاثة طرق مختلفة. حاول أوّلاً أن يجعل سقراط يقول بالضّبط ما نوع الأشياء الّتي لها صورة. وقال، الوحدة مع الكلّ، والعدالة، والجمال. هذا مقبول. لكن ماذا عن الأشياء الأكثر شيوعاً بشكل طفيف؟ ماذا عن البشريّة؟ هل هناك صورة للإنسان؟ أو ماذا عن النّار؟

"لم تتمّ الإشارة إليه، لكن، نعم، سيجيب رفيقنا على ذلك أيضاً. سقراط ليس واثقاً من الإجابة. وقد تمّ توسيع فكرة الصّورة في حوارات أخرى لتشمل أشياء اِعتياديّة نسبيّاً مثل الأسرّة والكراسي، لكن حوار سقراط الشّابّ مع بارامنيدس لم يكن موجوداً بعد. لكن ماذا عن الأشياء الأكثر بساطة؟ ماذا عن القذارة والشّعر؟ بالتّأكيد لا، يجيب سقراط، وهو ما يضحك بارامنيدس، الّذي يعتقد أنّ سقراط متعجرف للغاية. إذا كانت الصّور هي المصطلحات العامّة الّتي تعطي المعنى لأمثلة معيّنة، فإنّ كلّ شيء يشكّل جزءاً من مجموعة أكبر يجب أن يكون له شكل بالتّأكيد؟

لكن بارامنيدس لديه اِنتقادات هامّة أخرى. وفقاً للنّظريّة، لدينا صور موجودة بعوالمها الأبديّة. ولدينا اِنعكاساتها حولنا في واقعنا. لكن كيف تتمّ عمليّة الرّبط بينها بشكل دقيق؟ وماذا عن صورة الخير الّذي يوحّده مع عمل جيّد يؤدّى في أثينا؟ يستخدم بارامنيدس مثال الضّخامة. هناك العديد من الأشياء الهائلة الحجم حولنا، جبال وفيلة ومحيطات. إذا تمّ تفسير ضخامة هذه الأشياء الكبيرة من خلال "صور الكبير"، فما الّذي سيأتي بعد ذلك؟ هل قطعة صغيرة من الكبير تُقيم بطريقة مّا في هذه الأشياء الكبيرة الأرضيّة؟ إذا كان الأمر كذلك، كيف يمكن لقطعة صغيرة من هذا الكبير أن تجعل من الشّيء الكبير كبيراً؟ أو هل الكبير يشبه شراعاً هائلاً يغطّي كلّ الأشياء الكبيرة؟ لا يبدو أيّ اِحتمال من هذه الاِحتمالات لافتاً للاِنتباه للغاية. لقد بقينا مع فكرة غير مُرضية مفادها أنّ الأمثلة الفرديّة عن الضّخامة "تشارك" بطريقة مّا في صورة الكبير، أو أنّها "تشبهه".

لكن التّشابه هو نوع غريب من الأشياء الّتي يمكن قولها عن شيء ليس له شكل مادّيّ. أجد من المفيد اِستبدال بعض الأمثلة الغريبة الّتي يستخدمها أفلاطون بفكرة اللّون. هو يقول إنّ جميع أمثلة اللّون الأزرق في العالم زرقاء

اللّون لأنّ لديها قواسم مشتركة مع صورة الأزرق.

لكن لدى بارامنيدس الآن ما يُعتبر غالباً حجّة حاسمة ضدّ نظريّة الصّور. إنّها إحدى الحجج العظيمة في الفلسفة، وسوف نركّز عليها، مع أنّها تبدو بسيطة جدّاً عندما تفهمها".

أخبرني بها.

"تُسمّى حجّة الرّجل الثّالث، لأنّه عندما شرحها أرسطو، اِستخدم مثاله عن صورة الإنسان. لقد اِستخدم أفلاطون فكرة الضّخامة في حواره بعنوان ***بارامنيدس*** لكنّني سألتزم هناك بصورة اللّون الأزرق. لنقل إنّني جمعت قائمة بأسماء أشياء زرقاء. البحر والسّماء وقلادة من الياقوت، وعيني محبوبتي، جناح طائر الرّفراف، خطّ من العفن في علبة جبن من نوع ستيلتون. تقول نظريّة الصّور إنّ هذه الأشياء جميعها زرقاء لأنّها ***تشترك بـ***، أو ***تتشابه مع***، زرقة صورة اللّون الأزرق. هل فهمت؟"

أصدر مونتي شخيراً يشير إلى موافقته.

"لكن لدينا الآن هذه القائمة من الأشياء الزّرقاء بفضل حقيقة أنّها تشابه صورة اللّون الأزرق. ولدينا أيضاً صورة اللّون الأزرق. لكن كيف لنا أن نعرف أنّ صورة اللّون الأزرق يشبه هذه المجموعة من الأشياء الزّرقاء؟ بالمنطق ذاته الّذي جمعنا فيه الأشياء الزّرقاء، يجب أن يكون لدينا الآن صورة ثانية وأكبر من اللّون الأزرق يوحّدُ الصّور الأولى للأزرق وجميع الأشياء الزّرقاء. أمازلت معي؟

نظر مونتي إليّ، ولم يُشر بوضوح إلى أنّه لم يعد يفهم.

"لكن لدينا الآن صورة أصليّة للّون الأزرق، بالإضافة إلى الأشياء الزّرقاء كلّها في مجموعة واحدة، والصّورة الثّانية للأزرق على الجانب الآخر. يجب أن تشبه إحداها الأخرى، أليس كذلك؟ وإذا شابهت إحداها الأخرى، فيجب أن

يكون في علاقة إحداها بالأخرى – أو الثّالث الّذي لدينا – صورة اللّون الأزرق. وطبعاً، سوف يستمرّ ذلك للأبد، وهذا تراجع لانهائيّ للصّور. أنت معي؟"

لا أعرف بصدق ما إذا كنت أفهم أم لا. حاول بشكل أفضل؟ كنْ أكثر "كلبنة"؟

"حسناً، لنقل إنّ لديها حمولة كبيرة من العظام اللّذيذة. نعرف أنّها عظام كلّها، لأنّ لدينا صورة عن العظم، وهو شيء ترى كلباً يتناوله في الرّسوم المتحرّكة. عظم أفلاطونيّ مثاليّ. ونحن نستخدم هذه الصّورة لتقييم ما إذا كانت جميع الأشياء الّتي يُفترض أنّها عظام، هي عظام فعلاً. لكن لدينا الآن مجموعة من العظام الّتي اِجتازت الإختبار، بالإضافة إلى الصّورة. كيف لنا أن نعرف أنّ هناك تشابهاً بين العظام والصّورة؟ لماذا لدينا صورة أخرى تبدو فيها العظام، وصورة العظام، متشابهة. وكيف نعرف أنّ العظم الأصليّ، وصورة العظم والصّورة الثّانية للعظم، تنتمي إحداها إلى الأخرى؟ ولماذا أنتجنا عظماً مصوّراً آخر".

هزّ مونتي رأسه وقال، *نوع من المكسّرات.*

"نعم، نوع من المكسّرات. إنّها حجّة لن يستطيع أفلاطون الهروب منها إطلاقاً. حالما تقول إنّ الأشياء الزّرقاء هي زرقاء لأنّها تشبه كياناً أعلى، وصورة اللّون الأزرق، تصبح منزلقاً في حالة نكوص لانهائيّ. هل كان لدى سقراط إجابة على ذلك في حواره؟ لا إجابة فعلاً. بِاستثناء أنّ بارامنيدس اِختتم الحوار بالقول إنّ لدى سقراط ما هو مهمّ بالتّأكيد، ويمكن التّغلّب على اِعتراضاته كلّها".

وما رأيك أنت؟

"هممم ... كما رأيت، كنت متردّداً قليلاً في إقحام نفسي في هذه النّقاشات إلى هذه الدّرجة. لكنّني أستطيع أن أخبرك بشكل لا لبس فيه أنّني أعتقد أن نظريّة

أفلاطون عن الصّور مجرّد هراء. وهي من نوع الهراء الّذي اِمتدّ فترة طويلة من التّاريخ. لكن هذه النّظريّة فقدت شعبيّتها بعد مئة سنة من وفاة أفلاطون، عندما اِحتلّت مدارس فلسفيّة أخرى مركز الصّدارة في أثينا ثمّ في روما. لكنّها اِنبثقت مجدّداً مع أفلوطين (204/ 5 – 270) والأفلاطونيّين الجدد الّذين كانوا مهمّين جدّاً في تشكيل الأفكار الّتي قامت عليها المسيحيّة. فكرة أنّ هناك صوراً مثاليّة تسكن كوكباً آخر في الوجود تنسجم بشكل جميل مع وجهات نظر آباء الكنيسة الأوائل، وأصبح الله مرتبطاً بالشّكل النّهائيّ للخير. ومع أنّه كان على الأفلاطونيّة الجديدة أن تنافس الأفكار الأرسطيّة، إلّا أنّها ظلّت تمثّل تيّاراً كامناً أساسيّاً في فلسفة عصر النّهضة، وتستتر في العديد من أعظم الأعمال الفنيّة الّتي تمّ إبداعها يوماً. إذ يمكن العثور عليها لدى شكسبير والشّاعر الإنكليزيّ "جون دون"، وفي أيّ مجال آخر تجد فيه تبايناً بين عالم الحياة اليوميّة الرّتيب ومستوى الوجود الأعلى الّذي يُعتبر واقعيّاً وحقيقيّاً أكثر. لكن، لا، كانت بشكل أساسيّ مجرّد تفاهة، ولم تقرّبنا إطلاقاً من فهم العالم بشكل حقيقيّ".

يا إلهي. ماذا لدينا بعد؟

"تذكير سريع، لأنّنا قمنا بإنجاز الكثير... مازلنا نحاول الوصول إلى فهم المصطلحات العامّة مثل "الكلب" و"المثلّث". كان لدى أفلاطون فرصة لتحقيق شيء مّا، لكنّه فشل. ولدينا بعد أفلاطون..."

أرسطو، كما أفترض؟

"ملاحظتك جيّدة! حسناً، لدينا مع أفلاطون فكرة أنّنا لم نفهم سوى الأمثلة الفرديّة للأشياء، أي تنظيمها في الواقع باعتبارها أشياء بالطّريقة الّتي هي عليها فقط لأنّ لدينا سلفاً فكرة مجرّدة عن تلك الأشياء. أحصلُ على صورة لعظمة مثاليّة، وعندما أفكّر بالحصول على عظمة، أقارنها بالصّورة، وإذا رأيت تشابهاً بينهما، تكون هي العظمة المطلوبة. إجابة أرسطو على مشكلة "الكليّات" هي أنّ

هناك فعلاً أشياء تُعتبر "كليّات"، أفكاراً عامّة، لكنّنا نأتي بها بأساليب مختلفة، وهي موجودة بطرق مختلفة جدّاً".

هكذا إذن.

"***مدرسة أثينا***، وهي لوحة جداريّة جصّيّة رسمها رفائيل في الفاتيكان، تصوّر مشهدا مفعماً ببهجة النّقاش الفكريّ. يوجد فيها العديد من فلاسفة العالم القديم العظماء، بما في ذلك بعض أولئك الّذين أشرنا إليهم هنا – بارامنيدس، هيراقليطس، أبيقور وسقراط – والجميع يتحدّثون بأسلوب مرح. إنّها حفلة فلسفيّة ترغب فعلاً أن تكون فيها على الرّغم من عدم وجود الكثير من النّساء (ثمّة واحدة: الفيلسوفة الأنثى الشّهيدة العظيمة، هيباتيا، تمّ تقطيعها إلى أجزاء بِاستخدام أصداف محارٍ حادّة على يد مجموعة من الغوغاء المسيحيّين عام 415)، والنّبيذ لم يبدأ بالتّدفّق بعد.

في وسط اللّوحة شخصان منغمسان في حوار عميق. أحدهما أفلاطون، الّذي يشير إلى العالم السّماويّ لصوره. ***أُنظر إلى الأعلى: هناك مكمن الحقيقة***، هكذا يقول. والآخر هو أرسطو. يلوّح بيده المفتوحة إلى الأسفل. ***حقيقة الأشياء ليست في السّماء، بل في الأرض.*** إنّها ملخّص رائع للتّنافس الميتافيزيقيّ بين فيلسوفين.

أرسطو هو الأكثر حداثة بين القدماء كلّهم. كان مدى اِهتماماته شاسعاً – كتب عن البيولوجيا والجيولوجيا والطّبيعة والفلك، بالإضافة إلى المجالات الفلسفيّة التّقليديّة المرتبطة بالمنطق والميتافيزيقا والأخلاق. وكان أسلوبه أن يبدأ دوماً بالأدلّة الحسيّة. تبدأ المعرفة كلّها بالنّسبة له بما يمكن أن نراه. وبعد جمع البيانات الأساسيّة الحسّيّة، نستطيع تطبيق المنطق والعقلانيّة لوضع قوانين وتعميمات.

لن يدهشنا إذن أنّ أرسطو يبحث عن أصل المصطلحات العام في العالم الّذي يمكننا إدراكه. بدأ بإعادة التّفكير في "الكلّيّات" بِاعتبارها "محمولات" (أتتذكّر

هذه المصطلحات؟) يمكن تطبيقها على العديد من "المواضيع". وبالتّالي، من بين الأشياء المتعدّدة الّتي يمكننا قولها عنك يا مونتي، بعضها خاصّ وينطبق عليك فقط: اِسمك، حجمك ووزنك بدقّة، ورائحتك المميّزة. تلك الأشياء الّتي تجعلك ما أنت عليه. لكن هناك أيضاً بعض "المحمولات" الّتي لا تُطبّق عليك وحدك فقط بل على الكثير من الأشياء. اللّون الأبيض، والنّوع الّذي تنتمي إليه بين الكلاب مثلاً. هذه عبارة عن "كلّيّات". وقد قال أفلاطون إنّ لهذه "الكلّيّات" وجوداً حقيقيّاً منفصلاً خارج أيّة تجسيدات أرضيّة. وهو موقفٌ يُسمّى أحياناً "الواقعيّة المتطرّفة"، مع أنّني أعتقد أنّه غير واقعيّ تماماً. ويقوم موقف أرسطو على أنّ ***البياض و"الكلبنة"*** هي أشياء حقيقيّة، لكنّها لا تكون موجودة إلّا عندما تتجسّد في كائن. لذلك يمكننا فعلاً الحديث عن "كلب". ونعني رباعيّ أرجل بسمات معيّنة، وسمات "كلبنة"، لكن سمات "الكلبنة" هذه لا تعيش إلّا في كلاب فعليّة معيّنة. وينطبق الأمر نفسه على اللّون الأزرق. الأزرق شيء حقيقيّ، لكن لا ينبغي أن نفكّر فيه بِاعتباره يعيش في عالم خاصّ من الصّور الأفلاطونيّة، بل في السّماء الزّرقاء والبحر الأزرق أو العيون الزّرقاء. وعلاوة على ذلك، بقدر ما يمكننا الحديث عن كلب أو مثلّث أو لون أزرق "كلّيّ"، فقد نشأ من خلال اِستخلاصه من ظهورات هذه الصّفات في مواضيع حقيقيّة".

لا يبدو بعيداً عن العقلانيّة.

"مع أفلاطون، ندرك المثلّثات غير المثاليّة حولنا بسبب تشابهها مع المثلّث المثاليّ الّذي نتذكّره من الوجود السّابق لأرواحنا؛ ومع أرسطو، ننظر إلى المثلّثات غير المثاليّة فتقودنا إلى فهم المثلّث المثاليّ النّموذجيّ وإدراكه.

تُعرف وجهة نظر أرسطو بِاسم "الواقعيّة الصّلبة"، وهو من أكثر المفاهيم المقبولة على نطاق واسع عن طبيعة الأكوان من العالم الكلاسيكيّ وصولاً إلى العصور الوسطى.

دعنا نراجع القليل من التّاريخ خارج هذا الإطار. الفلاسفة الّذين تحدّثنا عنهم – فلاسفة ما قبل سقراط، سقراط، أفلاطون، وأرسطو – كانوا جزءاً من تقليد واضح. عرف كلّ منهم نظريّات الآخر، وغالباً ما عرف أحدهم الآخر صديقاً ومنافساً وأستاذاً وتلميذاً. وٱستمرّ هذا التّقليد، مع المدرسة الّتي أسّسها أفلاطون وأرسطو، وٱستمرّت في الِازدهار على مدى مئات السّنوات، وتنافسوا على جذب الِانتباه مع الأبيقوريّين والرّواقيّين والنّكهات المختلفة للشّكوكيّين والكلبيّين. بعد ذلك، بعد ألف سنة من الحياة النّشطة، بدا أحياناً أنّ الفلسفة غطّت في نوم عميق مع سقوط الإمبراطوريّة الرّومانيّة الّتي ضربتها النّزاعات الدّاخليّة والِاعتداءات الخارجيّة والأوبئة الكارثيّة. ثمّ أغلق المسيحيّون مدارس أثينا الفلسفيّة لأنّ الفلسفة اِرتبطت في أذهانهم بالطّرق الوثنيّة القديمة بشكل وثيق. وبالإضافة إلى ذلك، ما فائدة نقاش العلاقة بين المفهوم العامّ للعظم وأيّ عظم معيّن، عندما يكون البرابرة على الأبواب، ويهدّدون بتحويل الجميع إلى عظام؟

لكن الخيط لم ينقطع تماماً. خلال الفترة الأخيرة من العصور القديمة الواقعة بين مرحلة اِنحطاط العالم الكلاسيكيّ تحت هجمات الغزاة البرابرة وصولاً إلى عالم أكثر اِستقراراً في العصور الوسطى، حمل شعلة الفلسفة بعض المتشدّدين من أمثال القدّيس أوغسطين (354 – 430) وبوثيئوس (477 – 524)، الشّخصيّتين الأفلاطونيّتين اللّتين تابعتا مناقشة القضايا الّتي شغلت الفلاسفة الأوائل. وٱحتفظ العلماء المسلمون بالعديد من النّصوص الّتي كانت ستضيع لولا اِهتمامهم، وتخصّصوا في العمل من خلال النّتائج الأرسطيّة. عندما عاد الوميض إلى الحياة مرّة أخرى في العصور الوسطى في أوروبا، كانت هذه النّصوص العربيّة في أغلب الأحيان الأساس الّذي منح الفلاسفة مدخلاً إلى الكلاسيكيّات. وٱستمرّ البحث الفلسفيّ في بيزنطة أيضاً، حيث عانت الإمبراطوريّة الرّومانيّة الشّرقيّة من فترات من المجد والخزيّ، وصولاً إلى عام 1453 حيث اِحتلّ

العثمانيّون المدينة أخيراً. العديد من النّصوص الأفلاطونيّة والأرسطيّة الّتي ضاعت حتّى من السّعة المعرفيّة الواعية للعلماء العرب والفرس، حافظ عليها البيزنطيّون.

إنّ المشاكل الفلسفيّة، على الرّغم من صعوبة حلّها، من الصّعب أن تموت. وإحدى القضايا الّتي نجتْ لتحيّر أعظم عقول العالم القروسطيّ كانت صديقتنا القديمة، مشكلة "الكلّيّات". الفلسفة "**السّكولائيّة**"(32)، الفلسفة الّتي اِزدهرت في الجامعات الجديدة في باريس وأكسفورد وكامبريدج وأصبحت معروفة في أماكن أخرى من أوروبا، كانت أكبر بكثير من أن تهتمّ بنقاش عدد الملائكة الّذين يمكنهم الرّقص على رأس إبرة. وكانت القضايا اللّاهوتيّة جزءاً حيويّاً من العالم الفكريّ السّكولائيّ طبعاً، وعلى الرّغم من أنّ طرح سؤال عن عدد الملائكة الّذين يمكنهم الرّقص على رأس إبرة هو أسطورة لاحقة تمّ اِختراعها لإضعاف فكر الفترة القروسطيّة، فقد ناقش أعظم السّكولائيّين، مثل توما الأكوينيّ (1225 –1274)، وآخرين ما إذا كان بإمكان الملائكة أن يتّخذوا هيئة مادّيّة، وما إذا كان بإمكانهم تناول الطّعام وممارسة الجنس. على أيّ حال، الكثير من عمل السّكولائيّين لم يكن لاهوتيّاً. لقد طوّر الأكوينيّ عقيدة واضحة تميّز بين مسائل تخصّ الإيمان، حيث كانت تعاليم الكنيسة سائدة، وهناك مجالات كان فيها المنطق مناسباً بالإضافة إلى المراقبة العلميّة.

بناءً على الأرسطيّة، والمبادئ الأفلاطونيّة بدرجة أقلّ، قدّم الفلاسفة السّكولائيّون مساهمات هامّة لفروع الفلسفة كلّها، من المنطق والأخلاق إلى نظريّة المعرفة. ونعرف أنّ كلّ موقف فلسفيّ حديث تقريباً يمكن إيجاد جذور له في عمل السّكولائيّين. وكانت إحدى المشكلات الّتي اِستمرّوا بالرّجوع إليها هي مشكلة "الكلّيّات".

---

(32) "الفلسفة السّكولائيّة – scholasticism": هي مدرسة فلسفيّة سادت في أوروبا في العصور الوسطى، وكانت تستخدم منهجاً نقديّاً في التّحليل الفلسفيّ، بناءً على نموذج التّعليم المسيحيّ الّذي كان مسيطراً على التّدريس في جامعات أوروبا خلال العصور الوسطى (م).

إحدى الطّرق الّتي تمّ بها حلّ المشكلة كانت نوعاً من المزج بين الواقعيّة الأفلاطونيّة والأرسطيّة، إذ شكّلت المسيحيّة عامل الرّبط. ومثل أفلاطون، اِعتقد بوثيئوس وأوغسطين والفيلسوف الأسكتلنديّ اللّاحق دينس سكوت (1266 – 1380) أنّ الصّور، أو الأفكار العامّة، كانت كيانات حقيقيّة. وبدلاً من الاِنزلاق إلى اِعتبارها نقاط كثيفة للجمال والخير والضّخامة و"الكلبنة" الصّافية، في عالم آخر ضبابيّ غامض، تمّ اِعتبارها أفكاراً في ذهن الله. ثمّ أخذوا من أرسطو وجهة نظر مفادها أنّ هذه الأفكار تُكتشفُ باِستخلاص جوهرها من العالم المحيط بنا.

بدا حينئذٍ أنّ الواقعيّة، بهذا الشّكل المعدّل، قد اِنتصرت. لكنّ السّكولائيّين، بكونهم أكاديميّين دون أيّ شيء آخر يفعلونه، عاشوا ليجادلوا. أيّ شيء لم يُذكر بشكل واضح في الكتاب المقدّس كان جاهزاً للنّقاش والتّحليل والنّقد المدمّر. وأحد المفسدين الأشدّ تأثيراً في تاريخ الفلسفة كان الرّاهب الفرانسيسكانيّ "وليام من أوكام" (1287 – 1347)، الّذي اِبتكر أداة رائعة لوقف الكلام الفارغ.

"نصل أوكام" هو أحد تلك المصطلحات الفلسفيّة الّتي دخلت قاموس الحياة اليوميّة. ولدى معظم النّاس فكرة غامضة عن معناه. غالباً ما يستخدم بمعنى أنّه عندما يكون لديك تفسيران، وتعجز عن اِتّخاذ قرار بينهما على أسس أخرى، عليك أن تختار الأقلّ تعقيداً دوماً.

لذلك، إذا اِستيقظتُ صباحاً ووجدت أنّ قطع البسكويت المفضّلة لديّ قد اِختفت من الخزانة، والعلبة مفتوحة بطرق سيّئة، وقد تمّ اِلتهام البسكويت وبقي الفتات متناثراً على الأريكة..."

أطالب بحقّي بعدم التّجريم، أيّاً كان ذلك...

"...حيث يأخذ مونتي أشياءه الجيّدة دوماً، وهناك، مفاجأة، مفاجأة، بقعة رطبة من القيئ في الزّاوية خلف السّتارة، عندئذٍ بدلاً من الاِفتراض بأنّنا تعرّضنا

لعمليّة سطو، وقد شعر اللّصوص بالجوع قليلاً وتناولوا وجبة خفيفة، وجلسوا على الجزء الدّافئ من الأريكة، وتناولوا العلبة بأكملها ثمّ تقيّؤوا خلف السّتائر، ثمّ عدلوا عن رأيهم بشأن السّطو على منزلنا وخرجوا بهدوء من المنزل، سأقول إنّ مونتي هو المجرم".

سوف تعتقد أنّني الوحيد الّذي نشل البسكويت وتعرّض لحادث بسيط خلف السّتارة.

"برؤية الأمر من هذا المنظور، يكون أوكام مرشداً مفيداً في حالات كثيرة. ثمّة أوقات أيضاً لا يكون فيها اِختيار التّفسير الأبسط هو الخيار الصّحيح. ربّما أكون مرتدياً قبّعة ليس لحماية رأسي من البرد، بل لأنّني ثملت خلال النّهار وحاولت حلاقة شعري بِاستخدام مقصّ أظافر، حيث كنت أنوي قصّ بعض الخصلات المتناثرة حول أذني، لكنّني وجدت نفسي أتقدّم خطوات بسيطة لكنّها قاتلة نحو شعر مشوّه بشكل فظيع.

في صيغة أوكام الأصليّة، لا ترتبط فكرة النّصل أساساً بِاختيار الحلّ الأقلّ تعقيداً أو الأكثر وضوحاً للمشكلة. يجادل في مؤلّفاته أنّه في محاولة تفسير شيء مّا، "لا يجب أن تتضاعف الكيانات بما يتجاوز الضّرورة". بمعنى آخر، لا تضف تعقيدات غير ضروريّة. وإذا كنت تحاول تفسير ظاهرة، اِقطع بنصلك أيّ شيء لا حاجة لوجوده.

أخذ أوكام هذا النّهج إلى مشكلة "الكلّيّات". وعندما أجرى مسحاً على العالم. كان كلّ ما اِستطاع أن يراه مفرداً. كلاباً مفردة، أشياء زرقاء مفردة. أشياء جميلة مفردة. هذا كلّ ما ***يمكن*** رؤيته، وكلّ ما ***نحتاج*** قوله أيضاً. إنّ إضافة عناصر أخرى غامضة – الصّورة السّرمديّة للأزرق أو للكلب أو للجمال – يعقّد المسألة دون تقديم أيّة فائدة فعليّة. والاِدّعاء بأنّها مرتبطة معاً من خلال اِشتراكها بالشّبه بشيء آخر، مثل الفكرة أو الصّورة أو "الكلّيّات"، سواء أكانت موجودة في جميع

الأمثلة عن الأشياء، كما قال أرسطو، أو في عالم آخر، أو في ذهن الله، هو غير ضروريّ ويخلق التّشوّش.

لذلك إذا اِستخدمنا نصل أوكام لِاستبعاد فكرة أنّ "للكلّيّات" وجوداً حقيقيّاً، فماذا يبقى؟ الخيارات هي أنّ "الكلّيّات" عبارة عن كلمات بكلّ بساطة – من هنا جاء الِاسم الّذي أُعطي لهذه النّظريّة، "الِاسمانيّة".[33] نحن بشكل تقليديّ نطلق على عدد من الأفراد آكلة اللّحوم رباعيّة الأرجل اِسم "كلاب"، لأنّها متشابهة. وهناك مجموعة أخرى نسمّيها "قططاً". الكلمة هي مجرّد طريقة مناسبة: كلّ ما يتضمّنه العالم فعلاً هو عدد لا يُحصى من الأفراد".

حسناً، دعني أستوضح الأمر. يعني نصلُ أوكام أنّنا لا نحتاج إلى أيّ مفهوم صعب عن كلب أو أيّ شيء آخر. لدينا فقط أفراد ربّما يشابه أحدهم الآخر، لكنّ ذلك لا يفيد. لذلك يذهب فجأة إلى ذلك المصطلح – ماذا كان ذلك المصطلح – نعم، "الواقعيّة المتطرّفة" الّتي تقول إنّ الفكرة العامّة موجودة قبل الشّيء الخاصّ، وفجأة يذهب نحو "الواقعيّة الصّلبة" الّتي تقول إنّ الفكرة العامّة تسكن في الشّيء الخاصّ... لا يمكنني العيش مع ذلك. أنا متعب. هل يمكننا العودة إلى المنزل؟

"أوشكنا أن ننتهي، لكن ليس تماماً. إنّ تعرّض الواقعيّة للِانتقادات لا يعني أنّ الِاسمانيّة اِنتصرت".

هذا ما كنت أخشاه.

"ناضلت الِاسمانيّة لشرح الآليّة الّتي نستخدمها لتخصيص اِسم الكلب أو الأحمر أو الأزرق على مجموعة من الأشياء. إحدى الإجابات كانت محاولة اِستخدام نظريّة المجموعات. لنقل إنّنا طبقنا كلمة "كلب" على مجموعة معيّنة من

---

(33) الإسمانيّة أو المذهب الإسميّ "nominalism": تيّار فلسفيّ أخذ في نقد المجرّدات وادّعى أنّها ليست سوى أسماء أو ألفاظٍ جوفاء، واعتمد على المشاهدة والتّجربة (م).

الحيوانات المتشابهة. ولا ندّعي أنّ هناك رابطاً أعمق بينها سوى هذا التّشابه. ثمّ بدأنا نجمع مجموعة من هذه "الكلاب" على أساس التّشابه. وبعد فترة قصيرة، فقدنا الكلاب. يقول الإسمانيّ إنّ المجموعة هي كلّ ما نعنيه بالمصطلح العامّ "كلب". لكن هناك أيضاً شيء يشكّل مشكلة لنا. يشبه أحد أعضاء مجموعتنا باقي المجموعة بطرق كثيرة، لكنّه يختلف بطرق أخرى. إنّه بهيئة الكلب وحجمه تقريباً، لكن لديه أذنان مستدقّتان، وخطم مستدقّ".

هل لديه ذيل كثيف الشّعر؟

"نعم"

وذو لون أحمر؟

"نعم".

إنّه ثعلب، أليس كذلك!

يشعر مونتي بالحماس تجاه الثّعالب. غالباً ما يلتقط رائحتها في الطّريق فتصيبه نوبة هياج تتجلّى بالشّمّ والخربشة والنّباح. لا أفترض أنّه يستطيع أن يسبب أيّ أذى لثعلب حقيقيّ، لكنّه يعتقد أنه أسوأ كابوس يمكن أن يُصيب الثّعلب.

"ثمّة اِعتبارٌ آخر، قرّرتَ أنّه على الرّغم من التّشابه، الشّيء الأحمر ليس كلباً، وأخرجته من المجموعة. فعلى أيّ أساس قرّرتَ أن بعض السّمات المشتركة أهمّ من غيرها، سمات معيّنة تؤهّلك لتكون من فئة "كلب"؟ لا بدّ بالتّأكيد أنّ لديك فكرة عامّة، أو قالباً، عن الكلب؟ أليست هذه واقعيّة إذن؟"

أنا ضائع. الواقعيّة أمر غبيّ، والاِسمانيّة إمّا غير منطقيّة أو تتحوّل إلى واقعيّة؟ أو هل توشك أن تعطيني الخيار الثّالث؟

"هناك منافسٌ آخر على التّاج. الطّريقة الثّالثة، بين الواقعيّة والاِسمانيّة. ماذا يحدث إذا لم تكن تلك الأفكار العامّة في ذهن الله، كما اِدّعى الأفلاطونيّون

القروسطيّون، بل في أذهان البشر؟ "***المفاهيميّة*** – conceptualism" هي الاِعتقاد بأنّ "الكلّيّات" موجودة ***بوصفها مفاهيم***. والمفاهيم عبارة عن طريقة لتطبيق فكرة عامّة على أكثر من عنصر. يبدو أنّ مفهوم ***كلب*** لا يغطّيك أنت، مونتي، بالفعل، وجميع الكلاب الأخرى. يطبّق مفهوم ***أخضر*** على أوراق الأشجار والنّباتات ولون أريكتيّ المريحة. ونستطيع أن ننكر أنّ لدينا هذه المفاهيم. "أخضر" هو حقيقيّ. لكنّه ليس في الأشياء، أو في السّماء، بل في أذهاننا".

أرجوك، قل لي أنّ هذا واحد...

"أعتقد أن المفاهيم الظاهريّة ..."

أكره تلك الكلمة "ظاهريّ"".

"... جذّابة للغاية. إنّها تقبع بشكل جميل بين الواقعيّة، الّتي لا يُعتقد أنّها كافية لإلقاء الشّكّ عليها، وفكرة الاِسمانيّة المحيّرة إلى حدّ مّا، وتبدو كأنّها تنكر شيئاً نعتبره مسلّمات – ذلك ***الأزرق، والكلب والجمال***، تعني شيئاً مّا. تعيش الأفكار في رؤوسنا. أفكار عن كلب معيّن، ومونتي، وكلب عامّ، كلب. لذلك هل نستطيع أن نقبل هذه التّسوية السّعيدة؟"

أرجوك، أرجوك، أرجوك...

مع الأسف، لا.

لنفترض أنّ لديّ مفهوم ***كلب*** في ذهني، وقمت بتطبيقه على شيئين اِثنين، أنت و"كلب السّاوساغ" في الشّارع. لكنّني قرّرت أنّ بقايا الهوت دوغ[34] المتبقّي في وعاء طعامك ليس كلباً، بالمعنى ذاته. لو أنّني أطبّق المفهوم بشكل صحيح، فلا بدّ أن يعني أنّني أقول إنّ هناك *صفات* مشتركة بينك وبين "كلب السّاوساغ"، وهي مفقودة في الهوت دوغ. هذا بالضّبط ما أكّدته الواقعيّة – ظهور شيء ثالث،

(34) الإشارة هنا إلى الرّبط بين الكلب باعتباره حيوانا، واللّفظ اللّغوي للأشياء، إنّ "هوت دوغ – hot dog" تعني حرفيّاً "كلب حار"، وكلمة "السّاوساغ - sausage" تعني السّجق أو النّقانق (م).

منفصل عنك وعن الكلب الألمانيّ، تشتركان فيه. هكذا تنقلب المفاهيميّة أيضاً إلى واقعيّة".

يكاد رأسي ينفجر. كلّ شيء خاطئ. هل تريد أن تخبرني أنّه لا وجود لكلب، أنّني غير موجود؟

"أعتقد أنّ مشكلتنا هي أنّنا نحاول تطبيق إطار مفاهيميّ قائم على اللّغة على عالم أكثر تعقيداً بكثير من إمكان أن تستطيع أن تشمله كلّه بشبكة صيد. هل تتذكّر مفارقة الِاستدلال التّراكميّ؟ كم عدد حبّات الرّمل الّتي تشكّل كومة؟"

كم دفعتَ لتقبيل "هيلدا"....

"كان ما يجب أن أدفعه في الواقع. على أيّ حال، تقوم وجهة نظري على أنّ سبب ذلك هو التّناقض، لأنّ كلمة "كومة" مصطلح ***غامض***. وليس لمعناه نتائج قاطعة، مثل كلمات "حادّ" و"أصلع" و– "

التّقبيل.

"... "كلب"! إنّ هذه الكلمات كلّها غامضة بطريقة مّا أو ضبابيّة. ويزوّدنا السّياق، في معظم الحالات، بمعلومات تجعلنا نعرف ما تعنيه، على الرّغم من الضّبابيّة. سيكون هناك تشابه عائليّ (تعبير فيتغنشتاين) بين الحالات المختلفة الّتي نستخدم فيها هذه الكلمات. لذلك، ربّما تُستخدم كلمة ***"كلب"*** للإشارة إلى كلب مالطيّ لطيف، وإن كان غريب الأطوار أحياناً، وإلى كلب روتويلر كبير ليس ذكيّاً جدّاً، وإلى كلب "ساسوساغ"، وتُستخدم لنوع من "النّقانق"، وكإهانة، وكفعل، بمعنى أن تتبع خطوات شخص معيّن. ومع أنّ كلّ مثال سيكون لديه رابط مع أجزاء أخرى من العائلة، فمن المستحيل تقديم تعريف يغطّي كلّ الِاستخدامات الممكنة. التّعقيدات هنا هائلة جدّاً. يوجد تعقيد في العالم الخارجيّ، وتعقيد بذهن الإنسان الّذي يحاول فهمها، وتعقيد في اللّغة الّتي تحاول التّفاوض بين الِاثنين. وهذا شيء سوف نتحدّث عنه أكثر في مشوارنا عن

الإبستمولوجيا".

لحظة، هل تريد القول إنّ هذا المشوار كلّه بلا معنى، وأنّ فكرة الكلّيّات ضبابيّة جدّاً لدرجة أنّنا لا نستطيع الإجابة عن سؤال "ما هو الكلب؟"؟

"من جهة أولى، نعم. ومن جهة أخرى..."

ها قد بدأنا مجدّداً.

"سوف أنهي قصّتنا ونحن في طريقنا إلى المنزل. هل تريد أن أحملك؟"

أستطيع أن أتدبّر أمري. في الواقع، ربّما أفضل، شكراً...

وهكذا حملت مونتي، وضممته بذراعيّ في طريق العودة، وغمغمت في أذنيه المرنة.

"إذا كنت تسألني بشكل مباشر هل أنا ***واقعيّ*** (بشكل مفرط أو بقوّة)، أو ***مفاهيميّ*** أو ***إسمانيّ***، أستطيع أن أجيبك فعلاً. لكنّ الإجابة ستكون من خلال مثال. غالباً ما تتّضح مشاكل الفلسفة بدراسة تفصيليّة دقيقة لما يحدث في العالم فعليّاً. بالنّسبة إلى لفلاسفة القروسطيّين، كان أحد الدّوافع للاِعتقاد بحقيقة "الكلّيّات" هو أنّهم اِعتقدوا بأنّ هناك أنواعاً منفصلة من الحيوانات الّتي خلقها الله. إذا كان الله قد خلقها، فلا بدّ أنّها كانت موجودة في ذهنه كفكرة. وبالتّالي لا بدّ أن هذه الكلّيّات موجودة".

فكّر الله بداية "في الكلب"، ثمّ خلق بعض الكلاب. فهمتُ الأمر.

"جيّد. وحتّى مجيء داروين، كانت فكرة الاِنفصال بين الأنواع لا تزال حجّة قويّة لأتباع مبدأ الكلّيّات. وطبعاً، هناك دبّ أسود، ودبّ قطبيّ، ودبّ أشيب، وكلّ منها يشكّل شيئاً منفصلاً وكاملاً".

لا يبدو غير منطقيّ...

"دعني أخبرك عن طائر "نورس الرّنجة". إنّه نورس كبير مثير للإعجاب، بظهر رمادي شاحب ومنقار أصفر، والقتل واضح في عينيه. ثمّ هناك نورس أسود الظّهر، وأصغر قليلاً. يبدو مشابهاً تماماً لنورس الرّنجة، باِستثناء أنّ له – "

دعني أخمّن، ظهر أسود؟

"تماماً. إنّهما نوعان مختلفان تماماً، ولا يحدث تهجين بينهما في المملكة المتّحدة. على أيّة حال، إذا نظرت إلى توزّع النّوعين في نصف الكرة الشّمالّي، فستكتشف شيئاً غريباً تماماً. بالنّسبة إلى معظم سلالتهما لا نجد نوارس الرّنجة أو نوارس الظّهر الأسود بشكل واضح بل مراحل وسطيّة متنوّعة إلى حدّ مّا. لا يبدو أنّ هناك من هو متأكّد من عدد الأنواع الّتي يمكن أن توجد – يقول بعض علماء الطّيور إنّهما اِثنان فقط – نوارس الرّنجة، ونوارس الظّهر الأسود – ويقول بعضهم ثمانية. لكن، بشكل أساسيّ، لديك مزيج، ليس مختلطاً تماماً ولا منفصلاً تماماً".

هذا مثير للإعجاب، لكنّني لست متأكّداً تماماً من أنّني...

"أعتقد أنّ هذا يوضّح مدى عشوائيّة فئاتنا العامّة. نريد أن يكون هناك أنواع محدّدة بدقّة ومناسبة. تترك العديد من الكائنات الحيّة هذا الاِنطباع، ويحدث التّكاثر من النّوع ذاته حصراً إلى حدٍّ مّا أيضاً. لكن نظريّة التّطوّر تخبرنا أنّ الجميع تداخلوا، ويتداخلون، في ما بينهم. وسوف نستمرّ باِستخدام المصطلحات العامّة، ونفكّر في الكلّيّات، لكنّها في الحقيقة مجرّد كلمات".

رفع مونتي رأسه ولعق وجهي، تعبيراً عن شكره لي كما أعتقد.

المشوار (8)

ما الّذي أعرفه؟

بدأنا في هذا المشوار بالحديث عن الأبستمولوجيا، أو نظريّة المعرفة. كانت البداية مع الإغريق، وتطرّقنا إلى نظريّات المعرفة المختلفة الّتي طرحها فيثاغورث وأفلاطون وأرسطو، ثمّ ناقشنا الشّكّاكين، الّذين أنكروا إمكانيّة اِكتساب معرفة موثوقة عن العالم. وتابعنا مسارنا عبر أفكار العقلانيّين: ديكارت وسبينوزا وليبنيز.

"مشاوير!" ناديت من الرّواق.

إنّها زلّته المعتادة.

أتى مونتي قافزاً من المكان الّذي كان قابعاً فيه. ربّما ليس قفزاً تماماً. أيّام قفزه ولّت. لكن لا يزال بإمكانه أن يعدو بطريقة عرجاء. اِلتقط رباطه بفمه (هل تُعتبرُ هذه خدعة يا تُرى؟ إذا كان الأمر على هذا النّحو، فهذه خدعته الوحيدة...)، وحدّق فيّ، الإثارة جعلت جسده كلّه يهتزّ كوتر غيتار.

كانت المشكلة أنّه سيكون هناك خمس دقائق أخرى وأنا أحاول تحديد أشياء: المحفظة، المفاتيح، أكياس البراز، والحذاء. صرخت أسأل ما إذا كان أحد أفراد عائلتي يعرف أين هذه الأشياء. لكن ما من إجابة. باتوا يتقنون فنّ تجاهل صرخات معاناتي في حالات كهذه. تسمّيها السّيّدة "ماك جي" "نوبات أين أشيائي"، إذ يتزايد غضبي، وأصرخ، وأركل الأرض، "أين مفاتيحي؟"، "أين

محفظتي؟" وما إلى ذلك.

أخيراً وجدتها. كانت المفاتيح في المكان الّذي يُفترض أن تكون فيه (لا أتوقّع أن تكون الأشياء حيث يجب أن تكون، لذلك لا أتفحّص تلك الأمكنة حتّى أستنفد جميع الِاحتمالات الأخرى). وكانت محفظتي في جيب سترة أكادُ أُقسم أنّني لم أرتدِها منذ أشهر، لكنّني أفترضُ أنّني فعلت. وكان حذائي في الخارج، قرب المدخل الرّئيسيّ. ليس لديّ فكرة عن سبب ذلك. تفحّصت النّعال لأرى ما إذا ... لكنّها كانت نظيفة.

شعرتُ طوال الوقت بِازدياد اِنزعاج مونتي وإحباطه، إذ أطلق نحيباً خافتاً مصحوباً بنباح أن نفد صبره.

لماذا لا تعرف إطلاقاً أين تضع أشياءك؟

"ماذا؟ أوه، حسناً، المعرفة ليست واضحة إطلاقاً كما تعتقد. لقد وجدنا موضوعنا لهذا اليوم. أين تريد أن تذهب؟"

ذلك المكان مع الحيوانات...

"خيار موفّق. سنعالج اليوم نظريّة المعرفة، وربّما نحتاج إلى بعض التّسلية".

"إلى من تتحدّث؟" أتى صوت حادّ من المطبخ. على الرّغم من أنّ نبرة الصّوت كانت ضمن فئة النّبرة العاديّة، إلّا أنّ من السّهل تعديلها لتصبح نبرة توبيخ فعليّ. ولستُ بحاجة لرؤيتها لأعرف من تكون.

"لا أحد. أعني، هذا أنا. أراك لاحقاً".

"إنّه يتظاهر بالِاستماع وحسب، كما تعلم".

"من؟"

"مونتي".

نظرت أنا ومونتي أحدنا إلى الآخر، وهززنا كتفينا، وانسحبنا بهدوء.

"الموقع الّذي فيه حيوانات" كان متنزّه "غولدرز هيل". إنّه جزء من البُراح تمّ اِقتطاعه وغرسه بالأشجار، مع منطقة يلعب بها الأولاد، ومقهى مقبول، وحديقة حيوانات واسعة بشكل يثير الدّهشة. وأعتقد أنّه في عالم مترابط بشكل كامل، كان المقهى يقدّم وجبات "الكناكر" و"طيور الشّبنم شبيهة النّعامة" الّتي نَفَقَت (لأسباب طبيعيّة طبعاً)، لكنّها لم تكن على قائمة الطّعام عندما كنتُ هناك.

كان الملعب يحمي حياة الأطفال عندما كانوا صغاراً. كنت آتي بهم كلّ صباح ليتابعوا العبث بالقشور المتجمّدة على الحفرة الرّمليّة بمجارفهم البلاستيكيّة الصّغيرة. وبعد أن تتخدّر أيديهم، وتظهر آثار الدّموع على وجوههم المتّسخة، نذهب إلى المقهى ونتناول الشّوكولا السّاخنة.

كان الجانب السّلبيّ من "غولدرز هيل" هو أنّ على مونتي أن يبقى في المقدّمة، لكن تمّ تعويض ذلك بالرّوائح والأصوات الجيدة – نادراً ما تسنح الفرصة لكلب إنكليزيّ مدلّل مثله أن يشمّ رائحة خنزير الماء، أو يسمع صرير طائر "أبو منجل المقدّس".

مشينا صعوداً، ومازال مونتي يعرج قليلاً. أشفقت عليه وحملته على مدى جزء من الطّريق بينما كنت أغمره بمعطفي.

قلت له، "عليّ أن أجري لك فحوصات طبّيّة. لم يجب مونتي بأيّ شيء. هو يكره الأطبّاء البيطريّين. ولا يمكن أن تلومه فعلاً على ذلك...

وصلنا إلى المتنزّه ووجدت مقعداً يطلّ على أقفاص مليئة بطيور مائيّة غريبة. وهناك حقل صغير خلف القفص فيه غزلان تسترخي، ويعبق البخار الصّادر عن تنفّسها ككتلة ضبابيّة في الهواء البارد. جسدها أصغر مما تظنّ. تخيّلت أنّني أمتطيها كرُعاة البقر، وأدركت كم سيبدو الأمر سخيفاً عندما تصل ساقاي إلى الأرض تقريباً. ربّما يبدو المشهد قاسياً أكثر منه سخيفاً. ومن بين الغزلان كان

هناك اِثنان أو ثلاثة من "الرّيها"، وهي طيور من أمريكا الجنوبيّة، من أبناء عمومة النعامة. وبدت في ملامحها تعابير غضب أخلاقيّ نموذجيّ لنوعها من خلال العيون الواسعة والشّفاه المشدودة.

"لديها اِسم بالتّأكيد".

نظر مونتي إليّ، وقد نسي أنّ هذا كان أحد مشاويرنا الفلسفيّة.

"الإبستمولوجيا. نظريّة المعرفة. كيف يمكننا معرفة الأشياء. ما الّذي تعنيه المعرفة. ما هي نوعيّة الأشياء الّتي يمكننا معرفتها. كيف تعرف أنّك تعرف؟ كلّ ما شابه ذلك. كان دوماً أحد الاِهتمامات الأساسيّة للفلسفة. وهي توصف أحياناً بعبارة "ما قبل العمل" – تنظيف موقع العمل من النّفايات والأنقاض قبل العمل على بناء قصرك فيه. لكنّ هذا لا يعني التّقليل من أهمّيّتها. ما لم تؤسّس أساساً نظيفاً للعمل، فإنّ كلّ ما تبنيه فوقه محكوم بالاِنهيار. وهذه إحدى المجالات الّتي يوجد فيها خلاف جوهريّ حول الأساسيّات".

هذه إحدى المجالات؟ هل هناك شيء لا تختلفون عليه أنتم البشر؟

فضّلت أن أتجاهل هذه الملاحظة.

"يوجد أولئك الّذين يعتقدون أنّ الطّريق إلى المعرفة يكون عبر التّفكير البحت، مستخدمين الرّياضيّات والهندسة قالبين للمعرفة. وهم يميلون إلى أن تتمّ تسميتهم بالعقلانيّين، لأنّهم يضعون العقل أساسا. وهناك التّجريبيّون، الّذين يعتقدون أنّ الشّيء الوحيد الّذي يمكننا معرفته هو ما نتعلّمه من التّجربة، مستخدمين حواسّنا. وهناك الشّكّاكون، الّذين يعتقدون أنّ المعرفة حلم مستحيل".

ألم تخبرني أنّ ذلك كلّه بدأ مع الإغريق؟

"طبعاً".

أفلاطون؟

سأرجع إلى الخلف قليلاً، إلى أحد الفلاسفة ما قبل سقراط الّذين أشرنا إليهم في مشوار سابق، فيثاغورث. كان فيثاغورث أوّل فيلسوف يجادل بأنّ الرّياضيّات والهندسة كانتا الشّكل المثاليّ للمعرفة، وأفضل طريق لتحقيق المعرفة كان من خلال التّأمّل الحرّ، وإزالة هراء الحياة اليوميّة الّذي يؤدّي إلى التّشتّت.

طوّر الفيثاغوريون وجهة النّظر الّتي تقول إنّ الرّياضيّات تستطيع أن تقدّم حقائقها الأبديّة عن نفسها، وأنّ هذه الحقائق يمكن تطبيقها على العالم "الخارجيّ". تعلّمْ أسرار المربّعات والمثلّثات والدّوائر، وستحظى بمعرفة الواقع. لأنّ العالم مبنيّ على مبادئ هندسيّة، ومبنيّ من تلك الأشكال والأرقام المثاليّة. إنّ جميع المحاولات اللّاحقة لإعطاء الأولويّة للتّفكير المحض فوق الأشياء الشّائنة المتمثّلة في التّنقيب عن حقائق عن العالم يمكن اِقتفاء أثرها إلى فيثاغورث، على الرّغم من أنّ سبب ذلك يعود أساساً إلى الطّريقة الّتي دمج فيها أفلاطون أفكار فيثاغورث بأفكاره.

عرفت ذلك. لكن، كيف كانت وجهة نظره بذلك كلّه إذن؟

"في إحدى أهمّ حواراته، ***ثياتيتوس***، ركّز أفلاطون على سؤال ***ما المعرفة***؟ كان رفيق سقراط في الحوار هو ثياتيتوس الّتي سُمّيت المحاورة بِاسمه، الرّياضيّ الشّاب اللّامع المعروف بقباحته المشابهة لقباحة سقراط ذاته. يقول سقراط إنّ دوره في الفلسفة كدور القابِلة الّتي تساعد المرأة في الولادة، حيث يستنبط أفكار الآخرين لذلك يطلب مساعدة ثياتيتوس لهم لفهم ماهيّة المعرفة. فيقدّم ثياتيتوس قائمة بالأشياء الّتي يعتقد بأنّها معرفة – الحساب، الهندسة الفلك والنّظريّة الموسيقيّة، ومِهنٌ ومهارات معيّنة مثل صناعة الأحذية.

دعني أخمّن، يقول سقراط إنّ ثياتيتوس قد نظّم أمثلة عن المعرفة فقط، دون تعريف فعليّ لها؟

"كلب جيّد! ثمّ قام سقراط بعمله كقابِلة، ودفع الصّبيّ برفق لِاقتراح نظريّات مختلفة محتملة –"

يوافق عليها سقراط فوراً، وينتهي الحوار بالرّقص والضّحك، صحيح؟

"وهو ما رفضه سقراط. كان عليه أن يعالج أوّلاً فكرة أنّ المعرفة عبارة عن مفهوم، أي أنّ معرفة شيء لا يعني أكثر من أن ترى أو تشعر به بطريقة مّا. ونعرفُ من أمثولة الكهف لماذا يُرجّحُ عدم رضا أفلاطون عن وجهة النّظر هذه. لن يكون الإدراك إلّا من عالم الظّلال. في محاورته، ***ثياتيتوس***، بدأ هجومه بإلغاء مفهوم أنّ المعرفة هي إدارك لفكرة، وهو مفهوم يُعزى إلى فيلسوف ما قبل سقراط، بروتاغوراس، الّذي يعتبر أنّ "الإنسان مقياس الأشياء كلّها"، بمعنى آخر، إنّ المحاكمات كلّها يجب أن تبدأ بالإمكانات الذّاتيّة، "من وجهة نظري"".

هل هما الشّيء ذاته؟

"يجادل أفلاطون بأنّ أحدهما ينتج منطقيّاً من الآخر. إذا كان لكلّ منّا منظوره الفرديّ الخاصّ، والمنظور هو الأساس الوحيد للحقيقة، فيجب أن يكون لدينا جميعاً حقائقنا الفرديّة، ويضيع أيّ معيار موضوعيّ للحقيقة أو الواقع. وإذا كانت الحقيقة والمعرفة مرتبطتين بوجهة نظر فرديّة فقط، فمن المستحيل أن يكون شخص مّا مخطئاً. وإذا قلتُ إنّ السّماء خضراء، والأشجار زرقاء، فهذا صحيح بالنّسبة إليّ، بالطّريقة ذاتها الّتي أقول بها أنا أحبّ "حلوى اللّوز والسّكّر" أو "السّوشي"، ويكون هذا صحيحاً بالنّسبة إليك. وهكذا أنفق أفلاطون الكثير من الطّاقة لدحض "نظريّة بروتاغوراس". وكان مستمتعاً بذلك. إحدى محاجّاته كانت أنّه إذا كان لكلّ منّا حقيقته الخاصّة، عندئذٍ يجب أن يكون الشّخص الّذي يختلف مع بروتاغوراس على حقّ. وبالتّالي إذا كان بروتاغوراس على حقّ، فسيكون ذلك الشّخص مخطئاً!"

رائع.

"لقد وضع محاجّة مشابهة لكنّها أوسع. إذا قبلنا أنّ لدى كلّ منا حقيقته الخاصّة، فهذا يعني أنّه لا يمكن لأيّ شخص أن يكون لديه معتقدات خاطئة أو زائفة. لكن بعض النّاس يعتقدون أنّ المعتقدات الزّائفة موجودة في العالم. إذا كانوا على حقّ، فهناك معتقدات خاطئة، والمعرفة ليست ما يعتقده الآخرون. وإذا كانوا مخطئين، فهذا يعني أنّ لديهم معتقدات خاطئة، ممّا يُثبت مجدّداً أنّ المعتقدات الخاطئة موجودة.

حاول أفلاطون أيضاً إظهار أنّ العديد من تلك الأشياء الّتي يجب أن نعرفها تتجاوز الإدراك – ليست أشياء مثل الرّياضيّات البحتة الّتي يقبلها معظم النّاس نتيجة التّفكير وليس الإدراك، بل "القضايا الكبيرة" أيضاً، وطبيعة الوجود ومعناه، وما إلى ذلك. إذا أخذنا وردة، ربّما نرى ألوانها ونشمّ عبيرها. لكنّنا نرغب أيضاً في القول إنّ الرّائحة واللّون، والزّهرة بالتّأكيد، أشياء موجودة. لكن نوعيّة "الوجود" هذه شيء يتجاوز حواسّنا. ينطبق الأمر ذاته على سمات مثل التّطابق والاِختلاف. فهذه ببساطة ليست من نوع الأشياء الّتي يمكن أن نلتقطها بحواسّنا. والحجّة هنا مشابهة لتلك الّتي سنصادفها لاحقاً عندما نناقش إبستمولوجيا كانط، أي، الفكرة الّتي تقول إنّ الوجود ليس شيئاً نأخذه من العالم، بل شيء جلبناه إلى العالم.

حجّة من نوع آخر تتعلّق بهيراقليطس المسكين العجوز الملطّخ بالبراز، ووجهة نظره الّتي تقول إنّ كلّ شيء في العالم المادّي هو في حالة حركة مستمرّة. هذه الحركة تُطبّق على العالم "الخارجيّ" وعلى المراقب نفسه. لذلك، إذا كان لدينا كون من التّدفّق الصّارم الّذي لا يكون فيه المُراقِبُ ولا المُراقَب ذاتهما من لحظة إلى أخرى، فكيف يمكن أن تكون هناك معرفة بأيّ شيء؟ أنا أتغيّر، وهو يتغيّر. ما إن تعتقد أنّك فهمت شيئاً مّا حتّى يتلاشى".

لست متأكّداً أنّني مقتنع تماماً بهذه الفكرة. حسناً، ربّما كان النّهر يتغيّر، ولا تبقى تلك الغزلان واقفة مكانها، لكن هناك اِستمراريّة أيضاً. هذا المقعد الّذي

نجلس عليه، لا ينتقل من مكانه، أليس كذلك؟ وسيبقى هنا غداً...

"أثرتَ عدّة نقاط. المقعد مكوّن من ذرات. والذّرات في حالة حركة دائمة في الإتّجاهات كلّها. وهذا المقعد لن يبقى ذاته غداً –"

بففففف!

"حسناً، فهمت ملاحظتك، وهي ملاحظة أتّفق معها، وسوف أعالجها لاحقاً. لكن إذا أردت المعرفة المثاليّة الّتي يعتقد أفلاطون أنّها النّوع الوحيد الموجود، فهذا يعني أنّنا لا نستطيع إطلاقاً أن "نعرف" هذا المقعد ما لم نعرف جميع ذرّاته، وهذا مستحيل. لكن هناك النّصف الآخر من المعادلة. غداً، أنا وأنت سنكون مختلفين، والمقعد الّذي نراه الآن، سوف يختلف. دعنا نتخيّل مقعداً آخر، في متنزّه آخر. وهناك حبيبان يلتقيان عليه. وتخبره بأنّ عليهما أن يفترقا. كم أصبح هذا المقعد بالنّسبة إليه موقعاً معزولاً ومزعجاً. وفي كلّ مرّة يراه فيها مجدّداً، يكون قد تغيّر. قد يتراجع الحزن من رؤية المقعد بتأثير الزّمن. أو قد يزداد. لا أحد يدري كيف تسير الأمور. بعض الألم يتلاشى بمرور الوقت، وبعضه يزداد... لكنّ المقعد لن يبقى ذاته في كلا الحالتين.

مونتي ليس كلباً حسّاساً بطريقة مميّزة، لكنّه نظر إلى الأعلى ولعق وجهي مواسياً.

ثمّ تنحنحت وتابعت كلامي، "لذا، لا يمكن للمعرفة أن تكون مثل الإدراك. ثمّ تفحّص أفلاطون الفكرة التّالية الّتي طرحها الشّاب ثياتيتوس: المعرفة تعني الإيمان بصحّة شيء، ويكون صحيحاً في الواقع. لذا، إذا اِعتقدت أنّ لعبة المضغ المفضّلة لديك موجودة تحت الوسادة على الأريكة، وذهبت وألقيت نظرة ووجدتها موجودة هناك فعلاً، فلا بدّ أن تكون هذه معرفة، أليست معرفة؟"

كنت تبحث عن خيط تنظيف الأسنان دوماً.... لكن نعم، تبدو فكرة جيّدة. إذا اِعتقدتَ أنّ شيئاً مّا هو صحيح، وكان صحيحاً، فهذا يعني أنّك تعرف ذلك.

"على الرّغم من أنّ هذا يبدو واعداً، لكن أفلاطون، ولأنّه أفلاطون، ليس سعيداً تماماً".

يا لها من مفاجأة.

"قد يكون لدينا حالة يتمّ فيها اِستيفاء الشّرطين – الإيمان بشيء، وأن يكون صحيحاً – لكنّنا لا نرغب بأن نقول إنّ لدينا معرفة حقيقيّة. دعنا نقل إنّ صديقي اِتّصل بي، وتذمّر من أنّني لم أتّصل به منذ فترة طويلة. وأجبت أنّني لم أتّصل به لأنّني فقدت دليل الهاتف الّذي يتضمّن رقمه".

وهو ما يبدو كذباً صريحاً؟

"بالتّأكيد. بعد أن أنهى اِتّصاله، بحثت عن دليل الهاتف واِكتشفت أنّني فقدته فعلاً. وهكذا عندما أخبرت صديقي عن فقدان دليل الهاتف، صدّق أنّني فقدته، وقد فقدته في الواقع. لكن لم يكن لديّ معرفة من أيّ نوع كان، أليس كذلك؟"

يبدو هذا المثال توضيحاً لإحدى أحاديثنا السّابقة. محادثتنا عن الأخلاق.

"حسناً، هذا مثال أكثر وضوحاً. قذفت قطعة نقود في الهواء. وكنت مقتنعاً بأنّها ستستقرّ على الشّعار. لا أعرف لماذا، لكن هذا شعوري الدّاخلي وحسب. وقد اِستقرّت على الشّعار فعلاً. مرّة أخرى، لن نقول إنّ هذا الاِعتقاد، وحقيقة حدوث هذا الاِعتقاد هما معرفة، أليس كذلك؟"

لا. كانت مجرّد تخمين حالفه الحظّ.

"لذا، يقول أفلاطون إنّنا نحتاج ثلاثة أشياء: الإيمان بأنّ شيئاً هو صحيح، وصحّة هذا الاِعتقاد، والتّبرير العقلانيّ للاِعتقاد. وبالنّسبة إلى أفلاطون، النّقطة الثّالثة هي النّقطة الّتي أتت منها نظريّة الصّور، والمعرفة في نهاية المطاف هي معرفة الصّور الأبديّة الّتي لا تتغيّر. وكما قلت سابقاً، أعتقد أنّ هذا غير مقبول، وسنتخلّى عنه. لكن علينا الاِعتراف بأنّ أفلاطون ساعد على لفت الاِنتباه إلى

مشكلة المعرفة، واقترح بعض طرق معالجتها، وهو ما ساعد الفلاسفة اللّاحقين، حتّى لو كان الحلّ فيه مثالب".

أفترض أنّ التّالي هو أرسطو ...

"أصبحت تعرف أساليبي بشكل جيّد أيضاً. رأى أرسطو طرقاً متعدّدة يمكن اِتّباعها للبحث عن المعرفة. وأوّل طريقين – ***الإِستقراء والبرهنة*** – مرتبطان للغاية. تبدأ عمليّة الإِستقراء بالإدراكات الحسّيّة الّتي يؤمن بها أرسطو بشكل أساسيّ، على النّقيض من أفلاطون. يمكن تجميع هذه الإدراكات أو الملاحظات الحسّيّة لإنتاج مبادئ أكثر عموميّة – هذا ما نعنيه بالإِستقراء، طريقة الإِنتقال من ملاحظة حالات معيّنة عديدة إلى التّصريح بمبدأ عامّ. وهكذا، أنت ترى عدّة أمثلة عن بشر فانين، أي تراهم أحياء ثمّ تراهم أمواتاً، ثمّ تصل إلى اِستنتاج عامّ بأنّ جميع البشر فانون. هذا هو الإِستقراء".

هل نحن سعداء بذلك؟ يبدو كأنّه شيء سننتقده...

"كلّ شيء في أوانه. دعنا نقبل بذلك الآن. هكذا اِنتقلنا من الخاصّ إلى العامّ. تستطيع إذن أن تغذّي هذه التّعميمات، والملاحظات الأكثر خصوصيّة في بنية القياس المنطقيّ، وما ينبثق من هذه المعرفة. أنت تتذكّر القياس المنطقيّ، أليس كذلك؟"

بالتّأكيد، المقدّمة الكبرى، والمقدّمة الصّغرى، والنّتيجة. أمر سهل.

"لذا، المعرفة تساوي الملاحظة مضافاً إليها العقل. هدفها هو فهم أشياء بطريقة عامّة قدر الإمكان، وصياغة مبادئ وقوانين واسعة.

دعنا نرَ كيف تعمل. لنفترض أنّك بيولوجيّ مهتمّ بعادات توالد الحيوانات. قمت بالعديد من الملاحظات. وجمعت بعضها في قياس منطقيّ:

الثّدييّات ترضع صغارها.

الكلبة ترضع صغارها.

الكلبة من الثّدييات.

أنت سعيد بهذا، لنأخذ مثالاً آخر.

جميع الثّدييّات تتكاثر بالولادة.

خلد الماء يضع البيض

خلد الماء ليس من الثّدييّات.

ثمّ تقوم بالمزيد من المراقبة وتدرك أنّ لخلد الماء قواسم مشتركة مع الثّدييّات أكثر ممّا لديه مع الزّواحف أو الطّيور، وبالتّالي يجب أن يكون من الثّدييّات. وهكذا تعيد صياغة قياسك المنطقيّ.

خلد الماء يضع البيض.

خلد الماء من الثّدييّات.

ليست جميع الثّدييّات تتكاثر بالولادة.

وهذا ***إثبات***. أنت تعيد ترتيب ما عرفته من الملاحظة، لتشكّل اِدّعاء جديداً وعاماً عن العالم.

كثر منافسو النّظام الأرسطيّ، وخسر في التّصويت الشّعبيّ أمام الأبيقوريّين والرّواقيّين؛ لكنّه قاوم لاحقاً وأصبحت طريقته هي الطّريقة المهيمنة للتّفكير بالمعرفة في القرون الوسطى، وحتّى فجر العالم الحديث في القرن السّادس عشر. أنت تبدأ بمبادئ أوليّة موثوقة مستمدّة من المراقبة، وتطبّق عمليّة قياس منطقيّ مناسبة عليها، وتصل إلى معرفة حقائق عالميّة.

رأى أرسطو أنّ بإمكاننا الوصول إلى المعرفة بأسلوبين آخرين غير البرهنة والاِستقراء، مع أنّ من الممكن النّظر إليهما على أنّهما إضافة إلى الأسلوبين

السّابقين. الأوّل هو الأسلوب "*الجدليّ*" - ويقصد به مناقشة القضايا المطروحة مع أشخاص عارفين".

مثلك ومثلي تقريباً...

"مثلك ومثلي. تظهر الحقيقة من خلال "الأخذ والردّ" في النّقاش. مع أنّ أرسطو لم يكن مؤيّداً للدّيمقراطيّة، كان في الواقع أوّل شخص تحدّث عن حكمة المجموع، الفكرة الّتي تقول إنّه كلّما اِزداد عدد المشاركين في اِتّخاذ قرار معيّن، كان أفضل.

أخيراً، هناك الأسلوب "الأبوري"[35] الّذي يركّز على مشاكل في نظريّات موجودة. حيثما كانت هناك مشكلة أو تناقض، أو فجوة حرجة في معرفتنا – "أبوريّا" – تكون بمثابة علامة إرشاديّة. إنّها تخبرنا بدقّة أنّ هذا الموقع يحتاج إلى تركيز اِنتباهنا.

حثّ هذان الأسلوبان مجالين من مجالات العلم الحديث الرّئيسة. الدّيالكتيك هو ببساطة عمليّة مراجعة القرائن العلميّة[36] – الطّريقة الّتي يعمل العلم من خلال نشر نتائج تجارب أو نظريّات جديدة تتمّ مناقشتها بحرّيّة في المجتمعات العلميّة. كلّما تمّت مناقشة القضيّة بمزيد من الاِتّساع والحرّيّة، كانت فرصة ظهور الحقيقة أفضل. والفكرة الّتي تقول إنّ النّظريّات الجديدة لا تظهر إلّا لأنّ النّظريّات الموجودة بدأت تفشل هي فكرة أساسيّة للتّفكير المعاصر في مواضيع الفلسفة والعلم – وهو أمر سنبحثه في مشوار قادم.

كلمة أخيرة أو كلمتين عمّا تعنيه المعرفة بالنّسبة إلى أرسطو، والتّقليد السّكولائيّ الكامل الّذي أعقبه. لكي تفهم أمراً ما بشكل حقيقيّ، أنت بحاجة

---

(35) تتّخذ كلمة "أبوريا – aporia" معانيَ حرفيّة مثل (طريق مسدود، صعوبة في المرور، حيرة)، وتعني في الفلسفة الرّيبة (م).

(36) عمليّة مراجعة القرائن العلميّة: (يشار إليها أحياناً بالتّحكيم) وهي عمليّة نقد الأعمال العلميّة لمؤلّف مّا أو أبحاثه أو أفكاره من قِبَلِ خبير نظير له يحمل مؤهّلات معادلة لمؤهّلاته أو أعلى منها (م).

لمعرفة **سبب حدوثه**. وبالنّسبة إلى أرسطو، كان هذا الإِحتمال معقّداً أكثر ممّا يبدو بالنّسبة لنا. وقد حدّد أربعة نماذج للعلل: المادّيّة، الصّوريّة، الفاعليّة والغائيّة. العلل ***المادّيّة*** هي العلل الّتي يُصنع منها الشّيء، أي ***المادّة***. لذلك فإنّ العلل المادّيّة لتكوينك أنت يا مونتي هي الدّم والعظام والعضلات وجميع الخلايا الأخرى في جسدك. أمر بسيط. والعلل ***الصّوريّة*** هي الطّريقة الّتي تمّ ترتيب المادّة بها. وهي تعني بالنّسبة إليك يا مونتي، كيفيّة ترتيب تلك الخلايا لإبداع كلب صغير لطيف. والعلّة الفاعلة هي ما نعتقد فعلاً أنّه السّبب – السّبب الّذي أدّى إلى وجوده. والعلّة الفاعلة بالنّسبة لك يا مونتي هو والدك ووالدتك".

من؟ كيف يمكن أن يكونا هما...؟

أها، لم نجرِ تلك المحادثة، هل أجرينا...؟ لنتابع الآن، العلّة ***الغائيّة*** هي الغاية أو الهدف من شيء معيّن. لكن من الصّعب أن نربط هذه العلّة بالكلّ. ربّما كانت العلّة الغائيّة لوجودك هو أن تكون أفضل صديق لي".

عووووو

"ربّما يساعدنا مثال أبسط من ذلك. خذ منضدة مثلاً (أحد أمثلة أرسطو). العلّة المادّيّة هي الخشب، والعلّة الصّوريّة هي شكل المنضدة وبنيتها، والعلّة الفعّالة هي النّجار الّذي صنعها، والعلّة الغائيّة هي أنّني أستطيع اِستخدامها لأتناول طعام العشاء. أن تعرف المنضدة يعني معرفة هذه الأشياء كلّها. هل فهمت؟

واضح.

"لذلك نرى أنّ المعرفة بالنّسبة لأرسطو، وللتّقليد السّكولائيّ في القرون الوسطى، معقّدة بشكل مقبول، لكن من الممكن تحقيقها أيضاً. ومع الملاحظة والمنطق والإِستقراء والجدل، يمكن معرفة سبب الأشياء، وهذه هي المعرفة".

يبدو هذا جيّداً، هل أنهينا؟

"لا، حتّى أنّنا لم نقترب من الاِنتهاء. كان هناك دوماً أولئك المفكّرون الّذين شكّكوا بإمكان المعرفة تحديداً. تحدثنا في مشوار سابق عن معظم المدارس الفلسفيّة القديمة لكنّنا لم نتحدّث عن أفضلها بالنّسبة إلي، إنّهم الشّكّاكون. ربّما جاء الشّكّاكون القدماء بنكهات مختلفة، لكنّ الجميع تقريباً كانوا يعملون على تحقيق هدف واحد: حالة الهدوء والطّمأنينة النّاجمة عن تعليق متعمّد لإصدار حكم على القضايا كلّها. السّعادة *لم تكن* شيئاً يمكن معرفته. أو بالأحرى، ليست شيئاً يُتّخذ به قرار.

نظر العديد من الشّكّاكين إلى سقراط باِعتباره سلفهم الفكريّ – سقراط الحوارات الأولى الّذي أثار غضب كلّ شخص تحدث إليه بفضح الحالة البالية لمنطقه. وعلى أيّة حال، أوّل شكّاك حقيقيّ مقبول بشكل عامّ هو "بيرو إيليس" (360– 270 ق. م) – وُلِدَ بعد وفاة سقراط بأربعين عاما تقريباً). كان أحد الفلاسفة السّاخرين البعيدين عن الواقع، والّذين يستخدمون التّقليد أو المحاكاة للسّخريّة. لقد تمرّس بطرق الشّكّ لدرجة رفض حتّى الأدلّة الواضحة لحواسّه، ممّا دفعه للسّير بلامبالاة نحو منحدرات وطرق مزدحمة. ولم ينقذه من السّقوط عن جرف صخريّ، أو الوقوع تحت عجلات ثور يجرّ عربة، إلّا تدخّل تلاميذه.

نصّب بيرو والشّكّاكون الآخرون أنفسهم في مواجهة فلسفات مختلفة اِدّعت أنّها وجدت المعرفة في ذلك العصر – المقصود هنا أتباع أرسطو وأفلاطون طبعاً، لكنّهم كانوا معارضين أكثر للرّواقيّين. وكما رأينا سابقاً، كان الرّواقيّون ماديّين يؤمنون بأنّه لا وجود لشيء سوى المادّة. ومن الممكن فهم المادّة من خلال الحواسّ. ومع أنّ الحواسّ تخطئ أحياناً، إلّا أنّ بعض التّصوّرات كانت قويّة جدّاً وواضحة وحيويّة لدرجة يستوعبها العقل بشكل آمن. أطلقوا على هذه الأشياء اِسم ***الاِنطباعات المعرفيّة***، وزوّدت الرّواقيّ بأساس آمن للمعرفة.

لم يكن للشّكّاكين أيّ من هذه الأشياء. بل طوّروا نوعاً من الأدوات اللّازمة

لتفكيك الحجج الفلسفيّة للدّوغمائيّين[37] –"

الدّوغمائيّين؟ تُعجبني نبرة الصّوت هذه.

"مع الأسف، ليس للدّوغمائيّة أيّة علاقة بالكلاب أكثر من أن تكون الكارثة شيئاً سيّئاً حدث لقطّة. وقد أتى هذا المصطلح من الكلمة الإغريقيّة "دوغما-dogma"، وهي تعني الشّيء الّذي تعتبره صحيحاً. والدّوغمائيّ من وجهة نظر الشّكّاكين هو أيّ شخص مندفع للغاية بحيث يحمل معتقداً راسخاً عن أيّ شيء تقريباً. وانقسمت مجموعة أدوات الشّكّاكين إلى عدّة "أساليب". الفكرة هي أنّه متى صادفت أيّ شخص يتّخذ موقفاً دوغمائيّاً في المناقشة، اِجعل حججه تمرّ بين يدي حطّاب (أي العمل على تفنيد فكرته). كيّفت بعض الأساليب حججاً من النّسبيّة، وكانت تميل إلى تقويض الإيمان بموثوقيّة أدلّة الحواسّ. ومن هنا، فقد نجد رائحة عطر معيّن جذّابة جدّاً، لكن خنافس الرّوث تجدها منفّرة (وعثّ الرّوث طبعاً). وقد يجد الرّجل المُعافى صحيّاً العسل حلواً، لكن المصاب باليرقان يجده لاذعاً. ثمّة العديد من الثّقافات الّتي تمارس ما نعتبره شرّاً (أو خيراً) في حين كان يُعتبر في أزمنة أخرى وأوقات أخرى خيراً (أو شرّاً). والمهمّ أنّه إذا تعمّقت في البحث بشكل جيّد، فلن تجد اِقتراحاً بسيطاً واحداً لا يمكن مقابلته بنظيره أو نقيضه.

أظهرت أساليب أخرى كيف تزعزع محاجّات خصمك. لنفترض أنّنا تدبّرنا أمرنا لنُظهِر لخصمك الدّوغمائيّ أنّ هناك وجهات نظر محتملة مختلفة حول قضيّة معينة. كيف نسوّي الأمر عندئذٍ؟ لدى الدّوغمائيّ خيارات عديدة (وأيّ شخص لديه عائلة سيواجه هذه التّنوّع...). يمكنه ببساطة أن يزيد عناده ويصرّ على أنّه على حقّ، وهذا ليس حجّة على الإطلاق، ويكافئ اِعترافاً بالهزيمة؛ أو يمكنه أن يقدّم مبرّرات. وإذا قدّم مبرّرات، فيمكن للشّكّاك أن يعترض على هذه المبرّرات

(37) "الدّوغما – dogma" هي حالة من الجمود الفكريّ والتّعصّب الشّديد للأفكار والمبادئ والقناعات، لدرجة معاداة كلّ ما يختلف عنها، ورفض قبول كلّ ما قد ينقضها (م).

أيضاً. وإذا تمّ تقديم مبرّرات أخرى لدعم الأولى، سيكون الشّكّاك قادراً أيضاً على إيجاد حجج مقابلة. وهكذا نكون في حالة تراجع لا نهاية لها، ولا يمكن العودة إلى الوضع الأصليّ إطلاقاً".

مرّة أخرى يمكن لمثال واضح أن يساعد...

"جيّد. أنا أقول إنّ البشر أفضل من الكلاب. وتجيب أنت بأنّ بعض البشر لديهم وجهات نظر مختلفة، ويعتبرون الكلاب أفضل من البشر. وهنا أستطيع أنا إمّا العودة إلى الموقع الأصليّ وأجيب على الِاعتراض بعبارة "نعم، هناك وجهات نظر مختلفة"، أو ألجأ إلى تقديم مبرّر وأقول، من الواضح أنّ البشر أكثر ذكاءً من الكلاب، وصفة الأكثر ذكاء مكافئة تماماً لصفة أفضل. ويمكنك إمّا أن تعترض على ذلك وتجادل بفكرة أنّ الكلاب تجعل البشر يطعمونها ويلتقطون برازها بأكياس يحملونها، مما يعني أنّ الكلاب أكثر ذكاء؛ أو تقول إنّني لجأت لعمليّة اِستبدال بالصّفات – "الذّكاء" مقابل "الأفضل". من قال إنّ "الأكثر ذكاء" يعني "الأفضل"؟ وفي كلتا الحالتين، أيّاً كان ما قلته أنا لدعم هدفي يمكن أن يكون تحدّياً، وسنصل إلى حالة التّراجع اللّانهائيّ تلك.

الإمكان الأخر هو أنّه، لتجنّب التّراجع اللّانهائيّ، سوف أجد نفسي أجادل ضمن حلقة. وبالتّالي سأقول إنّ البشر أفضل من الكلاب. وسوف تطالب بدليل. وسأقول إنّ البشر أكثر ذكاء. وستسأل كيف يمكنني إثبات ذلك، وسأقول لأنّهم أفضل. وهكذا نكون قد اِنتهينا إلى حيث بدأنا. أو في المثال الّذي يستخدمه الشّكّاكون فعلاً: ***الله خلق العالم***. كيف تعرف ذلك؟ ***لأنّ هذا هو العالم الّذي خلقه***. كيف تعرف أنّ الله هو من خلقه؟ ***لأنه مثاليّ***. وكيف تعرف أنّه مثاليّ؟ ***لأن الله خلقه، وكلّ ما يخلقه الله يكون مثاليّاً***.

للشّكّاكين حجّة أخرى أودّ الإشارة إليها. وهي مُعضِلة فلسفيّة بالنّسبة لك. تسمّى مشكلة الخلق، ولا تزال عصيّة على الفهم. وغالباً ما يتمّ صوغها وفقاً

للسّؤالين التّاليين:

1. ما الّذي نعرفه؟ (أو ما هو ***مدى*** معرفتنا؟)

2. كيف نعرف؟ (أو ما هو معيار المعرفة؟)

المشكلة هي أنّه للإجابة على السّؤال الأوّل، أي، ما هي الأشياء الّتي نعرفها، نحتاج إلى الإجابة على السّؤال الثّاني، أي، ما الّذي يُعتبر معرفة. لكن للإجابة على السّؤال الثّاني، نحتاج إلى أمثلة من السّؤال الأوّل".

نظر مونتي إلى الأعلى وهو على ركبتي، وتغضّن وجهه الصّغير تعبيراً عن الحيرة.

"تريد مثالاً طبعاً. حسناً:

1. ما هي أفضل سلالات الكلاب؟

2. على أيّ معيار تقرّر أنّ سلالة كلاب معيّنة هي الأفضل؟

للإجابة على السّؤال الأوّل، وتحديد أفضل سلالات الكلاب، يبدو أنّنا نحتاج إلى نظريّة، أو معيار لما يُعتبر الأفضل. لذلك نحتاج أن نجيب على السّؤال الثّاني. لكن الإجابة على السّؤال الثّاني، أي، وضع نظريّة عن أفضل الكلاب، ألّا تجعلنا بحاجة إلى أمثلة عن أفضل الكلاب لنؤسّس خيارنا وفقها؟ وهذا لا يتعلّق بالكلاب فقط. ربّما نحاول أن نتّخذ قراراً بشأن أعظم رواية صدرت يوماً. لِاتّخاذ قرار بشأن ذلك، تحتاج إلى نظريّة تتعلّق بعظمة الأدب. لكن كيف تصل إلى نظريّة كهذه دون أن يكون لديك روايات عظيمة تؤسّس معيارك وفقاً لها؟ وبالتّالي كيف تحدّد تلك الرّوايات العظيمة لتؤسّس نظريّتك عليها؟ نحن ندور في حلقة.

لا تتركني عالقاً هكذا – هناك إجابة، صحيح؟

"هناك أنصاف إجابات، لكن ما من أحد ربط بينها. تتضمّن الإجابة تقدّماً

بطيئاً إلى الأمام وتقديم بعض الإجابات المؤقّتة على كلّ سؤال، ومراجعتها بِاستمرار، حتّى نصبح مكتفين إلى حدّ مّا. لكنّ هدفي هنا كان مجرّد التّوضيح أنّ هذه إحدى الإِستراتيجيّات الّتي اِعتمدها الشّكّاكون لدحض إيماننا بالمعرفة".

وقلتَ إنّ سقراط كان مزعجاً. هؤلاء الأشخاص...

"فهمت ما تقصد. لكن أودّ العودة إلى الموقع الّذي بدأنا منه. لم يكن الشّكّاكون القدماء يهدفون إلى الإزعاج والإحباط. كانوا يحاولون جلب السّلام والرّاحة. إذا كان بالإمكان النّقاش حول جميع النّزاعات بالتّساوي من كلا الجانبين، فعندئذٍ لا جدوى من إثارتها أو الحديث عنها. خذ نفساً عميقاً وآسترخِ. اِستمتع بالمناقشة بكافّة الوسائل، لكن تذكّرْ أنّه لا شيء يحرّضها في نهاية المطاف. إنّ بلوغ حالة الهدوء هذه – حالة "الأتاراكسيا" بالمصطلح الإغريقي، تُترجم أيضاً بأنّها اِتزان أو رصانة. الأشياء الّتي تعتبرها جيّدة ربّما يتبيّن أنّها سيّئة. والأشياء السّيّئة ربّما تكون الأفضل. لا يمكننا أن نعرف. لقد واجهَ بيرو عواصف البحر بنوع من "الأتاراكسيا"، بينما أصيب كلّ من حوله بالذّعر. وعلى الرّغم من أنّه صرخ مرّة من عضّة كلب هاجمه، أجاب بأنّه على الرّغم من أنّه "لم يكن من السّهل تجريد المرء من الضّعف البشريّ بشكل كامل، على المرء أن يجاهد بكلّ قوّته ضدّ حقائق معيّنة، بالأفعال إن أمكن، أو بالأقوال"".

ربّما أزعجَ الكلب ورفضَ تقديم عظمة له أو شيء من هذا القبيل.

"لم يُذكر سبب الهجوم مع الأسف. وعلى الرّغم من اِستبعاد شكّ الشّكّاكين على يد الرّواقيّين أوّلاً، ثمّ على يد الأرسطيّين، إلّا الشّعور بتأثيرهم عاد مرّة أخرى مع إعادة اِكتشاف نصوصهم في القرن السّادس عشر. ساعد كاتب المقالات الأدبيّة "مونتين" (1533-1592) على إعادة ولادة مذهب الشّكّ متأثّراً جزئيّاً بِانتهاء النّزاعات الدّينيّة الّتي مزّقت فرنسا خلال حياته. ومع مواجهة

المتعصّبين المصلحين البروتستانت، والمتشدّدين الكاثوليك الرّاسخين، وجد العزاء في التّعاليم المتشكّكة القديمة المرتبطة بحجب إصدار الأحكام والإِرتقاء فوق الجدل، والقبول بأنّنا لن نستطيع أن نكون واثقين من الحقيقة إطلاقاً لكي نسفك الدّماء من أجلها. وكان لدى "مونتين" ميداليّة منقوش على جانب منها كلمة "Epecho"، الكلمة الإغريقيّة الّتي تعني "أنا أمتنع"، وعلى الجانب الآخر عبارة "Que sais-je؟" الّتي تعني "ما الّذي أعرفه؟"

كانت نسخة الشّكّ القديمة الّتي اِعتنقها مونتين تركّز كلّها على اِستخدام اِحتمالات الشّكّ لمساعدة الشّكّاك على إيجاد طريقه لحالة هدوء مقبولة. لكن صديقنا القديم "رينيه ديكارت" (1596 – 1650) الّذي عذّب الكلب، اِستخدم الشّكّ الأصيل المُربك بطريقة مختلفة تماماً. وكان التّساؤل عن كلّ شيء بالنّسبة إليه وسيلة لإبعاد الأعشاب والشّجيرات المتشابكة الّتي تحجب الطّريق إلى الحقيقة.

هل قلت، الّذي عذّب الكلب...؟

"يبدو أنّك لم تكن تسمعني عندما تحدثت عن ذلك. إنّها... ربّما من الأفضل تجاوز هذه الحلقة كلّها... لذلك، كان ديكارت أحد عباقرة التّاريخ العظماء، حيث أنّه لم يتفوّق في الفلسفة فقط، بل في الرّياضيّات والعلوم. لقد اِبتكر الهندسة المستوية – فكرة وضع مخطّط لفضاء ثنائيّ الأبعاد يتّخذ المسارين "X" و"Y" – وبدأ عمليّة تعديل وجهات نظر أرسطو القديمة العلميّة والكونيّة الّتي بلغت ذروتها في الفيزياء النّيوتونيّة. لذلك من السّخريّة بمكان أنّ شخصاً على هذا المستوى من المعلومات، وطوّر المعرفة في العديد من المجالات، بدأ بالتّشكيك بكلّ شيء".

كلّ شيء؟

"كلّ شيء. بدأ ديكارت بالتّشكيك بما يأتيه من حواسّه. وكان هدفه كامل

نظام المعرفة الّذي طوّره أرسطو. وكما رأينا، يحتاج القياس المنطقيّ للمعرفة إلى مقدّمات صحيحة، وتفترضُ المقدّمات الصّحيحة أنّ بإمكاننا الِإعتماد على دقّة تصوّراتنا. لكن مع ذلك، عندما ننظر إلى برج من منطقة بعيدة نراه صغيراً، ومع الِإقتراب منه يصبح كبيراً! (لم أقتنع إطلاقاً بهذا – تفترض قوانين المنظور أنّ الحواسّ تنقل لنا الحالة الحقيقيّة للعالم بدقّة – ويجب في الواقع أن تزداد شكوكنا أكثر إذا بدا البرج كبيراً من بعيد، وصغيراً مع الِإقتراب منه). ينظر ديكارت ويرى أنّه جالس في غرفة يتدفّأ بالنّار، ويتدثّر بملابسه. أليست هذه حالة مؤكّدة؟ يمكن أن يشعر بدفء النّار، ويشعر بملابسه، ويرى السّقف والجدران. لكنّه حلمَ قبل ذلك بأنّه كان في الأعلى خارج هذا العالم بينما كان عارياً في سريره في الواقع. يتخيّل النّاس المضطربون عقليّاً أنّهم يرون أشياء غير موجودة في الواقع. وراودتنا جميعاً أحلام كنّا نطير فيها أو وجدنا أنفسنا نتحدّث أمام مستمعين عراة تماماً".

نعم، لكنّنا نعرف عادة، أليس كذلك؟ عندما أطارد أرنباً في أحلامي، حالما أوشك أن ألتقطه يقفز في الهواء ويحلّق بعيداً. هنا أدرك تماماً أنّه ليس أرنباً حقيقياً...

"طبعاً، نستطيع عادة أن نفرّق بين الأحلام واليقظة. لكن هل يمكننا أن نعرف دوماً؟ وإذا صادف أنّنا لا نعرف، أو أصابنا شيء من التّشوّش، كيف لنا أن نثق تماماً في الواقع المادّي لشجرة أو كلب أو لعبة نراها أمامنا؟ صمّم ديكارت على رفض كلّ شيء لا يعرفه بيقين مطلق، ووجود اِحتمال أن يكون مجنوناً أو حالماً. مهما كان هذا الِاحتمال بعيداً، يعني أنّه لا يستطيع أن يضع ثقته كلّها في حواسّه. وهذا ما يشجّعه على الخروج.

لكن ماذا عن المعرفة في الرّياضيّات أو الهندسة؟ لم تعتمد معادلة "إثنان وإثنان يساوي أربعة" على حواسّ يسهل خداعها، أليس كذلك؟ للمثلّث دوماً ثلاثة أضلاع. هذه الأشياء لا تعتمد على الحواسّ بل على حقائق تحليليّة حدّدتها

تعاريف المصطلحات".

لا شكّ في ذلك، صحيح؟

"لكن ألا يمكن أن يكون هناك شيطان شرّير زرع هذه الأفكار الخاطئة في رأسي؟ كيف لي أن أعرف أنّني لست دماغاً في جرّة، أتغذّى من ينبوع كلام فارغ؟ يمكن لهذا الشّيطان أن يشوّشني ويُربكني متى بدأت أُحصي أضلاع مثلّثي، ويجعلني أعتقد أنّها ثلاثة، بينما هي في الحقيقة ثمانية. مرّة أخرى، لا يعني الأمر أنّ ديكارت يقول إنّ هذه الخدع محتملة، لكنّه يقول إنّ من المستحيل بالنّسبة إلينا اِستبعادها بشكل نهائيّ.

يمثّل شكّ ديكارت الأصيل تحدّياً حقيقيّاً. كان هدفه أن يبيّن أنّ كلّ ما نعتبره من المسلّمات تقريباً لم يقم على أساسٍ صلب بل على مستنقعات هشّة وخادعة. وبالنّسبة إلى الشّكّاكين القدماء، كان هذا هو الموقع الّذي أرادوا أن يكونوا فيه. إذ قالوا: كن مسؤولاً، نحن لا نستطيع أن نعرف، لذلك تابع حياتك الممتعة دون معرفة.

لكن ريبة ديكارت كانت مجرّد خطوة أولى وليست أخيرة. لقد نزل بنا إلى أعماق الشّكّ، ويرفعنا الآن إلى الأعلى مجدّداً، إلى ضوء المعرفة المؤكدة".

ماذا!

الموقع الّذي رآه ساطعاً لم يكن موجوداً في علم الإدراك المتغيّر واللّايقيني، بل في الفكر البحت. يمكننا الشّكّ في كلّ شيء، باِستثناء أنّنا نشكّ. لأنّ الشّكّ بأنّنا نشكّك يبقى شكّاً. أن تشكّ يعني أن تفكّر. حتّى لو كنت تفكّر في شيء مّا غير صحيح، فأنت تفكّر. والأفكار لا يمكن أن توجد بشكل مستقلّ: لا بدّ من وجود ذلك الشّيء الّذي يفكّر. وهذا الشّيء هو أنا. "Cogito ergo sum". أنا

وردي إذاً أنا "spam""[38].

ماذا؟

"تحقّق وحسب. "Cogito ergo sum". وهي تعني "أنا أفكّر إذاً أنا موجود"".

أفضل. ما هو "spam"، على أيّة حال؟

"إنّه، حسناً، هو ما اِعتدنا تناوله قبل أن يكون هناك طعام. وبالتّالي، العقل هو الشّيء الوحيد المؤكّد، هو مؤكّد أكثر من وجود العالم الخارجيّ، وأكثر من المادّة. وهذا يقدّم أحد العناصر الأساسيّة في فكر ديكارت – فكرة أنّ العقل والمادّة شيئان مختلفان تماماً. وهو ما سيخلق له المشاكل كما سنرى. أمّا الآن، فقد أظهر أنّ جوهره هو عبارة عن فكر: هو الشّيء الّذي يفكّر.

لكن العمل على إعادة البناء لم ينتهِ بعد. أثبت ديكارت وجوده الخاصّ، لكنّه أراد المزيد. ويتساءل، ما هو الموجود في "أنا أفكّر"، وصدمه بأنّه حقيقة؟ إذا اِستطاع أن يعرّف هذه "الحالة"، فعندئذٍ يستطيع البحث عن أفكار أخرى لديها السّمة ذاتها. اِستنتج أنّ ما يميّز "أنا أفكّر" هو أنّها ***واضحة ومتمايزة***. هذا هو المِحكّ إذاً – إذا اِستطاع العثور على أفكار واضحة ومتمايزة بالطّريقة ذاتها. فسوف تكون حقيقيّة أيضاً.

ما يثير الدّهشة أنّ إحدى الأفكار المناسبة لهذه الحالة كانت فكرة الله الّتي وجدها مكتملة التّكوين في عقله. من أين أتت فكرة الله إلى عقله؟ كانت الإحتمالات إمّا أنّه اِبتكرها بنفسه، أو أتت من الخارج بطريقة مّا من خلال الحواسّ، أو أنّها فطريّة. بالنّسبة إلى الخيار الأوّل، إنّ فكرة الله هي عن كيان مثاليّ لا حدود لحجمه ولا لقوّته. والأفكار عن شيء مثاليّ لا محدود لا يمكن أن

(38) المقصود هنا صوغ عبارة مشابهة لعبارة "أنا أفكّر إذن أنا موجود" تتضمّن نوعاً من المزاح. والعبارة الّتي قالها "أنا ورديّ اللّون إذا أنا لحم معلّب"(م).

يتصوّرها كيان غير مثاليّ ومحدود، لأنّ فكرة كهذه يجب أن تنشأ عن مكافئ لها (هذا مفهوم أرسطيّ قديم – لا يمكن القيام بحركة إلّا بتأثير حركة، ولا يمكن التّأثير بالحرارة إلّا من خلال حرارة، وما إلى ذلك)، ومن الواضح جدّاً أنّ البشر ليسوا مثاليّين. وبالتّالي لا يمكن أن يكون الله اِبتكاراً بشرياً. ولا يمكن أيضاً أن تكون فكرة الله أتت من حواسّي، لأنّنا أكّدنا منذ قليل أن كلّ أنواع المعرفة الّتي تأتي من الحواسّ يمكن الشّكّ فيها.

هذا لا يترك سوى اِحتمال واحد هو أنّ فكرة الله فطريّة في داخلي، وهو الّذي غرسها في عقلي مع ولادتي (أو أثناء الحمل). هذه هي "حجّة البصمة الخاصّة" لديكارت على وجود الله – وتمّ إطلاق هذا الِاسم عليها لأنّها تبدو كأنّ الله ترك علامته التّجاريّة في أذهاننا لكي نعرف أنّه موجود.

بعد أن أثبتنا وجود الله –"

هل أثبتنا؟

"هلوسَ ديكارت بحجج أخرى مختلفة عن الله أقنعته هو والعديد من النّاس في ذلك الزّمن، لكن ذلك لم يُقنع الكثير من النّاس أيضاً. دعنا نفترض أنّ ديكارت أقنع نفسه بوجود الله. لكن كلّ ما تبقى من شكوكه باءت بالفشل. يتّخذ الله موقع الشّيطان الشّرّير ويضمن صحّة تصوّراتنا واِستقراءاتنا عن الرّياضيّات والهندسة بدل أن يقوّضها. يسعده أن يؤكّد أنّ عالم الأجساد المادّيّ – يُعرّف بأنّ لديه اِمتداداً – يسبّب أفكاراً في العقل، وهي تمثيل دقيق للعالم الخارجيّ. كلّ شيء على ما يرام. تمّت هزيمة الشّكّ! لدينا أسسنا المتينة. نحن نعرف!"

يبدو الأمر برمّته سهلاً جدّاً...

"إنّه كذلك، تأثّر معظم الفلاسفة الجدد بالنّصف الشّكّي من المعادلة أكثر ممّا تأثّروا بالصّرح الإيجابيّ المبنيّ عليها. واستقرت أسس ديكارت اللّاشكّيّة على

الله، وكان بالإمكان تفكيك حججه الإيجابيّة، وتمّ تفكيكها. تبنّى "جون لوك" مساراً واحداً هو أنّه ليس صحيحاً أنّنا جميعاً لدينا فكرة فطريّة عن الله. ويعتقد أنّه ليس لديه أيّة معلومات فطريّة من أي نوع كان – كما سنرى قريباً – ولا فكرة عن الله بالتّأكيد. ثمّة قبائل وثقافات ليس لديها مفهوم الإله، ولدى الآخرين أفكار مختلفة عن الألوهة لا تتضمّن صفات المثاليّة واللّامحدوديّة. إذا كان العقل غير المثاليّ لا يستطيع أن يصوغ فكرة عن كائن مثاليّ، ألا يصحّ بالطّريقة أنّ العقل غير المثاليّ لا يستطيع أن يفهم فكرة كهذه، حتّى لو غرسها في عقولنا كائن مثاليّ؟

دون عون الله وقدرته، لا يوجد في إبستمولوجيا ديكارت أيّ شيء يجعله يهرب من الشّكوك الّتي أثارها بشكل مقنع.

كان الإرث الأقوى لفكر ديكارت الفلسفيّ هو الأهمّيّة الّتي أولاها للعقل المحض بِاعتباره الطّريق إلى الحقيقة (واليقين الممكن). والسّمات الّتي تحدّد "فكرة صحيحة" كفكرة وجود عقله الخاصّ، أو فكرة وجود الله، هي أنّها يجب أن تكون واضحة ومتمايزة. والحالات البراغماتيّة عن أفكار واضحة ومتمايزة هي تلك الّتي المرتبطة بالرّياضيّات والهندسة، لذلك أصبح يُنظر إليها على أنّها نموذج للحقيقة، ووسيلة للوصول إلى الحقيقة. وقد عزّز الفلاسفة الّذين اِتّبعوا هذا التّقليد – العقلانيّون، والأكثر شهرة بينهم هو سبينوزا وليبنيز – عدم ثقة ديكارت بالجسد وحواسّه، وحاولوا مثله تماماً تأسيس المعرفة على عمليّات العقل فقط، مستخدمين الرّياضيّات والهندسة كسلّم للوصول إلى الحقيقة.

لقد أورثَ ديكارت العقلانيّين اللّاحقين صداعاً كبيراً. هل تتذكّر مشوارنا الّذي ناقشنا فيه مشكلة "العقل – الجسد"، بما يخصّ فكرة الإرادة الحرّة؟

نعم. نوعاً مّا.

"خلاصتها أنّه بالنّسبة إلى ديكارت، كان العقل والجسد من مادّتين مختلفتين جوهريّاً. وثنائيّة "العقل – الجسد"، كما هي معروفة، تشكّل نوعاً من المنطق:

الفكرة والشّطيرة شيئان مختلفان تماماً. إحداهما لديها كتلة ولون ونكهة؛ والأخرى ليس لديها أيّ شيء: الفكرة موجودة فقط باعتبارها كيانا عقليّا غير متجسّد. والمشكلة أنّ هذين الشّيئين يجب أن يتواصلا. يجب على المادّة الفيزيائيّة الملموسة أن تجد طريقها إلى عالم الفكرة. الشّطيرة الموجودة هناك يجب أن تصبح فكرة شطيرة في عقلي. وبعد ذلك، ينبغي على عقلي – ذلك الشّيء العقليّ – أن يجعل ذراعي – ذلك الشّيء الجسدي – تمتدّ وتلتقط الشّطيرة وتضعها في فمي.

كان حلّ ديكارت لهذه المشكلة – كيف يتفاعل العقل مع المادّة – مشهوراً بصعوبته. بدل أن يخبرنا **كيف**، أخبرنا ***أين***. ربّما يقول مفكّر بسيط إنّ ذلك يحدث "في الدّماغ"، لكن خبيرنا المختصّ بتشريح الحيوانات لديه معرفة وثيقة بالتّشريح، وهو أعلى من هذا الاِبتذال. ويدّعي أنّ ذلك يحدث في الغدّة الصّنوبريّة".

نعم، تذكّرت الآن. ذلك الشّيء الموجود في الدّماغ.

"تماماً. وكلّ ما يفعله ذلك هو تقليص المشكلة طبعاً دون إزالتها بشكل نهائيّ. فالغدّة الصّنوبريّة عبارة عن شيء جسديّ عليه أن يتفاعل مع شيء عقليّ. في الواقع، مشكلة المادّة أكثر تعقيداً، إذ كان لدى ديكارت ثلاثة عناصر منفصلة – الجسد، العقل والله، مع أنّ مشكلة الله يسهل حلّها، طالما أنّك قرّرت أنّ الله، بحكم تعريفه، يستطيع أن يفعل أيّ شيء... لكن على الرّغم من ذلك، لدينا ثلاثة عناصر مختلفة تتعلّق بذلك بطريقة ما، وإذا أردنا أن نفهم الكون فعلاً، علينا أن ندرك.

دعنا نستخدم الاِستعارة في مجال الرّياضة. يشبه العالم فريق كرة قدم من وجهة نظر ديكارت. هناك لاعبون، ويمثّلون "الجسد" الّذي يتميّز بخاصّيّة التّوسّع في الفضاء. ثمّ لدينا الكرة. لكن هذه الكرة ليست مصنوعة من الجلد، بل هي عبارة عن صورة ثلاثيّة الأبعاد. ثمّ لدينا الله، الّذي يقود الفريق. هناك مشكلة كبيرة

أمام أيّ شخص يحاول أن يركل صورة الكرة ثلاثيّة الأبعاد – ليس لها كتلة، فكيف يستطيع اللّاعب أن يحرّكها؟ حلّ ديكارت، الّذي لا يُعتبر حلّاً، هو القول إنّه يحرّكها بقدمه. أو بالأحرى، بإصبع قدمه. وأعتقد أنّ بإمكاننا جميعاً رؤية أنّنا إذا قبلنا بأنّ القدم والكرة هما مادّتان مختلفتان، إحداهما مادّيّة والثّانية ليست مادّيّة، فإنّ صورة الكرة ثلاثيّة الأبعاد لن تبرح مكانها.

أحد أتباع ديكارت الأكثر موهبة، رافس الكلب سيّئ السّمعة، نيكولا مالبرانش –

ماذا؟

"أوه، لا شيء، بصدق. ليس بالأمر المهمّ –"

لو كان هذا الشّخص رافس فلاسفة سيّئاً، لما قلت ذلك.

"كلامك منطقيّ. على أيّ حال، اِعتقد مالبرانش أنّ لديه الحلّ. لقد قَبِلَ بالثّنائيّة الدّيكارتيّة، ورأى المشلكة بوضوح تامّ. ربّما لا تستطيع القدم المادّيّة أن تحرّك الكرة العقليّة إطلاقاً. لذلك قال مالبرانش إنّ قائد الفريق – الله – اِستخدم قواه السّحريّة ليجعل الكرة تتحرّك عندما تصل إليها قدم. حتّى في العلاقة الحميمة بين العقل والجسد البشريّين، إنّ الله هو من قام بالحمل الثّقيل. ربّما تعتقد أنّ إصبعك يهتزّ لأنّك هززته، لكن مالبرانش يقول إنّ الله اِلتقط فكرة *الهزّ* ونقل تلك النّيّة إلى العضلات وجعل الإصبع يهتزّ. وإذا وخزت الإصبع ذاته بإبرة، فإنّ الألم (العقليّ) لم تتسبّب به الإبرة (المادّيّة) – مثل هذه التّفاعلات مستحيلة – بل الله".

أرى أنّني لست مقتنعاً بهذا.

"هكذا تماماً. ربّما تعترضُ على أنّ هذا عمل مُضحك لا يليق بأن يقوم به الله. وإذا قبلت وجهة النّظر المسيحيّة الّتي تقول إنّ أولئك الّذين وُلِدوا قبل المسيحيّة يجب إدانتهم، فهذا يعني أنّ الله أمضى وقتاً طويلاً في تحريك دمى بشريّة تمّ الحكم

عليها لاحقاً بالحرق.

تلك كانت السّخافات الّتي أعقبت ثنائيّة العقل – الجسد.

كان حلّ باروخ سبينوزا لهذه المشكلة بارعاً إلى حدّ مّا. قرّر – وأثبت بطريقته الخاصّة بالتّأكيد – أنّه لم يكن هناك ثلاثة عناصر بل عنصر واحد. لم يكن لاعبو كرة القدم وكرتهم سوى جوانب مختلفة من قائد الفريق ذاته. كان الفريق شيئاً واحداً، وكان الفريق كلّ ما هو موجود".

أرى أنّ الأمر يزداد جنوناً.....

"يزداد سوءاً قبل أن يصبح أفضل، صدّقني. كان سبينوزا (1632-1677) إحدى الشّخصيات الأكثر إثارة في تاريخ الفلسفة".

رافس كلب؟

"ليس هو. وجهات نظره المتطرّفة عن الدّين كانت سبب رفض مجتمعه الدّينيّ اليهوديّ له، ولم يقبلها المجتمع الدّينيّ المسيحيّ إطلاقاً، حتّى العالم المتسامح نسبيّاً في هولندا القرن السّابع عشر. لقد عاش معظم حياته في فقر مدقع، ورفض أيّ مساعدة مادّيّة من أصدقائه، مفضّلاً الحفاظ على اِستقلاله من خلال العيش في غرف مستأجرة بسيطة ويكسب رزقه من صناعة العدسات للأجهزة العلميّة. كان متواضعاً وشجاعاً ولامعاً، والأهمّ من ذلك كلّه، أنّه كان مستعدّاً للمضيّ قدماً إلى أيّ مكان يقوده إليه تفكيره، بغضّ النّظر عن العواقب. وقد أخذه إلى أماكن غريبة جدّاً.

جادل سبينوزا بأنّ هناك أربعة نماذج أو مستويات للمعرفة. ثمّة أشياء نأخذها بثقة، لأنّه قيل لنا ذلك، لكنّنا لم نختبرها. وهناك أشياء نتعلّمها من التّجربة، مثل أن إصبع قدمي سيؤلمني عندما أضرب قدمي بشيء صلب، وأن الماء البارد يروي عطشي. ثمّ هناك مستوى من المعرفة أكثر عقلانيّة بقليل، لكنّه لا يزال قائماً على التّجربة: اِكتشاف أنّ أشياء معيّنة صغيرة لأنّها بعيدة، وأشياء معيّنة صغيرة لأنّها

صغيرة فعلاً. جميع طرق المعرفة هذه غير مُرضية، وعرضةٌ للخطأ. وهذا هو السّبب في أننا نحتاج إلى مستوى آخر هو فهم جوهر الشّيء ومعرفته، أي حقيقته بالضّرورة. وطبعاً، المثال هنا هو –"

دعني أخمّن، الكلّيّة؟

"نعم! حسناً، الهندسة. تمنحنا الهندسة معرفة حقيقيّة لا يمكن أن تخطئ. عندما أراد أن يجلب إلى الفلسفة اليقين ذاته الّذي جلبه إلى الهندسة كتاب إقليدس بعنوان ***"العناصر"***(الّذي كان الكتاب المدرسيّ الأساسيّ في هذا الموضوع على مدى ألفي سنة)، عكف على كتابة عمل جديد بعنوان ***"الأخلاق"، وقد تمّ نشره بعد وفاته في عام 1677***".

توقف قليلاً، الأخلاق؟ ألم نتحدّث عن ذلك في مشوار سابق...؟

"جميع الأشياء مرتبطة لدى سبينوزا، حتّى أكثر ممّا هي عليه لدى المفكّرين الآخرين الّذين ناقشناهم. يعالج كتاب ***"الأخلاق"*** موضوع الأخلاق لكن مبادئه الأخلاقيّة تتّبع الأساس الميتافيزيقيّ والإبستمولجيّ حتماً. بالاِطّلاع على كتاب إقليدس، ***العناصر***، نرى أنّ الكتاب يبدأ بتقديم تعاريف مختلفة ("النّقطة شيء له وضعٌ فقط وليس له طول ولا عرض ولا عمق")، "أوليّات" ("الأشياء المساوية لشيء واحد هي مساوية بعضها لبعض")، "مقتضيات أو ممكنات" (يمكن الوصل بين كلّ نقطتين بخطّ مستقيم أو غير مستقيم، ويمكن أن يخرج خطّ مستقيم محدود على اِستقامتهِ في جهتيهِ إلى حدّ ما يُراد")[39]. بالبدء بهذه التّعاريف، الّتي يقبل صحّتها أيّ شخص عقلانيّ دون أن يستخدم أيّ شيء أكثر تعقيداً من مسطرة لرسم خطوط مستقيمة، وفرجار لرسم دوائر، بنى إقليدس قصر هندسته الجميل كلّه، كلّ خطوة تتبع الخطوة الّتي جاءت قبلها منطقيّاً وحتميّاً.

---

(39) مقتبس حرفيّاً من كتاب إقليدس "العناصر"(م).

حاول سبينوزا القيام بالشّيء ذاته مع الفلسفة، وتشييد بنائه من تعاريف أساسيّة وأوليّات، لإنشاء فرضيّات معقّدة مدعومة بدورها "بأدلّته". وكان نظام التّعاريف والأدلّة كلّه داخليّاً – لم يشر إلى أيّ شيء في العالم الخارجيّ لتوضيح ما يؤكّده، بالطّريقة ذاتها الّتي لا تحتاج فيها إلى قياس المثلّثات الفعليّة في العالم للتحقّق من فرضيّات إقليدس عن المثلّثات.

كتاب "الأخلاق" كثيف ومعقّد، والبنية الرّياضيّة تجعله كتاباً يصعب التّعامل معه، لكنّ الخطوط العريضة بسيطة إلى حدّ مّا. يُعرَّفُ الجوهر بأنّه الشّيء الّذي هو علّة ذاته، أي أنّه ما من شيء خارجيّ يسبّبه أو يؤثّر عليه بأيّ شكل من الأشكال. هناك جوهر واحد فقط، وهو لانهائيّ وأبديّ، وهذا الجوهر هو الله. الله هو كلّ شيء موجود، الله لديه سمتان: التّفكير والاِمتداد. ونحن جزء من الله. كلّ ما يحدث، يكون محدّداً بشكل كامل، مما يعني أنّه لا وجود للإرادة الحرّة. يسعى البشر بأنانيّة لتعزيز مصالحهم الخاصّة، لكنّ هذا السّعي لا طائل له، طالما أنّنا لا نستطيع تغيير أيّ شيء. وأفضل ما يمكننا فعله (وهذا هو الجزء الأخلاقيّ من كتاب "الأخلاق") هو التّكيّف مع ***ما هو موجود***".

يذكّرني هذا بشيء مّا...

"إنّه قريب جدّاً من وجهة النّظر الرّواقيّة الكونيّة – هذا الشّيء المركّب من العالم والعقل والله، ممزوجاً مع الحتميّة. وهي وجهة نظر عن الألوهة لا تشبه الإله اليهوديّ أو المسيحيّ بأيّ شكل من الأشكال. في الواقع، إنّه لإله لا علاقة له إطلاقاً بأيّ شكل من أشكال الآلهة. فالله بالنّسبة إلى سبينوزا هو الطّبيعة. وكلّ شيء في الطّبيعة جزء من الله. لذلك لن يفاجئنا أنّه لم يكن ***المقبول شعبيّاً*** بالنّسبة إلى الأديان الرّسميّة في تلك الأيّام.

على الرّغم من أنّ هذا كلّه يبدو تصوّراً غريباً جدّاً عن الواقع، وكان يُنظر إليه باعتباره شيئا صادما للغاية في ذلك الوقت، إلّا أنّه أقلّ إدهاشاً ممّا بدا عليه سابقاً،

ولا يزيد عن مستوى إعادة تصوّر لما كنّا نعرفه. يضع سبينوزا الجسد أساساً للتّشبيه. فمن جهة أولى، يتشكّل الجسد من كيانات منفصلة لا حصر لها – الأعضاء والدّم والشّعر والبشرة وما إلى ذلك (لا يعرف سبينوزا أيّ شيء عن الخلايا الفرديّة الّتي اكتُشِفَت بعد وفاته بفترة قصيرة، مع أنّها كانت ستساعده في حجّته). لكن يمكننا أن نرى أنّ من المنطقيّ اِعتبار الجسد شيئاً واحداً مكوّناً من عدّة أجزاء. وبالطّريقة ذاتها، على الرّغم من أنّنا ندرك أنّنا نعيش في عالم متنوّع، ماديّ وعقليّ، يكشفُ التّحوّل بالمنظور عن كونه شيئاً واحداً – الله، أو الطّبيعة، إذا كنت تفضّل ذلك.

فكرة أنّ العقل والجسد هما مجرّد صفتان من صفات الله (أو الطّبيعة)، وليسا جوهرين منفصلين، قد تتضمّن تغييراً في المنظور، لكن من غير الواضح أنّها تعني الكثير من الناحية العمليّة. ما يفعله هذا المنظور هو التقريب بين الفكر والمادّة، وبالتّالي الاِلتفاف على مشاكل الثّنائيّة الدّيكارتيّة. الطّريقة الحديثة لحلّ مشكلة "العقل – الجسد" هي رؤية الفكر بوصفه ظاهرة ثانويّة من المادّة، وليس مادّة مختلفة تماماً. إنّهما وجهان للعملة ذاتها، وهذا قريب جدّاً ممّا قاله سبينوزا".

يبدو سبينوزا رائعاً جدّاً.

"نعم، إنّه مثير للاِهتمام بالتّأكيد، لكن هناك أيضاً نوع من الضّبابيّة. كان سبينوزا شخصاً محبوباً، لكنّ نهجه لم يكن كذلك. العالم لا يأبه بنا. إنّه مجرّد هذه الألة الضّخمة أو الكائن الحيّ الّذي لا نشكّل نحن سوى أجزاء عاجزة منه. كلّ ما يمكن أن نأمل بفعله هو فهم الآليّة وقبولها".

قفز مونتي من على ركبتيّ وتمدّد. ووصل رباطه إلى شتلة البتولا، حيث تبوّل عليها بسرعة.

لقد فقدت التّركيز قليلاً هنا. ذكّرني مجدّداً إلى أين وصلنا؟

"كنّا ننظر في الإجابة على سؤال: ما الّذي نعرفه؟ وتفحّصنا الإغريق، وننظر

الآن في أحدِ تقليدين عظيمين في الأبستمولوجيا: العقلانيّين، الّذين اِعتقدوا أنّ التفكير البحت هو الطّريق. ثمّ سننظر إلى التّجريبيّين، الّذين اِعتقدوا أنّ الإدراك والتّجربة هما اللّتان ستقودانا.

هل هذا يعني أنّا لا نزال في منتصف الطّريق؟

"تجاوزنا المنتصف. لكنّني أشعر بالجوع. دعنا نُنهِ موضوع العقلانيّين، ثمّ نعود إلى البيت. هل أنت مستعد؟"

صعد مونتي على اللّوح مجدّداً.

"كان العقلانيّ العظيم الثالث –"

والأخير...

"... كان العقلانيّ العظيم، "غوتفريد فيلهيلم ليبنيز" (1646- 1716)، شخصيّة مختلفة للغاية عن سبينوزا. ومثل ديكارت، كان مُذهلاً ومتعدّد الثّقافات ومؤرّخاً ودبلوماسيّاً، وربّما آخر عالم رياضيّات في عصره. بدماثته وحرصه على نيل الرّضى عاش حياة مريحة، ولا سيما في البلاط في هانوفر، متملّقاً الأغنياء وأصحاب السّلطة. كان أشبه بأحد رجال الحاشية الملكيّة الّذي سعى إلى إيصال نفسه ببراعة، دون إرادته، وجعل نفسه بذلك السّلوك سخيفاً بعض الشّيء. وكان بخيلاً نوعاً مّا. عندما تزوّج شابّة من البلاط، كانت هديته عبارة عن كتيّب صغير من النّصائح والملاحظات المفيدة للعروس الجديدة".

لمسة جميلة!

"وكان الجزء الأخير من حياته متوتّراً بسبب نزاع مرير طويل الأمد مع إسحاق نيوتن حول من اِبتكر حساب التّفاضل والتّكامل. وكسب نيوتن معركة العلاقات العامّة، لأسباب ليس أقلّها أنّه ترأس سرّاً لجنة التّحكيم في القضيّة، لكن يبدو على الأرجح أنّ كلّاً منهما توصّل إلى الفكرة بشكل مستقلّ، وهو ما

يمكن أن يكون مثالاً لافتاً للغاية عن تشابه تفكير العقول العظيمة (لمرّة واحدة كانت العقول عظيمة فعلاً).

مع أن ليبنيز كان عبقريّاً بلا شكّ، فقد أعدّ أغرب الأنظمة الرّياضيّة وأقلّها منطقيّة على الإطلاق. كانت نقاط الإنطلاق منطقيّة بما يكفي، طالما أنّك توافق على وجهة النّظر العقلانيّة للمعرفة. وإعتقَدَ أنّ الحقائق كلّها كانت تحليليّة، أي أنّ كلّ مقدّمة صحيحة كانت مُحتواة في الموضوع سلفاً".

أوه، تعلم أنّني أرتبك دوماً عندما تتحدّث عن الموضوع والمقدّمات المنطقيّة...

"حسناً، ثمّة حالة واضحة. كلّ شيء صحيح يمكنك قوله عن المثلّث قائم الزّاوية هو محتوى سلفاً في مفهوم المثلّث قائم الزّاوية – فيه ثلاثة أضلاع، ومجموع زواياه 180 درجة، ومربّع الوتر يساويّ مجموع مربّعي الضّلعين القائمين، وما إلى ذلك. وبالتّالي فإنّ جميع الحقائق عنه تحليليّة – ممّا يعني أنّها **من ضمن** المفهوم. أو بِاستخدام القياس المنطقيّ، إنّ ***مونتي كلب؛ جميع الكلاب فانية؛ وبالتّالي فإنّ مونتي فان***، إنّ جميع "الحقائق" في النّتيجة تحليليّة – نحن نقوم فقط بإظهار محتوى الحقيقة الكامن.

لكنّنا نعتقد أنّ الأمر يختلف عندما يرتبط بمعظم التّصريحات عن أشياء في العالم. هناك أشياء صحيحة متعلّقة بك لكن لم يتمّ تضمينها في مفهوم ***مونتي*** – هذه أشياء ***مشروطة***، أشياء قد تفعلها وقد لا تفعلها. ربّما تطارد كرة إذا قذفتها إليك –"

تحتاج الكثير من الحظّ.

"ربّما تنصرف لطعامك غداً. وربّما تتبوّل على عمود الإضاءة هذا، بدلاً من ذاك العمود. جميع هذه الحقائق أو المقدّمات، ***هي مركّبة***، وهذا يعني أنّها ليست مضمّنة في الموضوع، بل تبقى خارجه. اِعتقد ليبنيز أنّ الحقائق كلّها، حتّى تلك المضمَّنَة ظاهريّاً، هي تحليليّة".

"قال إنّك إذا كنت تعرف ما يكفي عن الموضوع، سواء أكان الموضوع جدار حديقة أو كلب أو شخص، فستفهم عندئذٍ كلّ شيء حدث أو سيحدث له. ومع معرفة كافية، تكون الحقائق كلّها تحليليّة – نحن جميعاً نتضمّن كلّ ما سيحدث لنا. لكن هذا النّوع من المعرفة ليس متاحاً إلّا لله في الواقع، بل هي لا تزال لديه من النّاحية المنطقيّة. وهذا يقضي على اِحتمال وجود الإرادة الحرّة – إذا كان كلّ ما يمكن أن نفعله قابعاً داخلنا سلفاً، فأيّ أمل بالحرّية لدينا؟ لكن على النّقيض من سبينوزا، اِبتعد ليبنيز عن النّتائج الحتميّة لتفكيره، على الأقلّ في مؤلّفاته المنشورة، لأنّه كان خائفاً دوماً من الاِعتراضات.

تمّ نحت البند الثّاني من فلسفة ليبنيز من مادّة الزّمالة القديمة. اِتّفق ليبنيز مع سبينوزا (وأرسطو) على أنّ أساس المادّة هو التّفرّد – كلّ مادّة يجب أن تكون متفرّدة بذاتها: هذا ما تعنيه المادّة ببساطة. لكن ***الإمتداد*** – الّذي قال عنه ديكارت إنّه أساس الموضوع أو الجسد – متعدّد؛ هناك العديد من الأشياء، بأشكال مختلفة، وينفصل كلّ شكل عن الأشكال الأخرى -مناضد، كراسي، قطرات مطر، كلاب، قطط، بشر. نظر سبينوزا إلى كثير منها لكنّه رأى واحداً فقط. لكن ليبنيز نظر إلى الكثير، ورأى...الكثير.

بالنّسبة إلى ليبنيز، كلّ لاعب في الفريق، والكرة، والله، جميعها مواد منفصلة. تضاعفت الآن المشكلة الدّيكارتيّة المرتبطة بكيفيّة تفاعل المواد بشكل كبير. وتمّ تطويقها. فالعالم بالنّسبة إلى ليبنيز مصنوع من عدد لانهائيّ من الكيانات المنفصلة – وأطلق عليها اِسم "مونادات". الشّخص موناد، بل كلّ خليّة منه، أو منها، هي مونادية. ويكون كلّ ما هو جسديّ مونادي أيضاً. وكلّ ما هو موناد، يكون ***من دون نوافذ***، من وجهة نظر سبينوزا - لا يتّصل ولا يتفاعل مع المونادات الأخرى. ولا يجب أن نفكّر بتلك المونادات بوصفها خصائص جسديّة – هي لا تشغل مكاناً حقيقيّاً -- لا وجود للمكان أو المادّة بالطّريقة الّتي تعتقدها".

أعتقد أنّك حذّرتني من الغرابة لكن هذا كثير...

"نعم، فعلاً، تمّ تنظيم مونادات ليبنيز هرمياً مع اِرتقاء الرّوح البشريّة إلى القمّة. وهذه الرّوح هي منبع المعرفة كلّها. كما نصّب نفسه بثبات ضدّ فكرة أنّ المعرفة دخلت أذهاننا من خلال الحواسّ. فلا يوجد في نظامه مصطلح يدلّ على "دخلت في"".

لا نوافذ.

"تماماً، لذلك فإنّ كلّ شيء مهمّ نعرفه هو وظيفة الرّوح الّتي تعرف نفسها، وتفهم محتواها التّحليليّ. الرّوح لها مادّة، وبالتّالي هي تمتلك فكرة المادّة من خلال الاِنعكاس الذّاتي. والرّوح لها وجود، وبالتّالي تعرف الكينونة. ولديها عقل، فهي تمتلك جمال الرّياضيّات والهندسة. لدينا هنا كلّ ما نحتاجه، لدينا عالم صغير يشبه حوض سمكة ذهبيّة يمكن لعقلنا أن يسبح فيه.

لكن إذا لم تستطع هذه المونادات أن تتفاعل، ماذا يحدث لفريقنا بكرة القدم؟ كيف يمكنهم تحقيق أهداف؟ يجب أن نركل الكرة نحو مرمى الخصم. يا لها من مفاجأة، لقد اِندفعت. الجمهور يصرخ، هدف رائع. كيف يحدث ذلك إذا لم يكن للمونادات أيّ تواصل في ما بينها؟ وكيف لي أن أرى الكرة من الأساس إذا كنت موناداً أعمى؟"

دعني أخمّن – الله؟

"صحيح! هدف رائع يا مونتي. هذا هو مفهوم ليبنيز الأكثر شهرة – ربّما الثّاني في الشّهرة لأنّنا سنصل إلى الأكثر شهرة بعد قليل. يبدو العالم كأنّه يعمل بطريقة معيّنة، وفيه أشخاص يثرثرون، وكرات بلياردو تتصادم، وكلاب تنبح على القطط، وصحون تتساقط وتتشظّى عندما ترتطم بالأرض. لكن ليبنيز أظهر، بحجّة متأنّية، أنّه لا يمكن أن يكون العالم بهذه الطّريقة – لا يمكن لعدد لانهائيّ من الموادّ المنفصلة أن يتواصل فعلاً بالطّريقة الّتي نعتقد أنّنا نراها.

ربّما تكون هناك إجابة واحدة على هذه المعضلة. خلق الله كوناً تظهر الأشياء فيه كأن هناك سبباً آخر لوجودها، لكنّها ***متناغمة*** في الواقع. ويقول ليبينز، تخيّل وجود ساعتين ليس بينهما اِتصال، لكنّهما متوافقتان في الزّمن. ربّما يبدو لمراقب معيّن أنّهما مرتبطتان، وأنّ رنين إحداهما يسبّب رنين الأخرى، تماماً كما تسبّب الرّيشة الحكّة –"

بالحديث عن ذلك، هل يمكنك أن تحكّ ذقني، هنا...نعم، هنا فحسب، شكراً.

"لكن ذلك هو ***التّناغم المحدّد مسبقاً*** من الله. لقد أعدّ العالم بطريقة تجعلنا نرى ظاهريّاً أن العمل يتمّ من خلال تفاعلات سببيّة بين العناصر الموجودة فيه، لكنّ ذلك ليس أكثر من مظهر خارجيّ".

ولماذا قد يفعل ذلك؟

"هذا يقودنا إلى أكثر أفكار ليبنيز شهرة بشكل فعليّ. إلهٌ غير مقيّد إلّا بقوانين المنطق. ويمكن لله ضمن هذه القوانين أن يصنع عدداً لانهائيّاً من العوالم. والعالم الّذي اِنتقده فيه كميّة مثلى من الخير. هذا أفضل العوالم الممكنة".

لكن كلّ ما يحصل من حماقات... حروب وأمراض وقطط....

يستطيع الله أن يخلق عالماً خاليّاً من تلك الأشياء. لكن تلك الأشياء السّيّئة تؤدّي إلى حدوث الأشياء الجيّدة. يزوّدنا الشّرّ بفرصة لحدوث الخير. عالم دون أمراض هو عالم ليس فيه من يقدّم الرّعاية للمرض. وكلّ شرّ لا يوازيه خير بالمقابل فقط، بل يغمره.

"كان باِستطاعة الله أن يخلق البشر رجالاً آليّين لا يفعلون إلّا ما هو خير. وأن يبرمجنا لنكون "سامريّين" طيّبين. وأن يسلبنا قدرتنا على الأفعال الأنانيّة الشّرّيرة الغبيّة. هناك مسلسل كان يُعرض على شاشات التّلفاز باِسم "بافي قاتل مصاص الدّماء"، تظهر فيه شخصيّة "سبايك – Spike"، وهي أشبه بشخصيّة مصاص

دماء شبه معدّل. والتّعديل الّذي طرأ على هذه الشّخصيّة كان تزويدها بشريحة في الدّماغ تسبّب له صدمة عنيفة إذا حاول إلحاق الأذى بأيّ شخص بإستثناء الشّياطين ومصّاصي الدّماء الآخرين. كان بإمكان الله منحنا شريحة الفضيلة تلك. لكنّنا سنكون حينها في عالم دون إرادة حرّة، وسيكون عالماً دون إمكانيّة للخير. لذا فإنّ ما أعطانا إيّاه ليس عالماً مثاليّاً، بل عالم فيه أعظم تفوّق للخير على الشّر".

يبدو مثل حمولة من القمامة.

"من المؤكّد أنّه أثار السّخرية. لقد ألّف "فولتير" رواية "***كانديد***" عام 1759 لنقد هذه الفكرة. لقي مئة ألف شخص حتفهم في زلزال لشبونه عام 1755. والعديد ممّن قُتِلوا كانوا محتمين بالكنائس. هل كان هناك بالفعل الخير الّذي يوازن هذا الشّرّ -يتحدّث المرء هنا عن الأعمال الخيريّة للمنقذين؟ ما الّذي يوازن الموت المؤلم لطفل؟

لذلك، لا، لم يكسب الكثير من النّاس. لكن ليس في ذلك أيّ خطأ من الناحية المنطقيّة. لا توجد طريقة تجعلنا نعرف على وجه اليقين أنّ هذا ليس العالم الأمثل في الواقع. إنّه من نوعيّة الأشياء الّتي لا يمكن اتّخاذ قرار بشأنها. لكن لا بدّ من القول إنّ الإحتمال ضعيف...

ينبغي أن أقول إنّ فكرة أنّ هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة، فكرة مستقلّة في الواقع عن حجج ليبنيز عن المونادات العمياء والتّوافق المحدّد مُسبقاً. لدى العديد من المنظّرين المعاصرين وجهة نظر مفادها أنّ هذا العالم هو الأفضل، من ناحية التّوازن بين الخير والشّرّ، دون الإنخراط بالسّياقات اللّيبنيزيّة كلّها.

لكنّنا إبتعدنا عن موضوعنا الرّئيس لهذا اليوم، نظريّة المعرفة. يتكوّن نظام ليبنيز من مزيج رائع، والخطوات الإستقرائيّة للوصول إليه منطقيّاً تتبعُ وجهات النّظر الفلسفيّة عن المادّة والحقيقة، لكن سخافة الإستنتاج تنبهنا إلى حقيقة أنّ ما

يقوله عن المادّة والحقيقة لا بدّ أن يكون محض هراء.

علينا أيضاً أن نتحرّى عن الإبستمولوجيا الأساسيّة الّتي قادتنا إلى هذا المكان الغريب. هل يمكننا الاِعتماد على تأمّلات دماغ بلا نوافذ، لا يعترف بشيء من الخارج، ولا يعكس إلّا ما هو مضمَّنٌ فيه؟ إنّه أشبه بحالة الخوف من الخلاء، يخاف الذّهاب إلى الخارج، أو حتى أن يرفع السّتائر، ويعيش على ما هو موجود في المنزل، والبقايا المجفّفة في المطبخ، والزّخرفات القديمة والمحطّمة فوق المدفأة، وصور الأموات الباهتة.

إنّها لحقيقة مثيرة للاِهتمام أنّه على الرّغم من وجود بعض أشباه سبينوزا حولنا، وبقاء ديكارت في مركز العديد من النّقاشات الفلسفيّة الحيّة، وفيلسوفنا التّالي، كانط، الّذي لم يتقدّم في السّنّ، ليس لدى ليبنيز تلاميذ. لذلك دعنا نفتح هذه السّتائر، ونرى ما يدخل إلى ..."

قُلتَ إنّنا نستطيع أن نفعل ذلك في مشوار لاحق. دماغي الصّغير أصبح ممتلئاً تماماً.

"أوه، أنا آسف بالتّأكيد يا مونتي. هل يمكن أن تقف على قائمتيك الخلفيّتين؟"

لنرى كيف يتمّ ذلك.

وهكذا تركنا وجبات "الولابيّ" والكابيبارا وطائر أبو منجل المقدّس خلفنا وعدنا إلى البيت. حملت موتي في الجزء الأخير من الطّريق.

المشوار (9)

التّجريبيّة/ الحسّيّة: الإحساس هو الإيمان

ناقشنا في مشوارنا الإبستمولوجيّ السّابق (مع أنّه ليس مشواراً بقدر ما هو اِسترخاء) التّجريبيّين من القرن السّابع عشر والثّامن عشر، لوك وبيركلي وهيوم، الّذين اِعتقدوا أنّ المعرفة يجب أن تأتي من التّجربة.

في اليوم التّالي هطلت زخّات قويّة من المطر على النّوافذ، ممّا جعلنا نمضي في مشوار قصير إلى شجرة مونتي المفضّلة، ثمّ عدنا للاِستلقاء على الأريكة في الشّقّة الفارغة. في الواقع، أصبحت تلك طريقة مونتي المفضّلة لتمضية الوقت بعد أن اِنتهت فورة شبابه. اِستلقيتُ على الأريكة، واِستلقى فوقي، في خطّ أنيق على طول عظم القصّ، مثل يرقانة كبيرة مشعرة. إذا لم يكن الكتاب الّذي أقرؤه ثقيلاً جدّاً، أستطيع أن أسنده بشكل أنيق على ظهره. وإذا تململت كثيراً، يفتح عينيه ويصدر صوتاً ينمّ عن الاِستنكار.

"هل أنت مستعدّ للحديث عن الجزء الثّاني من الإبستمولوجيا؟" قلت له عندما كنت أعدّل جلستي.

تنهّد مونتي بتثاقل. وكان الصّوت الّذي أصدره ينمّ عن إنزعاج أكثر مما كان تنهيدة. لكنّه بقي على ركبتيّ ولم يسعَ إلى ملاذ في الغرف الأخرى، ممّا اِعتبرته علامة موافقة.

"بحثنا البارحة في النّظريّات القديمة للمعرفة، ثمّ بحثنا موضوع منهج الشّكّ، وأخيراً كيف نفى العقلانيّون الشّكّ من خلال قوّة الفكر المحض. وسنبحث اليوم كيف حاول المنهج التّجريبيّ المنافس بناء أسس قويّة للمعرفة، ليس على الفكر، بل على التّجريب.

على الرّغم من أنّنا نستطيع أن نرى عناصر تجريبيّة لدى أرسطو، ومن تصريح بعض مفكّري عصر النّهضة الإيطاليّين وفنّانيه الواضح أنّ التّجربة هي حكمٌ للحقيقة أفضل من العقل أو السّلطة القديمة، فقد بدأت التّجريبيّة فعلاً مع المفكّر الإنكليزيّ فرنسيس بيكون. لكن أودّ تأجيل بيكون لمشوار آخر، لأنّه يُعتبر أساساً رائد فلسفة العلم. طرح توماس هوبز نسخة بسيطة لكنّها واضحة للنّظريّة في عمله الرّائع بعنوان "اللوياثان – Leviathan" (1651). ويقول في هذا العمل إنّ كلّ ما وهو موجود في رؤوسنا، وصل إليها أساساً من حواسّنا. حيث تعتمد الذّكريات والتّخيلات والمنطق على تلك المدخلات الحسّيّة الأصليّة. المعرفة تعني معرفة حقائق: الأشياء الموجودة في العالم الخارجيّ. والطّريقة الوحيدة الّتي تستطيع من خلالها أن تعرف شيئاً هي رؤيته يحدث.

رفع خليفةُ هوبز العظيم، الفيلسوف جون لوك (1632 – 1704)، التّجريبيّة إلى مستوى عقلانيّة الفطرة السّليمة. إنّ قراءة عمله الأساسيّ في الفلسفة بعنوان "*مقالة في الفهم البشريّ* ' (1689)، ووضوح الكتابة (عادة)، والاِستقامة النّسبيّة للأفكار، يعني أن تومئ برأسك، مرّة تلو أخرى، وتفكّر، "أوه، يبدو هذا الكلام صحيحاً".

لكن تجريبيّة لوك تضمّنت عيباً فادحاً، وكان لها تداعيات في أيدي خلفائه "بيركلي" وهيوم"، تمثّلت في أنّها كانت غريبة مثل أيّ شيء آخر في التّخيّلات العجيبة للعقلانيّين".

أنت تحاول أن تجعل الأمر يبدو أكثر إثارة ممّا هو عليه في الواقع، أليس كذلك؟

"ربّما. قليلاً فقط... ومع أنّ لوك رفض تأكيدات العقلانيّين، إلّا أنّه لم يكن شكّاكاً. كانت نقطة الِانطلاق لديه أنّ من الواضح أنّ لدينا معرفة بالعالم، لكن السّؤال المطروح هو كيف أتينا بهذه المعرفة. كان هدفه الرّئيس هو ديكارت. إذ اِعتقد هذا الأخير أنّ عقلنا يتضمّن أفكاراً معيّنة بالفطرة: عن وجودنا وعن الله، وهي تقودنا بدورها إلى معرفة موثوقة بشكل منطقيّ بالعالم الخارجيّ.

لكن بالنّسبة إلى لوك (وكذلك هوبز)، نحن نأتي إلى هذا العالم دون أيّ شيء، دون أيّ أفكار في رؤوسنا إطلاقاً. ويقول لنا إنّ العقل أثناء الولادة عبارة عن صفحة بيضاء – لوحة فارغة. وعلى الرّغم من خلوّه من المعرفة، فإنّ لديه كفاءات معيّنة. لديه القدرة على التّفكير والمنطق. لكنّه لا يحتوي أيّ ***أفكار***. وكانت الفكرة عبارة عن مصطلح اِستخدمه لوك للإشارة إلى أيّ شيء موجود في رؤوسنا. الأفكار عبارة عن أشياء عقليّة تتوافق مع الأشياء المادّيّة هناك في العالم الخارجيّ الّذي يسبّبها.

بحثنا سابقاً حجج لوك المناهضة لوجود أفكار فطريّة تتعلّق بالله. لكن الحجج ذاتها يمكن تطبيقها على أولئك الّذين يعتقدون أنّ العقل يتضمّن مشاعر أخلاقيّة فطريّة، أو أفكاراً عن الحسّ السّليم، أو عن مفاهيم رياضيّة مثل المساواة أو الِاختلاف. وبقوله إنّه ليس واحداً، اِستخدم لوك بشكل أساسيّ الِاستراتيجيّة الّتي قام الشّكّاكون بتوظيفها في هدم الأفكار الفطريّة. حيث أشار إلى أنّه لو كانت هذه الأفكار فطريّة في البشر، لكانت ***أوّلا***، كونيّة؛ ***وثانياً***، كانت ذاتها في كلّ مكان؛ ***وثالثاً***، تظهر منذ الولادة. وقد تمّ إجراء مسح أنثروبولوجيّ سريع أظهر أنّ الثّقافات المتنوّعة تختلف بشكل كبير في أفكارها عن الدّين والسّلوك الجيّد، وحتّى بالمعرفة الرّياضيّة. وعلاوة على ذلك، يؤكّد أيّ شخص عارفٍ بشؤون الصّغار أنّ الأطفال لا يمتلكون مفاهيم كهذه حتّى يتمّ تعليمها لهم. ربّما زعم أفلاطون أنّ سقراط اِستطاع أن يستخلص المعرفة بالهندسة الكامنة في عقل صبيّ عبد، لكن لوك يقول إنّ العقل عبارة عن لوح أبيض ينتظر أن تتمّ الكتابة عليه.

إذا لم تكن الأفكار فطريّة، فمن أين تأتي إذن؟ يشير لوك، مثل جميع التّجريبيّين الآخرين، إلى التّجربة. تغذّي حواسّنا أذهاننا بالأحاسيس، حيث تتحوّل إلى أفكار. وبمجرد أن تصل إلى هناك، يهتمّ العقل بها ويجمعها، محوّلاً الأفكار ***البسيطة*** الّتي نتجت بشكل مباشر من الإِنطباعات الحسّيّة إلى أفكار ***مركّبة***. أنا أنظر إليك يا مونتي، وأنت تستلقي على جسدي. أنا أمسّدك..."

التّمسيد شيء جميل....

"أشمّ رائحتك...،

ماذا!

"... وهي تغذّي في عقلي أفكاراً بسيطة عن الوزن والحجم والدّفء والبياض القذر والنّعومة والشّعرَ والرّائحة النّتنة قليلاً. تتجمّع هذه الأفكار البسيطة وتتحوّل إلى أفكار مركّبة ***عن كلب ونمنحه حمّاماً***".

لكنّني أخذت حمّاماً الشّهر الماضي!

"يطرح لوك مثالاً أكثر وضوحاً. الإِستدارة والإِحمرار والحلاوة هي أفكار بسيطة، وهي تجتمع معاً لتشكيل فكرة معقّدة عن تفاحة".

ليست بهذا التّعقيد. حتّى أنا أعرف ما هي التّفاحة.

"مركّبة لأنّها تشكّلت من عدّة أفكار بسيطة مختلفة لتكوين فكرة معقّدة واحدة.

لذلك لدينا أفكار بسيطة وأفكار مركّبة، لكن لوك يفرّق بين هذه الأفكار البسيطة الأصليّة. واعتماداً على صفاتك يا مونتي، يجادل لوك بأنّ بعض هذه الصّفات الّتي أراها، شكلكَ ووزنكَ وموقعكَ في العالم، وحقيقة أنّك جسم صلب ولست غازيّاً، وحقيقة أنّك لاتزال تجلس بهدوء ولا تتحرّك، يمكن القول إنّها صفات أصيلة ***فيك*** أو تنتمي إليك. وبعض هذه الصّفات، لونك ورائحتك

ونكهتك إذا أردت أن ألعقك، وحقيقة أنّك تشعر بالدّفء على ساقي، هذه أشياء من الأفضل التّفكير فيها على أنّها في ***داخلي*** أنا".

ماذا؟ لا أحبّ فعلاً فكرة أنّ أيّ شيء لي موجود فيك... وبصراحة تامّة، اللّعق شيء مقزّز.

"سرعان ما سترى العقلانيّة في ذلك كلّه. الصّفات الّتي يعتقد لوك أنّها تعود إليك، كتلتك ووزنك وهيئتك وصلابتك وما إلى ذلك، يسمّيها ***صفات أساسيّة***. هذه الأشياء تتمثّل في الواقع في الكائن الّذي تلاحظه، ولا تنفصل عنه. يقول لوك، لا أستطيع حتّى أن أتصوّرك دون أن يكون لك هيئة وحجم. أنت لن تكون بالشّكل الّذي أراك فيه إطلاقاً دون هذه الأشياء.

على أيّ حال، هي تختلف تماماً عن تلك السّمات مثل الرّائحة والنّكهة واللّون. أستطيع أن أتخيّل مونتي دون الأبيض المتّسخ، أو برائحته الأقلّ نتانة. هذه الصّفات ليست أساسيّة بالطّريقة ذاتها. وهي بالفعل تبدو كأنّها في عقلي أكثر ممّا هي فيك. وإذا سألتني، "أين أشمّ رائحة مونتي؟" من المنطقيّ القول إنّني أشمّه في عقلي.

لذلك أطلق لوك عليها اِسم ***الصّفات الثّانويّة***. الصّفات الثّانويّة هي نتيجة الصّفات الأساسيّة، وتنتج عنها، لكن الإحساس الفعليّ باللّون أو الرّائحة هو في عقلي. وقد أشرنا في مشوار سابق إلى الفرق بين الذّاتي والموضوعيّ. بالنّسبة إلى لوك، الصّفات الأساسيّة هي موضوعيّة: إنّها مستقلّة عن أراء شخص معيّن أو مجموعة أشخاص. إنّ قطعة من الفحم ستبقى قطعة فحم لها وزنها وأبعادها حتّى إذا لم يعد لنا وجود في هذا العالم. وإذا لم يتّفق شخصان على وزن قطعة الفحم، يمكن أن نُخضعها لفحص مستقلّ، ويصبح الطّرفان مُجبرين على الموافقة على النّتيجة والاِلتزام بها. لكنّ سواد الفحم يتطلّب تصوّرات النّاس، لأنّ السّواد موجود فقط في أدمغة أولئك الّذين يتصوّرونه. والأمر نفسه ينطبق على اللّهب

البرتقاليّ، والدّفء الّذي ينتجه الفحم عندما يشتعل. الصّفات الثّانويّة صفات ذاتيّة، تعتمد على التّصوّرات الفرديّة للمراقبين. وإذا قال أحدهم إنّ الفحم أسود، وقال آخر إنّه ليس أسود بل مجموعة لونيّة متلألئة متباينة متدرّجة، فكلاهما لديه الحقّ في قول ذلك. تلك هي طبيعيّة الذاتيّة.

يمكن تعريف الصّفات الأساسيّة جزئيّاً من خلال حقيقة أنّه يمكن اِكتشافها باِستخدام أكثر من حاسّة واحدة – يمكن أن ترى الشّيء وتشعر بحركته مثلاً، لكن لا يمكن رؤية نكهة التّعامل مع كلب –"

أه، بالحديث عن ذلك، لم يحدث أن كان لديك...

"ربّما كان لديّ... دعني أنظر... نعم، ها أنت ذا".

شكراً.

"هناك حالة أو اِثنتان قد تعتبرهما حدوداً. ربّما تعتقد أنّ الحرارة مثلاً، سمة أساسيّة - النّار حامية بحدّ ذاتها بالتّأكيد. إجابة لوك هي أنّه من الخطأ الاِعتقاد بأنّ النّار تتضمّن بذاتها أيّ شيء يشبه ***فكرتي*** عن الحرارة. يبدو الأمر كما لو أنّك تقول إنّ الإبرة تتضمّن فكرتي عن الألم، عندما تخزني.

الدّماغ مليء بالأفكار - البسيطة والمركّبة - لكنّ هذا بالنّسبة إلى لوك، لا يعني "أن يكون لديك معرفة". حيث تتطلّب المعرفة جهداً نشطاً من العقل على إيجاد روابط بين الأفكار، ورؤية توافق أو عدم توافق بينها. ترسل العين إلى الدّماغ أفكاراً بسيطة عن الأسود والأبيض مثلاً. ويجمع العقل هاتين الفكرتين ويرى أنّهما مختلفتان. إنّ فهم هذا الفرق هو المعرفة. يعتبر العقلانيّون مفاهيم مثل ***اِختلاف*** أو ***تشابه*** على أنّها فطريّة - كانت مجرّد فئات تنتظر أن تمتلئ بالبيانات من الحواسّ. لكن بالنّسبة إلى لوك، دون تجربة، لن يكون هناك مفهوم.

تعطينا الحواسّ المختلفة أفكاراً معقّدة عن القطّ والكلب، ومرّة أخرى نستطيع أن نرى مناطق الاِختلاف، بل ومناطق التّشابه أيضاً. ومن الحقائق الّتي نعرفها

عنها، أنّها من ذوات الدّم الحارّ، وترضعُ صغارها، يمكننا اِكتشاف أنّ القطط والكلاب تنتمي إلى ***الفئة*** ذاتها - فهي من الثّدييّات. كما نستطيع من أسنانها أن نرى أنّها جزء من ***النّظام*** ذاته - إنّها من آكلات اللّحم. ومن الاِختلافات، حقيقة أنّها-"

أحدها قاتل شرّير مضطرب عقليّاً، والآخر رفيقك المحبّ؟

"هكذا إذن، ربّما، مهما كانت الاِختلافات، نرى أنّها من ***عائلات*** مختلفة – الأوّل من عائلة الكلبيّات، والثّاني من عائلة القطط. هذه معرفة، الفرز والتّصنيف المناسب للبيانات الّتي توفّرها الحواسّ بشكل حصريّ".

يبدو رائعاً. ما الخطأ فيه؟

"كان طموح لوك أن يبدو عقلانيّاً، وأن يلجأ إلى الفطرة السّليمة، وأن يتجنّب التّناقض والغرابة، لكن عقلانيّته تحديداً أدخلته في حالة من الفوضى - فوضى لم تتمكّن التّجريبيّة من إصلاحها إطلاقاً. لقد تغاضيتُ عن الآليات الّتي اِستطاع لوك من خلالها أن يقول إنّ الأفكار في أذهاننا مرتبطة بأشياء في العالم الخارجيّ. ويقول في كتابه "المقالة" إنّ عقلنا ليس فيه سوى أفكار، وأنّ المعرفة تتشكّل فيه من مقارنة هذه الأفكار لرؤية مّا إذا كانت تتطابق أم لا. ولطالما تخيّلت شخصاً صغيراً في دماغي يراقب بعناية مجموعة من شاشات الكمبيوتر، يتلقّى صوراً مختلفة. يمكن حفظ هذه الصّور واِسترجاعها لتسهيل عمل لوك في المقارنة والحكم. لكن المشكلة أنّ هذا المشهد البسيط يحدث بشكل كامل في عقل الفيلسوف. كيف لأيّ شخص عاديّ أن يعرف أنّ أيّ شيء يظهر على الشّاشات يرتبط بالعالم الخارجيّ؟ وعلى أيّ أساس يستطيع هذا الشّخص التّأكيد على وجود رابط بين الاِثنين، إذا كانت الأفكار في العقل هي كلّ ما هو موجود؟

اِدّعى لوك لاحقاً أنّ الأفكار البسيطة تحدث بسبب العناصر الّتي تمثّلها، وتشبّبها أيضاً، لكن كيف يمكن أن نعرف ذلك من الصّور الظّاهرة على شاشات

الكمبيوتر الّتي قيل لنا سلفاً إنّها الشّيء الوحيد الموجود في العقل؟ في تحديد المعرفة بما نختبره، وجد لوك نفسه في حلقة مفرغة. كلّ ما يمكن للتّجربة أن تخبرنا به هو أنّنا نختبر ما نختبره. وبالتّعريف، لا يمكن للتّجربة أن تخبرنا ما هو سبب التّجربة. وكما سنرى، كان لدى ديفيد هيوم طريقة للخروج من هذا المأزق، لكنّها لم تكن طريقة فلسفيّة. طريقة لوك هي تنظيف ما تحت السّجادة بهدوء.

لكن مشاكل لوك لا تنتهي بكيفيّة تأسيس التّجربة. غالباً ما تجد أنّ ما يبدو الأكثر صلابة في النّظريّة هو نقطة ضعفها".

هل تراها بهذه الطّريقة؟

"حسناً، ليس تماماً. من الواضح أنّ الجزء الأضعف في نظريّة ديكارت هو الله. والجزء الأضعف في نظريّة ليبنيز هو الشّيء الملعون كلّه. سوف أعمل على ذلك... لكن، على أيّ حال، الجزء الأضعف في نظريّة لوك هو التّمييز الّذي يبدو منطقيّاً للغاية بين الصّفات الأساسيّة والثّانويّة. وهذه الصّعوبة أشار إليها فيلسوف إيرلنديّ شاب لامع اِسمه جورج بيركلي (1685 – 1753).

بدا بيركلي في بداية الأمر كأنّه يعمل بقوّة على الأسلوب التّجريبيّ ذاته مثل لوك وهوبز (وديفيد هيوم، لاحقاً). بدأ بتكرار وجهة نظر لوك عن ذاتيّة الصّفات الثّانويّة. ومن المفيد أن نتذكّر أنّ لوك أكّد أنّ كلّ ما يستطيع العقل أن يصل إليه هو أفكار تسبّبها أشياء في العالم الخارجيّ بطريقة مّا. لذلك فإنّ الأشياء الّتي نتحدث عنها ليست أشياء بالمعنى الحقيقيّ بل تمثّلات لها في رؤوسنا.

لكنّ بيركلي طوّر الفكرة أكثر. حتّى تلك الصّفات الأساسيّة – الأبعاد والصّلابة والوزن والحركة – أليس لدينا إمكانات الوصول إليها بوصفها أفكارا وتصوّرات موجودة في شكل صور في العقل؟ ما الّذي يمنحنا الحقّ المنطقيّ بِافتراض أنّها موجودة بشكل مستقلّ عنّا أكثر من اللّون والرّائحة والنّكهة؟

والأمثلة ذاتها الّتي اِستخدمها لوك لإظهار أنّ الألوان والنّكهة يمكن أن تختلف من شخص إلى آخر، يمكن اِستخدامها لإظهار أنّ الصّفات الأساسيّة تعتمد على الشّخص الّذي يراها بالطّريقة ذاتها. قطعة الفحم عبارة عن جبل بالنّسبة إلى نملة، وحصاة صغيرة بالنّسبة إلى فيل.

إذا اِستطعنا القول إنّ الصّفات كلّها، الأساسيّة والثّانويّة، موجودة فقط في عقل الشّخص الّذي يراها، فأين يصبح موقع الأشياء بحدّ ذاتها؟ وفقاً لبيركلي، هذا يجعلها حرفيّاً في ***اللّامكان***. وهنا يقوم بيركلي بالحركة المذهلة المقلقة الّتي تعلن عدم وجود أيّة مادّة خارج الوعي. عندما نقول إنّ منضدة أو كرسيّاً أو كلباً أبيض صغيراً موجود، فكلّ ما نقوله في تلك اللّحظة إنّ لدينا تلك الأفكار في أذهاننا. فمن غير المنطقيّ الحديث عن أيّ شيء يتجاوز ذلك، شيء يسبّب تلك التّصوّرات بطريقة مّا، أن تكون، يعني أن يتمّ تصوّرك".

لكن ذلك... ذلك...

"جنون، لكنّه منطقيّ، إذا قبلتَ تلك المواقف المنطقيّة الّتي تبنّاها لوك. تقول الفطرة السّليمة إنّه إذا كان بيركلي على حقّ، فعندما أغلق عينيّ وأفتحهما مجدّداً، سيتوقّف العالم عن أن يكون موجوداً في تلك الفترة الفاصلة. هل يمكننا فعلاً تأمّل عالم يختفي من الوجود ثمّ يظهر بهذه الطّريقة؟

إجابة بيركلي على هذا الاِعتراض هي أنّه لا يختفي ويظهر إطلاقاً، لأنّ العالم خاضع للمراقبة على الدّوام. وقد تمّ اِحتواء وجهة نظره بأسلوب ذكيّ إلى حدّ مّا في أشهر قصيدتين من القصائد الفلسفيّة (الأولى كتبها روبرت كنوكس، والثّانية كتبها شخص مجهول):

قال الرّجل ذات مرّة، "أعتقد، يا الله

أنّ من الغريب

أن تبقى هذه الشّجرة موجودة

عندما لا يكون هناك أحد في محيطها".

أيّها السّيّد العزيز،

دهشتك غريبة.

أنا في محيطها دوماً.

لذلك تبقى هذه الشّجرة

موجودة بِاستمرار

المخلص لك،

الله

لذلك فإنّ عين الله كلّيّ المعرفة تضمن اِستمرار وجود العالم الخارجيّ، من خلال مراقبته حتّى عندما يغلق البشر جميعاً أعينهم أو يتجنّبون رؤيته.

كلام جميل.

"وجهة النّظر الّتي تقول إنّ الأشياء الوحيدة الّتي لها وجود حقيقيّ هي الأفكار في العقل، تُسمّى وجهة النّظر ***المثاليّة***. بينما تسمّى وجهة النّظر المعاكسة – أنّ العالم المادّيّ موجود - ***الواقعيّة***. ومن المزعج أنّ هذا يرتبط بشكل غامض بالإِسمانيّة - نقاش الواقعيّة الّذي بحثناه في مشوار سابق. ربّما ترفض الإِسمانيّة الفكرة الّتي تقول إنّ مصطلح ***كلب*** المعمّم هو شيء حقيقيّ، لكنّ ذلك، بأيّ حال من الأحوال، لا يتضمّن أنّ الكلاب موجودة في رؤوسنا فقط.

يمكننا أن نرى لماذا اِحتكمت وجهات نظر بيركلي إلى بيركلي العجوز. إنّ الواقع بالنّسبة إلى بيركلي، وإلى ليبنيز أيضاً، موجود في العقل وليس "في الخارج". وبالقدر نفسه من الأهمّيّة، الله هو ما يمنح العالم اِستمراريّته.

آخر التّجريبيّين العظماء، ديفيد هيوم (1711 – 1776)، على مستوى معيّن، لم

يكن موافقاً على فكرة أنّه ليس هناك عالم حقيقيّ في الخارج. كان هيوم مؤمناً للغاية بالفطرة السّليمة. وقد اِعترف بأنّ الفيلسوف ربّما يُقنع نفسه للحظات بأنّك تتوقّف عن الوجود عندما تخرج من الغرفة، وأنّه ليس هناك عالم واقعيّ للأشياء خارج العقل. لكنّه يُدركُ بعد ذلك عبثيّة هذه النّظرة ويبتسم، ويستمرّ، كما في السّابق، بِافتراض وجود واقع ملموس للمناضد والكراسيّ والكلاب الصّغيرة.

ومع ذلك، فإنّ تحليل هيوم حول ما تُخبرنا به حواسّنا فعلاً عن العالم الخارجيّ كان مصدراً للتّشوّش والاِرتباك أكثر من مثاليّة بيركلي الغريبة.

معظم تجريبيّة هيوم، الّتي تمّ طرحها أوّلاً في كتابه «**رسالة في الطّبيعة البشريّة**» (1738-1740)، ولاحقاً في نسخته المنقّحة بعنوان "مبحث في الفاهمة البشريّة (1748)، كانت إعادة صياغة معروفة لكثير من أفكار لوك. كلّ ما يدور في عقل هيوم يُسمّى ***تصوّراً***. التّصوّر إمّا ***اِنطباعات*** أو ***أفكار***. والاِنطباعات أكثر حيويّة لأنّها إمّا تصوّرات أو عواطف أو مشاعر. إنّنا نصل إلى التّفاحة الحمراء ونقطفها، ونقضم محتواها المقرمش، ونتذوّق طعمها الحلو، ونشعر بفيض السّعادة. فالاِحمرار والقرمشة والحلاوة والسّعادة كلّها عبارة عن اِنطباعات. وعندما نتذكّر لاحقاً تجربة أكل التّفاحة، يصبح الاِحمرار والصّفات الأخرى الّتي اِختبرناها بتلك الكثافة اِنعكاسات باهتة للتّجربة الأصليّة. إنّها أفكار. لكن مع أنّ الأفكار تفتقد قوّة الاِنطباع الأوّل وحيويّته، فقد اِكتسبنا قابليّة التّلاعب بها وجمعها بطرق مختلفة بِاستخدام الخيال. يساعدنا الخيال على إنتاج أشياء لم نختبرها مثل تشكيل فكرة عن وحيد القرن بالجمع ما بين "حصان" و"قرن". ومع أنّ الخيال يستطيع التّلاعب بالأفكار ودمجها بحرّيّة، إلّا أنّه لا يستطيع أن يدمج سوى المكوّنات الّتي تقدّمها الحواسّ.

من المزعج قليلاً أنّهم لم يستطيعوا التّوافق على الأشياء الموجودة في رأسك.

"هل تقصد الطّريقة الّتي تعني بها الفكرة شيئاً مختلفاً لدى كلّ من لوك وهيوم؟ لا تقلق. الفروقات ليست مهمّة. بالنّسبة إلى كلّ منهما، ما نفكّر فيه جميعاً، هو كيانات في العقل. إنّ هيوم قريب جدّاً من لوك. لكنّ راديكاليّة هيوم أتت بعد ذلك. تقع المعرفة كلّها ضمن فئتين. من جهة أولى، هناك ***أمور الواقع*** وهي الأشياء الّتي ندركها بحواسّنا في العالم الخارجيّ. ومن جهة أخرى، ***هناك علاقات بين الأفكار***. ويعني بذلك تلك الحقائق التّحليليّة الّتي تمتّ مناقشتها سابقاً، قوانين الرّياضيّات والهندسة، والتّصريحات التّوتولوجيّة، مثل "جميع البشر فانون".

إحدى الطّرق الأساسيّة للتّمييز بين الِاثنين هي أنّ إنكار العلاقات الحقيقيّة للأفكار يعني أن تناقض نفسك. إذا قلت، ليس للمثلّث ثلاثة أضلاع بل أربعة، أو إنّ الجذر التّربيعيّ للعدد تسعة ليس ثلاثة بل أربعة، فأنت تظهر أنّك لا تعرف معنى المفاهيم المتضمّنة. لكن أن تنكر أمراً واقعاً، فهذا لا يتضمّن تناقضاً من هذا النّوع. من الممكن دوماً أن يحدث العكس، والطّريقة الوحيدة لِاكتشاف ذلك هو اِستخدام التّجربة. لا وجود إطلاقاً لتجربة يمكن أن تغيّر عدد أضلاع المثلّث، ولا جدوى إطلاقاً من إرسال بعثة علميّة لمحاولة اِكتشاف أحد رباعيّات الأضلاع في الهيملايا أو حوض الأمازون. لكن مهما كان الِاحتمال ضعيفاً، يوجد دوماً فرصة لأن نكتشف في مكان مّا كلباً أزرق الشّعر، أو حبّة بطاطا تشبه "ونستون تشرشل" تماماً.

هذا التّقسيم بين علاقات الأفكار وأمور الواقع معروف بِاسم شوكة هيوم، إذ أنّه إذا فشل كلا رأسي الشّوكة بإصابة شيء معيّن، يكون من المستحيل على هيوم معرفته. شيء كهذا يُعتبر ***سببيّة***. تبدو السّببيّة بالنّسبة إلى معظمنا شيئاً نراه يحدث في العالم على مدار الوقت. ركلتُ حصاة، وتدحرجت عبر الشّارع؛ أشعلت عود ثقاب، وسطع اللّهب. ثمّة أشياء كثيرة تعتمد على سبب أو تتبعه. والعلوم كلّها تأخذ السّببيّة بعين الِاعتبار. إذ تعتمد حياة الإنسان كلّها عليها. ها هي أشياء

تحدث أمام أنوفنا. لا أحد بالتّأكيد يمكنه أن يشكّ بحقيقة شيء كهذا؟

حسناً، هيوم يستطيع".

اِعتقدتُ أنّه ربّما سيفعل.

"أشار، قبل كلّ شيء، إلى أنّ السّببيّة ليست حقيقة مثل حقائق الرّياضيّات. وإنكارُ واقعيّة السّببيّة لا يتضمّن تناقضاً مثل القول إنّ للمثلث أربعة أضلاع".

هذا مقبول منطقيّاً، لكنّها بالتّأكيد نوع آخر من المعرفة، أمور الواقع جزء من الشّوكة؟

"هذا ما تعتقدهُ أنت، لكن ليس لديه أيّ منها. يقول هيوم إنّ كلّ ما نراه عندما تصطدم كرة بلياردو بكرة أخرى هو شيء واحد يحدث - تصطدم الكرة الأساسيّة بالكرة الهدف؛ ثمّ يحدث شيء آخر - ترتدّ الكرة الهدف. وأنا أرى عود الثّقاب يحتكّ بعلبة الثّقاب، ثمّ أرى اللّهب يعلو عود الثّقاب. وأضغط على زرّ في جهاز التحكّم، ثمّ أرى التّلفاز يعمل. ما لا أراه هو السّببيّة. وما نراه هو ما أسماه هيوم ***الرّابط الثّابت***: إنّ العامل (B) يتبع العامل (A) بشكل دائم، أو بشكل دائم تقريباً".

لكنّ هذا مجرّد تلاعب بالكلمات!

"هيوم لا يعتقد ذلك. هو لا يقول إنّ علينا أن نتوقّع أن يتبع العامل (B) العامل (A). البشر محكومون بعادات وتقاليد. نحن نرى شيئاً يتبع شيئاً آخر عدداً من المرّات، ونتوقّع أنّ الأمر سيحدث بهذه الطّريقة دوماً. ويعتقد هيوم أنّ هذا رائع. الفطرة السّليمة والعادات والتّقاليد هي تماماً أنواع الأشياء الّتي يجب أن تحكم سلوكنا. لكنّ هذا لا يغيّر حقيقة أنّ السّببيّة ليست أمور واقع أو علاقات أفكار: إنّها مجرّد شيء تعلّمنا أن نتوقّعه.

السّببيّة بالنّسبة لهيوم هي مثال خاصّ عن ظاهرة أوسع. لقد أشرنا إلى مفهوم

الاِستقراء سابقاً، بما يخصّ أرسطو. يقوم أساس الاِستقراء على فكرة أنّ المستقبل سيشبه الماضي. لقد جمعنا عدداً من الأمثلة عن شيء مّا، لنقل إنّ البجع أبيض. ثمّ نبني قانوناً عامّاً، أي، عندما نقول إنّ جميع البجع أبيض، وهو ما يمكّننا بدوره من تشكيل توقّع عن مستقبل الأحداث، أي، أنّ البجعة المقبلة الّتي نراها ستكون بيضاء. لكن، مرّة أخرى، التّفكير الاِستقرائيّ ليس علاقة أفكار: ليس هناك تناقض في توقّع وجود بجعة سوداء. ولا هي شيء يمكننا ملاحظته. الاِستقراء يشكّل توقّعات عن المستقبل، والمستقبل شيء لا يمكننا مراقبته".

لكن ألا نرى المستقبل أحياناً؟ أعني، أنت تقول دوماً، دن دنز (غداء)، وأركض إلى صحني، وأجد الطّعام دوماً هناك...؟

"حسناً، دعنا ننظر إلى هذه الحالة. ما نريد اِختباره هو ما إذا كان التّفكير الإستقرائيّ أساساً جيّداً لِاستنباط النّتائج. بمعنى آخر، هل سيكون المستقبل مشابهاً للماضي؟ لقد وجدنا أنّ التّفكير الاِستقرائيّ كان ناجحاً في مناسبات مختلفة. وبالتّالي يجب أن يكون مفيداً في المستقبل".

نعععععععم.....؟

"لذلك سوف نفترض تماماً ما كنّا نحاول إثباته في المقام الأوّل".

دع ذلك الماضي يعمل من أجلي مرّة أخرى.

"الاِستقراء هو الفكرة الّتي تقول إنّ المستقبل سيشبه الماضي، بالطّريقة الّتي تجعلنا نستطيع بناء قوانين ووضع توقّعات. أليس كذلك؟"

نعم.

"نجد أنّ الاِستقراء ينجح في عدد من الحالات. لذلك نفترض أنّه سينجح في المستقبل".

نعم.

"وهو ما حاولنا اِكتشافه في المقام الأوّل. لقد اِستخدمت اِستقراءً لتثبت اِستقراء".

أها. فهمت، كما أعتقد. لكن مع ذلك، عشائي يكون دوماً هناك....

"قد يحدث لمرّة واحدة أن يسجّل الاِعتراض العقلانيّ نقطة الفوز. الاِستقراء ليس صحيحاً دوماً. من المعروف أنّه، على الرّغم من ملايين البجعات البيضاء الّتي تمّت مشاهدتها على مدى السّنوات، تمّ نقض النّظريّة الّتي تقول إنّ البجع كلّه أبيض عندما جلبَ أحدهم بجعة سوداء من أستراليا. وهناك قصّة مسلّيّة لبرتراند راسل بما يخصّ الحيوانات الّتي تتوقّع أن يتمّ إطعامها..."

أشكّ في أن تعجبني هذه القصّة...

"عادة ما تُسرَدُ هذه القصّة عن ديك روميّ، لكن قصّة راسل الأصليّة كانت عن دجاجة. تقول القصّة إنّ هناك ديكا روميّا يتناول طعامه في التّاسعة صباحاً. حدث ذلك في 364 صباح. ويستخدم الدّيك الرّومي منطق الاِستقراء بشكل معقول تماماً ليصل إلى نظريّة مفادها أنّه سيحصل على طعامه دوماً في السّاعة التّاسعة صباحاً. إلّا أنّ اليوم التّالي كان يوم عيد الميلاد، ودقّ المزارع عنقه".

نخب عيد الميلاد.

"أهلاً بك. لطالما تأثّر نقد هيوم للاِستقراء بقراءة مذهب الشّكّ القديم - لقد كان هيوم بالتّأكيد صورة مستنسخة جديدة عن الشّكّاكين القدماء على الرّغم من اِعتراضاته من فترة لأخرى. وكان أحدهم، سكستوس إمبيركوس، قد أدخل محاجّات ضدّ التّفكير الاِستقرائيّ في أدواته المناهضة للعقيدة. إذا حاول خصمك الدّوغمائيّ ترسيخ صحّة قاعدة عامّة من قائمة فيها العديد من التّفاصيل المراقبة، يكون لديه أحد اِحتمالين. إمّا أنّه يستطيع اِختيار عدد محدود من الأمثلة، أو يحاول وضع كافة الأمثلة. إذا اِختار الاِحتمال الأوّل، تستطيع القول إنّه تعمّد إغفال الأمثلة الّتي تقوّض هذه القضيّة. وإذا حاول وضع قائمة بكافّة الأمثلة،

فالقائمة لن تنتهي لأنّ عدد الأمثلة المحتملة لا حصر لها. هذه ليست حجّة هيوم بالضّبط، لكنّها ألهمته بالتّأكيد كيف يشكّك بمنطق الإِستقراء.

لذلك رسّخ هيوم فكرة أنّ السّببيّة (الإِستقراء بشكل عامّ) لا يمكن أن تكون وقائع - لا تتمّ ملاحظتها بشكل مباشر بل يتمّ اِستنتاجها فقط. ولا يمكن أن تكون علاقة أفكار. القول إنّ الِاحتكاك "سبّبَ" اِشّتعال عود الثّقاب، أو إنّ الشّمس ستشرق غداً، ليست ببساطة حقائق تحليليّة من النّوع الرّياضيّ أو الهندسيّ، وهو أمر تثبته الحكاية الحزينة عن الدّيك الرّومي الِاستقرائيّ. لا يوجد تناقض منطقيّ في الفكرة الّتي تقول إنّ الِاحتكاك لن يسبّب اِشتعال عود الثّقاب.

أين يضعنا ذلك الأمر؟ كما يحدث عادة، مع هيوم، تأتي العادات والتّقاليد للإنقاذ. لقد اِعتدنا على وجود شيء يتبعه شيء آخر. من المرجّح أن هذه العادة تستمرّ بكونها مفيدة. لا يمكن أن "نعرف"، بالطّريقة الّتي نعرف بها حقائق أخرى مؤكدة عن العالم، أو إظهارها بالطّريقة الّتي أظهر بها إقليدس أدلّة على الهندسة، لكنّنا نستطيع "اَستخدامها".

إنّ شكوك هيوم المعتدلة حول النّزعات العامّة أو، بمعنى آخر، *قوانين الطبيعة*، هي إبستمولوجيّة وليست منطقيّة: لم يشكّ هيوم في وجودها، بل دحض الأساس الّذي نعتمد عليه في الِادّعاء بأنّنا نعرفها. وكان أحد الأسباب الّتي أعاقت هيوم عن تحدّي فكرة قانون الطّبيعة على مستوى أعمق هو أنّ شكوكه، للمفارقة، تتطلّب ذلك".

ماذا؟

"أوه، مازلت صاحياً؟ أشعر أحياناً كأنّني أتحدّث إلى نفسي".

نعم، كنت أريح عيني فقط. للمفارقة، كنت تقول...؟

"نعم، كان هيوم ناقداً شديداً للدّين، أو على الأقلّ للدّين كما كان يُمارَسُ في

عصره. كان لديه نفور معيّن من المعجزات. فقد عرّف المعجزة بأنّها أيّ حدثٍ يتعارض مع قانون الطّبيعة. الكتل الأثقل من الماء يجب أن تغرق. النّاس الّذين فارقوا الحياة لن يعودوا إليها مجدّداً. خمسة أرغفة خبز وسبعة أسماك لا يمكنها أن تطعم حشداً من خمسة آلاف شخص، وتبقى كتلة من الفُتات أكبر ممّا كان موجوداً في بداية التّجربة.[40] لذلك تستطيع أن ترى لماذا يحتاج هيوم إلى مفهوم قانون الطّبيعة في المقام الأوّل: دون قانون، ليس هناك ما تستطيع المعجزة أن تكسره. ربّما لم تزوّدنا التّجربة بما يلزم للقول إنّ قوانين الطّبيعة معصومة من الخطأ، لكنّ الِاقتران المستمرّ، بالإضافة إلى العادة والتّقليد، تعني أنّنا أصبحنا نعتمد عليها. مكتبة سُر مَن قرأ

يشدّد هيوم على أنّ الإنسان الحكيم، يؤكّد إيمانه بالدّليل. إذاً ما الّذي يمكن اِعتباره دليلاً جيّداً على معجزة كسرت تلك القوانين الّتي توصّلنا للاِعتماد عليها؟ المعيار الّذي طوّره هيوم هو أنّ عدم تصديق الشّاهد يجب أن يكون أصعب، وأكثر *إعجازاً*، من تصديق حقيقة أنّ القانون الّذي تمّ إثباته في مناسبات عديدة، قد تمّ خرقه. ونحن نعرف أنّه عندما يكون البشر صادقين، فهم معرّضون بشكل كبير للخطأ باعتبارهم شهودا. وإذا أضفنا أنّ معظم المعجزات حدثت في زمن السّذاجة العامّة، وبين أشخاص غير متعلّمين، أو أولئك الّذين لديهم أسباب تدفعهم للمبالغة أو الكذب، فيجب على الإنسان العقلانيّ أن يستنتج أنّه ليس هناك مبرّر لقبول حقيقة المعجزات. ونظراً إلى أنّ المسيحيّة تتطلّب إيماناً بالمعجزات، لن يدهشنا أنّ هيوم كان يتلقّى هجوماً عنيفاً في أيّامه لكونه ملحداً".

وهل كان ملحداً؟

"نعم، أعتقد ذلك. مع وصول هيوم إلى ذروة الفكر التّجريبيّ العليا، اِعتبر

(40) هذه مجموعة من الاِعتراضات على معجزات يسوع المسيح وفقاً للدّيانة المسيحيّة (م).

الدّين عبارة عن كلام فارغ غير مُثبت، ورأى أنّ إيماننا بالسّببيّة وقوانين الطّبيعة لم يكن مرتكزاً على شيء أكثر ثباتاً من العرف، واعتبر أنّ علم الأخلاق وعلم الجمال ليسا بأيّ حال من الأحوال شيئا "حقيقيّا" في العالم، بل مجرّد مشاعر تسكن العقل البشريّ فقط.

بدأنا مع واقعيّة الفطرة السّليمة لدى لوك، الّذي اِعتقد أنّه يمكن لحواسّنا أن تمنحنا المعرفة الموثوقة. وانتهينا بشيء قريب من الشّكّ الكامل، ولم يرِحْه إلّا قبول هيوم حسن النّيّة لفكرة أنّ العادات والأعراف ستجعلنا نرى".

اِهتزّ رأس مونتي على صدري.

أحدهم قادم.

"ماذا، حقّاً؟"

مكتبة
t.me/soramnqraa

نعم.

تنفّس بعمق.

المرأة القياديّة.

"سنستأنف الأمر لاحقاً.

ما التّالي؟

"كانط".

أووووف.

المشوار (10)

كانط والمنطق الغامض

في مشوارنا الأبستمولوجيّ الثّالث، اِستعرضنا فيلسوفاً كبيراً: جادل إيمانويل كانط في الدّور النّشيط للعقل في تشكيل معرفتنا عن العالم الخارجيّ. ثمّ بحثنا في دور اللّغة في تأطير حدود المعرفة. وأخيراً، اِستنتجنا أنّ ما يُعتبر معرفة يعتمد كثيراً على السّياق، وعدنا إلى الفكرة المفيدة عن "الغموض".

مرّت أيّام قليلة قبل أن نبدأ مشوارنا اللّطيف التّالي. كان لديّ عدّة اِجتماعات خارج المدينة، وتولّت السّيّدة "ماك جي" مسؤوليّة رعاية الكلب. أخذته إلى الطّبيب البيطريّ لمعرفة مشكلة وركه وبعض المشاكل الأخرى. لم تكن أخباراً جيّدة. بل من النّوع الّذي لا ترغب في التّفكير فيه فعلاً. لذلك أخذته بالحافلة في أحد الصّباحات إلى تلّة بريمورز هيل للعلاج. لطالما أعجبه المكان، إذ كان يجلس محدّقاً في أبراج المدينة الزّجاجيّة الفارغة، وأشكال الكنائس القديمة الجميلة. اِستلقينا معاً على بساط صغير يُشرفُ على مُنزلق قرب قمّة التّلّة، بعيداً عن الرّياح.

"هل تذكر إلى أين وصلنا؟ مضت فترة طويلة ..."

كانط، كما أعتقد. تركته معلّقاً فوقنا، كأنّه تهديد.

"حسناً، دعنا نلخّص الفكرة. اِعتقد العقلانيّون أنّ عقل الإنسان هو مصدر

المعرفة كلّها، ولم يثقوا بأدلّة الحواسّ، ورفضوها. وسمح التّجريبيّون بأنواع معرفة معيّنة كالرّياضيّات مثلاً، بإعتبارها وصلت إلينا بالعمل العقليّ المستقلّ (مع أنّ "لوك" رفض حتّى هذه الفكرة)، لكنّ القسم الأعظم منهم اِعتقد بأنّنا نعرف ما نعرف لأنّ أحاسيسنا نقلت معلومات عن العالم إلى عقولنا الّتي كانت ستبقى صفحات بيضاء لولا ذلك. وقدّم لنا العقلانيّون معرفة مؤكّدة عمّا لا يمكن تصديقه، ولم يقدّم لنا التّجريبيّون سوى الشّكّ في ما اِعتقدنا أنّنا نعرفه.

كنّا بحاجة إلى طريقة تجمع وجهتي النّظر معاً، وإعطاء الوزن المناسب لكلّ منهما. فكان الشّخص الّذي حقّق هذه التّوليفة الرّائعة هو إيمانويل كانط. حيث يُعتبرُ تفسير كانط للطّريقة الّتي يعرف فيها العقل العالم، وما هي حدود المعرفة، أحد أعظم الإنجازات في الفلسفة. وقد نشر نظريّته هذه في كتابه بعنوان "***نقد العقل المحض***" (1781) – يُعتبرُ أيضاً أحد أصعب الكتب الّتي تمّ نشرها على الإطلاق، إذ يعكس عمق الفكر وقيوده من خلال تعقيدات اللّغة والتواءاتها (قراءته باللّغة الألمانيّة لا تفيد – ويزعم معظم الباحثين الألمان أنّ من الأسهل فهمه باللّغة الإنكليزيّة)".

أنت تسوّق لهذه الفكرة فعلاً ...

"كانت إحدى مشكلات كانط هي اللّغة التّقنيّة الّتي اِستخدمها. إذ حاول أن يكون دقيقاً ومضبوطاً قدر الإمكان، مستخدماً كلمات خاصّة جدّاً وغير مألوفة لكي يتجنّب اِحتمال سوء الفهم. لكنّ محاولته لتجنّب سوء الفهم أدّت في أغلب الأحيان إلى تجاوز الفهم بشكل كامل. كان يعمل ضمن تقليد راسخ عن التّفكير الميتافيزيقيّ، متّخذاً لغته من أرسطو وديكارت وليبنيز بعد أن أضاف إليها مصطلحاته الخاصّة الّتي كان يقوم بتعريفها ضمن النّصّ عادة، لكن غالباً ما يبدو التّعريف كأنّه يُبعدك عن الفهم أكثر ممّا يقرّبك منه. هذه الأشياء كلّها تجعل قراءته تحدّياً اِستثنائيّاً لأيّ فيلسوف غير مختصّ. لكن يمكن بأيّ حال من الأحوال تقديم أفكار كانط الرّئيسة بطريقة تبسّطها دون أن تشوّهها، على الرّغم

من ضرورة اِستبعاد الكثير من الثّراء والخدع الّتي تحيّر العقل.

اِدّعى كانط أنّه اِستيقظ من "سُباتِهِ العقائديّ" بقراءة هيوم. حيث تحدّته شكوك هيوم لإيجاد طريقة يحدّد فيها ما يمكن معرفته بدقّة. وبالإضافة إلى شكوك هيوم، تحفّز كانط للدّور الّذي أعطاه هيوم للعقل في فهم البيانات الّتي تقدّمها الحواسّ. لكنّه أراد أيضاً أن يتجنّب مثاليّة ليبنيز وبيركلي: هناك عالم حقيقيّ في الخارج. والسّؤال هو كيف نفهمه؟ لذلك كان الهدف من مشروعه الوصول إلى اليقين بما يمكن معرفته، وإضفاء طابع نظريّ مناسب على دور وعي الإنسان في عمليّة المعرفة.

حاولت أن أتجنّب معظم لغة كانط التّقنيّة الصّعبة مستخدماً مصطلحات آملُ أن تكون معروفة، لكن علينا أن نبدأ ببعض التّعاريف. هناك أشياء تستطيع معرفتها من اِختبارها – أطلق كانط على هذا النّوع من المعرفة اِسم " a posteriori" (وتعني "البعديّ"). وهناك ما يمكن معرفته دون اِختبار، من خلال التّفكير، والّتي أسماها "a priori" (وتعني "القبْلي")[41].

معظم الحقائق القبْليّة هي تحليليّة -الحقيقة موجودة مُسبقاً في الفرضيّات، وعمليّة التّفكير هي الّتي تُظهرها. والقياسات المنطقيّة الّتي بحثناها سابقاً هي أمثلة على ذلك. ومع أنّ المعرفة القبْليّة قد تساعد على توضيح ما تعرفه، فهي ليست "جديدة" فعلاً. لذلك، عندما تعرّف ما هو المثلّث، فإنّ جميع الأشياء المهمّة الأخرى الّتي يمكن قولها عنه - مربّع الوتر يساوي مجموع مربّعي الضّلعين القائمين - كانت مُحتجزة هناك مُسبقاً باِنتظار أن تقوم بتحريرها. أمّا الحقائق "البعديّة" فتأتي من التّجربة. إنّها ***تركيبيّة***، بمصطلح كانط، ممّا يعني أنّها تخلق معرفة ***جديدة*** – إنّها تأتي بأشياء لم تكن موجودة سابقاً قبل الفهم.

---

(41) تمّ اِختيار مصطلحيّ "القبْليّ" و"البعديّ" من كتاب "نقد العقل المحض" الصادر عن مركز الإنماء القوميّ، ترجمة: موسى وهبة. والتّرجمة الحرفيّة لهما كما وردت في هذا الكتاب هي "من السّابق" و"من اللّاحق"(م).

في كتاب ***نقد العقل المحض***، يقف كانط موقف تحدٍّ في إثبات إمكانيّة وجود شيء يشبه معرفة تركيبيّة قبْليّة.

هيه أنت، قلت إنّه لن يكون هناك مصطلحات!

"قلتُ إنّني سأحاول أن أبقيها في الحدّ الأدنى... لكنّها واضحة جدّاً إذا ركّزت دماغك الصّغير. يعني مصطلح "التّركيبيّ" أنّه يتضمّن شيئاً جديداً؛ ويعني القبْليّ أنّه لا يُعرف من خلال التّجربة".

وهل يوجد أيّ شيء من هذه الأشياء؟

"هل نجح في ذلك؟ أعتقد أنّه نجح، نعم!

بالنّسبة إلى كانط، للعقل مَلَكَتان تتدخّلان في إنتاج المعرفة. ***الحساسيّة*** هي خاصّيّة الِاستقبال في العقل، قدرته على اِستيعاب معلومات حسّيّة من العالم الخارجيّ. ***الفهم*** هو قدرة العقل على تنظيم الأفكار الّتي تنشأ من الحساسيّة ومعالجتها. يبدو كلاهما مشابهين للطّريقة الّتي تصوّر بها هيوم توليد المعرفة. لكنّ كانط كان يرغب في تجاوز تفسير هيوم السّطحيّ نسبيّاً للعلاقة بين العقل والعالم.

خطوة كانط الأولى هي رؤية أنّ أفعال الإدراك والفهم هي بدقّة تلك – ***الأفعال***. الحساسيّة والفهم، ليستا مسائل اِستقبال سلبيّ، بل عمليّات نشطة. وهما معاً يحوّلان الخليط الفوضويّ للاِنطباعات الحسّيّة، والّتي يسمّيها كانط ***الاِمتدادات***، إلى العالم المنطقيّ المفهوم لتجربتنا.

مع البدء بالحساسيّة، لم يهاجم كانط أبداً فكرة أنّ البيانات الحسّيّة الّتي تدخل إلى العقل تعود إلى شيء ***حقيقيّ*** -يجادل بأنّه ليس هناك معنى لفكرة الظّهور دون وجود شيء حقيقيّ يظهر. لذلك رفض التّورّط بأيّ علاقة مع مثاليّة بيركلي الّذي حافظ على فكرة أنّ التّصوّرات ليس لها أيّ حقيقة خارج العقل الّذي يتصوّرها. ألوان العالم وأصواته وروائحه هي تمثّلات لشيء ***في الخارج***، تماماً كما هي بالنّسبة إلى لوك. وبالنّسبة إلى لوك وهيوم، تعمل عقولنا على البيانات المُدخلة، وتجمعها

وتفسّرها بطرق مختلفة. لكنّ كانط يجادل في أنّ التّنظيم الّذي يقوم به العقل لا يحدث بشكل سلبيّ، بمجرّد اِستقبال الصّور، بل بشكل نشط. ولدى تصوّراتنا بنية من البداية، وهذه البنية فرضها وعينا في فعل التّصوّر تحديداً.

وبالتّالي ما هي هذه البنية؟ أزال كانط البيانات الأوّلية، وومضات اللّون وموجة الحركة، ويقوم الفهم لاحقاً بعمليّات التّرتيب والتّنظيم المعقّدة. وبقي لديه مفهومان كان يتمّ وضعهما سابقاً بشكل دائم "في الخارج" في العالم، لكنّهما اِنتقلا الآن مع كانط إلى الوعي البشريّ: إنّهما المكان والزّمن".

واووو! إذن المكان والزّمن هما في رؤوسنا؟

"تماماً. نحن لا نلاحظ المكان أو الزّمن. هما ليسا مفهومين تجريبيّين ناشئين من تجاربنا. ويجادل كانط بأنّهما ***شروط سابقة*** على أيّة تجربة إدراكيّة من أيّ نوع. طريقة كانط لصوغ ذلك هي أنّ المكان والزّمن عبارة عن ***حدوس أو بديهيّات قبليّة***. إنّ رؤيتك لشيء معيّن يعني أن تصبح لديك فكرة عن المكان والزّمن مكتوبة فيه. من المستحيل أن تتخيّل شيئاً غير منظّم زمنيّاً ومكانيّاً بشكل فعليّ. ولا نستطيع التّفكير في أشياء غير تلك الّتي تشغل حيّزاً مكانيّاً معيّناً، ولديها سمات مثل التّواصل والاِنفصال.

هذا ما يعنيه كانط بفكرة القبْليّة التّركيبيّة. عادة لا يكون شيء معيّن صحيحاً قبل التّجربة إلّا من النّاحية التّحليليّة أو التّوتولوجيّة. لكن لدينا هنا شيء أتى قبل التّجربة، ويتضمّن، على الرّغم من ذلك، معرفة حقيقيّة.

بالنّسبة إلى شخص يجادل في أنّنا نلاحظ المكان "في الخارج"، يجيب كانط أنّه حتّى الفكرة الّتي تقول إنّ المكان موجود خارجنا تفترضُ وجود المفاهيم المكانيّة للدّاخل والخارج، وبالتّالي فهي حجّة تدور في حلقة. وبالشّكل ذاته، فكرة أنّ الأشياء توجد إمّا في تسلسل زمنيّ أو في الوقت ذاته هي مبدأ داخلّي يساعدنا على فهم العالم، وليس شيئاً نكتشفه فعلاً هناك".

أبذل كلّ جهدي هنا، لكنّني لا أمتلك سوى دماغ كلبيّ صغير.

"ليس أنت فقط. إنّه لتحدٍّ حقيقيّ إجبار العقل على التّفكير في المكان والزّمن باِعتبارهما إسقاطات من الوعي، وليسا شيئين يدركهما العقل بشكل سلبيّ. ربّما يساعدنا التّفكير فيهما باِعتبارهما قواعد لعبة. إذا راقبت مباراة كرة قدم، أو شخصين يلعبان الشّطرنج، فإنّ ما يمكن أن يجعلك تشعر بالحيرة، أو ما يبدو بالنّسبة إليك حركات عشوائيّة، يصبح مفهوماً تماماً إذا كنت تعرف قواعد اللّعبة. ليس الأمر أنّنا نتلقّى بسلبيّة صوراً لشخص يركل الكرة أو يحرّك الملك، ثمّ نقوم بعد ذلك بتفسير الحركات: اللّعبة بحدّ ذاتها مبنيّة من خلال وعينا - نحن نقرأ القوانين ضمن المباراة.

يتوافق هذا الفهم المنطقيّ النّشط للعالم بشكل كبير مع سيكولوجيا حديثة تؤيّد بشدّة وجهة نظر مفادها أنّ الدّماغ يعمل بجهد ليمنح التّشوّش الفوضويّ للإدراك الحسّيّ شكلاً ومعنى. وسأعرض مثالاً واحداً أساسيّاً للغاية. عندما ننظر إلى شيء مّا، تصل صورة هذا الشّيء إلى شبكيّة العين. وبسبب بنية العين، تنقلب هذه الصّورة على الشبكيّة رأساً على عقب. وتكون إحدى أولى الأعمال المفروضة على الدّماغ أن يعيد الصّورة إلى الاتّجاه الصّحيح. لكن عمليّة القلب الكاملة هذه تتضمّن معرفة فطريّة بالعلاقات المكانيّة.

من المستحيل بالنّسبة إلينا التّفكير في العالم دون مكان وزمان. اللّحظة الّتي سبقت الاِنفجار الكبير، عندما أتى المكان والزّمن إلى الوجود؟ لا يستطيع العقل البشريّ أن يتصوّر ذلك فعلاً. لدينا كلمات مثل "قبل الاِنفجار الكبير" الّتي يبدو أنّها تعني شيئاً مّا، لكن ليس هناك شيء، ليس هناك صورة في العقل تتوافق معها. أن تفكّر بأي شيء يعني أن تضعه في مكان. أن تتخيله وهو يتحرّك لا يتضمّن فكرة مكان فقط بل فكرة زمن أيضاً، زمن يمضي مع الحركة.

لذلك، حتّى "*الحساسيّة، أو القدرة على إستقبال المعلومة*[42]"، المرحلة الأولى في اِكتساب المعرفة من خلال اِستيعاب التّصوّرات الحسّيّة، تمّ بناؤها من خلال سمات العقل. وتتولّى المسألة الآن المرحلة الثّانية في عمليّة المعرفة: *الفهم*. ينبغي على الفهم تفسير الحدوس أو البدهيّات- مصطلح كانط عن البيانات الأوّليّة الّتي يتمّ تنظيمها في المكان والزّمن - بشكل أفضل لتعني شيئاً بالنّسبة إلينا.

وهكذا تبدأ الحساسيّة عمليّة تحويل بيانات الحاسّة الأصليّة إلى شيء نستطيع معرفته، بترتيبه في المكان والزّمن. ويتمّ رفع الثّقل الحقيقيّ من خلال الفهم، إذ يقوم العقل أثناء ذلك بعمليّات الفرز والتّنظيم والتّجميع والمحاكمة. وللقيام بذلك، يستخدم العقل ما أسماه كانط *مقولات*، وهي كيانات مفاهيميّة مختلفة يوظّفها العقل لفهم البيانات الحسّيّة القادمة.

الفكرة الّتي تقول إنّ أشياء في العالم "الخارجيّ" يمكن تحليلها بواسطة *مقولات* اِستخدمها للمرّة الأولى سقراط (حسناً، لا بدّ أن تكون كذلك...)، والمصطلح الإغريقيّ الأصليّ هو، kategoria، يعني اِتّهاماً أو تهمة موجّهة ضدّ شخص في محكمة القانون. وقد اِستخدم أرسطو المصطلح ليعني شيئاً مثل "المحمول" - شيئاً يمكن أن تقوله، أو سؤالاً يمكن أن تطرحه، عن شيء مّا.

لدى أرسطو عشر مقولات يعتقد أنّها تستنفد جميع الاِحتمالات لوصف شيء معيّن. هناك *الجوهر*، مثلاً، ما هو نوع ذلك الشّيء، رجل أو كلب، أو شجرة. ثمّ لدينا *الكم* - كم عدد تلك الأشياء؟ ثمّ *الكيف* - وهي غامضة قليلاً لكنّ المقصود منها صفات ذلك الشّيء، كاللّون والبنية والرّائحة وما إلى ذلك. ثمّ *الحالة* - الطّريقة الّتي ترتبط بها الأشياء أحدها بالآخر، وبالتّالي يا مونتي، تنبعث منك رائحة أكثر منّي، وأنا أطول منك. ثمّ *المكان* - نحن هنا على هذه الأريكة. ثمّ *الزّمن* - هذا اليوم! ثمّ *الوضع* - أنا أجلس هنا، وأنت تستلقي على صدري. ثمّ

(42) المصطلح هنا هو "sensibility" ويعني حرفيّاً "الحساسيّة" والمقصود بها "قدرة الذّهن على اِستقبال المعلومة" وقد ترجمتها بهذا الشّكل أو ذاك وفقاً للسّياق(م).

الحالة - وهي شيء آخر معقّد قليلاً يقصد به أرسطو الحالة الّتي يتمّ بها القيام بشيء مّا من أجلك -والمثال الّذي أعطاه أرسطو هو "منتعلاً حذائك" أو "مرتدياً درعك". وبالتّالي نقول إنّ مونتي يرتدي معطفه الصّغير الجميل... ثمّ *العقل* - ما الّذي يحدث؟ نحن نفكّر ونتحدّث. وأخيراً، *الإنفعال*، وهي النّسخة السّلبيّة عن الفعل -هل حدث شيء معيّن لك، تمّ ركلك، أو الصّراخ عليك".

كان ذلك مملاً نوعاً مّا.

"آسف. أفهم ذلك، لكن هذا مهمّ. نحن نعرف الآن كلّ شيء يعتقد أرسطو أنّ بالإمكان قوله عن شيء معيّن! إذا حلّلتك بِاستخدام المقولات، لن يبقى هناك أيّ شيء فعليّ يمكن قوله عنك. تكون قد أصبحت مصنّفاً بشكل كامل!"

يوبببيي!

"الشّيء الأساسيّ الّذي يجب تذكّره هو أنّ هذه الأشياء، بالنّسبة إلى أرسطو، هي خصائص الموضوع - إنّها صفات تتعلّق بالواقع الموضوعيّ لأيّ شيء نتحدّث عنه. لكن كانط غيّر الِاتّجاه مئة وثمانين درجة. إذ اِنتقلت طرق تصنيف شيء معيّن من العالم الخارجيّ إلى العقل. وبدلاً من مقولات أرسطو العشر، اِبتكر كانط اِثنتي عشر مقولة نظّمها ضمن أربع مجموعات فرعيّة أسماها "فئات"(43). وهذه الفئات هي الكمّيّة، النّموذج، العلاقة، والكيفيّة. ولا نريد أن نتعمّق أكثر في مقولات كانط، لكن بإيجاز شديد، تتعامل المجموعة الواقعة ضمن فئة الكمّيّة مع عدد الأشياء الموجودة؛ المجموعة الواقعة ضمن النّوعيّة لها علاقة بالشّيء بِاعتباره حاضراً أم لا، أو ما إذا كان محدوداً بطريقة مّا؛ وتهتمّ العلاقة بكيفيّة اِرتباط الأشياء بعضها ببعض في العالم، من خلال السّبب والنّتيجة مثلاً؛ بينما تهتم الكيفيّة بطريقة وجود الموضوع، ومثال على ذلك، هل هو موجود فعلاً، أو هل من الممكن أن يكون موجوداً، أو هل هو موجود بالضّرورة. وعند

(43) المصطلح الإنكليزيّ هنا هو moments، والمعنى الحرفيّ هو "لحظات" لكنّني فضّلت أن أسمّيها "فئات" (م).

تصوّر أيّ شيء في العالم، يطبّق العقل هذه المقولات عليه بأداء يسمّيه كانط ***التّركيب***، وهذا التّركيب، هذا الاِستيعاب المفاجئ لشيء مّا بعلاقاته بالمقولات هو ما يعنيه الفهم أو المعرفة فعلاً.

الأمر مُربكٌ بعض الشّيء. كان ذلك أشبه بضجيج في الواقع. هل يمكنك أن تصوغه بلغة تناسب كلباً؟

"سأحاول. بالنّسبة لفئة الكمّيّة، لاحظ كانط أنّني أستطيع أن أقول، على سبيل المثال، مونتي ينبح، أو بعض الكلاب تنبح، أو جميع الكلاب تنبح. هذه كافة الطّرق الممكنة للتّفكير بالعدد أو الكمّيّة -واحد، البعض، الكلّ. وكذلك لدينا مقولات الواحد، والتّعدّديّة، والشّموليّة، تحت فئة الكمّيّة. وفي فئة النّوعيّة، المقولات الممكنة هي الواقعيّة (مونتي هنا)، النّفيّ (مونتي ليس هنا) والمحدوديّة (مونتي هنا حتّى نغادر)".

يبدو أنّني لست بخير تماماً... هذه الأقراص الّتي وصفها لي الطّبيب البيطريّ... تستطيع أن تجعل التّركيز صعباً.

داعبتُ أنفه.

"عندما أنظر إليك، يقوم عقلي بالعمل بشكل آليّ، مطبّقاً تلك المقولات المختلفة كلّها عليك بقدر ما تكون ذات صلة، وفهمي لشيء في العالم يُدعى مونتي هو مجموع كلّ هذه الأفعال اللّاواعية. هل هذا أفضل؟"

أعتقد ذلك. نوعاً مّا، ربّما. لا، ليس تماماً.

"الشيء الّذي يجب التّشبّث به هو فكرة أنّ عقلي يشتركُ بنشاط في خلق الشّيء الّذي أفهمه بأنّه أنت. ويفعل ذلك من خلال فرض أشكال معيّنة على الاِنفعال المضطرب المجنون لاِنطباعات الحواسّ الّتي ألتقطها. أوّلاً هي تفرض الزّمن والمكان، ثمّ تثبّتك في المقولات المختلفة. والزّمن والمكان والأحكام كلّها في رأسي، بدل أن تكون في العالم".

توقّف، هل يرتبط هذا بذلك الشّيء التّركيبيّ القَبْليّ الّذي نسيت اِسمه؟

"نعم! المقولات وما إلى ذلك هي قبْليّة، ومع ذلك هي أيضاً معرفة حقيقيّة، تتجاوز نفسها لغزو أرض معرفيّة جديدة -في الواقع، هي شروط مُسبقة لِإمتلاك أيّة معرفة على الإطلاق. وعلاوة على ذلك، هذه المقولات هي جزء أساسيّ من كونك عقلانيّاً، لذلك سيمتلكها أيّ إنسان. وهذا يعني أنّ العالم كما يستوعبه العقل البشريّ سيكون عالماً مشتركاً، عالماً مشتركاً بيننا، ويمكن فهمه بشكل متبادل. نحن لسنا عالقين في عوالم خاصّة، مثل مونادات ليبنيز".

حسناً، هذا مريح. هل يمكن أن تدغدغ .... آآآآه نعم، في هذا الموقع تماماً.

"ما بقي لدينا حتّى الآن هو العالم خلف ما هو ظاهر. قلتُ سابقاً إنّ كانط لم ينكر أبداً وجود شيء مّا هناك، مُبتدئاً بسلسلة أحداث تنتهي برؤيتي لشيء اِسمه مونتي، وفهمي له. وٱفترض لوك أنّ هناك خصائص أساسيّة وثانويّة، وٱعتقد أنّ الخصائص الأساسيّة تعود فعلاً إلى شيء، وكانت بمعنى مّا، ما هو عليه هذا الشّيء. وٱعتقد بيركلي (وليبنيز) أنّه ما من شيء موجود في الخارج، بل هي مجرّد فكرة في رؤوسنا-"

لا تقل لي إنّ كانط قد اِتّخذ طريقاً وسطيّاً – وما أسماه أرسطو ***مذهب الوسطيّة الذّهبيّ***؟

ليس تماماً. أطلق كانط مصطلح "noumenon" ليعني به "الشّيء بذاته". وهو من أكثر مصطلحات الفلسفة كلّها غموضاً، هذا ***الشّيء***، الموجود في الخارج، الّذي لا يمكن أن نعرف عنه أيّ شيء. وبخلاف ذلك هو موجود. ليس له شكل ولا وزن ولا نسيج. هذه الخصائص كلّها قد نشأت من قوى عقولنا النّشطة الإبداعيّة. وبالتّالي، نعم، ثمّة وجود هناك، لكنّ كانط يقول إنّ معرفة الإنسان وتفكيره محدود في نهاية المطاف، ولا يصل إلى "الشّيء بذاته". لا تعمل المقولات إلّا على ما هو متاح تجريبيّاً -و"الشّيء بذاته"، الّذي يقع وراء التّجريبيّة، لا يمكن

الوصول إليه. وبالمناسبة، يمكن تطبيق الأمر ذاته على فكرة الله".

أوه، ملحد آخر؟

"لا أحد يستطيع أن يتّخذ قراراً بهذا الشّأن. غالباً ما تحدّث كانط عن الله، وعن ضرورة الإيمان به كطريقة لترسيخ الأخلاق، لكنّه يقول أيضاً لا يمكن أن نعرف ما إذا كان الله موجوداً. لقد أخرج الله من مجال الإثبات العقلانيّ أو العلميّ، وتركه بشكل كامل في عالم الإيمان".

هل تعتقد أساساً أنّ هذا كلّ شيء، وأنّ كانط على حقّ، وأنّ معظم ما نتصوّره ونراه في العالم تمّ فرضهُ من العقل؟

"إلى حدّ كبير، نعم".

هذا كلّ شيء إذن، وقد اِنتهينا من الإبستمولوجيا.

"ليس تماماً. هل يمكنك التّعامل مع المزيد؟"

طالما أنّك تدغدغني في هذا المكان تماماً، نعم، أستطيع التّعامل مع المزيد.

"لم تقف الإبستمولوجيا عند كانط، وأعتقد منذ هذه اللّحظة فصاعداً أنّ الإبستمولوجيا كلّها كانت مسألة صراع مع كانط. وقد اِنتصر بشكل عامّ. لكن هناك نظريّة أخرى أودّ الإشارة إليها بسرعة، ثمّ سأخبرك وجهة نظري الفعليّة.

البراغماتيّة هي إحدى الفلسفات الجديدة القليلة جدّاً الّتي تمّ اِبتكارها منذ عصر الإغريق. ليس هناك شيء يشبهها تماماً في العالم القديم. وهي ترتبط بشكل أساسيّ بحفنة من المفكّرين الأمريكيّين الّذين نشطوا في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، والنّصف الأوّل من العشرين، من ضمنهم "تشارلز ساندرز بيرس" و"وليام جيمس" و"جون ديوي". اِنفصل البراغماتيّون بشكل كامل عن فكرة أنّ هناك حقيقة يجب اِكتشافها، سواء أكانت موجودة هناك في العالم "الحقيقيّ" تجريبيّاً، أو مستمدّة من العقلانيّة المحضة داخل رؤوسنا. ولم تكن

المعرفة، بالنّسبة للبراغماتيّين، مسألة توافق بين الحقيقة وما أعتقده. فالحقيقة ببساطة هي كلّ ما يعمل بأفضل شكل ممكن في وضع معيّن. إنّها في الأساس فرضيّة تطوّريّة: نحن حيوانات تحاول النّجاة والتّوالد في عالم مليء بالتّحدّيات. تساعدنا بعض المعتقدات الّتي نتمسّك بها على الاِزدهار. ويجب إزالة كلّ ما لا يساعدنا مثلما تزول الكائنات الحيّة المريضة. هذا كلّ ما يمكن للحقيقة أن تعنيه على الإطلاق.

دعنا نقل إنّني كنت صيّاد ماموث منذ خمسين ألف عام مضت. وأعرف أنّه في أوقات محدّدة من السّنة، هناك قطيع من الماموث يتجوّل في وادٍ معيّن. ولديّ إيمان بأنّ سبب حدوث ذلك هو أرواح أجدادي الّتي تقود قطيع الماموث إلى الوادي، وهم في طريقهم للاِحتفال بوليمة تمّ تحضيرها على شرفهم في هذا الوقت من العام. ولأنّني أعرف متى سيصل الأسلاف، أعرف متى أكون مستعدّاً برمحي. إنّ تأثير إيماني جعلني أحظى بتغذية جيّدة من لحم الماموث المشويّ.

إنّ إيماني بالأسلاف هو "حقيقة" بالنّسبة للبراغماتيّ. هو لن يقول إنّ الأسلاف قادوا حيوانات الماموث فعلاً – ليس هذا ما تعنيه الحقيقة. لا تتعلّق الحقيقة بما هو موجود فعلاً – ليس هناك "فعلاً" – بل تتعلّق بما يساعدني على تجاوز أيّة إشكاليّة خلال يومي.

هناك مثالٌ آخر، أريد أن أركب الحافلة. أنا أؤمن بأنّ الحافلة تتأخّر دوماً يوم الأربعاء، لذلك تأخّرت أثناء سيري إلى محطّة الحافلات. ولم ألحق الحافلة. لقد كان إيماني المرتبط بالحافلة خاطئاً، لكنّ هذا يرجع فقط لأنّني لم ألحق بها. هل يجعلك الإيمان بالله سعيداً، ويحسّن سمات حياتك؟ إذا كانت الإجابة نعم، فإنّ الله "حقيقة".

حلّت البراغماتيّة العديد من المشاكل التّقليديّة للميتافيزيقيا والإبستمولوجيا.

لقد حلّتها بالقول إنّه لا صلة لها بالموضوع. لم نعد بحاجة للتّحرّي عن الطّبيعة المطلقة للواقع، أو التّنظير حول مقولات العقل أو مفاهيمه. كلّ ما يهمّ هو: هل لحقت بالحافلة؟ إذا لحقتها، فإنّ إيماني بها كان صحيحاً بالمعنى الوحيد الّذي يمكن للحقيقة أن تعنيه.

لقد تأثّرتُ للغاية بالبراغماتيّة، ووجهة نظري الخاصّة متأثّرة ببعض الأفكار البراغماتيّة. لكنّ الفيلسوف بيرتراند راسل (1872 – 1970) وجّه ضربات قويّة للبرغماتيّة لن تُشفى منها أبداً. قال راسل إنّه إذا كان الإيمان "صحيحاً" فقط إذا كان أثره جيّداً، فنريد أن نعرف (أوّلاً) ما هو الجيّد، و(ثانياً) ما هي آثار الإيمان. دون معرفة هذه الأشياء، لا يمكننا أن نعرف أبداً ما هي الحقيقة. لقد جعلت هذه العمليّة الحياة أصعب بكثير بدل أن تبسّطها. وكان مثاله على ذلك هو محاولة معرفة ما إذا كان صحيحاً أنّ كريستوفر كولومبوس اِكتشف أمريكا عام 1492. بدلاً من الذّهاب إلى سلطة مرجعيّة معيّنة، والبحث في الإنترنت، أو قراءة التّاريخ، يجب على البراغماتيّ أن يتأكّد بطريقة مّا من آثار هذا الإيمان. هل الإيمان بأنّ كولومبوس عبر المحيط الأطلسيّ عام 1492 أكثر فائدة لي من الإيمان بأنّه عبره عام 1493؟

قد يشير البراغماتيّ إلى أنّه هناك ظروف تمنحك فيها إجابة عام 1492 فائدة معيّنة، أثناء تقديم اِمتحان مثلاً. عندئذٍ ستصبح "حقيقة". لكن ماذا لو كان مزاجيّ بحالة جيّدة بسبب اِجتيازي للاِمتحان بنجاح ومشيت في الطّريق دون أن أنتبه للسّيّارات، وصدمتني حافلة (ربّما تلك الّتي لم ألحق بها سابقاً)؟ هل سيكون خاطئاً أنّ كولومبوس أبحر عبر الأطلسي عام 1492 لأنّ "معرفة" ذلك قتلتني؟

إذا آمنت بأنّ شيئاً مّا صحيح فقط لأنّ له نتائج جيّدة، فإنّ إيماني بهذا، أي، البراغماتيّة، يجب بدورها أن يكون لها نتائج جيّدة إذا كان ينبغي أن تكون صحيحة. وإيماني بأنّ إيماني بالنّتائج الجيّدة للبراغماتيّة يجب أيضاً أن يكون له نتائج إيجابيّة إذا كان ينبغي أن يكون صحيحاً. وهذا الإيمان بالإيمان بالنّتائج

الجيّدة للإيمان بالنّتائج الجيّدة للإيمان بالنّتائج الجيّدة يجب أيضاً أن يكون-"

يكفي!

"حسناً، لقد اِستوعبت الأمر. تستمرّ الحجّة إلى ما لا نهاية. المشكلة هي أنّه تمّ تعريف الحقيقة فقط بما يتعلّق بتجاربي الذّاتيّة، مع عدم وجود ما يربطها بأيّ شيء آخر خارجها. كيف نعرف أنّ عيد ميلاد الأب موجود؟ لأنّه جعل النّاس سعداء أكثر ممّا جعلهم تعساء".

لكنّك كنت تقول إنّه لا يزال هناك شيء فيه....

"حان الوقت للحديث عمّا تبنّيته من الحقيقة والمعرفة. لن يفاجئك أنّ الأمر له علاقة بمفهوم الغموض هذا. أعتقد أنّ جزءاً كبيراً من المشكلة الّتي نواجهها عندما نتحدّث عن المعرفة هي أنّنا ندمج أنواعاً مختلفة من القضايا الّتي لكلّ منها معاييرها الخاصّة للمعرفة، وبعضها يتطلّب درجة عالية من اليقين وبعضها لا. لذلك فإنّ ما علينا القيام به هو إمعان النّظر إلى كلّ حالة تتطلّب معرفة، واِتّخاذ قرار بما يُعتبر صحيحاً أو لا في تلك الظّروف. وهذا يعني في الواقع أنّ "الصّحيح" لا يعني شيئاً ما لم يتمّ تحديد الشّروط.

تخيّل أنّني أنتظر في محطّة الحافلات. وموعد الحافلة في السّاعة 11.55. والشّخص الواقف قربي في النّسق يشعر بالقلق بشأن عدم اللّحاق بالحافلة. يرى أنّني أحمل ساعة، ويسألني عن الوقت. أستطيع أن أعطيه إجابات متعدّدة. يمكن أن أقول، "اِنتظر لحظة لأتفحّص الوقت". أعرف في الواقع شخصاً في المنظّمة الأوروبيّة للأبحاث النّوويّة، ولديه أدقّ ساعة في العالم، أتّصل به، أفتح لوحة المفاتيح، أنتظر قليلاً، وأخيراً، عندما يستقلّ الرّجل الحافلة، أقول له، "الوقت هو 11.54 صباحاً، و17.21345621 ثانية!""

منزعج.

"أو يمكن أن أقول، "لا أعرف"".

ماذا؟ هل تعطّلت ساعتك؟

"لا، إنّها تعمل. لكن ليس هناك ساعة، ولا حتّى السّاعات الأوتوماتيكيّة المستخدمة في المخابر العلميّة، تعطي الوقت الدّقيق تماماً. وساعة يدي ربّما تكون دقيقة منطقيّاً، لكنّها ستختلف ببضع ثوان. وساعة صديقي في المنظمة الأوروبيّة، ستختلف بجزء أو جزأين من الثّانية. وبالتّالي، لا، أنا لن أعرف الوقت ***بدقّة"*** .

لا تتوقّع منّي أن أحميك إذا ضربك بمظلّته.

"أو عندما يسألني الرّجل، أقول، "السّاعة الآن حوالي الثّانية عشر ظهراً". لكن هذا غير مفيد أيضاً، لأنّ الإجابة ضبابيّة للغاية، ربّما فوّت الحافلة أو لم يفوّتها. تكون الإجابة الصّحيحة في هذه الحالة، وليست الإجابة الأكثر دقّة ("لا أعرف")، وليست الأكثر تحديداً ("11.54، و17.213456521 ثانية")، وبالتّأكيد ليست الإجابة الغامضة ("حوالي الثّانية عشر ظهراً")، لكنّها الإجابة الصّحيحة بدرجة مّا من الدّقّة ("سيصل خلال خمس دقائق").

وجهة النّظر الّتي تقول إنّ الحقيقة تعتمد على السّياق من بعض النّواحي هي قريبة إلى حدّ مّا من البراغماتيّة، في أنّ الحقيقة مرتبطة بالفائدة. لكنّها اِعترافٌ أيضاً بأنّ هناك وقتاً حقيقيّاً، هو ليس حقيقيّاً لأنّه يجعلني سعيداً بل بسبب حقائق موضوعيّة عن العالم.

ثمّة حالات أخرى يشتدّ فيها الغموض إلى درجة يصعب فيها الوصول إلى الحقيقة حقاً. غالباً ما يكون ذلك بسبب طبيعة اللّغة. ربّما تطوّرت اللّغة كأداة براغماتيّة لتحقيق أشياء معيّنة - تمكين أسلافنا من تنسيق عمليّات الصّيد بشكل أفضل، والمساعدة في الحفاظ على الرّوابط الِاجتماعيّة بين الأفراد؛ وربّما مساعدة الأفراد على كسب اليد العليا على الآخرين في المنافسة على الشّريك والحصول على الطّعام. لكن اللّغة سرعان ما بدأ اِستخدامها لغايات أخرى.

من الواضح أنّ لها بعض القدرة على نقل حقائق عن العالم ("نمر! اُهرب!")،

لكن هناك أوقات تكون فيها أداة بدائيّة وغير مناسبة. ربّما يسألك أحدهم كيف تشعر حيال شيء مّا. ممّا يتضمّن تحويل العمليّات النّفسيّة والبيولوجيّة إلى كلمات، وهو أمر ربّما يكون مستحيلاً حتّى لو كنتَ بليغاً للغاية، ومصمّماً على الصّدق".

دائماً ما تكون المشاعر مراوغة بعض الشّيء. لكن، عادة، يتدبّر النّاس أمرهم بمعرفة معانيها، أليس كذلك؟ مشاوير، دن دنز (غداء). هذا ليس علم صواريخ.

"ربّما لا تكون اللّغة علم صواريخ، لكنّها أكثر تعقيداً وغرابة ومرواغة ممّا تعتقد. نحن نميل إلى التّفكير باللّغة بطريقة مبسّطة، كلمات لها علاقة مباشرة وغير إشكاليّة مع الموادّ الموجودة في العالم الخارجيّ. إنّ كلمة "حافلة" مثل إصبع يشير إلى ذلك الشّيء الأحمر الكبير ذي العجلات الأربع، والمليء بالركّاب. ومن وجهة النّظر هذه، ترقى اللّغة إلى ما يشبه صورة عن العالم، وكلّما كانت الصّورة أكثر شبهاً بالعالم، مثل صورة شخصيّة فائقة الواقعيّة تمّ تصميمها ببرامج الكومبيوتر، كنّا أقرب إلى الحقيقة.

لودفيغ فيتغنشتاين (1889 – 1951)، الّذي تحدّثنا عنه سابقاً، طوّر نسخة أكثر تعقيداً من هذه في كتابه بعنوان "***الأطروحة المنطقيّة الفلسفيّة***" (1921). وتشبه هذه ***الأطروحة*** كتاب سبينوزا بعنوان "***الأخلاق***"، في أنّها تتكوّن من فقرات مرقّمة مرتّبة في أقسام، بطريقة شبه رياضيّة. يبدأ كلّ قسم بتأكيد صارم يُفترض أن يكون واضحاً، مثل فرضيّات سبينوزا، و"أوّليّات" إقليدس. وكلّ اِقتراح يتمّ توضيحه وتوسيعه بفقرات فرعيّة مرقّمة. وهكذا يبدأ:

1. العالم هو كلّ شيء موجود.

1.1 العالم هو مجمل الحقائق، وليس مجمل الأشياء.

يتشكّل الواقع من سلسلة من الحقائق، أو الظّروف. ويقوم عمل اللّغة على تصوير هذه الحقائق بشكل مباشر. تخيّل حادث سيّارة. عليك أن تصف ماذا

حدث. يقدّمون لك نماذج صغيرة للسّيارات المتورّطة في المشكلة والطّرق والمباني".

والحافلة؟

"والحافلة. ويحدّد كلّ نموذج شيئاً في العالم. أنت تعيد خلق الحادث بشكل دقيق باِستخدام نماذج، وتضع بعناية السّيارة الصّغيرة والحافلة (اللّعبة) في المكان الصّحيح تماماً. تعتمد "صحّة" تمثيل النّموذج على مدى توافقه مع الحقائق في العالم الخارجيّ، لدى حدوثها.

ضع الآن الكلمات والتّصريحات بدل النّماذج. هذه هي الطّريقة الّتي تعمل بها اللّغة لتصوير العالم. بدلاً من اِستخدام النّماذج، ربّما أقول، ***السّيارة الّتي كانت تسير جنوباً في تلّة "كاننون هيل" اصطدمت بالحافلة الّتي كانت تسير شمالاً***. كلّ مقطع في الجملة يتوافق مع حقيقة في العالم. وهناك فرضيّة بأنّ اللّغة ربّما كان لها أصل تصويري فعليّاً. في الجملة الّتي تقول ***إنّ السّيارة كانت إلى يمين الحافلة***، كلمة "السّيارة" موجودة فعليّاً إلى يمين كلمة "حافلة". وبالطّبع، اِستخدمت أقدم أشكال اللّغة المكتوبة الصّور التّوضيحيّة لتمثيل الأشياء.

على أيّ حال، ثمّة العديد من الأشياء الّتي لا يمكن الحديث عنها إذا رأيت أنّ اللّغة لها علاقة تصويريّة مع "الحقائق" في العالم. يعترف فيتغنشتاين بذلك في الكلمات الأخيرة الشّهيرة من كتابه ***الأطروحة*** - إنّها إحدى السّطور القليلة الّتي يحفظها كلّ فيلسوف عن ظهر قلب: "حيث لا يمكن للمرء أن يتكلّم، لا بدّ من الصّمت". تلك الأشياء الّتي لا يستطيع المرء الكلام عنها ليست أشياء عديمة الأهمّيّة -بالنّسبة إلى فيتغنشتاين أو لنا نحن. هو يقصد بذلك الدّين والأخلاق والجمال ومعنى الوجود. هذه الأشياء كلّها، بالنّسبة إلى فيتغنشتاين، أشياء لا يمكن للّغة أن تصل إليها، كما أنّها ليست قضايا واقعيّة يمكن تخصيص كلمات وفرضيّات لها. اِعتقد فيتغنشتاين أنّه وضع حدّاً لما يمكن قوله. وضمن هذا الحدّ،

أيّ شيء يمكن قوله يكون مفهوماً بوضوح. وما بعد ذلك، هو مجرّد رغاء كلاميّ لا معنى له – ويقصد بذلك معظم الكلام عن الفنّ والفلسفة والدّين".

هل هذا صحيح؟ هل هذا ما تعنيه اللّغة، مجرّد قائمة بحقائق عن أشياء في العالم؟

"إنّها فكرة مغرية من بعض النّواحي أنّ اللّغة مجرّد مسألة ربط اِقتراح بحقيقة "في الخارج". تصبح الحقيقة والأكاذيب أشياء يمكن اِكتشافها بسهولة. تبدأ اللّغة العاديّة فجأة بالعمل كالرّياضيّات، إذ لا يوجد أيّ غموض إطلاقاً حول معنى الرّمز. إنّ ما قدّمه فيتغنشتاين في ***الأطروحة*** هو علاج الغموض. إذا كانت اللّغة فعلاً كما عرضها، فكلّ ما يمكن قوله، يمكن قوله بوضوح رياضيّ مطلق. والثّمن هو أنّ الكثير ممّا ترغب بقوله لا يمكن قوله إطلاقاً.

اِعتقد فيتغنشتاين فعلاً أنّ الفلسفة وصلت بكتابه هذا إلى نهايتها".

أعتقد أنّه كان مخطئاً...

"نعم، كان مخطئاً. ثمّة مشاكل كثيرة في وجهة النّظر اللّغويّة هذه، حتّى لو تجاهلنا الهوّة المؤلمة لما أهملته بالضّرورة. يبدو أنّ نظريّة الصّورة تنجح مع الأسماء والأفعال والظّروف والصّفات – ***سارت الحافلة الحمراء بسرعة***، هي صورة منطقيّة لشيء حدث. لكن ماذا عن كلمات أو أحرف عطف مثل "و"، "أو"، "لكن" و"لماذا"؟ ما الّذي تصوّره؟

رأى فيتغنشتاين في النّهاية أنّ وجهة نظره الأولى عن اللّغة ليست كافية. فقد جسّدت وجهة نظر ذرّيّة مختزلة عن العالم واللّغة: تُقسم التّجربة إلى وحدات مستقلّة صغيرة ترتبط بكلمة أو عبارة واحدة. إنّها مبالغة في تبسيط عالم لا يتكوّن من وحدات معزولة من الوجود بل من شبكة متداخلة معقّدة، ولغة تنسج الكلمات معاً، وينبثق المعنى من تفاعلها.

بحثت فلسفة فيتغنشتاين اللّاحقة، الّتي ظهرت في كتابه بعنوان ***تحقيقات***

فلسفيّة (تمّ نشرها بعد وفاته عام 1953)، بالتّفصيل في بعض الطّرق المتعدّدة الّتي نستخدم فيها اللّغة. لم تأتِ قابليّة اللّغة لتوليد المعنى من الكلمة وما هو موجود في العالم، والّتي تمّ دمجها معاً "في سيخ الكباب ذاته"، بل من خلال أنماط اِستخدام خفيّة وقوانين معقّدة تجسّدت في نسيج حياتنا.

ومع أنّ وجهة النّظر اللّاحقة هذه عن اللّغة كانت أكثر خصوبة وثراء، وأعتقد أنّها كانت أكثر صحّة أيضاً، فقد اِقترحها فيتغنشتاين قبل أن تؤدّي تطوّرات معيّنة في علم اللّسانيّات إلى تغيير كيفيّة رؤيتنا للعلاقة بين العالم وأفكارنا ولغتنا بشكل كامل.

تبّاً، فقط عندما أصبحت قريباً من فهم الأمر.

"بحث علم اللّسانيّات تقليديّاً كيف تتغيّر الكلمات مع الزّمن، وساعد الِاعتقاد بأنّ معنى الكلمة متضمّن في هذه العلاقة المتطوّرة تاريخيّاً بين الكلمة والشّيء الّذي تمثله. وغالباً ما كانت وجهة نظر "علم أصول الكلمة" مُبهرة بحدّ ذاتها. وهكذا، أشار الكاتب الأرجنتيني "خورخي لويس بورخيس"، في إحدى محاضراته عن المجازات مثلاً، أنّ كلمة "تهديد - threat" أتت من كلمة أنغلوساكسونيّة ("ðreatt") تعني "حشد". من السّهل جدّاً رؤية كيف تطوّر المعنى الحديث من المعنى السّابق "الحشود هي أماكن خطرة".

لكن اللّغويّ السّويسريّ "فرناند دي سوسير" (1857-1913) اِتّخذ منهجاً مختلفاً للغاية لتحليل كيفيّة عمل اللّغة. حيث اِعتقد أنّه بدلاً من ملاحقة كيفيّة تغيّر معنى الكلمات بمرور الزّمن (يُسمّى دراسة اللّغة في فترات تاريخيّة مختلفة) علينا تحليل اللّغة بالطّريقة الّتي تعمل بها الآن، كنظام دلاليّ (دراسة اللّغة في فترة معيّنة من الزّمن).

معرفة أنّ كلمة "تهديد" أتت من المصطلح اللّاتينيّ "ðreatt" هو أمر رائع، وربّما يسلّط الضّوء على المجتمع الأنغلوساكسونيّ، لكنّه لا يخبرنا بأيّ شيء عن

كيفيّة اِستخدام الكلمة الآن. إذا حذّرتك من تهديد موجود بين العشب، يجب أن تعرف أنّ هناك خطراً، وليس حشداً".

يمكنني الإمساك بالأفعى، هي في الأساس مجرّد قطعة نقانق لها لسان، وفقاً لرؤيتي للأمر.

"الوحدة الأساسيّة لعلم اللّغة البنيويّ هي العلامة. ويتمّ تشكيل العلامة من مكوّنين اِثنين، المكوّن المادّيّ وهو الصّوت المنطوق أو الشّيء الّذي يمكن كتابته على ورقة، والمكوّن العقليّ، أي الفكرة الّتي يشير إليها المكوّن المادّيّ. ويسمّى المكوّن المادّيّ "الدّالّ"، والمكوّن العقليّ "المدلول". ويتّحد المكوّنان معا في العلامة. كلمة "DOG"، الّتي تعني كلب، هي علامة تشكّلت من ثلاثة أحرف "D – O – G"، والفكرة المعروفة عن "الكلب". أنت تصادف إشارة ضوئيّة حمراء. الأحمر هو "الدّال"، و"توقّف" هو المدلول؛ كلاهما معاً يشكّلان العلامة. النّباح هو الدّال، والمدلول هو –".

أعطني نقانق؟

"أعطيك نقانق. النّقانق هي الدّال، والمدلول هو "أنا أحبّك"".

هذا رائع. لكن أين هذه النّقانق تحديداً...؟

"مجرّد توضيح الآن. لا تعمل العلامات وحدها بل تعمل معاً في لغة معيّنة، ويتحدّد المعنى من علاقتها بالعلامات الأخرى دوماً. لا يعني الأحمر توقّف إلّا في علاقته مع الأخضر (اِنطلق) والبرتقاليّ (اِستعدّ).

العلاقة بين الدّال والمدلول هي علاقة اِعتباطيّة عادة – الكلمة الإنكليزيّة "DOG"، والفرنسيّة "chien"، تشيران إلى الفكرة ذاتها، "كلب"؛ وبما أنّنا اِتفقنا، يمكننا اِستخدام أيّ صوت أو كتابة بخطّ مائل لكي تعني "كلب". هذا الرّابط الاِعتباطيّ بين الدّال والمدلول يعني أنّ المعاني تميل بمرور الوقت إلى الاِنحراف والتّغير بطرق لا يمكن التّنبّؤ بها، ممّا يضيف عنصر عدم الاِستقرار إلى نظام

المعنى.

يُطلقُ على دراسة العلامات مصطلح السّيميائيّة، وهي تبقى طريقة مثمرة وساحرة للبحث في الثّقافة البشريّة. وتعجبني فعلاً طريقة النّظر إلى العلامات الّتي طوّرها البراغماتيّ "تشارلز ساندرز بيرس" (1839 – 1914). حيث وصف ثلاثة نماذج للعلامات، ***الرّمز، الإشارة، والعلامة المناسبة***، وحدّدها بعلاقات مختلفة بين الدّال والمدلول. مع الرّمز، تكون العلاقة عبارة عن تشابه بين الاِثنين - صورتك يا مونتي هي عبارة عن رمز. كما هي صورة وجه أو لوحة لشجرة أو محاكاة صوتيّة "لِانفجار" أو "اِصطدام". ويُصبح الاِرتباط أقلّ وضوحاً مع الإشارة، لكن يبقى هناك علاقة ماديّة: تورّد الوجه قد يكون مؤشّراً على الإحراج، والغيوم السّوداء قد تكون مؤشّراً على عاصفة قادمة. وأخيراً لدينا العلامة المناسبة الّتي يكون فيها الرّابط تقليديّاً تماماً كما في اللّغة المكتوبة أو المنطوقة. من الممتع تماماً أن تجول بعقلك وتخصّص نماذج مختلفة لعلامة للفئة الصّحيحة. سرعان ما ستبدأ برؤية كلّ شيء في العالم المحيط بك كأنّه دلالة على شيء مّا: السّيارات كدلالة على الثّروة، الفروق الدّقيقة الّتي تشير إليها الرّموز الّتي توجد على أبواب الحمّامات العامة-"

رموز غريبة.

"تتّخذُ أشكالاً مختلفة. إنّ بنية العالم تُملي بُنية اللّغة من وجهة نظر فيتغنشتاين - تستدعي الظّروف هناك كلمة أو عبارة معينة لوصفها. وتكون العلاقة معكوسة أو، على الأقلّ، معقّدة للغاية في اللّغويّات البنيويّة. وتشكّل اللّغة الطّريقة الّتي نرى بها العالم ونفهمه. وكما تكون الدّلالات -المصطلح الّذي نستخدمه للأفكار - اِعتباطيّة، تكون الطّريقة الّتي تقسّم بها اللّغة العالم اِعتباطيّة أيضاً، أو بالأحرى، شيئاً يختلف ذاتيّاً باِختلاف الثّقافات بدل أن يكون حقيقة موضوعيّة.

هناك مثال مرحٌ عن ذلك في مقالة بورخيس بعنوان "اللّغة التّحليليّة لـ جون

ويلكنز" (1952). يصف بورخيس "موسوعة صينيّة معيّنة" اِسمها " Celestial Emporium of Benevolent Knowledge"[44]، كُتِبَ فيها أنّ الحيوانات تُقسّم إلى فئات اِفتراضيّة مختلفة منها "تلك الّتي تنتمي إلى الإمبراطور" و"المحنّطة" و"تلك الّتي ترتجف كما لو أنّها مُصابة بلوثة عقليّة" و"تلك الّتي كسرت للتّوّ إناء الأزهار" و"تلك الّتي تبدو من مسافة بعيدة مثل الذّباب"".

أعجبني ذلك. دغدغني.

"النّقطة الأساسيّة هنا هي أنّه بدلاً من تصنيف الحيوانات وفق نظامنا الّذي يقوم على التّشابه الشّكليّ والتّاريخ التّطوّري المشترك، كان معيار التّصنيف هنا له علاقة بالاِستخدام أو التّخيّل الغريب.

المثال الأكثر شهرة عن فكرة أنّ اللّغة مسؤولة عن كيفيّة رؤيتنا للعالم، وليس اِنعكاسه في أذهاننا فقط، هو وجهة النّظر الّتي طرحها الأنثروبولوجيّ "فرانز بوس"، وتمّ تعميمها لاحقاً كجزء من فرضيّة "سابير- وورف"[45]، بأنّ شعب "الإنويت"[46] كان لديه خمسون كلمة تعني الثّلج. نظراً لِإمتلاكهم لغة دقيقة، كانت لديهم القدرة على "رؤية" نماذج مختلفة لا يمكن تمييزها من أشكال الثّلج. وقد أصبحت هذه النّظرة ضعيفة المصداقيّة لكن الأبحاث الأخيرة تفترضُ أنّ "بوس" ربّما قلّل في الواقع قدرة شعب الأنويت على التّمييز. في لهجة شعب الإنويت المحكيّة في منطقة "نونافيك" الكنديّة مثلاً، يوجد ما يقارب ثلاثة وخمسين كلمة تشير إلى الثّلج، بما في ذلك "ماتساروتي" الّتي تعني الثّلج الرّطب المستخدم لتقوية أطراف الزّلّاجة، و"بوكاك" الّتي تعني الثّلج المسحوق الشّبيه بالملح.

(44) المعنى الحرفيّ للاِسم هو "المركز التّجاريّ السّماويّ للمعرفة الخيريّة" (م).
(45) فرضيّة طرحها إدوارد سابير للمرّة الأولى عام 1929، ثمّ طوّرها بنيامين وورف، وتتحدّث عن نسبيّة اللّغة، حيث تشير إلى مبدأ تأثير بنية اللّغة على رؤية العالم الخاصّة بالمتحدّث أو على إدراكه، لذلك فإنّ تصوّرات الأشخاص تخضع للغتهم المنطوقة (م).
(46) السّكان الأصليون في شمال كندا وغرينلاند وألاسكا (م).

حتّى الأشياء الّتي تبدو موضوعيّة مثل طيف الألوان، يتمّ تقسيمها بطرق مختلفة. يتدرّج عدد مصطلحات الألوان الأساسيّة المستخدمة في الثّقافات المختلفة من اِثنين إلى أحد عشر، مع عدم قدرة تلك المجتمعات الّتي لديها مصطلحات لونيّة قليلة على **رؤية** الألوان الّتي ليس لديها اِسم لها. وبالشّكل ذاته، لا تحتاج مجموعات قبليّة نائية في الأمازون، وأجزاء أخرى من العالم، إلى تطوير أنظمة عدديّة تتجاوز العدد أربعة (أو عدد آخر صغير نسبيّاً). وأمام مجموعات أشياء يزيد عددها عن أربعة – بما في ذلك أطفالهم – يقولون إنّها "كثيرة". ودون طريقة للتّعداد، لا يستطيعون جعل أذهانهم تستوعب أعداداً أكبر.

جادل النّسويّون والنّسويّات بأسلوب مقنع بأنّ قوّة الذّكر والسّيطرة الثّقافيّة تعود إلى أنّ الذّكورة تمّ نقشها في لغتنا، فأجبرتنا على رؤية النّساء دونيّات، وعزّزت الصّورة النّمطيّة السّلبيّة عن المرأة، ودعمت موقعها الموسوم بالتّبعيّة والخنوع. وتؤدّي اللّغة العنصريّة الوظيفة ذاتها في التّشدّد ضدّ المجموعات العرقيّة الأخرى وتحقيرها".

هذا مثير لِلاهتمام إلى حدّ مّا، لكنّني نسيت ما كنّا نحاول القيام به من الأساس.

"أوه، آسف. أحاول أن أظهِرَ أنّه بهذه الطّرق، لم تعد اللّغة أداة بسيطة للمعرفة، بل طريقة يتمّ من خلالها تشكيل ما هو معروف، والتّحكّم فيه.

كانت البنيويّة حركة مهمّة في الفكر الأوروبيّ معظم القرن العشرين، حيث أثّرت بكلّ شيء من الأنثروبولوجيا إلى دراسة الأفلام. كانت الفكرة الرّئيسيّة أنّ سلوكيّات البشر المهمّة كلّها لا يمكن فهمها إلّا باعتبارها جزءا من بنية تعمل بطريقة مّا مثل اللّغة، مع قواعد ومفردات لا يعني فيها أيّ عنصر مفرد أيّ شيء إلّا من خلال اِرتباطه بعناصر أخرى.

مع أنّ البنيويّة سمحت ببعض الاِنزلاقات في المعاني واللّعب بها، إلّا أنّ هناك اِستقراراً أساسيّاً اِعتقدَ سوسير والبنيويّون الآخرون أنّه أعطى قيمة علميّة وموضوعيّة لنظريّاتهم. وحطّم "جاك دريدا" (1930 – 2004) هذه الثّقة عندما قوّض الثّقة العلميّة بالبنيويّة ببراعة. وجادل بأنّ اللّغويّات البنيويّة الكامنة - الكامنة بالتّأكيد في جميع النّظريّات تقريباً الّتي تحاول تحديد فكرة موضوعيّة عن الحقيقة، والّتي ترجع مباشرة إلى أفلاطون -هي مفهوم معيّن عن العلاقة بين الحقيقة واللّغة. الحقيقة هي شيء بسيط يشبه كياناً موحّداً في داخلي. والغاية من اللّغة هو نقل هذه الحقيقة البسيطة الموحّدة إلى شخص آخر، وتمريرها إليه، مثل أن يقوم شخص بإشعال شمعة من لهب شمعة أخرى. فالطريقة المباشرة الأكثر وثوقيّة لنقل الحقيقة هي الكلام. الكلام يضمن أصالة الحقيقة، لأنّ المتحدّث حاضر. والحقيقة والحضور مرتبطان بشكل وثيق. فعندما أتحدّث عن حقيقتي إليك، أستطيع التّحكّم فيها، وأتأكّد أنّ فهمك لها يتوافق مع فهمي. وعندما يصبح الخطاب لغة مكتوبة، يُفلت من تلك السّيطرة الوثيقة.

ندم أفلاطون على هذا الاِنتقال من الخطاب إلى الكتابة في حواره بعنوان "فايدروس (المأدبة)"، وانبثقت الفكرة ذاتها - أنّ الخطاب صحيح والكتابة خاطئة -مراراً وتكراراً في تاريخ الفلسفة، وصولاً إلى سوسير، الّذي نظر إلى الخطاب والحضور باِعتبارهما أفضل طريقة لمنع الاِنزلاق الخطير بين الدّال والمدلول.

اِعتبر دريدا مفهوم الاِرتباط بين الدّال والمدلول مجرّد أسطورة. وكان لديه، بدلاً من ذلك، وجهة نظر عن لغة تصبح فيها الحقيقة خاصّيّة مراوغة للّغة ذاتها، بدل أن تكون شعلة تتّقد داخل كلّ عقل وتعبر إلى آخر. وتشدّد وجهة النّظر هذه عن اللّغة، في شكلها البسيط، بأنّ الكلمات تشير دوماً إلى كلمات أخرى. وتعتمد التّعاريف على كلمات يجب تعريفها بكلمات أيضاً لضمان بقاء المعاني "داخليّة" دوماً. اللّغة عبارة عن سلسلة لا تنتهي، ونحن لا نصل إلى نهاية أبداً، ولا نصل

إلى تلك الحقيقة النّهائيّة داخل رأس أحدهم، وخارج اللّغة.

أوضح دريدا ذلك من خلال الكلمة الإغريقيّة "***فارماكون*** - pharmakon"، وتعني "صيدليّة"، المستخدمة في حوار "فايدروس" (المأدبة). الكلمة تعني السّمّ. يصفها أفلاطون كتابةً بالشّكل التّالي: "***فارماكون***". لكنّ هذه الكلمة يمكن أن تعني "علاج". وبهذا المعنى، هي تشبه قليلاً كلمتنا الإنكليزيّة "مخدر – drug" – والّتي يمكن أن تعني دواء مثل البنسلين، أو مادّة لها تأثير موادّ منشّطة أو مخدّرة مثل "هيروين". وأيّاً كان ما يعنيه أفلاطون، ما إن تبدأ اللّغة في العمل، لا يعدّ المعنى تحت السّيطرة. من المستحيل ألّا تحافظ على كلا المعنيين على قيد الحياة، حتّى لو أراد أفلاطون أن يقتل المعنى الّذي يشير إلى "فارماكون" كعلاج.

بقدر ما تكون محاولات فهم العالم لغويّة (من الصّعب التّفكير كيف لا تكون كذلك)، لن يكون لدينا إجابة نهائيّة على سؤال "ما الّذي نعرفه؟" وستتملّص الحقيقة دوماً من قبضتنا كخنزير صغير مدهون بالزّيت–"

اِنتظر، لقد أمضينا هذا الوقت كلّه، لتقول لي فقط إنّ الشّكّاكين كانوا على حقّ، ولا يمكننا معرفة أيّ شيء؟

"لا، ليس تماماً. أعتقد أنّ دريدا على حقّ في أنّه لن نعثر على إجابة نهائيّة على أيّ سؤال مؤطّر بلغة عاديّة. هذه إحدى الطّرق الّتي تختلف فيها اللّغة العاديّة عن لغة الرّياضيّات. لكن "الجواب النّهائيّ" لا يعني أنّه ***ليس هناك*** إجابة ولا يعني، بالعودة إلى نقاشنا حول مواعيد الحافلة، أنّه لن يكون لدينا إجابة كافية على سؤال الحافلة، وهذا فقط لأنّ معنى "حافلة" و"وقت" سيكون مختلفاً قليلاً بالنّسبة لكلّ مسافر".

ما الّذي نعرفه إذن؟

"أعتقد أنّ هناك نوعاً من الإجماع التّقريبيّ. فرضيّة كانط بأنّ هناك عالم "الشّيء بذاته" الحقيقيّ في الخارج لم تواجه تحدّياً فعليّاً. وبغضّ النّظر عن

الصّوفيّين والمفكّرين المتديّنين، لم يبق الكثير من المثاليّين الباقين الّذين يعتقدون بأنّ العالم الخارجيّ عبارة عن سراب. ويبدو فعلاً كما لو أنّنا نقترب كثيراً من رؤية ذلك "الشّيء بذاته" المراوغ، أو فهمه على الأقلّ. منحتنا فيزياء الكم رؤية عميقة في الطّبيعة النهائيّة لواقع كان سيسعد كانط. لكنّ غرابة "الشّيء بذاته" و"الآخر – otherness" ستعنيان دوماً أنّه يبقى خارج قبضتنا المعرفيّة.

ماذا يبقى، عالم ***"الشّيء لذاته"*** للأشياء ذات الألوان والوزن والرّائحة والذّوق، يشكّله العقل البشريّ المُبدع الاِستثنائيّ. إذ يمكننا "معرفته" طالماً أنّنا نعرّف "المعرفة" بشكل مناسب، ونطبّق المعيار الصّحيح للخصوصيّة في كلّ حالة، ونحافظ على وعينا بأنّ طبيعة اللّغة تحديداً تعني أنّه، في كلّ شيء غير المعرفة الرّياضيّة، تشبه الحقيقة ضوء الثّلاجة: تنتهي "معرفتك" بالشّيء عندما تغلق الباب، لكنّ المعرفة ليست معرفة...

إذن هذه هي نظريّة المعرفة. هناك شكّاكون يعتقدون أنّنا لا نستطيع معرفة أيّ شيء. وهناك عقلانيّون يعتقدون أنّنا نستطيع معرفة كلّ شيء، بل إنّ هذا "الكلّ شيء" هو عالم موجود في رأسي. وهناك تجريبيّون يعتقدون أنّ أحاسيسنا تمنحنا دليلاً قاطعاً على تشكيل نظريّات موثوقة عن عالم يتجاوز عقولنا. ثمّ هناك أولئك الّذين يتبعون كانط، في الاِعتقاد بأنّ المعرفة هي نتاج نشاط العقل البشريّ، الّذي وصل إلى تقسيم المادّة الخام للكون إلى أجزاء يمكن فهمها.

لكن هناك مجال خاصّ تبدو فيه المعرفة الغامضة غير كافية إطلاقاً. مجال يتمّ فيه إنشاء معرفة دقيقة بالتّأكيد: معرفة ليست ***تحليليّة*** فقط، مثل الرّياضيّات، بل ***تركيبيّة***، تقدّم اِدّعاءات واضحة حول طبيعة الواقع الّتي يمكن إثباتها على أنّها صحيحة موضوعيّاً".

عظيم. لكن ربّما في يوم آخر. كلّ ما أستطيع أن أفكّر فيه الآن هو النّقانق...

"حسناً، نناقش غداً فلسفة العلم".

المشوار (11)

فلسفة العلم

في هذا المشوار، بحثتُ ومونتي أحد فروع الأبستمولوجيا الخاصّة: فلسفة العلم. وناقشنا نظريّة الِاستقراء الّتي طوّرها "فرنسيس بيكون" وإنتقلنا إلى نظريّات العلم الحديثة، ولا سيّما تلك الّتي وضعها "كوبر" و"كوهن" و"لاكتوس" و"بول فييرابند".

جلب اليوم التّالي أحد أكثر صباحات الشّتاء الصّافية قساوة. برزت مسارات ضبابيّة على شكل غيوم واضحة في السّماء الزّرقاء. هذا الجزء من لندن مرتفع نسبيّاً، ونحن نقيم في أعلى شقّة في المبنى، والمشهد الطّبيعيّ من نافذة المطبخ عبارة عن سماء فقط. عندما كنت صبيّاً، اِعتدنا أن نستلقي على عشب الصّيف الطويل ونراقب هذه المسارات كما يراقب شباب اليوم التّلفاز أو شاشات هواتفهم المحمولة. لا أعتقد أنّنا لاحظنا أيّة أهمّيّة لهذه المسارات (مع أنّني أراها الآن طبعاً مؤشّرا...): كنّا نجد متعة جماليّة في مشهد الأبيض والأزرق. هل ربطنا هذه المسارات يوماً بالطّائرات؟ ربّما كنّا لا نزال في عصر ما قبل العلم البدائيّ، عندما كنّا نعزو كلّ شيء إلى أفعال الآلهة والوحوش. تذكّرتُ محاولة العثور على اللّحظة الدّقيقة الّتي يتلاشى فيها الضّباب في الزّرقة، وتذكّرتُ توتّري وتوقي إلى السّماء.

وكان هذا طبعاً مثالاً آخر على مفارقة "الكومة"(47)، مع أنّني لم أعرف عنها إلّا في وقت لاحق.

يوم جيّد للحديث عن فلسفة العلم كما أعتقد.

قلتُ لمونتي وتوقّعت منه أن يأتي قافزاً إلى الرّواق ورباطه في فمه. لكن لم يظهر أيّ شيء. بحثت عنه بين الغرف، ووجدته أخيراً مستلقياً نصف مختبئ خلف السّتائر. ورمقني بنظرة حزينة.

أنا متعب. ووركي يؤلمني.

"أنا وأنت بحاجة إلى الهواء النّقيّ..."

هل لا تزال لديك تلك الحقيبة؟

"حقيبة؟"

كما تعلم، منذ أن كنت جرواً، لم تكن ساقاي قادرتين على صعود الهضبة أيّام ذهاب الأطفال إلى المدرسة.

كانت الحقيبة من القماش الأخضر الزّائد عن الجيش. كنت أثبّت مونتي بشكل مريح داخلها، ويبرز رأسه إلى الخارج. أعتقد أنّها كانت لطيفة للغاية.

"ظننتُ أنّك كنت تكره تلك الحقيبة".

كنت أكرهها فعلاً في ذلك الوقت. لكنّنا نتعلّم وننضج. كان هناك ذلك المقهى حيث اِعتدنا أن نتسكّع... الجوّ دافئ هناك.

اِعتدتُ أن أحاول الكتابة في سلسلة مقاهي لديها شبكة إنترنت جيّدة في

(47) مفارقة الكومة، أو مفارقة الإستدلال التّراكمي: هي إحدى المفارقات الّتي تشير إلى مفهوم الكومة الغامض، وإستحالة تحديد كمّيّة الأشياء الّتي تحتاجها لتشكيل كومة. والحالة النّموذجيّة هي إفتراض أنّ لدينا كومة رمل مشكّلة من حبيبات الرّمل، ونقوم بإزالة الحبيبات منها تدريجيّاً، مع إفتراض أنّ إزالة حبّة واحدة من الرّمل لا تلغي صفة الكومة، ومع الإستمرار في العمليّة يخطر في الذّهن السّؤال التّالي، متى نستطيع أن نرفع عنها صفة الكومة؟ (م).

"هامبستيد هاي تسريت". وكنت أجلس هناك مذهولاً إلى حدّ مّا بعد اِضطراب تمضية الصّباح كلّه بإرسال طفلين إلى المدرسة. كنت أقضي نصف هذا الوقت وأنا أرتدي ملابس النّوم تحت بنطالي الجينز وسترتي الّتي أكلها العثّ.

وجدت الحقيبة على الرّفّ في خزانة المعاطف حيث نضع أشياء نعتقد أنّنا لن نستعملها مرّة أخرى، لكنّنا لا نريد حتّى الآن أن نتخلّص منها، وقفز مونتي إليها مباشرة. فلففته ببطانيّته الخاصّة وبدأنا الصّعود إلى قرية هامبستد.

"تحدّثنا البارحة عن المعرفة. وسنتحدث اليوم عن نوع خاصّ من المعرفة، معرفة اِتّخذت موقعاً خاصّاً في ثقافتنا. إنّها المعرفة العلميّة".

موضوع جيّد!

"هكذا يُنظر إليها غالباً. إذ يُعتبر العلم عادة آلة لإنتاج اليقين، ونوعاً من الحقيقة البحتة الخاصّة. هي ليست حقيقة شخص معيّن، ولا حقيقة من وجهة نظر معيّنة، أو من زاوية معيّنة: إنّها الحقيقة. ولأنّها حقيقة بحتة، كلّ ما عليك فعله هو أن تجعل شخصاً يرتدي ذلك الرّداء الأبيض الخاصّ بالعاملين في المخابر، وتستخدمه لبيع المنظّفات أو معجون الأسنان".

أنت توشك أن تؤسّس عملاً في هذا المجال، أليس كذلك؟

"سأتحرّى عن بعض المفاهيم الخاطئة الشّائعة بشأن المعرفة العلميّة. وأنا أحبّ العلم بشكل عامّ! لقد أظهرَ لنا مجد عالمنا وعظمته، من أصغر الجزئيّات إلى ضخامة الكون كلّه. ووفّر لنا أفضل الإجابات عن أسئلة أساسيّة حول من نحن، ولماذا نحن هنا (وكيف وصلنا إلى هنا). لكن في ما يتعلّق باِعتباره طريقة بسيطة ومُنصِفة لِاكتشاف الحقيقة الموضوعيّة، فهي مسألة لا تزال بحاجة إلى إثبات. وما أريد القيام به الآن هو أن أخبرك كيف حاول الفلاسفة فهم ما يفعله العلم، وتحوّل ذلك إلى سلسلة وصفات حول ما ***يجب أن يفعله*** العلم.

دعنا نبدأ مع الشّكل الكاريكاتوريّ الّذي يعتقد النّاس أنّ العلم يعمل وفقه.

وأعترفُ أنّه تأسّس على مشاهدة عشرات أفلام الأبيض والأسود البريطانيّة والأمريكيّة، لكنّني أشكّ بأنّ شيئاً من هذا القبيل يمكن أن يدخل إلى أذهان معظم البشر عندما يفكّرون في العلم، على الرّغم من جهود الإعلاميّين المؤثّرين لجعل العلم يبدو هزليّاً. مجموعة رجال بزيّهم الأبيض (بشكل دائم تقريباً)، يعملون في مختبر. يمضون الوقت وهم ينظرون في المجهر، أو يعبثون بمعدّات غريبة محيّرة. يجمعون البيانات بعناية، ويسجّلون اِكتشافاتهم في دفاتر ملاحظاتهم، أو يُدخلونها في جدول بيانات. وأخيراً، تظهر نظرات دهشة سرعان ما تتحوّل إلى نظرات رهبة تمتزج مرّة أخرى بنظرة بهجة تأتي من أحدهم، عادة ما يكون قائد الفريق الّذي أفنى صحّته باحثاً عن الحقيقة. ها هي لحظة الإدراك!

ثمّ ينشغل العلماء بمحاولة إعادة الِاكتشاف المسرحيّ. ويا لبهجتهم وراحتهم بإثبات النّتيجة بعد اِختبارات مطوّلة. وبعد ذلك، يسلّم الباحثون الِاكتشاف لأشخاص عَمَليّين يستخدمونه لإنتاج نوع جديد من الأدوية أو القنابل.

هذه النّظرة عن العلم، الّتي تمّ تصويرها بعناية باِعتبارها جمعاً وترتيباً دقيقاً للبيانات الّتي تندمج في عقل العالِم على شكل نظريّة، تمّ صوغها بشكل صحيح للمرّة الأولى على يد فرنسيس بيكون (1561 – 1626).

كان بيكون نشيطاً في بداية الفترة الّتي شهدت تقدّماً في العلوم الفيزيائيّة والبيولوجيّة، لكنّ عالمه الفكريّ كان لا يزال متأثّراً بالتّقليد السّكولائيّ المكتفي بالعمل الدّائم على تفاصيل فلسفة أرسطو وفيزيائه. وكان ردّ فعل بيكون عنيفاً على هذا التّقليد. إذ شبّه الأرسطيّين بالعناكب الّتي تنسج شبكات حريريّة معقّدة تمّ إنتاجها بالكامل داخل أنفسهم. كما اِنتقد جامعي المعلومات البديلة غير المنطقيّة الّتي تفتقر إلى النّظريّة، وشبّههم بالنّملة الّتي تجمع حبيبات الرّمل عشوائيّاً. واِعتبر أنّ علينا أن نضع نصب أعيننا أن نكون كالنّحلة الّتي تجمع المادّة الخامّ من أزهار الحديقة والحقل وتحوّلها إلى عسل المعرفة الحقيقيّ".

بيكون، عسل، هذا يجعلني أشعر بالجوع.[48]

"يمكن أن تتناول وجبة خفيفة عندما نصل إلى المقهى. يُعتبر بيكون أبو الإِستقراء عادة، لكنّ موقعه الفعليّ متقّدم خطوة إلى الأمام على الموقع الإِستقرائيّ الأساسيّ. غالباً ما يُطلق على نهج "النّملة" في التّراكم البسيط إِستقراء من خلال التّعداد البسيط[49]. حيث يجمع عالِمُ الحشرات الحقائق، وعندما يجمع ما يكفي من البيانات، تظهر النّتيجة حتماً مثلما تنفصل القشدة عن الحليب. كان بيكون بالتّأكيد رجل حقيقة كبير – لقد شجّب الهوس السّكولائيّ بالمنطق والرّياضيّات، واعتقد أنّ العلم يجب أن يُبنى على البيانات التّجريبيّة. وكان مدركاً تماماً لأوجه القصور في التّعداد البسيط، وحاول التّغلّب عليه.

بدأ بيكون، كما يفعل العدّاد البسيط، بتكديس الحقائق. يقوم العالِم بإجراء العديد من الملاحظات، ويسجّلها بطريقة منهجيّة. لكن بدلاً من بقائها كتلة غير متمايزة، يتمّ فرز النّتائج في ثلاثة جداول: جدول الأساس أو الحضور، جدول الغياب، وجدول الدّرجات. لم يقدّم بيكون سوى مثالٍ واحدٍ على كيفيّة إجراء ذلك، لكنّني أعتقد أنّه ينقل ما يكفي من أسلوبه بشكل جيّد. كان مهتمّاً بأسباب تغيّر الحرارة، لذلك قام بإجراء ملاحظات على العديد من الحالات الّتي تحدث فيها الحرارة بحالات طبيعيّة أو صنعيّة تتدرّج من النّار إلى روث الخيل. وتمّ وضع هذه الملاحظات في الحضور. وهناك حالات غابت فيها الحرارة تماماً فوضعها في جدول الغياب. ورتّب في الجدول الثّالث هذه الحالات الّتي تكون فيها الحرارة موجودة بدرجات متفاوتة. إنّ التّأمّل في هذه الجداول لاحقاً يساعد العلماء بالولوج إلى نظريّة عن السّبب الحقيقيّ للحرارة، أو سبب "تشكّل" الحرارة. الجدول الثّالث، الّذي يظهر درجات متفاوتة للظّواهر قيد الإِختبار –

---

(48) يوجد هنا تلاعب بالكلمات لأنّ كنية الفيلسوف "بيكون" تعني حرفياً "لحم الخنزير المقدّد" (م).

(49) "التّعداد البسيط – simple enumeration": هو إجراء للوصول إلى التّعميمات التّجريبيّة عن طريق التّراكم العشوائيّ للحالات الإيجابيّة (م).

على سبيل المثال، اِرتفاع الحرارة النّاتج عن ضرب السّندان بالمطرقة – كان أفضل مرشد عن السّبب الأساسيّ.

تسمح دراسة الجداول بتحويل مجموعة الملاحظات إلى فرضيّات عامّة يمكن أن تُنظّم بدورها لتكشف عن تعميمات أكبر، حتّى يتمّ الوصول إلى الهدف النّهائي لقانون الطّبيعة. لذلك، يمكن تجميع حالات الحرارة الّتي نشأت عن النّار، وتلك الّتي نشأت عن الاِحتكاك، وتلك الّتي نشأت عن عمليّات بيولوجيّة، وما إلى ذلك. اِستخدم بيكون هذه الطّريقة لتوضيح أنّ الحرارة تنشأ في النّهاية من الحركة السّريعة وغير المنتظمة للأجزاء الصّغيرة الّتي تتشكّل منها المادّة.

مع أنّ التّرتيب في الجداول يبدو أسلوباً أكثر تعقيداً لتنظيم الحقائق، يبقى من غير الواضح كيف تتغلّب على مشكلة كيف تُستخرج نظريّة من البيانات. في كلا حالتي التّعداد البسيط واستقراء بيكون يكون لدينا بعض المعلومات من جهة. ونظريّة عامّة من الجهة الأخرى، دون وجود أيّ شيء يفسّر كيفيّة اِنتقالنا من الجهة الأولى إلى الثّانية منطقيّاً. يُفترض ببساطة أنّه، ما إن تحصّل على حقائق ذات صلة، مُصنّفة ضمن فئات صحيحة، يمكن إنشاء النّظريّة "الصّحيحة" منها.

اِنتظر لحظة. هل يمكن العودة إلى الخلف قليلاً؟ ألم يُثبت، ذلك الّذي كان اِسمه، هيوم، أنّه لا وجود للاِستقراء؟ أنا أفكّر الآن بذلك الدّيك الرّوميّ...

"يا لك من كلب جيّد يا مونتي! ما فعله هيوم هو إظهار أنّ الاِستقراء غير منطقيّ. ووجود أمثلة كثيرة على ظواهر (آ) تتبعها ظواهر (ب) لا يُثبت أنّ (ب) ستتبع (آ) دوماً. لكنّ هيوم لا يعترض إطلاقاً على فكرة أنّنا نستخدم الاِستقراء في الواقع. بالأحرى، علينا أن نرى أنّه صحيح بشكل مشروط، وليس بالضّرورة: يوماً مّا سيُقطع رأس الدّيك الرّوميّ، ويوماً مّا ربّما لا تُشرق الشّمس.

المشكلة الأخرى مع كلّ أنواع الاِستقراء تقريباً هي أنّه ينطوي على رؤية

ساذجة لما يُعتبر حقيقة. يفترض الِاستقراء ببساطة أنّ البيانات التّجريبيّة تستحقّ الثّقة التّامّة، وأنّ عمليّات جمع البيانات عمليّةٌ موضوعيّة غير ملوّثة بعوامل خارجيّة. لقد رأينا فعلاً في مشاويرنا السّابقة أنّ البيانات التّجريبيّة ليست بسيطة أبداً. إذ تكون الملاحظات، الّتي تُعتبر المادّة الأوليّة للاِستقراء، مرتبطة فعلاً باِعتبارات نظريّة كاِرتباط غضروف بشريحة لحم سيّئة. ولا يقوم العلماء بجمع الحقائق عشوائيّاً أثناء جمع البيانات. فهم ينظرون إلى مكان معيّن، بطريقة معيّنة، وتتأثّر نظرتهم، والموقع الّذي ينظرون إليه، وما يُعتبر بيانات، بما يعرفه العلماء مُسبقاً.

على سبيل المثال، لم يتمّ اِكتشاف كوكب "نبتون" إلّا عندما لاحظ علماء الفلك في مطلع القرن التّاسع عشر اِنحرافات في مدار كوكب "أورانوس"، وهو ما جعلهم يتوقّعون أنّ السّبب يعود إلى وجود كوكب آخر، وكانوا محقّين في ذلك. الطّبيعة الدّقيقة للاِضطرابات-"

اِضطرابات؟ حقّاً؟

"وبشكل منطقيّ، أشار التّذبذب في مدار أورانوس إلى القسم الّذي يجب مراقبته من السّماء، وعندئذٍ تمّ اِكتشاف الكوكب الثّامن. هنا كانت نظريّة نيوتن الموجودة عن حركة الكواكب هي السّياق لـ "رؤية" أنّ أورانوس كان يتحرّك بطريقة غير منتظمة، وكذلك لتحديد المجال الّذي ينبغي مراقبته في السّماء ليلاً. وبالتّالي فقد أتت النّظريّة هنا قبل الملاحظات، وقامت بتوجيه العلماء ومنحهم المنحى الّذي ما كانوا سيعتمدون عليه لولاها. لقد لاحظ غاليليو وجود كوكب نيبتون قبل ذلك بمئتي عام تقريباً، لكنّه اِعتقد أنّه مجرّد نجم، إذ كان يفتقد إلى المواد النّظريّة الّتي تساعده على تفسير ملاحظاته بشكل صحيح.

غالباً ما يتمّ تقديم غاليليو نفسه على أنّه مُستقرئ مثاليّ، فقد كان يكتسب بشكل تدريجيّ البيانات التّجريبيّة، والنّاتجة عن الملاحظة، الّتي يمكن أن

يستخدمها ليتصوّر نظريّاته عن علم الميكانيك وعلم الكون ويدعمها. ومع ذلك، اِستنتج غاليليو من ملاحظاته نظريّة متطوّرة بالكامل حول ما يمكن أن يُعتبر معرفة. وصف أسلوبه في كتابه بعنوان "The Assayer" (المحاول) (1623)، رافضاً المنهج الأرسطيّ والسّكولائيّ اللّذين يبجّلان التّقاليد والدّين، واستبدل بهما منهجاً ستتكشّف من خلاله أسرار الكون من خلال الرّياضيّات والهندسة. الطّبيعة "مكتوبة بلغة الرّياضيّات، والرّموز عبارة عن مثلّثات ودوائر وأشكال هندسيّة أخرى يستحيل دونها أن نفهم كلمة واحدة عن الكون؛ ودونها يتحرّك المرء بطريقة عابثة في متاهة مظلمة"".

لكن أليس هذا صحيحاً؟ يعتمد العالم كلّه على الأرقام، أليس كذلك؟

"طبعاً، لكن النّقطة الأساسيّة هنا أنّ غاليليو جادل بأنّه دون معرفة مُسبقة بالأشكال الهندسيّة، يكون عالم الظّواهر عبارة عن حكاية يرويها أحمق، مليئة بالصّوت والغضب، ولا تعني أيّ شيء. وإذا كان قد هرب من أرسطو، فقد سقط في أحضان أفلاطون وفيثاغورث. وهذه الأفلاطونيّة تبدو أكثر وضوحاً لدى "كيبلر" (1571 – 1630). كيبلر، الّذي صقل نظام كوبرنيكوس، مستبدلاً المدارات الدّائريّة بأخرى أهليليجيّة، كان مقتنعاً بأنّ أساس الكون هو متعدّدات الوجوه المنتظمة الخمسة، المكعّب، المجسّم ذو الوجوه المثلّثيّة الأربعة (هرم)، المجسّم ذو الوجوه المثلّثيّة الثّمانية، المجسّم ذو الوجوه المثلّثيّة العشرين، المجسم ذو الوجوه الخماسيّة الاِثني عشر، والّتي اِعتقد أنّها تحدّد عدد الكواكب وعلاقات مداراتها. ومثل أفلاطون تماماً، كان مقتنعاً بأنّ الله قد خلق الكون وفق مخطّط هندسيّ رئيس وأمضى حياته كلّها وهو يحاول إقحام الظّواهر المتصوّرة في (وكان مخطئاً تماماً في الواقع) نموذج.

الإشارة إلى حقيقة أنّ الملاحظات الّتي أجراها غاليليو وكيبلر كانت مغمورة بنظريّة منذ نشأتها لا يعني بالضّرورة بطلانها أو تقويض النّظريّات الّتي اِستندت عليها. لكنّها تُظهِرُ أنّ البيانات "البحتة" مجرّد أسطورة، وتسلّط الضّوء على أنّ

الملاحظات ليست موثوقة دوماً كما قد يرغب أتباع الِاستقراء".

هل يوجد مثال على ذلك؟

"في زمن بيكون، كانت تسيطر على الطّبّ نظريّة الأخلاط. ووفقاً لهذه النّظريّة، كانت الصّحّة الجيّدة الجسديّة والعقليّة تعتمد على توازن سوائل الجسد وهي الدّم والبلغم والصّفراء والسّوداء. وفائض السّوداء، الّذي كان يُعتقد أنّه من إفرازات الطّحال، يؤدّي إلى أعراض ما نسمّيه الإحباط، ويُدعى الِاكتئاب – أفكارٌ قاتمة مَرَضيّة، وشعورٌ بالألم والتّصلّب، وعسر الهضم والإمساك، وإشارات عامّة على تسمّم منخفض المستوى في عمليّات الأيض".

تبدو مثلك تماماً...

"سأتجاهل التعليق الأخير. أشار بيكون نفسه إلى الأخلاط في كتاباته. وقام الأطباء في ذلك الوقت بمراقبة شديدة للسّوداء، بالإضافة إلى الأخلاط الأخرى. لكن كان هناك مشكلة واحدة. لا وجود للسّوداء. على النّقيض من الدّم والبلغم والصّفراء. لا وجود لشيء اِسمه السّوداء".

لكنّك قلت إنّ الأطبّاء رأوها...

"رأوا عصارة ملوّنة قاتمة في الجسد بالتّأكيد. لكنّها لم تكن دماً ولا منتجات عمليّة الهضم. فالنّقطة الهامّة الّتي أدلى بها الأطبّاء هي أنّ هذه الملاحظات العديدة الّتي تعود بدورها إلى النّظريّة، والّتي أكّدت أنّ السّوداء تكون حاضرة في حالة الِاكتئاب، كانت صادقة تماماً وزائفة تماماً.

ليس من الواضح ما إذا قام أيّ عالم حقيقيّ بتوظيف جداول بيكون لمساعدته على اِبتكار أيّة نظريّات مفيدة، لكن البنية الرّئيسة للعلم الّذي وصفه بيكون، والمتمثّلة في الملاحظات الدّقيقة الّتي تؤدّي إلى قدر معيّن من البيانات الّتي ستكشف عن قوانين أساسيّة، أصبحت الطّريقة المهيمنة الّتي كان يُعتقد أنّ العلم يعمل وفقها. وبهدف التّوضيح، هناك ثلاثة أجزاء للعمليّة. يقوم الجزء الأوّل

على جمع البيانات. وهذا سيكشف عن الِانتظام. وسيتحوّل الِانتظام إلى قوانين. وهو الجزء الِإستقرائيّ من النّظام. ويمكن عندئذٍ تطبيق القوانين على العالم لإجراء توقّعات، وهو الجزء الِإستنتاجيّ. إنّني أرى آلاف البجعات البيضاء، ممّا يقودني لصوغ فرضيّة مفادها أنّ البجع كلّه أبيض. وأستطيع باِستخدام هذه النّظريّة أن أستنتج أنّ البجعة التّالية الّتي سأراها ستكون بيضاء. كلّ بجعة أراها تؤكّد فرضيّتي الأصليّة، وتعزّز موقعها كقانون.

طريقة الِاستقراء الّتي أوجزتها كان يُفترض ببساطة أن تكون الطّريقة الّتي اِستخدمها العلماء، وكانت في صميم الإنجازات المذهلة الّتي حقّقتها العلوم الطّبيعيّة في القرنين السّابع عشر والثّامن عشر – وهي القرون الّتي عاش بها غاليليو وكيبلر ونيوتن، عندما اِنتهى العمل الأساسيّ في الفيزياء وعلم الكون، العمل الّذي وضع إطاراً لكيفيّة تفكير البشريّة بموقعها في الكون، حتّى تحقّقت الثّورة الثّانية على يد إنشتاين ونظريّة النّسبيّة.

اِستمرّ الِاستقراء نموذجا معياريًا للممارسة العلميّة، وإن كانت أسسه أقلّ أماناً ممّا نأمل من النّاحية المنطقيّة. وتمّ صقل هذه الطّريقة أكثر على يد "جون ستيورات ميل" في القرن التّاسع عشر (رجل النفعيّة، إن كنتَ تذكر). وأراد ميل عزل الِاستقراء قدر ما يستطيع عن شكوك هيوم، وساد شعور عامّ بأنّ نظامه هو التّطوّر النّهائيّ للطّريقة الِاستقرائيّة. وقد عرّف ميل خمس طرق يمكن من خلالها ربط الحقيقة الملحوظة بأسبابها – يُنظر إلى السّببيّة بأنّها السّمة المميّزة للتّفسير العلميّ.

كانت الوسيلة الأولى هي النّظر إلى مجال البيانات، ورؤية ما إذا كان هناك عاملٌ معينٌ حاضراً في جميع الحالات. إذا كان الحال على هذا النّحو، يمكننا أن نفترض أنّ هذا هو السّبب. وهي تسمّى "وسيلة التّوافق". وجد «لويس باستور» أنّ كلّ زجاجة نبيذ حامض قام بتحليلها تحتوي على كمّيّة من البكتيريا، ممّا جعله يستنتج أنّ البكتيريا تسبّب الحموضة.

الثّانية هي وسيلة الِاختلاف، وهي ببساطة الوجه الآخر لقطعة النّقود ذاتها – هل هناك عامل مفقود في جميع الموادّ الّتي حقّقتَ فيها؟ تجد ألف جثّة سمكة قرش تطفو في المحيط. وتلاحظ أنّ جميعها فقدت زعنفتها الظّهريّة. فتستنتج أنّ السّبب حساء زعنفة الظّهر–"

فعلاً؟

"فعلاً. ثالثاً لدينا الوسيلة المشتركة للتّوافق والِاختلاف، وهي، كما يبدو من اِسمها، دمج بين الوسيلة الأولى والثّانية. وتختلف عن وسيلة التّوافق في أنّك تجمع عدداً من الأسباب الإيجابيّة والسّلبيّة، وتحاول أن تجد، من خلال عمليّة الإزالة، عاملاً حاضراً دوماً عندما تكون النّتيجة موجودة، ولا يكون حاضراً أبداً عندما تكون النّتيجة غائبة. أنا أتفحّص مجموعة من الخنازير، نصفها مُصاب بداء الإسقربوط، ونصفها معافى صحّيّاً. ثمّ أبحث عن عوامل حاضرة في المجموعة غير المصابة، وعوامل غائبة من المجموعة المُصابة. وأرى أنّ خنازير غينيا المريضة لا تأكل الفاكهة. فأضع ذلك سبباً لداء الإسقربوط.

الوسيلة الرّابعة هي وسيلة "التّباين المرافق"، وفيها يتمّ البحث عن حالات يكون فيها المستوى المتغيّر لأحد العوامل مرتبطاً بمستوى متغيّر في التّأثير. وضع قدمك على دوّاسة البنزين في السّيّارة يمكن أن يمثّل هذه الحالة. أو، بالعودة إلى الطّبّ، زيادة اِستهلاك السّكر يؤدّي إلى زيادة ترتبط تحديداً بالسُّمنة وتسوّس الأسنان".

أنت لا تنسى كعكة الجبن أبداً، أليس كذلك؟

"خامساً وأخيراً، يأتي دور وسيلة "البقايا" عندما تكون متقدّماً إلى حدّ مّا في دراسة ظاهرة معيّنة. لنفترض أنّك تبحث عن آثار تناول الكثير من كعكة الجبن. تتكوّن كعكة الجبن أساساً من السّكّر والدّهون والسّليلوز غير القابل للهضم. وقد لاحظنا أنّ هناك ثلاثة آثار أساسيّة: سقوط الأسنان، زيادة الوزن والمعاناة

من اِنتفاخ البطن".

يبدو الأمر شخصيّاً تماماً.

نعلم من عمليّات اِستقراء واِستنتاج سابقة أنّ السّكر يسبّب تسوّس الأسنان، والدّهون تسبّب البدانة. وتقدّم "وسيلة البقايا" السّليلوز على أنّها سبب اِنتفاخ البطن".

رائع.

"كان ذلك وصفاً للحالة العامّة لفلسفة العلم في بداية القرن العشرين. تمّ صقل الأمور أكثر قليلاً على يد أتباع الفلسفة الوضعيّة المنطقيّة الّذين عملوا أساساً في فيينّا في عشرينات القرن العشرين، وكان يُشار إليهم بوصفهم حلقة فيينّا. تطلّع الوضعيّون المنطقيّون إلى تحويل الفلسفة والعلوم الاِجتماعيّة، وإلى ضبط العلوم "الصّعبة". وبدأت وجهة نظرهم بفلسفة اللّغة، حيث لخّصوها في الشّعار التّالي: "***يتمثّل معنى الجملة في وسيلة التّحقّق منها***".

ماذا؟

"تمّ تصميمه مبدأ ترسيم الحدود".

مبدأ ماذا؟

طريقة لفرز الجيّد عن السّيّئ. من جهة أولى لديك عبارات يمكن إثباتها، بمعنى أنّه يمكننا إيجاد دليل لدعمها، ويقصد الوضعيّون المنطقيّون بهذا الدّليل، الملاحظات التّجريبيّة".

ومن الجهة الأخرى؟

لدينا معظم الفلسفة! أي تصريح لا يمكن إثباته بملاحظة مباشرة، ولا يمكن التّحقّق منه، هو، وفقاً للوضعيّين المنطقيّين، بلا معنى".

هذا يذكّرني بـ...

"فيتغنشتاين! تماماً. كان مرتبطاً للغاية بحلقة فيينّا في سنواته الأولى. فالوضعيّة المنطقيّة، مثل فلسفة العلم، هي حقّاً مجرّد إعادة صياغة واضحة للاِستقراء. ودور العلم هو إيجاد نماذج في تجربة يمكن تعميمها كقواعد -أو قوانين - بحيث يمكن اِستخدامها لإجراء توقّعات. هي تقول إنّ النّظريّة لا يمكن إثباتها إلّا من خلال حالات متكرّرة، ولا يتمّ إثباتها بشكل كامل. لذلك، نعم، هذا اِستقراء بحت، وهو معرّض إلى بعض الاِنتقادات السّابقة للاِستقراء. وبشكل خاصّ، اِدّعى الوضعيّون المنطقيّون أنّ كلّ اِقتراح - سواء أكان من العلم أم اللّغة - يجب اِختباره بشكل فرديّ. وقد رأينا أنّ ملاحظات تصريحات العلم غالباً ما تكون مليئة بالنّظريّة. الطّريقة الأخرى للتّعبير عن ذلك هي أنّ أيّة نظريّة اِختبار يجب أن تكون شاملة. وفهم أيّ حقيقة فرديّة يتطلّب فهم شبكة الأفكار الكاملة الّتي يتمّ تضمينها بها".

أريد مثالاً واحداً من أمثلتك...

"في مطلع ستّينات القرن التّاسع عشر، عندما بدأت أحافير طيور الأركيوبتركس[50] الجميلة الاِستثنائيّة في الظّهور من الحجر الجيريّ في جنوب ألمانيا، لم يكن هناك رأي بالإجماع بين العلماء وجامعي الأحافير الألمان لرؤيتها بما يخصّ ماهيتها أو ما تشير إليه. كان هناك فهم ضبابيّ مفاده أنّ الأحافير تمثّل حيوانات ماتت منذ وقت طويل، وبعضها اِنقرض، وبالتّالي كان هناك فعلاً قالب نظريّ حولها: تمّ فهمها بأنّها قديمة، وتمثّل أشكالاً لا تعيش الآن. واِحتدم النّقاش منذ أواسط القرن الثّامن عشر حول ما تمثّله الأشكال المنقرضة، وكيف يمكن أن تتوافق مع التّفسير الإنجيليّ للخلق. وجادل عالِم الحيوانات الفرنسيّ جورج كوفييه (1769 - 1832) أنّه كان هناك حلقات خلق متعدّدة، تبعتها

(50) طائر أركيوبتركس أو الطّائر الأوليّ، هو صنف طيور اِنقرض قبل 150 مليون سنة وهو من نوع الطّيور ذوات الأسنان الّذي يجمع بين صفات الزّواحف والطّيور (م).

كوارث (من ضمنها طوفان نوح)، وأنّ الأشكال المنقرضة كانت بقايا حيوانات رحلت في تلك الكوارث. رفض كوفييه صراحة فكرة أنّ حيواناً واحداً يمكن أن يتحوّل إلى حيوان آخر، وكانت وجهة نظره مهيمنة قبل داروين.

لكنّ نشر داروين لكتاب *"أصل الأنواع"* عام 1859 غيّر هذا النّقاش، دون الوصول إلى تسوية كاملة. إحدى المشاكل الأساسيّة بالنّسبة إلى داروين كانت ندرة الأشكال الوسطيّة الّتي تنبّأت بوجودها نظريّته. وبالتّالي كان على العلماء وجامعي الأحافير الأوائل أن يروا من خلال فوضى أفكار مشوّشة بعضها سابقة للتّطوّر وبعضها داروينيّة، وبعضها دينيّة، وبعضها تقنيّ بحت. وٱعتبر بعض العلماء الّذين نظروا إلى المخلوق الغريب ذي الرّيش، الّذي تمّ اِلتقاطه بتفاصيل كهذه في لوح حجري جيري، أنّ الأحافير تنتمي إلى طائر؛ وبعضها أعادها إلى الزّواحف. وٱعتقد بعضهم أنّها مزيّفة.

كانت الأحافير بالنّسبة إلى داروين وداعميه تراباً من ذهب. وقد اِشترى المتحف البريطانيّ أفضل العيّنات، وسرعان ما أصبحت إحدى أقوى الأدلّة الدّاعمة للنّظريّة الجديدة. ومن منظور داروينيّ، كان معنى الأحافير واضحاً بشكل مثاليّ: لقد تطوّرت الطّيور عن الزّواحف. في بعض مراحل هذه العمليّة نتوقّع أن نرى حيواناً يشبه الطّير وفيه بعض سمات الزّواحف. كان لدى الأركيوبتركس أجنحة وريش. ولديه أسنان وذيل زواحف.

مع أنّ المعنى "الحقيقيّ" للأركيوبتركس لم يصبح واضحاً إلّا بعد أن تمّ تفسيره من وجهة نظرٍ داروينيّة، فإنّ الحفريّات لم تكن إطلاقاً نوعاً من البيانات الأوّليّة المعزولة الّتي تصوّرها الوضعيّون المنطقيّون. كانت متضمّنة في النّظريّة لحظة فصلها عن الموقع.

هل أنت واثق تماماً من أنّ كلمة "فصلها" هي كلمة فعلاً؟

"أوه، أُنظر من اِستيقظ الآن. وٱستيقظ في الوقت المناسب لتناول الفطيرة".

وصلنا إلى المقهى. وكان فارغاً كما كنت آمل -كانت عصابة المدرسة قد تناولت الكابوتشينو ورحلت، وحشد الغداء لم يأتِ بعد. كان هناك رجلان يبدوان مُصابين بجنون العظمة، ينحني كلّ منهما على جهاز الكومبيوتر أمامه، ويضعان سماعات رأسيّة تفصلهما عن العالم. لطالما اِعتدت في الأيّام الخوالي على تناول القهوة المفلترة - الطّلب الأرخص دوماً، والمرّ بما يكفي لردعك عن رشفها بسرعة. لكنّني شعرت بأنّني أريد شيئاً فيه رغوة، وطلبت قهوة "لاتيه" من النّادل المبتسم. ووجدنا بقعة هادئة خلف المقهى.

"هل تريد الخروج من الحقيبة؟"

من السّخف البقاء هنا.

"حسناً، إلى أين وصلنا؟"

كلمة فصلها...

"أوه، نعم. نحن في المرحلة الّتي يبدو فيها شكلٌ من أشكال الاِستقراء كأنّه الشّيء الوحيد المُتاح، مع أنّ هيوم كشفَ الفجوة المنطقيّة بين رؤية مليون بجعة بيضاء، ***والتّصريح بأنّ جميع طيور البجع بيضاء***. من المفترض أنّ هذه هي الطّريقة الّتي يعمل بها العلم، على الرّغم من الاِنتقاد. كان ذلك كلّ شيء عن التّغيير.

جاء التّحدي من "كارل بوبر" (1902 – 1994)، أحد خرّيجي حلقة فيينّا، وهو تحدٍّ لم يُشفَ الاِستقراء منه فعلاً. في كتابه الأساسيّ عن فلسفة العلم بعنوان ***منطق البحث العلميّ*** (1934)، أخذ بوبر وجهة نظر هيوم المنطقيّة عن الاِستقراء بشكل جدّي. لا يستطيع الاِستقراء أن يؤسّس قانوناً علمياً. والتّكرار لا يؤدّي إلى اليقين. وعلاوة على ذلك، أظهرت تحقيقات بوبر في تاريخ العلم أنّ العلماء العظماء لم يستخدموا الاِستقراء وسيلةً لوضع فرضيّات. إنّ فكرة العالِم الموضوعيّ المنفتح بجمع الحقائق باِهتمام ثمّ تطويرها إلى نظريّة ليست معيبة منطقياً فحسب بل هي وهمٌ ونسجُ خيال. لم يتمّ الوصول إلى أيّ اِكتشاف من

اِكتشافات كوبرنيكوس وكيبلر ونيوتن وإنشتاين العلميّة الحديثة من خلال عمليّات اِستقرائيّة. وكانت جداول بيكون، ووسائل ميل الخمسة، كلّها عديمة الفائدة ولم تُستخدم".

حسناً، لقد أثرت اِهتمامي. ما الّذي كان يجري إذن؟

"حدث كلّ شيء في الوقت المناسب له. كانت رؤية بوبر الأولى هي النّقطة المنطقيّة البحتة الّتي تقول إنّه على الرّغم من أنّ الملاحظات المتعدّدة لظاهرة معيّنة لا يمكن أن تُثبت فرضيّة، إلّا أنّ مثالاً واحداً مخالفاً يمكن أن ينفيها".

يبدو سلبيّاً قليلاً. كيف يمكننا الوصول إلى أيّ شيء إذا كان بإمكانك فقط أن تنفي شيئاً؟ إذا أردت أن أعرف أين لعبة المضغ خاصّتي، فما فائدة نفي فرضيّتي بأنّها في سلّتي؟ لا أزال لا أعرف أين لعبة المضغ خاصّتي.

"يأخذنا ذلك إلى الجزء الإيجابيّ من فلسفة بوبر في العلوم. بدلاً من رؤية العلماء المخلصين، والمملّين قليلاً، الّذين ينسّقون البيانات بعناية، اِقترح بوبر رؤية دراماتيكيّة، وحتّى بطوليّة، للعالِم. لا يتسلّل العلماء نحو نظريّة جديدة، بل يقفزون إليها! وهذه القفزات، والأفكار العظيمة الّتي تنقل العلم، تأتي بشكل غير متوقّع إلى حدّ مّا، وتطير في مواجهة نماذج المعرفة الحاليّة. ويقول بوبر، لا يمكن أن نعرف كيف يأتي العبقريّ العلميّ بنظريّة جديدة. يمكن أن تأتي في الحلم، مثل فكرة "أوغست كيكوله" الخياليّة بجانب المدفأة، الّتي تخيّل فيها ثعباناً يُمسك ذيله، وبالتّالي كسر البنية الجزيئيّة للبنزين الشّبيهة بالحلقة عام 1865. أو ربّما تأتي من مصادر غير علميّة، مثل قراءة داروين لتوماس مالتوس الّتي ألهمته فكرة النّضال من أجل الوجود وبقاء الأفضل.

أصول النّظريّات العلميّة الجديدة، يجب أن يكون لها سمات محدّدة. وأن تكون نظريّات جريئة: كلّما كانت أكثر ثوريّة، كان أفضل. ليس لدينا مكان هنا للمزيد من تفاهة وعبثيّة الِاستقراء. يجب أن تشرح كلّ شيء شرحته النّظريّة السّابقة،

وأكثر أيضاً. ويجب أن تكون محفوفة بالمخاطر، بمعنى أنّها يجب أن تقدّم الكثير من التّوقّعات.

أمقتُ الاِستمرار بالعودة إلى ذلك المثال عن البجع، لكن تلك البجعة السّوداء الأولى دحضت نظريّة أنّ البجع كلّه أبيض. في الواقع، أنا أكره ذلك المثال. يبدو الأمر كأنّ مجموعة من العلماء بقيت على مدى سنوات طويلة وهي تناقش ما إذا كان البجع كلّه أبيض أم لا، وكان أفرادها يجمعون بهدوء ما اِعتقدوا أنّه دليل كافٍ لتقديمه إلى المجتمع الملكيّ... لديّ مثالٌ أفضل. كانت الأرض مركز الكون في أيّام بطليموس، والأجسام الفلكيّة تدور حولها. وكانت نظريّة لا بأس بها. فهي تفسّر الكثير ممّا نراقبه - السّماوات تدور حولنا، والشّمس تشرق وتغرب. ثمّ جاء كوبرنيكوس وآقترح أنّ الشّمس مركز الكون، لكن على مدى العقود الأولى، بدا النّظامان متكافئين تقريباً من ناحية ما يمكن تفسيره، دون أن يستطيع أيٌّ منهما توجيه الضّربة القاضية، ويعود ذلك في جزء منه إلى تردّي مستوى التّكنولوجيا إذ كانت الملاحظات الفلكيّة لا تزال تؤخذ بالعين المجرّدة. وفي عام 1610، بنى غاليليو تليسكوباً بنفسه، بناءً على فكرة أتت من هولندا، ووجّهه نحو كوكب المشتري. وأجرى ملاحظات أشارت بقوة إلى أنّ كوكب المشتري لديه أقمار. وتمّ التّأكيد للمرّة الأولى أنّ الكون لا يدور كلّه حول الأرض، وآنهارت نظريّة بطليموس".

وأثبت ذلك أنّ كوبرنيكوس كان على حقّ؟

"لا! إمكانيّة دوران أقمار حول كواكب أخرى كانت بالتّأكيد إحدى توقّعات كوبرنيكوس. لكنّ كلّ ما نستطيع قوله حتّى الآن إنّ النّظريّة لم تُدحض.

بالنّسبة إلى بوبر كان من المهم للغاية أن تُرفض الفرضيّة عندما تصبح زائفة. ما لا تستطيع فعله هو التّوصّل إلى شرح معيّن لتفسير زيف واضح فيه. وقد أطلق على هذه التّفسيرات اِسم ***فرضيّات مخصّصة لشيء معيّن***. واستثنى بشكل خاصّ

الفرضيّات المخصّصة الّتي لا تقبل الدّحض[51].

المثال الجيّد هو الطّريقة الّتي واجه فيها نظام بطليموس بعض المشاكل الّتي لاحظها حتّى الفلكيّون القدماء. وأكثرها وضوحاً هو أنّ الكواكب في أوقات معيّنة، بدلاً من أن تتحرّك بطريقة سلسة ومنتظمة تقريباً من الشّرق إلى الغرب عبر السّماء، بدت كأنّها تتوقف، ثمّ تتحرّك "بِاتّجاه عكسيّ"، من الغرب إلى الشّرق - ما يُسمى حركة رجعيّة. نحن نعرف الآن أنّ سبب ذلك يعود ببساطة إلى دوران الكواكب كلّها حول الشّمس بمدارات مختلفة، وأنّ الأرض ستتجاوز هذه الكواكب البعيدة بشكل دوريّ، ممّا يجعلها تبدو كأنّها تتحرّك بشكل عكسيّ، تماماً كما تبدو السّيّارة الّتي نتجاوزها، بالنّسبة إلينا، كأنّها تتحرّك إلى الخلف. أنت ترى المشكلة: إذا كانت الكواكب كلّها تسير حول الأرض، كيف يمكن لأحدها أن يدور بِاتّجاه معاكس؟"

لا تنظر إليّ.

"سؤال بلاغيّ. والإجابة الّتي توصّلوا إليها كانت أنّ بعض الكواكب، أثناء دورانها حول الأرض، تدخل في حالة دوران سريع - تدور في دائرة صغيرة من تلقاء نفسها - تعرف بِاسم فلك الدّوران[52]. وهكذا يكون لديك المدار الكبير الّذي يدور الكوكب عليه حول الأرض، والمدار الصّغير الّذي يدور الكوكب حول... حسناً، لا شيء، فعلاً. هذا ما يخلق اِنطباعاً بأنّ الكوكب يدور بِاتّجاه معاكس لفترة معيّنة - إنّها مجرّد فترة في الدّائرة الصّغيرة عندما يدور في اِتّجاه معاكس لِاتّجاه الكوكب في دائرته الأكبر حولنا.

يفسّر فلك الدّوران بشكل كافٍ ما يمكن أن نراه، لكن كلّ ما يفعله هو دعم

(51) مبدأ قابليّة الدّحض الّذي اِقترحه كارل بوبر هو طريقة لتمييز ما يعتبره علماً عن غير العلم. وافترض أنّه لكي تُعتبر النّظريّة علميّة، يجب أن تكون قابلة للاِختبار، ويمكن إثبات خطئها بشكل معقول من خلال التّجربة (م).

(52) فلك الدّوران عبارة عن دائرة صغيرة يدور مركزها على محيط دائرة أكبر (م).

صرحٍ اِنهار تماماً. باِستخدام المعدّات والمعرفة العلميّة لتلك الفترة الزّمنيّة، كان من المستحيل إظهار أنّ نظريّة فلك الدّوران كانت خاطئة، وبالتّالي ***كانت نظريّة خاصّة لا تقبل الدّحض.***

المثال الأفضل بالنّسبة إلى بوبر عن الفرضيّات العلميّة كان نظريّة إنشتاين عن النّسبيّة الخاصّة. إذ فسّرت هذه النّظريّة كلّ شيء فسّرته نظريّة نيوتن عن الجاذبيّة، بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة. وعلى الرّغم من أنّ نظريّة نيوتن قد صمدت بشكل لافت على مدى مئتي عام من الاِختبار، فقد كانت هناك بعض الحالات الشّاذّة الصّغيرة مثل عدم اِنتظام بسيط في مدار عطارد لا يمكن تفسيرها. واِستطاعت نظريّة إنشتاين النّسبيّة الخاصّة أن تفسّره.

لكنّ نظريّة النّسبيّة الخاصّة لا تزال بحاجة إلى توقّع جريء يختبرها. توقّعَ إنشتاين أنّ تأثيرات الجاذبيّة للكتل الكبيرة – مثل شمسنا – يجب أن تسبّب اِنحناء أشعة الضّوء القادمة من نجوم بعيدة بمقدار محدّد. والطّريقة الوحيدة لِاختبار ذلك كانت خلال الكسوف الكامل، وإلّا فلا يمكن ملاحظة ضوء النّجم. وفي عام 1919 حدث كسوف من هذا النّوع. وراهن إنشتاين بكلّ ما يملك على النّتيجة. وأظهرت القياسات أنّ الضّوء اِنحرف بالدّرجة الّتي توقّعها بدقّة كاملة".

واو! وتمّ إثبات النّظريّة النّسبيّة الخاصّة!

"كم مرّة عليّ أن أقول، لا! وفقاً لبوبر، لا يمكن أن تُثبت صحّة أيّة نظريّة. جميع النّظريّات إمّا أنّه ثَبتَ بطلانها، أو سيُثبت بطلانها يوماً مّا. تقوم فكرته على أنّ النّظريّات مثل الأساسات الّتي يتمّ وضعها في الأرض. يمكن أنّ إدخالها إلى حدّ مّا، إلى حدّ يكفي لدعم البناء مدّة معينة بالتّأكيد. لكنّها لن تصل إلى حجر الأساس أو الطّبقة الأساسيّة للأرض إطلاقاً".

إذا كان بوبر يعتقد أنّه لا يمكن الوصول إلى معرفة موثوقة بالمطلق، فهل يعني

ذلك أنّه كان من الشّكّاكين؟

"بالتأكيد لا. كان واقعيّاً. كان هناك عالم ملموس من المادّة والقوانين العلميّة، ويمكن للعلماء اِستكشافه. اِعتقد أن النّظريّات الجديدة الثّوريّة كانت تطوّراً حقيقياً لما حلّت محلّه، وأنّ التّقدّم في العلم ليس وهماً، بل حقيقة. معرفتنا بالعالم تتقدّم. وكان يعتقد بشكل لا يقبل الجدل أنّ فكرته عن الزّيف تعني أنّ من الممكن نقد العلم عقلانيّاً. واعتقد أنّك بحاجة إلى نقد مستمرّ كي لا يبقى العلم محافظاً ومتجذّراً".

أنت مؤيّد له، أليس كذلك؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

"أنت تجعل الأمر يبدو دوماً كأنّني مولع بهم"ا.

طوني وكارل يجلسان في شجرة....[53]

"أوه، أُنضج. نعم، أنا مولع بهم في الواقع. لقد خرج بوبر عن المألوف قليلاً، لكنّني أحبّ الوضوح والفكر وطريقة التّعبير في مؤلّفاته، ويبدو مفهوم قابليّة الدّحض مفيداً فعلاً، ليس في العلم فقط بل في الحياة اليوميّة أيضاً. إذا كانت لديك فكرة معيّنة، يكون من المفيد دوماً أن تسأل ما إذا كان هناك أي دليل محتمل على دحضها. إذا لم يوجد، فربّما تكون فكرتك غامضة جدّاً إلى درجة لا يمكنها أداء أيّ عمل فعليّ. اِعتقد بوبر نفسه أنّ فكرة قابليّة الدّحض كانت مفيدة جدّاً باعتبارها مبدأ لترسيم الحدود وتمييز العلم الحقيقيّ عن العلم الزّائف".

العلم الزّائف؟

"العلم الزّائف بالنّسبة إلى بوبر هو أيّ نظام تفكير أو نهج يدّعي تقديم معرفة، لأنّ اِفتراضاته لا يمكن دحضها أبداً. ربّما يكون هذا لأنّها تكون غامضة جدّاً إذ تناسب مجموعة واسعة جدّاً من الحقائق الممكنة. ربّما تقول خريطة الأبراج مثلاً

---

(53) عبارة يبدو من سياقها أنّها نوع من التّعليق السّاخر (م).

أنّك "ستواجه هذا الأسبوع مشاكل في العمل تستطيع أن تتغلّب عليها إذا كنتَ مرناً". أو ربّما تكون نظريّتك تشرح الكثير، ممّا يجعل نفيها مستحيلاً. لا توجد حالة سيكولوجيّة لا يستطيع المحلّلون الفرويديون إرجاعها إلى تجارب الطّفولة. هل لديك مشاكل عقليّة؟ نعم. هل حظيت بتجربة سيّئة عندما كنت طفلاً؟ أيضاً، نعم. إذا قلت إنّك لم تحظَ بشيء كهذا، يمكننا البحث والتقصّي حتّى نجد شيئاً. كلّ مثال جديد يؤكّد النّظرية في أذهان ممارسيها، ولن يظهر أيّ شيء يمكن أن ينفيها إطلاقاً. لذلك فإنّ تفسير كلّ شيء يجعلك لا تتوقّع أيّ شيء.

المثال الأخير عن العلم الزّائف الّذي قدّمه بوبر هو الماركسيّة. هنا يختلف الأمر قليلاً في أنّ بوبر يوافق على أنّ الماركسيّة بدأت علماً، ووضعت توقّعات حقيقيّة قابلة للاِختبار. توقّع ماركس أنّ ثورات البروليتاريا كانت ممكنة فقط في الاِقتصاديّات الصّناعيّة المتقدّمة، مثل أوروبا الغربيّة والولايات المتّحدة الأمريكيّة (في ذلك الوقت). لكنّ الثّورات حدثت في الواقع في الدّول "المتخلّفة"، روسيا والصّين. عند هذه النّقطة، وللبقاء ضمن تعريف بوبر للعلم، كان على الماركسيّين التّخلّي عن نظريّتهم. لكنّهم بدلاً من ذلك أسّسوا دعماً للتّوقّع المخصّص غير القابل للدّحض بهدف تفسير فشل الثّورات في الغرب، وحكموا على أنفسهم بعالم من العلم الزّائف.

الحالة الأخرى المثيرة للاِهتمام هي الدّاروينيّة".

لحظة، الدّاروينيّة...؟ لكن الدّاروينيّة علميّة، صحيح؟ لا تقل لي إنّني لم أتطوّر عن القرد. أقصد عن الذّئب...

"هنا نستطيع أن نرى قابليّة الدّحض بحالتها المفيدة. ثمّة حالة معيّنة تجعل المفهوم الدّاروينيّ الأساسيّ - البقاء للأفضل - منيعاً أمام قابليّة الدّحض. لذلك بقيت المخلوقات الأفضل. شيء رائع. تبدو كأنّها فرضيّة جيّدة بشكل مثاليّ. لديك الكثير من الحيوانات، والأفضل منها يعيش، بينما يُلتهمُ الأضعف. لكن

كيف تعرّف "الأفضل"؟ الخطر في أنّك تشير إلى تلك الحيوانات الّتي نجت وتقول، من الواضح للغاية، هذه هي المخلوقات الأفضل! كيف تعرف أنّها الأفضل؟ لأنّها نجت. لماذا نجت؟ لأنّها الأفضل! هكذا جعلت نظريّتك تدخل في حلقة، ولا يمكن اِختبارها.

لتجنّب ذلك. يطلب بوبر من عالِمِ التّطوّر إجراء توقّع قابل للاِختبار. وعلى سبيل المثال، يفترضُ أنصار نظريّة التّطوّر أنّ نموّ ذيول الطّواويس بهذا الشّكل المتألّق كان بهدف جذب الإناث، ممّا يمنحها ميزة متقدّمة على تلك الّتي لديها ذيول أصغر. ويمكنك بعد ذلك أن تتوقّع أنّه ضمن مجموعة معيّنة، سيكون للطّواويس طويلة الذّيل نسل أكبر. هذه فرضيّة يمكن اِختبارها".

إذن فالنّتيجة فوز بوبر...؟

"العديد من العلماء معجبون بوجهات نظره من خلال ما يفعلونه. والمثل الأعلى للعالِمِ بالنّسبة له هو الصّنف البطوليّ الجذّاب. إنّ نظريّته واضحة وسهلة الفهم لكنّها فقدت شعبيّتها بين فلاسفة العلم".

أوه، لماذا؟

"إحدى المشكلات أنّ العديد من النّظريّات العلميّة المثمرة تمّ دحضها على ما يبدو في فترة مبكّرة من وجودها. لقد ناضلت نظريّة كوبرنيكوس، كمثال، لتفسير بعض الظّواهر الّتي يمكن مراقبتها. وكانت ضيّقة الأفق في تنبّؤها بمواقع الكواكب، واحتاجت إلى معرفةِ "بأفلاك الدّوران" لتفسير الحركة التّراجعيّة – كان سبب المشكلتين أنّ كوبرنيكوس اِعتقد أنّ الكواكب تتحرّك في مدارات دائريّة مثاليّة وليس مدارات على شكل قطع ناقص.

التّحدّي الأكبر الّذي واجهته هذه النّظريّة كان على الشّكل التّالي: إذا كانت الأرض تدور حول الشّمس، فينبغي أن تتغيّر المواقع النّسبيّة للنّجوم من منظورنا الخاصّ – ظاهرة اِختلاف المنظر. لكنّ النّجوم لا تُبدي هذا الأثر. كان هذا

دحضاً مباشراً يجب أن يؤدّي إلى رفض كامل لنظام كوبرنيكوس عند التّطبيق الصّارم لمعايير بوبر. وهو أمر شائن لأنّه دون كوبرنيكوس، ما كان سيظهر كيبلر، ودون كيبلر ما كان سيظهر نيوتن، ودون نيوتن، ما كان هناك علم حديث".

تصريح فخم.

"فخم جداً في الواقع. كيف يمكن نفيه؟ أنا أتراجع عن الجملة الأخيرة على أساس أنّها غير قابلة للدّحض. لكن تبقى النّقطة الأساسيّة أنّ التّطبيق الصّارم لنظريّة بوبر عن قابليّة الدّحض سيضع نهاية لنظريّة كوبرنيكوس. يشبه الأمر أن تقوم بإنهاء علاقة مع الشّريك فور اِصطدامها بعائق صعب، وتبدأ البحث من جديد على موقع "تيندر". عليك أحياناً أن تتغلّب على..."

مَنحني مونتي إحدى لعقاته تعبيراً عن مواساته لي.

"شهدت العديد من العلوم الأخرى فترات صعبة مشابهة تغلّبتْ عليها في النّهاية إمّا من خلال تعديلات بسيطة، أو لأنّ التّكنولوجيا جاءت للمساعدة. وأنقذت كلتا الطّريقتين نظام كوبرنيكوس. إذ ساعدت تعديلات كيبلر في جعل النّظام يتوافق مع الواقع المُراقَب بشكل أفضل، وكشفت التّكنولوجيا الخارقة درجاتٍ صغيرة في اِختلافات المنظر الموجود فعلاً – صغيرة لأنّه تبيّن أنّ النّجوم أبعد بكثير مما كان بإمكان أيّ شخص أن يتوقّعه في ذلك الحين.

المشكلة الأخرى في نظريّة بوبر هي أنّها تجعل العلم نشاطاً فرديّاً للغاية. قام رجال ونساء عظماء لا يمكن تفسير عمليّات التّفكير لديهم بشكل عقلانيّ، ويتصرّفون بمعزل عن الآخرين إلى حدّ كبير، بوضع فرضيّات جديدة وأصليّة. وما إنّ يتمّ إعداد هذه النّظريّات حتّى يأتي دور المجتمع العلميّ للقيام بالمهمّة الأساسيّة المتمثّلة في اِختبار الفرضيّة.

قام "توماس كوهن" (1922 – 1996) بتحدّي هذه الفكرة العلميّة البطوليّة الفرديّة في كتابه بعنوان ***بنية الثّورات العلميّة*** (1962) – ربّما كان العمل الأكثر

شهرة وتأثيراً من بين جميع الأعمال الخاصّة بفلسفة العلم وتاريخه. حيث يطرح كوهن، بدلاً من العبقريّة العلميّة الفرديّة، طريقة مختلفة تماماً "لممارسة" العلم، تقوم فيها جماعات من العلماء بالعمل على مجموعة مشتركة من المشاكل، بِاستخدام فرضيّات وتقنيّات مشتركة. وأشار إلى هذه الفرضيّات والأهداف المشتركة بِاسم "النّموذج الإرشاديّ أو (البارادايم)".[54] حيث يقوم العلماء الّذين يعملون ضمن النّموذج الإرشاديّ بتضمين مجموعة من الأفكار حول ما يُعتبر معلومات ذات صلة، وكيفيّة جمع هذه المعلومات وتحليلها وترتيبها، والآليّات الّتي يجب اتِباعها لتكون موثوقة".

هل يمكن أن تقدّم مثالاً عن هذه النّماذج الإرشاديّة؟

"بالتّأكيد. أوّل مثال عنها هو التّقليد السّكولائيّ، حيث أُخِذَت فيه بعين الِاعتبار وجهات نظر أرسطو عن طبيعة العالم المادّي ونظام بطليموس عن علم الكون. ثمّ هناك أنظمة كوبرنيكوس وكيبلر الخاصّة بعلم الكون، والّتي حلّت محلّ نظام بطليموس. وهناك أمثلة إضافيّة مثل الفيزياء النّيوتونيّة ونظريّة التّطوّر الدّاروينيّة وعلم الميكانيك الكونيّ. حيث تمتّع كلّ نموذج من هذه النّماذج الإرشاديّة بفترة صلاحيّة طويلة اِتّفق فيها جميع الباحثين تقريباً في مجال معيّن على جميع الحقائق الأساسيّة. ووافق الجميع على الألغاز الّتي يجب كشفها وعلى طريقة البدء بحلّ هذه الألغاز. وغالباً ما تمّ توظيف الباحثين في هذه النّماذج الإرشاديّة في المعاهد الكبيرة والجامعات والمختبرات. وكانت هناك هياكل مهنيّة يجب اِتباعها، وحصلوا على مكافآت مادّيّة ورمزيّة.

هذا ما أسماه كوهن "العلم القياسيّ أو العاديّ". تمّ تناول معظم تاريخ الفكر العلميّ في فترات الِاستقرار هذه، حيث أدّت النّماذج الإرشاديّة عملها الأساسيّ

(54) تعريف النّموذج الإرشاديّ أو البارادايم بأنّه مجموعة المفاهيم والممارسات الّتي تحدّد الِانضباط العلميّ في فترة معيّنة. والنّموذج الإرشاديّ العلميّ هو الإنجازات العلميّة المعترف بها عالميّاً والّتي توفّر حلولاً نموذجيّة لمشكلات مجموعة من الممارسين (م).

المرتبط بتوسيع المعرفة البشريّة منهجيّاً في مجالاتها المختلفة.

بأيّ حال من الأحوال، ستأتي مرحلة تبدأ فيها المشاكل بالتّجمّع في نموذج إرشاديّ. حيث ترفض هذه الألغاز أن تُكشف. وتظهر انحرافات وأشياء لا تستطيع النّظريّات الموجودة أن تفسّرها. وتكون هذه الانحرافات مثيرة للقلق بشكل خاصّ إذا تضمّنت المفاهيم الأساسيّة في نواة النّموذج الإرشاديّ: أقماراً حول كوكب المشتري، أحفورات غريبة على شكل زواحف وطيور، تذبذباً غير مفهوم في مدار عطارد، وما إلى ذلك. وإذا لم تُحلّ هذه المشاكل أو تُفسّر، تدخل النّماذج الإرشاديّة بفترة أزمة. ثمّ يسقط النّموذج الإرشاديّ في النّهاية ويُستبدلُ بها نموذج جديد – هذا ما يُسمّى "تحوّل النّموذج الإرشاديّ".

المثير للاِهتمام في تحوّل النّماذج الإرشاديّة هو أنّ قديمها وجديدها سيصبح "غير قابل للمقارنة"، وفقاً لوصف كوهن. لن يكون النّموذج الإرشاديّ الجديد غير متوافق مع بعض التّفاصيل فقط، أو هناك اِختلاف يمكن حلّه بسهولة، بل سيتضمّن وجهة نظر عالميّة معارضة تماماً، فيها القليل من التّداخل لدرجة يستحيل المقارنة بين النّموذجين الإرشاديّين بشكل عقلانيّ. إنّ فكرة التّطوّر بالاِنتقاء الطّبيعيّ غير قابلة للمقارنة مع فكرة أنّ جميع المخلوقات الحيّة تمّ خلقها (أو تصميمها) على يد إله خيّر. وأنظمة بطليموس وكوبرنيكوس؛ الفيزياء النّيوتونيّة والنّسبيّة العامّة؛ النّسبيّة العامّة علم الميكانيك الكوانتيّ: جميعها تتضمّن تحولاً جذريّاً للغاية لدرجة اِستحالة تأسيس حوار حقيقيّ بينهما إطلاقاً.

إحدى النّتائج المخيفة لعدم إمكانيّة المقارنة بين النّماذج الإرشاديّة هي أنّ التّغيير من نموذج إرشاديّ إلى آخر أمر غير عقلانيّ بطريقة مّا. يمكن تقييم بحث أولئك الّذين يعملون ضمن نموذج بشكل عقلانيّ، بما أنّه يتضمّن معايير مشتركة للتّقدّم. لكن مع التّحوّل إلى نموذج جديد لا يقبل المقارنة معه، يكون هناك أرضيّة مشتركة للحكم. يشبه الأمر أن يُطلب منك وصف نكهة الأناناس باِستخدام الأعداد".

لكن إذا لم يكن بإمكانك اِتخاذ قرار عقلانيّ بين نموذجين إرشاديّين، فلماذا التّغيير؟

"يقول كوهين إنّه في أغلب الأحيان لا يغيّر طاقم العاملين الفعليّين أذهانهم. يموت المتشدّدون، وتنبثق دماء فتيّة. إنّه أمر يتعلّق جزئيّاً بالأجيال. أمّا إلى أيّ مدى اِعتبر كوهن نفسه أنّ نظريّته نسبيّة، وأعتبر العلم غير عقلانيّ، فهو أمر خضع لكثير من النّقاش. تشير حقيقة أنّ الانحرافات تظهر في النّموذج الإرشاديّ، وأنّها السّبب النّهائيّ للثّورات، إلى أنّ العلم يتعامل مع العالم الحقيقيّ، مثل الطّريقة الّتي يعالج بها العلم القياسيّ المشكلات. كما تحدّث كوهن غالباً عن ***التّحوّل الدّينيّ وتبديل الجشطالت***[55] (يتحوّل الهدف فجأة من رؤية صورة بطريقة مّا إلى رؤيتها بطريقة أخرى – كما يحدث في وهم "البطّة الأرنب" المعروف، أو الشّكل الّذي يمكن رؤيته كأنّه وجهان متقابلان أو مزهريّة)، ممّا يجعل الأمر يبدو غير عقلانيّ.

تتمثّل إحدى طرق تربيع الدّائرة[56] في أنّه من الممكن تفسير كوهن بقوله إنّ العلماء الفرديّين الّذين ينتقلون من مثال إرشاديّ إلى آخر يفعلون ذلك لأسباب غير منطقيّة، لكن ربّما يكون النّموذج الإرشاديّ الجديد أفضل موضوعيّاً، في أنّه يفسّر المزيد، وبعدد أقلّ من الشّذوذات الّتي كانت في النّموذج السّابق.

بعد نشر نظريّة كوهن مباشرة تقريباً، أدّت النّظريّة نفسها إلى "تحوّل النّموذج الإرشاديّ" في كيفيّة رؤية العلم. وقد دخل مصطلح ***"تحوّل النّموذج***

(55) الجشطالت كلمة ألمانيّة يصعب ترجمتها إلى لغة أخرى لذلك تمّ تناقلها بلفظها الأصليّ. ومفهوم نظريّة الجشطالت يعني اِرتباط أجزاء الكلّ بالكلّ نفسه. إذ أن لكلّ جزء مكوّناته البنيويّة الخاصّة ومكانته ووظيفته ودوره الّذي يقوم به في ترابط ديناميّ مع الأجزاء الأخرى. بحيث تتكامل المكانة والمهامّ والأدوار في ما بين الأجزاء ضمن قوانين داخليّة وهذه المهامّ والأدوار مرتبطة بطبيعة الكلّ البنيويّة والوظيفيّة.

(56) تربيع الدّائرة هو مسألة طرحها علماء الرّياضيّات الإغريق القدماء. وتعني محاولة إنشاء مربّع له مساحة مساوية لمساحة الدّائرة المعطاة بإستخدام عدد محدّد من الأدوات. وفي عام 1882 تمّ إثبات إستحالة القيام بذلك. والمعنى المجازيّ لهذا المصطلح هو "القول إنّ هناك من يحاول تقريب الدّائرة إلى مربّع، يعني أنّه يحاول القيام بمهمّة مستحيلة" (م).

الإرشاديّ " تحديداً إلى اللّغة، ولم يُطبّق على العلم فقط، بل في أيّ مجال يحدث فيه تغيّر أساسيّ في الاِتّجاه تقريباً. وبالتّأكيد، بدا نهج كوهن متوافقاً للغاية مع كيفيّة تطوّر المعرفة في العديد من المجالات من الفنّ إلى العلوم الاِجتماعيّة. ومع نشرها في ستّينيّات القرن العشرين، أعطت النّسبيّة والرّاديكاليّة الظّاهريّة للنّظريّة نهج كوهن شهرة معارضة معيّنة للثّقافة. وبدت كأنّها تطيح بالعلم عن قاعدته النّخبويّة. توقّفت المعرفة العلميّة عن كونها شكلاً خاصّاً مميّزاً من أشكال الفهم، وأصبحت "لغة" أخرى، وطريقة أخرى بالكلام.

اِنخرط بوبر وكوهن (أو حتّى أتباع كوبر وأتباع كوهين) في نقاش حادّ وعدوانيّ. فاللّاعقلانيّة في تحوّل النّموذج الإرشاديّ لدى بوبر، والتّقليديّة وعدم إثارة الاِهتمام في فكرة كوهن عن العلم القياسيّ، كانتا مسألتين مقيتتين. رأى كوهن فترات العلم القياسيّ بِاعتبارها جيّدة: كان ذلك عندما تمّ إنجاز العمل الحقيقيّ. وكان من الصّحيح أن يدافع عنه أولئك الّذين يعملون ضمن النّموذج الإرشاديّ. وبالتّالي فإنّ مفهوم العلم بالنّسبة إلى كوهن ليست القوّة الثّقافيّة المناهضة الّتي تمّ أخذها بعين الاِعتبار في البداية، بل المحافظة فطريّاً. كان كوهن نفسه عضواً أساسيّاً في المؤسّسة، حيث يعيش ويعمل في أرقى المعاهد الأكاديميّة الأمريكيّة، هارفرد وبيركلي ومعهد ماساتشوستس للتّكنولوجيا، ومدافعاً عن الجهاز الكامل للمجمع الصّناعيّ العسكريّ العلميّ الأمريكيّ. وكان بوبر مستقلّاً أكثر بكثير. كانت قابليّة الدّحض في عقله سلاحاً فعّالاً يستخدمه ضدّ المؤسّسة".

من فاز بالمحاجّة إذن؟

"أعتقد أنّها حازت على مرتبة الشّرف حتّى من ناحية الأفكار. حظيت صورة كوهن عن العلم القياسيّ والثّوريّ بالكثير من الثّقة حول الطّريقة الّتي يعمل بها العلم؛ وكان للحقيقة المنطقيّة والإمكانيّات الإبداعيّة لقابليّة الدّحض أيضاً مزايا هائلة".

"أنت تعرفني بشكل جيّد! هذا تماماً ما حدث في عمل "أمري لاكتوس" (1922 – 1974)، وهو فيلسوف هنغاري كان يعمل مع بوبر في مدرسة لندن للاِقتصاد. دمج لاكتوس بين كوهن وبوبر ببراعة. وبدلاً من النّماذج الإرشاديّة، جادل لاكتوس بأنّه ضمن كلّ مجال علميّ، يكون هناك عدد من ***برامج البحث*** المتنافسة. وكلّ برنامج بحث له نواة صلبة من الأفكار الأساسيّة للبرنامج، وحزام وقائيّ من مفاهيم ونظريّات أقلّ جوهريّة يمكن نقدها دون التّسبّب بأذيّة مدمّرة للنّواة. وسيحاول البرنامج كلّه الدّفاع عن نفسه من النّقد، بالكثير من أسلوب كوهن المرتبط بالنّماذج الإرشاديّة المحافظة، لكنّه يستخدم أيضاً مناهج بوبر في عمله. يقول لاكتوس إنّ برامج البحث النّاجحة يجب أن تكون ***تقدّميّة***، بمعنى أنّها تتّسع لتفسير المزيد من خصائص العالم، لكنّ كلّ اِدّعاء جديد يتمّ اِختباره بشكل صارم، ويُرفض إذا كان زائفاً.

ربّما كان أكبر فرق بين برامج البحث ونماذج كوهن الإرشاديّة هي أنّه بالنّسبة إلى كوهن، لا يمكن أن يكون هناك نموذج إرشاديّ واحد مهيمن في كلّ عصر. وبالنّسبة إلى لاكتوس، يمكن أن يكون هناك، ويجب أن يكون، برامج بحث متنافسة. ستكشف هذه المنافسة عن وجود برامج تقدّميّة وأخرى متراجعة. والمثال الأكثر وضوحاً على ذلك كان التّنافس بين نظامي كوبرنيكوس وبطليموس. فقد جرت محاولات كثيرة في أواخر القرن السّادس عشر للحفاظ على البرنامج القديم، مثل نظريّة "تايكو براهي" الّتي تقول إنّه على الرّغم من أنّ الكواكب الأخرى تدور حول الشّمس، إلّا أنّ الشّمس تبقى هي الّتي تدور حول الأرض. لكنّ البرنامج كان ينهار، في حين أنّ نظام كوبرنيكوس، بحفاظه على نواته المتمثّلة بنظام شمسيّ مركزيّ، اِستمرّ في التّقدّم، على الرّغم من التّغيرات الرّئيسيّة في حزامه الوقائيّ.

لكن حتّى البرامج البحثيّة المنهارة يمكن أن تتعافى، وبالتّالي، كما ينصح

لاكتوس، لا ينبغي أن تقفز من السّفينة في وقت مبكّر جدّاً. لكن متى يكون مبكّراً جدّاً؟ وكيف تقرّر منطقيّاً متى ينحدر برنامج البحث إلى نقطة اللّاعودة؟ لم يخبرنا لاكتوس عن ذلك.

إنّ عدم اليقين بشأن ضرورة التّخلّص من برنامج بحثيّ هو أحد نقاط الضّعف المتصوّرة في نظريّة لاكتوس. لقد حاول – ونجح في بعض النّواحي – في دمج نهج كوهن الاِجتماعيّ مع موضوعيّة بوبر وواقعيّته. لكن منتقديه رأوا أنّ الاِفتقار إلى طريقة واضحة لإعلان موت برنامج بحثيّ أمر قاتل. وأنا لا أزال أعتقد أنّه اِقترب كثيراً من تأسيس ما يفعله العلم، وما يجب أن يفعله".

هممم... إذن، إذا كنتُ منتبهاً بشكل جيّد، فالاِستقراء غير صحيح، وقابليّة الدّحض تتعرّض للدّحض، ونماذج كوهن الإرشاديّة تمّ تحويلها، وبرامج بحث لاكتوس اِنهارت. ما الّذي يبقى لدينا ؟

"أبقيت الأفضل إلى النّهاية. اِستطاع "بول فيرابند" (1924 – 1994) أن يؤسّس اِتجاهاً من خلال هدم اِدّعاءات الفلاسفة فهمهم المنهج العلميّ، وهدم اِدّعاءات العلم فهمه العالم والتّحكم به. بدأ فيرابند كأحد أتباع بوبر، لكن سرعان ما رأى حدود ما يمكن أن تصل إليه نظريّة قابليّة الدّحض – كان قلقاً بشكل خاصّ من الخطر المتمثّل في التّخلّص السّريع من نظريّة قابلة للتّطبيق بسبب عمليّات نفيها الواضحة. لكنّه كان أيضاً معارضاً بعنف للطّريقة المحافظة الّتي اِتّخذتها نماذج كوهن الإرشاديّة.

إجابة فيرابند كانت أنّ أيّة محاولة فرديّة لفهم طرق عمل العلم محكوم عليها بالفشل. وكان شعاره "يمكن قبول كلّ شيء". يتبنّى العلماء مجموعة واسعة متنوّعة من أساليب العمل. بعضهم يُحصي البجع. وبعضهم لديه أفكار مُلهِمة يختبرونها للتّدمير. ويعمل بعض العلماء في برامج البحث، ويتبعون مسار الفريق. وبعضهم يتأمّلون ويتآمرون في حجرات وحدتهم. ويحصر بعضهم نفسه بقراءة

الأرقام، بينما يستمدّ آخرون أفكاراً من ثقافة أوسع. وحالما تقول إنّ العلم لا يعمل إلّا من خلال الإِستقراء، أو من خلال قابليّة الدّحض، أو أيّ شيء آخر معمّم، ستخرج من التّعريف أنشطة يجبُ اِعتبارها علماً، وتُخرج أنشطة لا يجب اِعتبارها علماً. أحد الأمثلة على ذلك (ولا يستخدمه فيرابند) هو نظريّة الأوتار. نظريّة الأوتار هي آخر محاولة للإجابة على سؤال طرحه جميع فلاسفة ما قبل سقراط-"

ما هو اللّون الأبيض في براز عصفور؟

"أها، نوعاً مّا. كنت أفكّر بشكل عامّ بمسألة **ممّ يتكوّن**؟ نظريّة الأوتار هي النّظريّة النّهائيّة لكلّ شيء – إذ تهدف إلى تقديم تفسير للقوى الأساسيّة الأربع في الكون: الجاذبيّة الإلكترومغناطيسيّة، والقوى النّوويّة الضّعيفة والقويّة. إنّها نظريّة أنيقة ورائعة من النّاحية الجماليّة. ووفقاً لهذه النّظريّة، كلّ جسيم من الجسيمات الأساسيّة المسؤولة عن القوى الأربع هي حقّاً عبارة عن حلقات صغيرة جدّاً من وتر متأرجح، والطّريقة الّتي يتأرجح بها الوتر تحدّد نوع الجسيم".

تبدو رائعة.

"إنّها كذلك. المشكلة الوحيدة بنظريّة الأوتار هي أنّه لا يوجد إطلاقاً دليل تجريبيّ عليها. لا أحد يستطيع أن يرى الوتر الخارق. ولا أحد يستطيع أن يحدّده بأيّ شكل من الأشكال. وليس واضحاً على الإطلاق ما إذا كان هناك طريقة لِاكتشافها، أو تأكيد وجودها. لذلك فإنّ أيّ اِستقراء سيرفض النّظريّة، لأنّها ليست نتيجة ملاحظات وتجارب متكرّرة، وأيّ عالمٍ من أتباع نظريّة قابليّة الدّحض يستطيع أن يقضي عليها لأنّها لا تخرجُ بأيّ توقّع قابل للاِختبار. وبالتّأكيد، يبدو أنّ لديها قواسم مشتركة مع إحدى تلك النّظريّات الميتافيزيقيّة القديمة أكثر ممّا لديها مع عالم العلم. كان بإمكان بارامنيدس وإيمبيدوكليس

التّوصّل إليها".

إذن النّقطة المهمّة هي أنّ العديد من فلاسفة العلم الّذين تحدّثت عنهم سيرفضون ما تعتقد أنّه نظريّة جيّدة؟

"تماماً. وبالتّالي، ماذا لو أنّ نظريّة الأوتار لم تتعرّض للدّحض؟ إنّها تفسّر أشياء كانت ستبقى غامضة، وربّما تُسفر عن نتائج مذهلة في المستقبل. بالنّسبة لفيرابند، إذا حاولت بأن تكون عقلانياً ضيّقاً للغاية، فستتخلّص من الأشياء الجيّدة أثناء محاولتك التّخلّص من أشياء سيّئة.

كان فيرابند، بالإضافة إلى فوضويّته المنهجيّة، من أوائل الفلاسفة الّذين حذّروا من مخاطر العلم. فقد اِعتقد أنّ العلماء يميلون إلى تقديم اِدّعاءات موسّعة عن العقلانيّة والكونيّة لا يمكن اِحتمالها. والجدل بأنّ المنهج العلميّ يتفوّق على أشكال المعرفة الأخرى، تقوّضه حقيقة إظهاره لفكرة أنّه ليس هناك منهج علميّ واحد. هو لا يجادل بأنّ العلم مزيّف بشكل كامل، لكنّه يعتقد فعلاً أنّ من واجب كلّ مواطن أن يشكّك بِاِدعاءاته وأن يكون يقظاً حيال رغبة العلماء في المراقبة والسّيطرة والهيمنة.

يا إلهي. وهل توافق على ذلك؟

"بالمطلق. أعتقد أنّ علينا أن نخضع الاِدّعاءات العلميّة للتّدقيق قدر ما نستطيع. يُستخدم "العلم" يومياً لمحاولة بيعنا أشياء معيّنة، ولإقناعنا بأنّ ننفق مالنا الخاصّ أو مال حكومتنا على منتجات أو برامج أبحاث. تعرف وكالة ناسا أنّ أفضل طريقة لزيادة تمويلها هي بإثارة النّاس حول إمكان إيجاد حياة على كوكب المرّيخ، وهكذا يتأكّد علماؤها من أنّ وسائل الإعلام تتغذّى بِاِنتظام على قصص تدعم هذه الرّواية. في الواقع، متى سمعت قصّة علميّة في الأخبار، يمكنك أن تثق تماماً من أنّ ذلك ليس بسبب المزايا الأساسيّة للبحث، بل لأنّ قسم العلاقات العامّة النّشيط يعمل. لقد تمّ القبض على شركات أدوية كبيرة

عدّة مرّات بسبب تلاعبها بالبيانات لتشويه الحقيقة".

دعني أتذكّر، هل أنت شكّاك أم كلبيّ؟

"كنتَ تُصغي في ذلك الوقت إذن...كلاهما. الكلبيّ لا يثق بالسّلطة؛ والشّكّاك لا يثق بالمعرفة. يقول أحد أبطالي الفكريّين، الفرنسيّ ما بعد البنيويّ ميشال فوكو، حيثما رأيت السّلطة يجب أن تقاومها، لأنّ السّلطة ظالمة دوماً وتُسيء التّصرّف. وأعتقد أنّ علينا أن نفتح صندوق أدوات الشّكّ لِاختبار اِدّعاءات المعرفة، قدر ما نستطيع. لكنّ النّتيجة النّهائيّة لذلك ليست لرفض السّلطة والمعرفة كلّها، بل للحفاظ على صدقيّة السّلطة والمعرفة. لكن ما لا أعتقده هو عدم وجود شيء باعتباره حقيقة. ينبغي التّدقيق بالعلم، لكن هذا التّدقيق يجب أن يتمّ باِستخدام أدوات العلم. ويستحقّ الأمر دوماً أن نطرح الأسئلة التّالية: من يدفع تكاليف هذا البحث؟ من يستفيد منه؟ ما هو المخبّأ؟ ما الّذي يتمّ بيعه بشكل مبالغ فيه؟"

نظر مونتي إليّ وأدار عينيه. هو بالفعل ليس حيواناً سياسيّاً.

"آسف، لقد اِنجرفت قليلاً في هذا الأمر. بالحديث عن الِانجراف، علينا أن نعود إلى البيت. هل تريد العودة بالحقيبة، أو تعتقد أنّك مستعدّ للمشي؟"

ربّما، مسافة قصيرة.

"نظرت حول المقهى. كانت تمتلئ من جديد. كان هناك كلب بودل أنيق، ومالك كلب بودل أنيق إلى الطّاولة قرب المدخل. وبذلنا قصارى جهدنا كي لا نتعثّر أثناء خروجنا. وبعد مسافة قصيرة من الطّريق، رأيت تلك النّظرة الحزينة على وجه مونتي، فأعدته إلى الحقيبة.

المشوار الأخير

فقاعة شوبنهاور ومعنى الحياة

في هذا المشوار، أخذتُ مونتي إلى الطّبيب البيطريّ. وناقشنا أدلّة على وجود الله، ومعنى الحياة. والموت.

مرّت بضعة أيّام صعبة للغاية على عائلة «ماكغاوان». تمّت مناقشة جميع الخيارات. وانهمرت الدّموع من عيون بعضهم. ليس أمام مونتي، لكنّني أفترض أنّه كان يعرف.

ثمّ أتى يوم وحملته في الحقيبة المخصّصة له. حدّقت من الشّارع إلى الأعلى ورأيت ريبيكا وروزي تقفان معاً، تنظران إلى الأسفل من النّافذة. لوّحت بيدي بينما كانت روزي تضع يدها على كتف والدتها.

إلى أين نذهب؟

"جولة طويلة، فالوقت مبكّر".

إلى ذلك المكان، أليس كذلك؟

ضربتُ مونتي على أنفه.

تحدّثنا عن كلّ شيء في تلك المشاوير...

"نعم؟"

كان الأمر ممتعاً للغاية. أعتقد أنّني أفهم المزيد عن الأشياء الموجودة في العالم، وما يُعتبر منه معرفة. وأفترض أنّني اِكتسبت فكرة أفضل عمّا يعنيه أن تكون كلباً جيّداً. أو إنساناً جيّداً. لكنّ الموضوع الآن، ولا تُسئ فهمي، أنّني اِعتقدتُ أنّه سيكون هناك المزيد من القضايا الكبيرة.

"أنت تتحدّث عن معنى الحياة، شيء من هذا النوع؟"

نعم، أعتقد ذلك.

"تحدثنا قليلاً عمّا يسمّى قضايا كبيرة في مشوارنا عن الأخلاق. فكرة أرسطو عن معنى السّعادة تعني عيش الحياة الأكثر ملاءمة لحيوان عقلانيّ، حياة تأمّل تُعاش وفقاً للفضائل... أو مفهوم كانط عن الخير الأخلاقيّ، واِستخدام عقلك لِاكتشاف القواعد الّتي يجب أن يطيعها أيّ كائن عقلانيّ. أو حتّى الحياة النّفعيّة الّتي نقضيها في السّعي الدّائم لتحقيق أعظم سعادة لأكبر عدد ممكن. كلّ مفهوم من هذه المفاهيم فيه شيء من النّبل. وبالتّأكيد، كلّ منها سيمكّنك من عيش حياة أخلاقيّة أكثر من اِتّباع نزواتك وأوهامك، أو من إزعاج نفسك بمشاكل الخطأ والصّواب".

أفهم ذلك. وإذا كانت القضيّة هي ماذا يجب أن أفعل، أو كيف يجب أن أتصرّف، فمن المنطقيّ أن تساعدنا الأخلاق في ذلك. لكنّني أطرح سؤالاً مختلفاً. ليس ماذا يجب أن أفعل، بل ما الّذي يعنيه ذلك؟

قرّبت رأسي من رأسه، وشممت رائحة فرائه. كانت زوجتي قد غسلته جيّداً، وكانت رائحته أفضل من العادة بكثير. وأظهر لسانه للأعلى ليلعق وجهي.

"أنت تعرف ما الّذي كان سيقوله فيتغنشتاين عن ذلك، أليس كذلك؟"

حيث لا يمكن للمرء أن يتكلّم، لا بدّ من الصّمت.

"لقد وضع هذا السّؤال في صندوق ***"لا بدّ من الصمت"***. وأعتقد أنّه محقٌّ في

ذلك. وسؤال ما الّذي تعنيه الحياة؟ هو خطأ في الفئة"[57].

هذه المرّة فقط، هل يمكننا تخطّي هذه الرّطانة؟

"آسف. أعتقد أنّ كلمة "معنى" ليس لها معنى إلّا في ما يخصّ هذه المقترحات. الحافلة قادمة. أحبّ كعكة الجبن. مربّع الوتر في المثلّث القائم يساوي مجموع مربّعي الضّلعين القائمين. هذه كلّها مقترحات ولها معنى. المعنى هو أمر لغوي. لكنّ الوردة، والنّحلة الطّنانة، وكلباً قذراً صغيراً، وإنساناً قذراً ضخماً، فهذه أشياء لا معنى لها".

ماذا عن الله؟ لدى معظم فلاسفتك شيء يقولونه عنه بِاعتباره ذكراً أو أنثى أو جماداً.

"لقد تحدّثتُ بحذر عن الله في مشاويرنا. جزئيّاً لأنّني مع كانط: أنا لا أعتقد أنّ الفلسفة تساعدنا كثيراً. صحيح، أمضى الفلاسفة وقتاً طويلاً، وحاولوا ببراعة، إثبات وجود الله، لكن لم يأتِ أحد بدليل قويّ بما يكفي لتحويل الملحد إلى مؤمن".

ما هي هذه الأدلّة؟

"كان هناك الكثير من الأدلّة الكونيّة، على مرّ العصور، لكن أعتقد أنّها تتلخّص بثلاثة نماذج رئيسة: ***الأدلّة الكوزمولوجيّة، دليل يرتبط بالنّموذج، والدّليل الأنطولوجيّ.*** ليس لدينا الوقت إلّا للإصدارات السّريعة والقذرة...

تتّخذ الأدلّة الكوزمولوجيّة بعض الأشكال المختلفة. الأوّل فكرة أنّ كلّ شيء له سبب، وبالتّالي لا بدّ من وجود سبب أوّل لم يسبّبه أيّ شيء، وإلّا فسوف يكون لديك سلسلة لا نهاية لها. أحياناً تُصاغ بلغة المحرّك الأوّل - كلّ شيء يتحرّك، يحرّكه شيء آخر، وأنت تحتاج لمحرّك أوّل لجعل الكرة تتدحرج. كما يتمّ

(57) خطأ دلاليّ أو وجوديّ يتمّ فيه تقديم الأشياء الّتي تنتمي إلى فئة معيّنة كما لو كانت تنتمي إلى فئة مختلفة، أو تنسبُ خاصّيّة إلى شيء لا يمكن أن تكون له أساساً (م).

التّعبير عنه أيضاً بفكرة أنّ كلّ شيء في كوننا مشروط - قد يكون موجوداً وقد لا يكون. إذا كان موجوداً، فيجب أن يكون موجوداً من أجل سبب، وهذا السّبب هو الله. إحدى أكثر الصّيغ وضوحاً تمّ تحديدها بهيئة قياس منطقيّ بسيط. ***كلّ ما يبدأ بالوجود له سبب؛ الكون بدأ بالوجود؛ وبالتّالي الكون له سبب"*** .

وما الخطأ في ذلك؟

"إذا كنت تذكر، بحث كلّ من كانط وهيوم فكرة السّبب. أو بحثها هيوم، وجعلها كانط سمة لذكاء الإنسان بدلاً من شيء بعيد يمكن اِعتباره الله. وجادل آخرون بأنّه ليس هناك شيء غير منطقيّ حول فكرة السّلسلة السّببيّة اللّانهائيّة، دون محرّك أوليّ. وقال آخرون إنّ الدّليل لا يُثبت فعلاً أيّ شيء: إنّه يبدأ بالقول إنّ كلّ شيء يجب أن يكون له سبب، وينتهي بطرح شيء ليس له سبب. وبالتّالي يتناقض مع نفسه. وبالنّسبة إلى المحرّك الأوّل، كيف لشيء لا يتحرك أن يولّد حركة؟ الاِعتراض الآخر هو أنّه حتّى إذا أثبتَّ نوعاً من السّبب الأوّلي، ما الّذي يجعلنا نعتقد أنّ لديه أيّ سمة من السّمات الأخرى الّتي نعزوها لله - كلّيّ المعرفة، وكلّيّ القدرة، والحبّ؟

أعتقد أنّ من غير المجدي التّساؤل عن هذا الأمر. لقد أعطانا العلم فكرة الاِنفجار الكبير، لحظة الخلق. إذ ليس لدينا أيّة فكرة عمّا كان يجري قبل الاِنفجار الكبير. هل كان هناك كون آخر تمدّد وتقلّص إلى نقطة معيّنة، ثمّ اِنبثقت فيه الحياة؟ أو لم يكن هناك أيّ شيء؟ أعتقد أنّ كلّ ما يمكننا فعله هو إعادة تسليم المشكله إلى العلماء ليفعلوا ما في وسعهم لفهم ما توصّلوا إليه واِنتقاده.

لدينا بعد ذلك دليل من النّموذج. تقول بشكل أساسيّ إنّ هناك عناصر من عالمنا تمّ بناؤها بشكل مثاليّ بحيث لا يمكن أن تكون نتيجة الحظّ أو المصادفة – أكثر ممّا يمكن أن تكون صناعة السّاعة نتيجة الحظّ أو المصادفة – بل لا بدّ أنّ تصميمها تمّ على يد مصمّم ساعات سماويّ. ليس هناك ما هو خاطئ فلسفيّاً،

بهذه الحجّة. لسوء الحظّ، بما أنّها كانت الحجّة الوحيدة على وجود الله، والّتي تدّعي أنّها علميّة، فلا بدّ أن تصطدم بالواقع. يجادل أنصارها بأنّ شيئاً عجيباً مثل العين الّتي تعتمد على عدّة عناصر مختلفة تعمل معاً بتناغم، لا يمكن أن تكون قد نشأت من المصادفة، أكثر ممّا يمكن القول إنّ إعصاراً عصف بساحة خردة وصنع منها صدفة طائرة بوينغ 747. ثمّ جاء داروين، وأظهرت نظريّة التّطور بأنّها عمليّة قادرة تماماً على خلق عين – بالتّأكيد، تمّ "اِختراع" العين عدّة مرّات على مدى تاريخ الأرض. ولا يزال هناك العديد من العيون في عالم الحيوان على مراحل مختلفة من التّطور – من العيون الّتي لا يمكنها القيام بأكثر من التّمييز بين النّور والظّلام، إلى عين النّسر الّتي تستطيع أن ترى برغوثاً يتحرّك على ظهرك من مسافة تبعد كيلومتر".

لقد نظّفتني من البّراغيث هذا الصّباح. لا أعرف لماذا تهتمّ بهذا الأمر.

"هذا يجعلها سعيدة. ويجعل رائحتك لطيفة.. أين كنّا... أوه، نعم، دليل النّموذج. كلّ ما تحتاجه هو الوقت، وتنوّع عشوائيّ، ومن ثمّ يقوم الِاختيار الطّبيعيّ بصناعة نظرتك، أعني عينك. وبنقاشها جهة أخرى، كلّما تحرّينا العالم الطّبيعيّ أكثر، وجدنا أكثر الأشياء بعيدة عن المثاليّة. أنّني لا أعني حتّى من وجهة نظر أنثروبولوجيّة: إهمال أساسيّ لأشياء مثل العثّ والبعوض وعثّ الفراش والفيروسات الّتي تجعل الحياة تعيسة. قلنا إنّ التّطور قادر على خلق العجب، لكن يجب أن يخلق العجب من الموادّ المتاحة. كان عالِم المُتحجّرات، ستيفن جاي غولد، جيّداً جدّاً بالعثور على أمثلة عن جانب التّطوّر المرتبط "بما هو في متناول اليد". والأفضل بالنّسبة إليّ هو إبهام دبّ البّاندا. يتغذّى دبّ البّاندا على الخيزران. ما تريده فعلاً من أجل التّعامل مع الخيزران هو إصبع مشابه للإبهام قادر على الحركة نحو أصابع اليد الأخرى وملامستها. وقد وهب الله دبّ البّاندا إبهاماً لائقاً. ربّما يحرّك مخلبه الأوّل قليلاً وتنتهي المهمّة. لكنّ البّاندا لديها حلّ مختلف وفاشل إلى حدّ مّا. نمت إحدى عظام معصمها وحقّقت

درجة محدودة من المرونة والاِرتباط بالمفاصل. إنّها نوع من العمل، طريقة معيّنة للعيش بالحدّ الأدنى من الضّروريّات اللّازمة للبقاء على قيد الحياة، لأنّ الباندا لا يستطيع اِستدعاء الطّفرة المثاليّة. كان عليه الاِنتظار حتّى يأتي يوم يولد فيه باندا بعظم معصم بارز قليلاً، وهو ما ساعده في التّعامل مع الخيزران القديم، ممّا وهبه ميزة نجاة طفيفة على حيوانات البّاندا الأخرى الّتي لم يكن لها هذا الإبهام البارز، وأصبح لديه بعض الصّغار الّتي لديها كلّها هذا الإبهام الصّغير. ثمّ أطلق كلّ جيل اِختلافات عشوائيّة، وبين الحين والآخر، كان يتضمّن ذلك إبهاماً محسناً قليلاً".

إذاً لقد فشل دليل النّموذج.

"نعم، هي ليست ضروريّة للأشياء الاِستثنائيّة، وهناك تفسيرات أفضل للفشل و"التّعامل مع ما في متناول اليد" يمكن أن نراه في العالم الطّبيعيّ. بالإضافة إلى ذلك، أنت تعرف، الإيبولا...

وأخيراً لدينا الدّليل الأنطولوجيّ، ويجب أن أقول إنّني مغرم بها بشكل غريب".

إنّها تلك الكلمة ""أنطولوجيا" أليس كذلك؟

"ما الّذي لم يعجبك؟"

تابع كلامك، إذن.

"سأعطيك تعريفاً "لله". الله هو ذلك الكيان الأعظم من أيّ شيء يمكن أن تتخيّله. هل فهمت؟"

أعتقد ذلك. إنّه الأعظم.

"أريدك الآن أن تتخيّل وجود إلهين اِثنين متطابقين تماماً في العظمة، باِستثناء أن أحدهما موجود، والثّاني غير موجود".

ماذا؟

"أنت تحتاج فقط إلى فكرة عن إلهين، كلاهما عظيم، لكن أحدهما حقيقيّ والآخر وهميّ".

حسناً...

"والآن، من هو الأعظم بينهما؟"

أعتقد أنّني أرى إلى أين يمضي هذا النّقاش. بوضوح، يُفترض أن أقول إنّه من بين هذين الاِثنين، الإله الموجود يجب أن يكون أعظم.

"لذلك يجب أن يكون الله موجوداً! لقد قبلنا أنّ الله هو أعظم شيء يمكنك تصوّره، ورأينا أنّ الله الموجود أعظم من الله غير الموجود، وبالتّالي فإنّ الله موجود".

أنت تمازحني، صحيح؟

"هذه إلى حدّ مّا هي النّسخة الأولى الّتي قدّمها الفيلسوف السّكولائيّ "القدّيس أنسيلم" (1033- 1109). وهناك بعض النّسخ المختلفة قليلاً عن هذا الموضوع، لكنّ جميعها لديها هذا القاسم المشترك، أنّ الوجود هو جزء من فكرة الله، بطريقة أنّ "الزّوايا الّتي يصل مجموعها إلى 180 درجة" هي جزء من فكرة المثلث".

هذا أغرب شيء أخبرتني به. لكنّك ستعمل على إزالة هذه المعاناة، أليس كذلك؟

"إنه مفهوم مرنٌ للغاية. ما من أحد سعيد به لكنّه لا يقبل الهزيمة. ما أحبّه في هذا الأمر هو أنّه دليل مفاهيميّ بحت. لا يلامس أيّ شيء في العالم إطلاقاً، ولا يعتمد إلّا على بعض التّعريفات الّتي لا تبدو ضارّة، وعلى قبولك بها. لكن ظهرت بعض طرق الهجوم على هذا المفهوم. ومنها هجوم كانط حين قال إنّ

الدّليل يعتمد على أنّ "الوجود" هو أحد "المحمولات" الّتي يمكن ربطها "بالموضوع" – الله كلّيّ القدرة وكلّيّ المعرفة وهو موجود. وهكذا ربّما تقول إنّ الأريكة زرقاء ومريحة وهي موجودة، وذلك اللّون الأزرق، والرّاحة والوجود كلّها "محمولات" للأريكة. لكن كانط يقول إنّ الوجود ببساطة ليس "محمولا". "فالمحمول" يجب أن يضيف شيئاً لمعرفتك "بالموضوع". لكنّ الوجود يخبرك أنّ الشّيء موجود في الواقع. ولا أستطيع أن أتّخذ قراراً نهائيّاً في ذلك، على الرّغم من أنّ معظم الفلاسفة وافقوا كانط. يبدو بالنّسبة إليّ أنّه إذا تمّ إخباري عن شخصيّة أفترض أنّها خياليّة، ثمّ تمّ إخباري أنّها "موجودة فعلاً"، فسأعتقد أنّ ذلك الوجود كان "محمولاً". ربّما الهجوم الأفضل كان ذلك الّذي جعل الحجّة الأنطولوجيّة تبدو سخيفة. هل من الممكن تخيّل كلب مثاليّ أكثر ممّا يمكن لأيّ شخص أن يتخيّل؟

أها، أمم...

"أنت صغير محبوب، لكنّك لست مثاليّاً تماماً. من المستحيل أن تكون مثاليّاً بالمطلق في الواقع. هناك دوماً عيوب صغيرة، مثل سرقة كعكة الجبن... على أيّة حال، أريدك أن تتخيّل أنّ كلباً مثاليّاً أكثر ممّا يمكن لأيّ شخص أن يتخيّل. هل تخيّلت؟"

أنا أحاول.

"والآن، إذا كان هذا الكلب غير موجود، فهو ليس مثاليّاً أكثر ممّا يمكن أن تتخيّل. لأنّ الموجود سيكون مثاليّاً أكثر. يمكننا تخيّل المثاليّ الموجود، وبالتّالي هو موجود! لقد أثبتنا وجود الكلب المثاليّ".

لكن ليس هناك كلب مثاليّ.

"بالضّبط".

مشينا بضع دقائق أخرى بحالة صمت كامل. مازال لديّ بعض الوقت للقتل،

لذلك كنّا هائمين في بعض الشّوارع الفرعيّة بلا هدف. لكنّ كلّ شارع منها كان يقرّبنا من قدرنا المحتوم.

أنت تحاول تشتيت عقلي عن أشياء معيّنة، أليس كذلك؟ أقصد ما يتعلّق بالله.

"ربّما. لكنّنا لم نصل حتّى الآن إلى المعنى".

قلتَ إنّ المعنى كان للكلمات، وليس للأرواح. خطأ الفئة.

"ربّما كنتُ متحذلقاً قليلاً".

أتعتقد ذلك؟

"أمران يخطران في العقل. هناك رواية بعنوان ***"عن عبوديّة الإنسان"*** للكاتب "سومرست موم"[58]".

عنوان جيّد.

"صحيح، وهو عنوان مثاليّ لمشاويرنا – لقد اِقتبسه من كتاب ***"الأخلاق"*** لسبينوزا. إنّه مصطلح سبينوزا حول الطّريقة الّتي يُستَعبَدُ فيها البشر من خلال عواطفهم. لم تعد رواية "موم" من موضة العصر الآن، لكنّها لاتزال رواية جميلة. هناك فصل يظهر فيه البطل، فيليب كاري، الفنّان الطموح، في باريس. وقد أعطاه صديق من أصدقائه بساطاً فارسيّاً قديماً، وأخبره أنّ فيه معنى الحياة. وحمل فيليب البساط معه على مدى سنوات، دون أن يعرف فعلاً ما الّذي يعنيه صديقه، أو ذلك البساط. هو لا يحقّق أهدافه في الحياة أبداً، ولا يجد السّعادة إطلاقاً. وعلاقاته الغراميّة غير مُرضية له في أحسن الحالات، ومأساويّة في أسوأ الحالات. وآستقرّ في مهنة لا يرغب فيها إطلاقاً. وأخيراً، هطل عليه الفهم ورأى ما كان يعنيه صديقه بالبساط الّذي أهداه إيّاه. معنى الحياة هو النّموذج الّذي ننسجه".

---

(58) Of Human Bondage, by Somerset Maugham.

"لا يشير النّموذج إلى أيّ شيء يتجاوز ذاته. هو لم يكن رمزاً ولا إشارة ولا علامة مناسبة، كان مجرّد تلاعب بالأشكال الهندسيّة والألوان. ربّما تكون هذه الألوان والأشكال معقّدة وصعبة، أو ربّما تكون سهلة وبسيطة. لكنّنا ننسجها من أجل متعة النّسج، ونجد في النّهاية أنّنا أبدعنا شيئاً جميلاً في الحياة الّتي أمضيناها بين خيوط النول وخيوط النّسيج".

أعجبني ذلك. هل قلت أمرين يخطران في العقل؟

"معظم الفلاسفة الّذين سبق أن ناقشناهم كانوا جيّدين باعتبارهم أشخاصا، وبعضهم، مثل سبينوزا، عاش حياة مثاليّة بطمأنينة. وكان ليبنيز متملّقاً لكنّه لم يكن سيّئاً. ونباح نيتشه كان أسوأ من عضّته. وبدا هيراقليطس شخصاً أحمق، من يدري، ربّما كان مشاغباً هناك في الحانة، ولا أحد يستحقّ نهايته... لكنّ أرثر شوبنهاور (1788 – 1860) كان قذراً فعلاً. وكان حاقداً بائساً متعجرفاً. عاش من أجل متعته وراحته الخاصّة. الحكاية النّموذجيّة عن شوبنهاور: في عام 1821 أثارت غضبه اِمرأة عجوز كانت أصدرت ضجيجاً أمام باب شقّته الخارجيّ، فدفعها عن الدَرَج. وقد تأذّت بشكل خطير ولم تعد قادرة على العمل، وأجبرته المحكمة على دفع معاش تقاعديّ بسيط لها لما تبقّى من حياتها. وعندما توفّيت المرأة، بعد اِثنتي عشرة سنة تقريباً، اِحتفل شوبنهاور وأطلق هذه التّورية اللاتينيّة القاتمة، "Obit anus, abit onus"، التي تعني (ماتت العجوز، وآنتهى الدَّين)".

رجل رائع.

"كانت فلسفة شوبنهاور قاتمة مثل شخصيّته. إذ قال، تدفعنا قوّة عمياء تجبرنا على السّعي نحو أهداف لا يمكن إشباعها بشكل كامل. أجسادنا ليست سوى تظاهرات مادّيّة لقوّة الدّفع هذه: أسناننا وأحشاؤنا تجسيد لجوعنا، وقبضات أيدينا هي الشّكل المادّيّ لغضبنا. والشّيء الوحيد الّذي يمنحنا راحة من هذا

السّعي المضني هو الفنّ. عندما نصغي إلى الموسيقى، أو نحدّق في لوحة جميلة، تهدأ الإرادة، ونكون في مأمن مؤقّت من العاصفة".

هذا لا يشجّعني كثيراً كما تعلم، إن كان هذا ما تحاول القيام به...

"أوه، آسف، نعم، لقد أشرتُ إلى شوبنهاور لأنّه، على الرّغم من تشاؤمه، هو أحد الفلاسفة القلائل الّذين يعبّرون عن أنفسهم بأسلوب رائع. في نهاية كتابه الأساسيّ ***العالم إرادةً وتمثّلاً*** (1818)، قال إنّه على الرّغم من آلام الحياة وعذابها، فإنّنا نستمرّ. إنّها أشبه بفقاعة صابون ننفخها أطول مدّة ممكنة، وبأكبر حجم ممكن، حتّى لو كنّا نعرف أنّها ستنفجر. وأعتقد أنّ الفقاعة، بالنّسبة إلى شوبنهاور، كانت مجرّد رمز عن التّلاشي، شيئاً من المقدّر له أن يتلاشى بسرعة، لكنّ هذه الصّورة المجازيّة خرجت عن سيطرته. هل هناك شيء آخر مثاليّ أكثر من فقاعة الصّابون، أيّ شيء يجمع بين الوحدة والتّنوّع والإنسجام، كما يُفترض أن يفعل الفنّ العظيم؟ كلّ فقاعة صابون هي مثاليّة، ومع ذلك فإنّ كلّ فقاعة فريدة من نوعها بشكل كامل. ألا تجعلنا نشعر بالفرح؟ من ذلك الّذي لا يبتسم بينما تكبر الفقاعة، ويتنهّد قليلاً عندما تنفجر؟ لذلك ربّما كان ذلك كلّ شيء. نحن نريد أولئك الّذين ينظرون-"

ينظرون؟

"...حسناً، أُنظر إلينا، نريدهم أن يبتسموا، وأن يتنهدوا".

تون.

"ماذا؟"

تلك الفقاعة، لا تفعل ذلك من أجلي.

"محاولة أخيرة، إذن. كما قلت، أنا لا أعتقد أنّ من المنطقيّ أن نتحدّث عن معنى حياتنا. لدينا قيمة يمكن قياسها، من وجهة نظري، بكم تلقّينا من الحبّ،

وكم أحببنا. وأنت أيّها الكلب الصّغير، كنت محبوباً بشكل كبير، وذلك الحبّ تمّ اِكتسابه بالحبّ الّذي منحته لنا".

لو كانت الكلاب تتورّد خجلاً، لتورّدت خجلاً.

"لكن ثمّة شيء آخر. هل تتذكّر "***تيلوس***"، الغاية الّتي يعتقد أرسطو أنّها العلّة الغائيّة؟"

لقد أغلقت ذاكرتي بما يخصّ أرسطو، لكن، نعم، أتذكّر، بشكل ضبابيّ.

"أعظم شيء في كوننا بشراً، أقصد في كوننا عقلانيّين، هو أنّنا نستطيع اِختيار هدفنا، ونقرّر لماذا نكون هنا، وما يجب أن نفعله بحياتنا. وهذا قريب جدّاً من وجهة النّظر الوجوديّة الّتي طوّرها "جان بول سارتر" في كتابه "***الوجود والعدم***" (1943). بالنّسبة إلى شيء مثل كرسيّ أو مطرقة، يخبرنا سارتر، فقد أتت فكرة الشّيء من **وجود** ذلك الشّيء. وطريقته في صوغ ذلك هو أنّ الجوهر يسبق الوجود. لكن بالنّسبة إلينا، نحن المخلوقات العقلانيّة، البشر والكلاب الصّغيرة الذّكيّة، الوجود يسبق الجوهر. لدينا القدرة والواجب على حدّ سواء لنقرّر أيّ نوع من الأشياء نحن.

كان موقف سارتر ردّاً مباشراً على حتميّة سبينوزا. بالنّسبة لسبينوزا، إذا كنت تذكر، الكون هو قوّة حتميّة لا يمكن مقاومتها، وأكثر ما يمكن أن نأمل به هو أن نفهم ونمتثل. وطريقة الهروب من قيودنا باعتبارنا بشرا، بالنّسبة إلى سبينوزا، هو أن نفهم طبيعة قيودنا. أو، بإعطائها تفسيراً أكثر تعاطفاً، برؤية أنّنا نركب موجة، والأفضل بالنّسبة إلينا أن نمضي مع الموجة، ونتّحد مع قوّتها المحرّكة المهيبة اللّاشخصيّة واللامباليّة. لكنّ سارتر يقول إنّ الإنسان ليس موجوداً ليركب موجة، بل ليختار ويقف وسط الأمواج المتكسّرة، ويواجهها ويمضي قدماً، حتّى لو كان إلى الدّوّامة".

إلى الدّوامة، حقّاً؟

"أوه، آسف. معنى الحياة هذا قد يُحدث فوضى في واقعك. لكن أعتقد أنّ فيه شيئاً مّا. علينا أن نتّخذ قرارات بشأن هدفنا، ولأنّنا حيوانات اِجتماعيّة، كما قال أرسطو، يجب أن يكون هدفاً يمكن تبريره والدّفاع عنه، هدفاً يجب أن يجعل العالم أفضل بقليل، أو، يا للهول، أفضل بكثير. هناك بعض الأعمال الّتي يمكن أن نؤدّيها بشكل جيّد، وتجعل أولئك الّذين نحبّهم سعداء ومطمئنّين، أو ليسوا تعساء ولا في حالة خطر. وهناك أعمال كبيرة، سوف نفشل بها؛ لكن حينها، يمكننا المحاولة مرّة أخرى، و-"

نفشل بشكل أفضل.

"أنت قلتها يا صاحبي".

ثمّ رأى مونتي أين نحن، وكافح، بضعف، بحقيبته الخاصّة. حاولت أن أريحه قدر ما أستطيع، ثمّ دخلنا إلى الطّبيب البيطريّ.

تحدّثت إلى سيّدة شابّة في قسم الاِستقبال، وطلبت منّي الجلوس والاِنتظار. أخرجت مونتي من حقيبته، وأجلسته بهدوء على ركبتيّ، وهو يرتعش قليلاً. كانت الإنارة قويّة، لذلك وضعت يديّ على وجهه، وتحدّثت بضع كلمات، وشعرت بعينيه تطبقان تحت راحة يديّ.

هناك عجوز لديه قطة شعثاء ضمن سلّة، وهنا أب وآبنة ولديهما شيء في صندوق أحذية له ثقوب. اِبتسمت للفتاة، فأرجحت ساقيها واِبتسمت لي. لا أعتقد أنّ الحيوان القارض الّذي لديها، أو أيّاً كان ذلك الشّيء، سيكون في مشكلة كبيرة.

ثمّ جاء دورنا.

كان الطّبيب البيطريّ اِمرأة قصيرة داكنة تدعى فيسنا، من منطقة مّا في البلقان.

"هل يمكن أن أبقى؟" سألتها.

"من الأفضل ألّا تبقى" أجابت. "اِرجع بعد أن ينتهي الأمر".

خرجت وجلست على العشب، حيث كنت آخذه في العديد من المشاوير السّريعة، في أيّام بائسة جدّاً لدرجة لم نكن نستطيع الاِبتعاد أكثر، أو عندما أكون مشغولاً للغاية. هناك محطّة إطفاء غريبة قديمة الطّراز على الطّريق مباشرة، وكان الطّاقم يغسل الشّاحنات. كان الأولاد يحبّون هذه المحطّة عندما كانوا صغاراً، ومكافأة لهم، كنت آخذهم لإلقاء التّحيّة على رجال الإطفاء الّذين يسمحون لهم أحياناً بالجلوس في قمرة القيادة، ويضعون الخوذات الصّفراء الكبيرة على رؤوسهم الصّغيرة. ثمّ فكّرت في السّنوات الماضية، واِنضمام مونتي إلى عائلتنا، ولأنّني بغباء شديد خرجت دون أن أحمل منديلاً، مسحت عينيّ الدّامعتين وأنفي بأكمام سترتي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

حسناً، ذلك لم يكن المشوار الأخير فعلاً، هذا هو المشوار الأخير

مرّت ساعات وعدت إلى مركز الطّبّ البيطريّ.

"هل هو جاهز؟"

"من....؟"

"مونتي، الكلب المالطيّ".

أومأت الشّابّة ذات العينين الهادئتين برأسها في قسم الاِستقبال وابتسمت بلطف. وعدت إلى الخلف.

كانت الجدران مبطّنة بأقفاص. رأيت خنزيراً غينيّاً مذهولاً وتساءلتُ ما إذا كان يعود للفتاة. كان مونتي مستلقياً على جانبه على المنضدة.

"هل أستطيع أن آخذه؟"

ثمّ سمع مونتي صوتي، فحرّك ذيله بضعف، ونظر إليّ.

بعد عشر دقائق، كنت أحمله إلى المنزل.

لم تدع النّاس يعتقدون حقّاً أنّني هالك، أليس كذلك؟

"ربّما. لا أستطيع التّدخّل في ما يفكّر فيه النّاس".

أنت رجل سيّء. عليك أن تكون مسؤولاً عن تصرّفاتك.

"لا أعتقد أنّك تعرف كم كان ذلك مؤلماً بالنّسبة إليّ. هل لديك أيّة فكرة كم

تكلّف هذه العمليّة؟"

إنّها مجرّد نقود. ينبغي أن تكون فلسفيّاً أكثر.

"أنا لست جادّاً تماماً. أخبرني الطّبيب البيطريّ أنّها كانت عمليّة كبيرة. ولا سيما لكلب في مثل سنّك-"

هكذا إذاً!

"أن أخبرك ما أخبرتني به. في مثل سنّك، هناك اِحتمال كبير بألّا تستيقظ. لهذا كان علينا التّفكير كثيراً بهذا الإجراء. لكنّها قالت إنّ الأمور سارت بشكل جيّد. سرعان ما ستعود إلى الهرولة والقفز. لكن عليك أن تستريح أوّلاً. دع الجرح يشفَ. سيكون لدينا أوقات كثيرة للكلام".

لا أستطيع الاِنتظار.

عدنا إلى البيت، وحدثت ضجّة كبيرة حول مونتي.

شكر وتقدير

أوجّه شكري للجميع في مؤسّسة «ون وورلد»، وأخصّ بالشّكر «سام كارتر» على مساهماته في المؤسّسة. وأدين بالكثير لـ «تامسين شيلتون» الّتي أنقذتني من أخطاء فادحة لا تُحصى. حيث اِنشغلت بأفكار كثيرة من هذا الكتاب مع «آندي ستانتون» الّتي لا تكاد تُباعد شفتيها حتّى ينسكب ما هو رائع. وما كان لأيّ شيء أن يحدث دون مساعدة «تشارلي كامبل» الدّاعمة.

بالرّجوع قليلاً بالزّمن، أودّ أن أشكر الأستاذين «جون هاريس» و«ستيورات سيم» اللّذين وجّهاني خلال مراحل مختلفة من حياتي الأكاديميّة.

وأخيراً، المعلّمة المتألّقة، السّيدة «مارغريت فريمان» الّتي تركت الكرة تتدحرج منذ أربعة عقود.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

أنطوني ماكغاوان

كيف تلقّن كلبك الفلسفة؟

الفلسفة بالتعريف، أو كما جاءت في لغة الإغريق هي «حبّ الحكمة»، وهي البحث عن المعرفة في الكون والطبيعة، فالإنسان لا يكتفي بملاحظة الوقائع، وما يدور حوله، بل غالباً ما يطرح الكثير من التساؤلات ويثير الجدل ليصل إلى إجاباتٍ واضحة ومحددة، وحين يعجز يترك الأسئلة مفتوحة لعلها تلقى إجابات في مرحلة لاحقة.

يزداد ابتعاد البشر عن الفلسفة في العصر الحديث، وربما يقلّل البعض من شأنها مع أنها توصف بأنها «أم العلوم» كلها، فهي التي تصوغ الأسئلة الكبرى وتبحث لها عن إجابات: ما هو الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله؟ هل الإرادة الحرة موجودة؟ ما هي الطبيعة النهائية للحقيقة؟ كيف ندرك جوهر شيءٍ ما؟ وغيرها من الأسئلة، بينما تجبرنا طبيعة الحياة في عصر السرعة هذا على التوجّه نحو اليومي والراهن دون التخلي عما هو جوهري وكلّي.

أصرَّ «أنطوني ماكغوان»، المؤمن بأهمية الفلسفة، على إيجاد طريقة سهلة تجعل القارئ يفهم الفلسفة دون أن يتخلّى عن الأسس والضوابط العلمية. من أجل ذلك أعدّ هذا الكتاب للبشرِ وليس للكلاب، إلا أنه اختار الكلب في أبحاثه لأسباب كثيرة تتعلّق بالفلسفة ذاتها، فهو أفضل صديق للإنسانية في كلاسيكيات الفلسفة، حيث نجده في «مذهب الكلبيين»، أولئك الفلاسفة الساخرون الذين أظهروا ميلاً لعدم الإيمان بصدق الدوافع والأفعال البشرية وصلاحها، واعتادوا على التعبير عن عدم إيمانهم بالهزء والسخرية.

«كيف تلقّن كلبك الفلسفة» كتاب رائعٌ يُطلعك على أهم القضايا الفلسفية منذ بداية الفلسفة حتى نهاية القرن العشرين، بأسلوب شيّقٍ ولغة مبسّطةٍ يسهل فهمها حتى وإن كنت من غير المتخصصين في الفلسفة.

ISBN: 978-603-8387-14-6
9 786038 387146
WWW.PAGE-7.COM